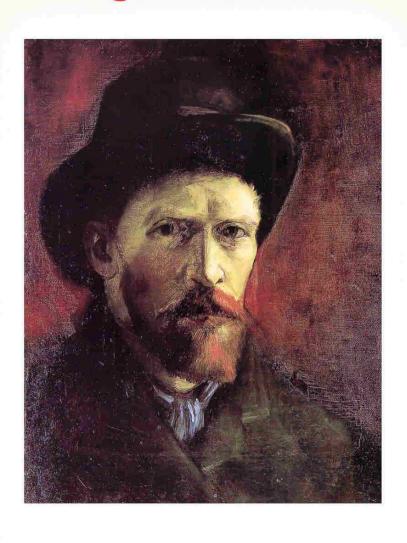
# النزعة الانسانية

# قان جوخ



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

# النزعة الإنسانية

عند فنسان فان جوخ من خلال مراسلاته

# د. زينب عبد العزيز



الغلاف والاشراف الفنى : جرجس ممتاز

# النزعة الانسانية

that was the last

#### تمميد

قد يبدو اختيار موضوع « النزعة الإنسانية عند فنسان أن جوخ » لبحث جديد (\*) نوعا من الجسارة أو التحدى ، نظراً للكم الهائل من الأعمال التي تناولت هذا الفنان الذي اتهم ظلما بالجنون . ومع ذلك ، فهناك ما يبرر هذا البحث خاصة منذ صدور الطبعة الكاملة لمراسلات فنسان فان جوخ (\*\*) .

إذ يتضح منها ضرورة إعادة كتابة سيرته التى تم تزييف الكثير من جوانبها . وكأن الأمر يتطلب تصويب قرابة ثهانين عاما من التاريخ ، بجانب الكشف عن ملامح جديدة ، ظلت مجهولة حتى اليوم ، منها الجانب الأدبى لفنسان .

وتكشف هذه المراسلات عن طابع شديد الانسانية ، وتوضح كيف أن تزييف مسيرة فنسان لم يتم بعد وفاته فحسب ، وإنما بدأ أثناء حياته . لقد كانت الطبعات السابقة من مراسلاته تتضمن خطابات مبتورة ، وأجزاء محذوفة ، بل لقد تم حذف خطابات بكاملها . ويصل هذا الكم المحتجز الى ثلثى المراسلات تقريبا . ولقد تم هذا التلاعب بغية تشييد وتدعيم أسطورة معينة ، حتى وإن أدى الأمر الى تزييف حياة وفكر فنسان . مما يستوجب دراسة لهذا الفنان \_ الأديب الذى يعد دعامة من الدعامات الأساسية التى قام عليها الفن الحديث ، وأديباً إنسانى النزعة بأعمق ما فى هذا التعبير من معنى . .

ومن الملاحظ بهذا الصدد ، أنه لم تتم أية دراسة كاملة لهذا الموضوع ، ولم تستخدم المراسلات \_ حتى الآن \_ إلا في استشهادات قصيرة أو بعض التفسيرات الإجالية التي تتفق عادة \_ وفي أغلب الأحيان \_ مع وجهة نظر الاسطورة التي حيكت ببراعة فائقة . ومع ذلك ، فإن هذه السيرة العارمة بالآلام تتضمن في إجمالها بصهات أديب شامخ القامة ، وتأكيداً لا مواربة فيه لعقل سليم . شديد المنطق ، متكامل الرؤية ، وواسع البصيرة . . . انها تكشف عن نزعة إنسانية لا حدود لها ، وعن تقديس عميق لكل ما هو إنساني . ولعل ذلك هو ما دفع ج . ن . موناكيا وعن تقديس عميق لكل ما هو إنساني . ولعل ذلك هو ما دفع ج . ن . موناكيا تكتب بعد ، فمن الحق أيضاً أن ، حالة قان جوخ « من الناحية الطبية لم تدرس أيداً ي (جريدة مسائيا ١٨ أبريل ١٩٥٧) .

ولم يحظ فنسان طوال حياته إلا بمقال وحيد كتب خارج بلده ، وتناول أعماله الفنية . وبالمثل ، لم يذكر اسمه في الجرائد المحلية إلا مرتين : الأولى لنشر مأساة قطع أذنه ، كأحد الحوادث العامة في مدينة آرل . والثانية لإعلان نبأ وفاته في مدينة أنفرس عام ١٨٩٠ . ومنذ وفاته أصبح الفريسة التي يطاردها فيض هائل من المؤلفات حتى إنه يصعب حصر كل الأعمال التي كرست للكتابة عنه .

ولقد أعد شارل بروكس Charles Brooks أول بيبليوغرافيا عن فنسان عام 1957 وكانت تتضمن ۷۷۷ رقبا لكتابات تشمل الفترة الممتدة فيها بين عامى 1947 و195 . لكن هناك العديد من المآخذ على هذه البيبليوغرافيا اذ أغفلت الكثير من الأعهال الجهاعية والمقالات الصحفية التي ما كان له أن يغفلها ، وذلك من قبيل مذكرات كيرسهاكيرز ، الذي كان واحدا من تلاميذ فنسان والذي سوف نتناوله فيها .

وابتداء من عام ١٩٤٠ تضاعف هذا السيل الفياض من الكتابات التي تناولت مختلف الجوانب الخاصة بفنسان قان جوخ مثل ولعه بالفن ، وتحليل قيمه الجهالية ، وتقنيتة ، وو جنونه » ، وأحداث فشله المتعددة ، ومنها رسالة التبشير التي لم يوفق فيها ، وذلك كله بالإضافة الى حياته العاطفية . بل ان هذه السيرة التي تغلفها أجواء الأساطير قد الهمت العديد من الروائيين والمسرحيين بل والسينهائيين أيضا!

الا أنه من المحزن أن نرى قلة عدد الباحثين الجادين الذين واتتهم الشجاعة للتسليم مع هنرى بولاى Henri Poulaille إذ يقول : « إن كل هذه الكتب تنقل

بعضها بعضا وتكتفى باعادة تكرار أسطورة الفنان الملعون الذى قام شقيقه بانقاذه . لكنهم لا يأتون الا بالشذرات القليلة عن حياة الرجل نفسه ، ( نهاية أسطورة : ڤان جوخ وعائلته ١٩٥٥ ) .

والأدهى من ذلك كله ملاحظة إغفالهم الدور الإنساني الذي قام به فنسان في منطقة بوريناج مع عمال مناجم الفحم ، وكذلك دوره في الهجالات الفنية والأدبية ، وفي الحياة بشكل عام .

ورغم كل شيء ، فلا يمكن لباحث منصف أن يغض الطرف عن تلك الصورة التي لا تزال شائهة أو غير كاملة المعالم عن فنسان ، وكبف أن جزءاً كبيراً من تاريخه لما يزل مجهولا ، مع وجود كم هاثل من المراجع التي تهتم بتاريخه ، ورغمها فلا يكاد يُذكر اسمه حتى يتمثلوا ذلك « المجنون الذي قطع أذنه » أو ذلك « الرجل الجاهل ، المحنى الظهر ، الماثل الرأس ، ذا العينين الصغيرتين الغائرتين ، وصوته الأجش ، والذي يصور في حالة غيبوبة ، أو يهرب من بلد الى بلد حاملا معداته الفنية تحت إبطه . أو ساحبا جسده النحيل الذي أنهكه الخمر من مصحة الى أخرى »!!

ولا يمثل هذا الوصف الهزلى ، للأسف ، كل ما نصادفه عند معظم الذين اكتفوا بملء صفحات وصفحات وفقالالأهواء خيالهم ، على غير أساس من الواقع ، بل لقد وصل الاسفاف ببعضهم إلى اختلاف اسم مريض جديد أطلقوا عليه : الفانجو خيت !

بيد أن ذلك لا يعنى أن كل ما كتب عن فنسان قابل للمعاظلة أو ينتمى الى المهاترات. فهناك العديد من الدراسات الجادة ، الشديدة الدقة فى بحثها ، والتى كان دافعها الأمانة العلمية ، من ثم لا يمكن اغفال قيمتها ، من قبيل كتاب ترالبو Tralbout ، وويج Huyghes ، وإيتيان Itienne ، الذين نذكرهم على سبيل المثال لا الحصر ، وإن لم يعن ذلك أن الخواء قد انمحى وانتهت آثاره . .

ويمكننا أن نرجع السبب الأساسى لعدم وضوح الرؤية هذا أو لعدم الدقة بل وعدم الصدق أحيانا أن مئات هذه الأعمال قد استعانت بشكل مباشر أو غير مباشر بمراسلات فنسان الى أخيه تيو أو الى غيره بمن راسلهم . وكانت أولى هذه الطبعات تتضمن أجزاءً كبيرة محجوبة أو لنقل بتعبير أكثر دقة : ممنوعة من النشر كما سبق وأشرنا ، ذلك أن حياة فنسان كانت ولا تزال تمس حتى يومنا هذا أشخاصا على قيد

الحياة ويعنيهم تغيير أو مواربة بعض الأحداث ، إن لم يكن إخفاؤها إلى الأبد . لذلك ظلت مراسلاته الكاملة حبيسة طوال هذه السنوات ولم تبدأ طباعتها دون تحريف أو حذف إلا مؤخرا .

وليس المقصود هنا تبرئة فنسان عبر التاريخ ، أو مناقضة ما كتب عنه ، واغا الكشف عن حقيقة كينونته المتعددة الملامح ، والتعريف بانسانيته العميقة الجذور والتي أهملها كل الذين جذبهم الجانب المآساوى أو العاطفى لحياته ، وكل الذين اهتموا بابراز العديد من المغالطات \_ وان أدى ذلك الى طمس القيمة الانسانية الحقيقية لهذا الفنان . كما نعنى بالكشف عن فنسان أديبا ، وهو الجانب الذي تتم دراسته لأول مرة ، وقد يكون ذلك بسبب الطبعات المشوهة للمراسلات . ان ثراء هذا الموضوع بكل ما يتضمنه من معطيات جديدة يتطلب تعديل أو تصويب سيرة هذا الفنان ، ويفرض علينا اتباع الترتيب الزمنى لتطرر فنسان وفقا لهذه المراسلات الكاملة ، وهو ما يفرض على مبحثنا هذا أن يبدأ بدراستها كعمل أدبى موضحين ذلك الجانب الجديد لفنسان قان جوخ أديباً .

ولما كانت مراسلات فنسان تفع في ستة عشر فصلا متفاوتة الطول ، وان كان العديد منها متصلا في أحداثه ، فقد آثرنا تقسيمها تبعا لتلك المراحل التي تمثل حقباً فاثمة بذاتها في حياته .

وهكذا بدأنا بحثنا بمقدمة عامة عن المراسلات ودراستها كعمل أدبى ، ثم أتبعناها بخمسة فصول هى : اكتشاف المدينة ، رسالة بجهضة ؛ المنبوذ دوما ؛ العصامى الهائم : جنون أم حب للغير ؟ وينتهى البحث بخاتمة نوضح فيها التطور المتصاعد والمتواصل لفنسان ، الذي يمثل – في واقع الأمر – نموذجا دراميا للانسان الذي يضطهده المجتمع ، ويودى به وان حوله في الآن نفسه لأسطورة ظاهرها التمجيد وباطنها مزيد من الاستغلال وتحقيق كسب مادى من وراء صنعها .

وطوال هذا البحث لن نشير إلى الفنان إلا باسمه فحسب ، احتراما لاختياره أثناء حياته تعبيراً عن قطع صلته بآل فان جوخ مثلها سنرى فيها بعد . وقد تمثل ذلك في توقيعه على خطاباته ولوحاته ابتداء من مرحلة و نونن ، Nuenen ، تلك الحقبة التي اتخذ فيها هذا القرار . أما شقيقه تيودور فسوف نشير اليه باسم تيو مثلها اعتاد فنسان أن يناديه منذ الصغر .

وتشير الأرقام التي تلى استشهاداتنا من المراسلات ال رقم الخطاب كها هو وارد في الطبعة الكاملة الصادرة عن دار نشر جاليهار \_ جراسبه Gallimard-Grasset عام ١٩٦٠ ، والتي تعد الركيزة الأساسية لهذا البحث . أما المراجع الأخرى فستلى كل استشهاد .

tighting a red. Its

TOTAL CONTRACTOR

ر المراجعة على المراجعة المرا المراجعة ال

المن المنظم ا المنظم المنظم

 $\operatorname{mapped}(\operatorname{seV}(\operatorname{Id}(\mathcal{A}),\operatorname{L}(\operatorname{TP}))) \downarrow \operatorname{SP}(\operatorname{d}(\operatorname{TP})) \downarrow \operatorname{L}(\operatorname{L}(\operatorname{L}(\operatorname{L}(\operatorname{A}))))$ 

أناس والبراء ويواولوا الماطلة فالهارك والماطلة الماطلة

# مقدمة المراسلات : عمل أدبى

قصة المراسلات:

إذا ما كان قارىء اللغة الفرنسية قد عرف خطابات فنسان إلى إميل برنار Emile Bernard منذ عام ١٩١١ ، ولسبب محدد(١) ، فإنه لم ير سوى مختارات مختصرة من خطاباته إلى أخيه تبو الا في عام ١٩٣٧ ، تلتها طبعة ثانية عام ١٩٥٣ .

وعلى العكس من ذلك ، فقد كانت مراسلات فنسان الى أخيه قد ظهرت فى ثلاثة أجزاء ، بالهولندية ، وذلك فى أمستردام عام ١٩١٤ ، وقد قامت بجمعها وكتابة المقدمة أرملة تيو ، السيدة جوانا قان جوخ – بونچيه Bonger . وفى نفس الوقت تقريبا ظهرت طبعة المانية عن الطبعة الهولندية آنفة الذكر ، وفى عام ١٩٢٧ ظهرت طبعة باللغة الإنجليزية . أما خطاباته الى قان رابار Van Rappart فقد نشرت بالإنجليزية أولا عام ١٩٣٧ ، ثم بالهولندية عام ١٩٣٧ . ثم بالهولندية عام ١٩٣٧ .

وفى هذه الأثناء كانت المؤلفات التى تتناول حياة وأعمال فنسان تتوالى بمعطياتها شبه المتكررة . ولم تظهر بوادر «معاداة الاسطورة » الا فى منتصف هذا القرن تقريبا . ففى عام ١٩٥٧ كتب لويس رولانت Louis Rolant ــ وهو واحد من القلة النادرة الذين تعمقوا دراسة حياة فنسان وقام بترجمة مراسلاته وبين بكل شجاعة وأمانة فى كتابه المعروف باسم : « فنسان قان جوح وأخيه تبو » كيف أن خطابات بأكملها بجانب العديد من الفقرات المتعلقة بطبيعة وسلوك فنسان قد استبعدت من النشر ! وها هو يقول فى الصفحة الثامنة عشرة من كتابه : « ان معظم هذه الأجزاء المحذوفة تتعلق باختلافات فى الرأى بين فنسان المتحرر ووالده القس ، وإلى المشاحنات بين فنسان وتيو » . ثم يقول بعدذلك ، فى صفحة ٤٩ متسائلا : « ترى لم أخفيت الفقرات التى تثبت قطعا أن تيو لم يكن يؤمن بموهبة أخيه . ( ولا أقول بعبقريته ) ، ولقد كانت بينها مشاجرات مسمومة . . وان تيو لم يكن دائها على صواب ؟ !

ترى هل لنا أن نذكر أن أرملة تيو هي التي تولت مهمة نشر هذه المراسلات ، وإنه لأمر جد هام بالنسبة لها \_ وإن كانت قد تزوجت ثانية فور ترملها \_ أن تبرز دورا منتحلا لزوجها الراحل ، تيو ، وأن ترفعه الى نفس المنصة وتجعله ينعم بنفس المجد الذي توج أخاه ؟! أيا كان الأمر ، فمن المؤسف أن نرى ابنها يتبع نفس الأسلوب حتى يومنا هذا . . اذ أن المهندس الدكتور فنسان فيلهلم قان جوخ يجاهد للمحافظة على أسطورة أبيه حتى وان أدى ذلك الى تشويه حقيقة حياة عمه ا(١)

ولا نملك إلا أن نتساءل بمرارة الى متى ستظل المصالح الخاصة والعائلية تتحكم في اخفاء الحقيقة أو لفها بغلالات لا تبقى على نورها الأصيل ؟ ان تحديد قدر كل شخص وحقيقة أمره لا يعنى بحال من الأحوال التقليل من شأن الدور الذى قام به ان كان له دور بالفعل . . إذ ان الحقيقة لا تحتمل الحجب بقدر ما تضع الأمور في نصابها . وأيا كان التبرير ، وأيا كانت الحجج التي يتذرع بها بناة الأساطير ، فإن أعمال فنسان انما هي جزء من التراث الانساني ولا نملك إلا أن نقول مع ل . رولانت : « من حق الإنسانية أن تعرف هذا الإنسان على حقيقته ، وأن تعرف كل ما يتعلق به ، ( المرجع السابق صفحة ٢٨٠ ) .

وكانت نتيجة هذه الأجزاء المبتورة بمهارة عمليتي تزييف كبيرتين : أولاهما أن القارىء كون فكرة غير حقيقية عن فنسان وحياته وأعماله ؛ ثانيهما أن القارىء قد كون فكرة خاطئة عن الدور الذي قام به تيو ــ ذلك الدور الذي كان بكل تأكيد أقل بريقا وأقل كرما مما يزعمونه !

إن الأسطورة الخلابة المؤثرة ، مثل كل الأساطير الناجمة عن الخيال والوهم ، كانت ترمى الى تلاحم الاسمين ( فنسان وثيو ) فيها أن تيو الأخ الأصغر قد ضحى بنفسه كلية في سبيل مجد أخيه الأكبر فنسان؟، حتى انه لم يقو على الحياة من بعد وفاته . . وها هما الاثنان يرقدان أخيرا جنبا الى جنب وقد اتحدا الى الأبد مثلما كانا متحدين في الحياة !! غير أن الواقع للأسف \_ كما سنراه طوال هذا البحث وخاصة في الفصل الأخير \_ يقول عكس ذلك تماما . اذ ان تواريخ نقل رفات تيو بجوار فنسان توضح جلياً كيفية نسج هذه الأسطورة المتوهمة !!

وها هو لويس رولانت عندما رأى الزيف ، وأبصر الاصرار على اخفاء الحقائق وطمسها وعدم الكشف عنها بل والتشبث الأصم على كتمانها كتب يقول : « إن نشر المراسلات بالكامل سيودى بالضربة القاضية على تلك الأسطورة الجميلة المنسوجة بعناية فائقة . . والتي بدأت تترنح بشكل واضح » (المرجع السابق صفحة ٩) .

أمن ضرورة لتأكيد ما قاله رولانت ، رغم أن نشر المراسلات كاملة هو في ذاته قد كشف الكثير من الحقائق وأزاح الحجب عن حقائق أخرى ، بقدر ما فضح أكاذيب كثيرة استقرت في ركام الأسطورة المصنوعة ؟! ان تياراً جاداً كان قد ارتسم في الأفق موجها أصابع الاتهام للقائمين على أمر المراسلات . وفي محاولة محسوبة لإثبات حسن النوايا تولى ابن تيو نشر مراسلات عمه كاملة ، في أمستردام عام تأكيده في أربعة أجزاء ، دون أي اختصار أو حذف لفقرات معينة ، على حد تأكيده في تلك الطبعة التي تولاها بمناسبة العيد المئوى لمولد عمه فنسان ، إلا أنه بعد ذلك بثلاث سنوات ، أي في عام ١٩٥٥ ظهرت طبعة جديدة في أمستردام أيضا ، تضمن خطابين لم يسبق نشرهما من قبل .

ولا شك فى أن هذه الطبعة الجديدة ، الأكمل من الطبعتين السابقتين قد ألقت ضوءاً ساطعا على شخصية الفنان ، وعلى علاقاته بأسرته . كما سمحت بادراك الوقائع والأسباب التى أدت إلى كل ما تعرض له فنسان من فشل ، وكذلك حقيقة الدور الذى لعبه تبو والذى قال عنه موناكيا : « انه لم يؤمن أبداً بعبقرية فنسان . ولولا إصرار فنسان الصلد على مواصلة مشواره الفنى لما صمد أمام عدم فهم أسرته التام » ( المرجع السابق ) ولا يسعنا إلا أن نضيف دونما مبالغة ، ان عدم فهمهم هذا لم يكن قاصراً على فنه فحسب وإنما شمل كل ما عمله وفكر فيه . . .

ولم تظهر الطبعة الكاملة للمراسلات باللغة الفرنسية إلا عام ١٩٦٠ . وهي الطبعة التي ظهرت بمناسبة العيد المئوى مولده ، وقد تضمنت بعض التعديلات ، إذ تم ادراج خطابات فنسان إلى بقية مراسليه وفقا لتواريخها ضمن خطاباته لأخيه تيو وليس بعدها مثلما تم فى الطبعات السابقة . مما يتيح رؤية منطقية جلية أكثر ايضاحا لتسلسل الأجداث كها أن هذه الطبعة الأخيرة تتضمن سبعة خطابات جديدة لا توجد فى الطبعات السابقة .

ترى هل يمكن الجزم بأنه قد تم نشر كافة مراسلات فنسان ؟ ان التصريح الذي أدلى به ابن تيو إلى جورج شارنصول Georges charensol يبدو قاطعا إذ أكد قائلا: ولا يسعني إلا أن أؤكد لك أنه من حيث المبدأ فقد تم نشر كافة خطابات فنسان . وما تنوه لى به ليس بجديد على : انه زعم خاطىء . غير أنه يظهر بين الحين والآخر خطاب أو أكثر لم أكن أعلم عن وجوده شيئا ، مثل تلك الخطابات الأخيرة التي نشرتها . وعندما تذكر والدق أحداثا ليست واردة في المراسلات فذلك يعنى أنها استقتها شفاهة من بعض أفراد الأسرة . . وسوف تجد كل ما أعرفه من خطابات منشورا في الطبعة الهولندية بدون أي حذف لأجزاء منها . ان أي زعم يخالف هذا انما يعد كذبا » . ( مقدمة المراسلات ، المجلد الأول ، صفحة ٢ ) .

وبدلا من الانسياق في تحليل هذا النص نكتفى بسؤال محدد: إلى أى مدى يمكننا تصديق هذا التصريح ؟! ما من شخص يمكن أن يجزم بصحته . فقد رأينا لتونا كيف أن شارنصول قد أضاف سبعة خطابات لم يسبق نشرها إلى الترجمة الفرنسية التي تولاها . والأكثر من ذلك ، لقد عثرنا \_أثناء هذا البحث \_ على أسهاء مثل تولوز لوتريك Toulouse-Loutrec والعم هاين Heine والقس چونس Jones وترستيج Tersteeg ، يقول فنسان انه كان يراسلهم لكنا لا نجد أي خطاب منها في الطبعة الكاملة . وذلك بالاضافة إلى خطابات فنسان إلى كي Kee ابنة خالة القس ستريكر Stricker والتي لا أثر لها في أية طبعة!!

ولا شك في أن الخطابات التي أرسلها إلى تولوز لوتريك كانت ستكون ذات أهمية بالغة إذ انها تتعلق بفترة باريس ، وهي أكثر الفترات التي حجبت عنها الوثائق . ترى هل ضاعت أم مزقت أم مازالت محتجبة ؟ للأسف لا يمكننا القطع بشيء بعينه ، لكننا أمام حقيقة بعينها وهي أن ثمة مراسلات لا وجود لها ، وهي مراسلات تضيف يقيناً للجديد ، وقد تعيد بناء الوقائع ، وأبسط من ذلك ما نراه في الخطاب رقم ٣٣٢ المنشور في هذه الطبعة الأخيرة وقد وضعوا قوسين بدلا من الاسم الذي رأت الأسرة أن يظل في طي الكتهان ، بل ان كثيرا من الخطابات مصحوبة بذلك التعليق الذي يشر إلى أن بداية أو نهاية ذلك الخطاب ناقصة !! . .

مما يدفعنا إلى تأكيد أن هذه الطبعة التي يزعمون أنها طبعة وكاملة و وتتضمن كافة مراسلات فنسان ، هي في الواقع طبعة و غير كاملة » . ومع ذلك ، وأيا كان عدد الخطابات التي حجزوها أو تلك الناقصة أو المبتورة الأجزاء ، فإن الخطابات المنشورة – مع التسليم بأنها ليست كاملة يمكن في ضوئها – رغم كل شيء – القيام بدراسة وافية ومنصفة لا تقف عند الأسطورة المصنوعة لحياة فنسان وأعماله والتي ظلت سائدة قرابة نصف قرن من الزمان .

ان الخطابات المنشورة في المراسلات والكاملة ، (في زعمهم) تمثل ثمانمائة خطاب وخمسة . وقد كتبها فنسان بثلاث لغات مي : الهولندية ، والفرنسية ، وبضعة خطابات باللغة الانجليزية ، ونادرا ما يوجد خطاب بأكمله مكتوب باللغة الهولندية ، إذ ان معظمها يتضمن فقرات بأكملها أر بضعة تعبيرات بالفرنسية أو الإنجليزية . ويمكن القول إجالا ان ثلثى المراسلات مكتوب بالهولندية والثلث الباقي جله باللغة الفرنسية .

ويبلغ عدد الشخصيات المعروفة التي كان يراسلها فنسان اثنين وعشرين شخصا . ويعد بيو من أكثر الذين راسلهم إذ بلغ عدد الخطابات المرسلة اليه ستهائة واثنين وخسين خطابا . اما والداه فقد كتب لها معاً أربعة خطابات . كما كتب لوالدته وحدها اثني عشر خطابا ، وإلى شقيقته فبلهلمين Wilhelmine ثلاثة وعشرين ، وإلى عمه كورنليوس Cornelius خطابين . أما إلى أصدقائه ، فقد أرسل ثهائية وخسين خطابا إلى قان رابار ، وواحداً وعشرين خطابا إلى إميل برنار ، وستة خطابات إلى جوجان Gaugin ، بينها يوجد خسة وعشرون خطابا موجها إلى بعض الأقارب غير المقربين وبعض الجيران أو تجار الألوان ، بواقع خطابين أو ثلاثة خطابات إلى كل منهم .

ولقد بدأ فنسان مراسلاته فى شهر أغسطس عام ۱۸۷۲ ، أثناء اقامته فى مدينة لاهاى ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره . وتستمر مراسلاته قرابة ثهانية عشر عاما ، لتنتهى بقصاصة غير كاملة العبارات كان يجملها فى جيب سترته يوم وفاته فى مدينة أوفير سور واز ، فى التاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٠ .

والمراسلات في مجملها وكها تم نشرها ، تمثل ست عشرة مرحلة ، تلك التي تنقل خلالها ، من مكان إلى آخر ، بكل ما تحتويه هذه المراحل من عنت ومعاناة ومجاهدة . ويتفاوت طول الخطابات من بضعة أسطر لا تتجاوز الخمسة ، إلى ما يزيد عن عشر صفحات . ومعظمها مصحوب برسوم توضح آخر اللوحات التي كان يصورها آنئذ أو تلك التي يزمع تصويرها .

#### ما تكشف عنه المراسلات :

تعتبر هذه المراسلات بتلقائيتها ، سيرة ذاتية فريدة ، عميقة التأثير ، تكشف عن خلجات نفس عانت وتألمت إلى حد قلما تحمله إنسان .. فلقد عانى فنسان من مرارة العزلة . وعدم فهم المحيطين به لكل ما يعترى فكره ومشاعره . فانزوى فى حصر نفسى يصل إلى حد يشبه معاناة الاحتضار .. ومن حسن الحظ ان الكتابة كانت بالنسبة له فى غالب الأمر – نوعا من العزاء يمثل الحيط الوحيد الذى يربطه بالعالم الخارجي . فضمنها كل ما يمكن لإنسان أن يشعر به من حب تجاه الآخرين – رغم ادانتهم له . . . وعزوفه عنهم .

ومنذ الوهلة الأولى لقراءة المراسلات سنرى فنسان كإنسان يخرج عن نطاق المالوف ويصارعه ، وها هو ينسلت من الإطار المفتعل التقليدى الذى سجن المجتمع نفسه فيه . . فنراه إنسانا حاد البصيرة ، يعلن عن موقفه بلا أبة مواربة : الفنان المنتمى الذى يدافع عن الكادحين . مما قد يبدو طبيعيا في يومنا هذا . لكنه منذ مائة عام تقريبا ، في زمن كان من يرتدى فيه حلة من القطيفة يثير ذعر الجميع ، فإن موقف فنسان \_ وخاصة بين وسطه \_ كان يبدو أشبه ما يكون باسبارتاكوس الذى أراد أن يحرر العبيد فكان لابد من ابادته ! . . وهى نفس المهمة التي تولاها المجتمع بشكل عام . . ففي الوقت الذي يبدو فيه هذا المجتمع أو ذاك وكأنه يجاهد للتحرر من القضبان والقيود التي تكبله ، ها هو في الواقع \_ ينقض بلا رحمة لا على من يجاول زحزحة هذه القيود أو هز أثقالها وموروثاتها فحسب ، بل حتى من يحاول الوقوف بعيدا عن حدودها رافضا الخضوع لقوانينها أو الدخول في اسارها .

وذلك كله كان الخطأ الكبير الذى اقترفه فنسان فى نظر مجتمعه المتبرجز ، وذلك هو الدور الذى لعبه فى التاريخ وفى الحياة \_ فى عالم أصبح لزاما عليه اذا أراد أن يكرمه بحق أن يفهم مدى عمق أفكاره التى ناضلت من أجل الانسانية وذلك بدلا من خنقها أو تشويهها!

إن هذه الصفحات التي تنبض بها المراسلات تكشف عن أعراق نفس أمينة سوية جياشة بالعطاء ، تتمتع بقدرة فاثقة على الجرأة والصراحة الإنسان صلب

لا يلين ، يعانى من وحدة طاحنة . . كما تكشف عن كل الصراعات التى عاشها ، وتثير ـ فى نفس الوقت ـ العديد من الاسئلة حول الفن والأدب والأخلاق ونسق القيم والدين والمجتمع والعالم بعامة . ومن ناحية أخرى . فإن المراسلات تعكس تطور فكره المتواصل والذى كان هدفه الأساسى : كيفية مساعدة الفقراء وامكانية توصيل فنه إلى الأغوار السحيقة التى ينزوون فى غياهب طيفها الداكن . .

وبالمثل يبين عن هذه المراسلات حقيقة موقف أسرته منه ، تلك الأسرة التي حاولت ايداعه السجن في قرية خيل gheel التي كان بوجد بها مستشفى للمجانين . ﴿ وَلَا نَقُولَ لَلْأَمْرَاضَ الْعَقَلَيْةِ فَالْمُتَحْصَصُونَ فَى تَارِيخِ الْطَبِ النَّفْسَى يَعْرَفُونَ أَي حَال كانت عليه هذه المستشفيات حتى نهاية القرن الماضي) . لقد هددته أسرته بالحجر عليه ووضعه تحت المراقبة لمجرد رفضه الخضوع لتقاليدهم العاتية . وفي هذا السياق ، سياق أسرته ، تكشف هذه المراسلات عن حقيقة موقف أعمامه منه أثناء فترة دراسته وما تبعها من فشل متعمد ، ومدى اختلاف وتفاوت آراء كل من فنسان وأخيه تيو وكم كان كل منهما يقف \_ في الواقع \_ على أحد ﴿ جانبي المتاريس ، كما كتب فنسان في أحد خطاباته . فأحدهما كان موظفا يعمل في التجارة التابعة للبورجوازية الصاعدة ، بينها كان الثاني فنانا مبدعا يكرس حياته ليضيء عالم الفقراء ويأخذ بيدهم من ظلمات القهر إلى نور الارادة والنهوض . وتوضح هذه المراسلات أيضًا كيف أن تبو إذ كان يقوم بمساعدة فنسان ماليا ، (مثلها كان يساعد بعض أفراد الأسرة المعدمين ) فلم يكن ذلك كها حاولت أسطورة الزيف أن تروج \_ إيمانا بفنه . كما توضح المراسلات عديداً من الحقائق الأخرى من قبيل السيدة سيجاتوري ــ صاحبة كباريه و تمبوران ، ، التي اقترح فنسان أن يتولى رعايتها بعد أن تخلى عنها تيو حتى يتمكن من الزواج بأخرى هي جوانا بونجيه ! وهناك أيضا في المراسلات \_ ما يفصح عن علاقة فنسان بكريستين Christine التي منحها امكانية حياة كريمة غير أنها تحتّ ضغط عائلتها \_ قد آثرت الانحراف على العيش معه ومشاركته عين المصىر . .

وبالاضافة الى هذا الكم من الحقائق التى خفيت طويلا سواء لدور الأسرة فى ترويج أسطورة بعينها ، أو لتعمد البعض عمن استفادوا من الأسطورة فى عالم البيع والشراء ، فإن هذه المراسلات توضح أو تصحح حقيقة الدور الذى لعبه فنسان فى عالم الفن . اذ ان هذا الفنان الذى يعد واحدا من أكثر الذين عانوا من عدم فهم المحيطين به ، بل ومن أكثر الذين نبذهم المجتمع ، كان فى واقع الأمر من أكثر

الناس وضوحا للرؤيا ولم تكن له أية أطباع الا أن يصور ملحمة الانسانية ، ولم يكن له سوى حلم واحد هو : عبل مجمع تعاونى للفنانين ، تواكبت معه رغبة أصيلة ودفاع لا يكل من أجل توصيل الأعبال الفنية الى البسطاء والفقراء ، وكان أول من اتخذ مبادرة نشر أعبال رفاقه من التأثيريين ـ لأنه كان مؤمنا بضرورة فن جديد ، من أجل حياة أفضل . .

وما أكثر عدد الخطابات التي تعكس نفسية فنسان ، ذلك الانسان الذي حاول أن يكون شاخا بين الرجال ، والذي جاهد من أجل أن تسنح له فرصة عمل أي يكون شاخا بين الرجال ، والذي جاهد من أجل أن تسنح له فرصة عمل أي شيء إيجابي مفيد ، الا أن كثرة ما عاناه من صد وقهر واحباط ، كانت كلها بمثابة دفع متعمد الى الفشل ، جعلته يتعلق بطيف فكرة الانتحار والتي أصبحت ملاذه الأخير . . ان ذلك الانسان الصلد الذي لا يلين والذي كان يعاني أقسى احباطات الحياة والنبذ والألم في صمت نبيل ، لم ينتحر ضعفاً أو جبناً \_ في ظننا \_ وانحا لأنه لم يعد يستطيع اضافة شيء الى ذلك العالم الموصد أمامه . وذلك بجانب الاطار الفكرى وللناخ الفلسفي السائد في عصره على يد نيتشه الذي كان يرى فنسان معه أن عملية الانتحار تعد شجاعة كبرى ، فبدلا من أن ينتظر الموت ها هو قد ذهب اليه باختياره المطلق \_ على حد قول نيتشه .

وعلى عكس تلك الاسطورة التي حاولت اظهاره وعالة على أخيه و تيو ، فإن هذه المراسلات تكشف عن العديد من محاولات فنسان بغية الحصول على عمل ثابت حتى يستقل بذاته وحتى يتمكن من رد المبالغ التي كان تيو يعطيها له ، وكان هو يعتبرها ديناً عليه ، بالاضافة الى أنها تكشف عن ذلك الاتفاق الذي تم بين الأخوين والذي نص على أن يتنازل فنسان عن كافة أعاله نظير ما كان يتقاضاه من نقود!!

ان تلك الصفحات التي تفيض حزنا ، والتي كتبها فنسان بايجاز شاعرى غريب في خضم لطهات معايشة الأحداث وآلامها ، تتضمن أيضا معطيات جديدة حول الماساة المعروفة باسم و فنسان \_ جوجان ، ، أو بتعبير آخر ، و ماساة الأذن المقطوعة والجنون ، وهنا خاصة تلقى المراسلات بضوء جد ساطع يختلف تماما عن كل ما تحيكه الروايات المتعددة التي نسجت من حوله .

لذلك فإن هذه المعطيات الخصبة النابضة بالحيلة تجعل من مراسلات فنسان المرادف الأدبى ليوميات أوجين ديلاكروا . اذ ان هذين العملين اللذين يعتبران من أفضل ما كتبه الفنانون ، يمثلان بالفعل صرحين أدبيين متميزين ، وان كان مفهومهما

يختلف كلية . فإذا ما كان الشعور الدرامي بالوحدة والاغتراب والتباعد بمثل الجو العام الذي يحيط بكل من الفنانين المبدعين ، اللذين كانا يبحثان عن فهم ذاتها بشكل أعمق ، بغية مزيد من التطور الانساني والفني ، فيمكن القول اجمالا ، أن ديلاكروا كان ينظر الى تجريته الفنية من الناحية الفردية المتحذلقة ، بينها كان فنسان يلقى بكل كيانه ونفسه لمعايشه البؤساء في عالمهم .

ومن المحزن حقا رؤية ذلك العدد الكبير من الكتاب الذين أغفلوا هذه المراسلات أو اكتفوا بالاشارة اليها أو بالاستشهاد ببضع كلمات مكتفين باعتبار تلك السيرة المداتية المريرة أنها كتابات ارتجالية ركيكة الأسلوب، مشعثة الأفكار، في الوقت الذي تعد فيه حقيقة من الأعمال الأدبية التلقائية الخلجات، النابضة بالمشاعر بدون افتعال، والتي تجعل من فنسان واحدا من الأدباء الصادقين.

مما يسمح لنا بالقول \_ عن يقين \_ بأن أجمل ما نكتشف عنه هذه المراسلات بلا شك هو: النزعة الانسانية عند فنسان ؛ وفنسان أديباً .

## النزعة الانسانية عند فنسان

لم تظهر كلمة النزعة الانسانية في اللغة الفرنسية الا في أواخر القرن التاسع عشر. فحتى الطبعة الثانية عشرة للقاموس القومي الذي أعده بشريل الأب Bescherelle ، الصادر عام ١٨٦٧ ، لم تكن هذه الكلمة موجودة به . وهي تعنى اليوم تيارين متميزين ـ على الأقل شكلا ، بما انها مرتبطان بالانسان ويطالبان من أجله بالحرية والنور في كافة المجالات . وتعنى النزعة الانسانية باختصار:

١ – الحركة الأدبية التي أعادت للآداب اليونانية واللاتينية مكان الصدارة في أوربا من القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر . وكانت هذه الحركة تتضمن أيضا مواجهة المثل القديمة بالواقع المعاصر للمنابع المسيحية ، وسوء استخدام بعض رجال المسيحية لنفوذهم . وترتبط النزعة الانسانية عند فنسان بهذا التيار في بداية حياته .

٢ ــ تيار فلسفى يرى أن الانسان هو الكائن الوحيد الجدير بالاعتبار والاحترام فى هذه الدنيا . وهو تيار يرمى الى تطوير صفات الانسان فى العالم الواقعى والاهتبام به قبل الاهتبام بالمعنويات وبالسياسة . وهو التيار الفلسفى الذى يرجع فى أصوله البعيدة إلى فبناغورس الذى كان يعتبر « الانسان مقياساً لكل شيء » . وذلك هو

المعنى المقصود عند التحدث عن النزعة الانسانية عند اندريه مالرو Andre Andre حلى سبيل المثال بل وعندما يقول سارتر Sartre ان الوجودية هى نزعة انسانية ، مع ادراك للخصائص الفلسفية الفردية فى كل مذهب وثيار . ولا شك أن النزعة الانسانية عند فنسان قد نمت وتطورت على المستوى الاجتماعي والفردى فى اطار هذا المفهوم الواسع المحب للبشر .

أما فيها يتعلق بالتيار الأول ، فيمكن القول بأنه يتلخص فى العودة الى الإنجيل وفي محارية الفساد المتفشى فى الكنيسة مثل الانحرافات الأخلاقية والتطرف الفكرى . أى أنه عملية اصلاحية للحياة الدينية اعتهادا على النص المقدس وتمسكا بمنابع الايمان وبتعاليم المسيح والحواريين . فكانت الإنجيلية تجاهد فى توضيح كيف يكن للإيمان أن يزداد ثراء مستلهها كنز النص المقدس بعد تخليصه من شوائب المهارسات المتطرفة ، والاهتهام بالانسان الذى جاء الانجيل إليه بغية اقامة المسيحية وفقا لروح الانجيل وقد عاد نصه إلى نقائه الأول ، على أن يتم انتشاره بفضل ترجات فى متناول الجميع .

اى أن النزعة الانسانية ، فى هذا السياق ، كانت ترمى الى رد اعتبار الانسان والى عدم اعتباره مجرد كائن ضعيف وبائس . واذا لم يكن هذا الاتجاه يتعارض مع رسالة الإنجيل فى حد ذاته ، فسرعان ما تعارض مع المسيطرين على الكنيسة المتمسكين بالشكليات والذين يرفضون أى تعديل بما أنه يثير قضية خضوع الفرد للسلطات الكنسية .

وبجانب ذلك كله ، فإن أكثر ما يميز النزعة الانسانية هذه ، انما هو شجاعة مواجهة الرقابة والمحظورات من أجل تحقيق الأمانة الذاتية وحب العلم وشغف العمل بالاضافة الى تعميم العلم والتعليم .

وهنا تكمن أهمية مراسلات فنسان \_ في هذا المجال \_ في أنها تكشف حقيقة الدور الذي لعبه في منطقة بوريناج Borinage ، عند عهال المناجم حينها حاول المساهمة في تطبيق الفكر الانساني ، كها تسمح لنا بمتابعة تطوره الذاتي ، الذي ظل شديد الانسانية ، محبا للغير ، رغم الادانة غير العلالة التي وصمته ولاحقته . .

كها يتضح منها أن فنسان كان يدرس الاشتراكية في نفس الوقت الذي كان يدرس فيه العلوم الدينية . وقد كانت الاشتراكية آنذاك في أوج ازدهارها . وقد حاول فنسان ، في منطقة بوريناج أن يحذو حذو المسيح ، بتطبيق مسيحية اجتماعية انسانية . متبنيا جانب العمال ، مطالبا لهم بتحسينات اجتماعية ومادية ، الا انه وجد نفسه يصارع ضد كتلتين راسختين : رجال الدين ورجال الاقتصاد وسرعان ما تضافرت جهود الفريقين لاستبعاده من مجال نفوذهما . فقد قام رجال الدين بكتابة تقريرهم الثالث والعشرين ( ١٨٧٩ - ١٨٨٠ ) الذي نحوا فيه فنسان عن خدماته الدينية ؛ كما قام أصحاب شركة الفحم بفصله بعد تهديده بالقائه في مستشفى للمجانين !

ووفقا للتيار الثانى ، فإن النزعة الإنسانية الحديثة يتم تفسيرها من خلال علاقاتها الحقيقية الموضوعية بين الإنسان وذاته ، بين الانسان والعالم الذي يحيط به باعتبار أن الانسان وجود في العالم ، عما يمكن أن يضيف البها مفهوم التجربة المعاشة التي تتطلب ضرورة الوعي والادراك ، وأهمية اتخاذ موقف ملتزم بعينه حتى يمكن لها أن تكون أداة اتصال ، وحتى يمكنها أن تفرض نفسها كواقع جلى الوضوح . من هنا ، وانطلاقا من مفهوم امكانية التواصل فإن النزعة الانسانية لا يمكن إلا

من هنا ، وانطرق من مفهوم المحلية المواصل في المرح المحلية التي الما المرح المحلية المناضلا ، على حد قول أن تكون و تعاطفا مناضلا ، على حد قول أندريه أولمان André Ulmann : و فالنزعة الانسانية لا يمكنها الا أن توظف النضال لصالح الانسان لذلك تقوم بتحديد قيم أخلاقية من أجل الانسان وسعادته ووجوده الحق . انها فلسفة تخص الانسان وتجاهد لفهم عالم التجربة الانسانية ، وهي في الأن نفسه موقف يعترض على كل أشكال القهر ويساند كل ما يمكنه أن يجرد الانسان وينمى ملكاته ، (النزعة الانسانية في القرن العشرين صفحة ٣٤) .

وذلك هو المعنى الذى يكمن بحق فى مشاعر فنسان ويلفت النظر الى تجاربه المعاشة تتضح من كتاباته وتأخذ معناها الانسانى العام والشمولى . وأكثر من ذلك ، فإن أهمية هذه الكتابات لا تكمن فى أنها تكشف عن مساهمته فى تيار النزعة الانسانية بمفهوميها ومدى ادراكه وانتهائه فحسب ، وإنما توضح كيف كان تطبيقه فى الواقع عبارة عن مزج بين التيارين ، يتعدى معها مفهوم الفردية بل ويمكن القول انه اتخذ موقفا يتخطى المفاهيم السائدة للنزعة الانسانية ويتجاوزها .

وليس من قبيل الصدفة أو القاء القول على عواهنه أن يوضع فنسان في مصاف كل من فاوست Fâust وبرومثيوس Prometheé وزارادشت Fâust كل من فاوست باشلار G. Bachelard بحق : وها هم ثلاثة أبطال تتشكل الذين يقول عنهم ج . باشلار G. Bachelard خلاهم النزعة الانسانية القائمة على تخطى الذات . . ثلاثة رجال يمثلون ماوراء النزعة الانسانية الأوربية ، ومقدمة عالقة النزعة الانسانية المسيحية ، بقلم سبانليه Spenlé صفحة ١١) .

وبما أن النزعة الانسانية تمثل عند فنسان \_ فى رأينا \_ السمة الأكثر تميزا \_ لهذا الانسان الذى تحدى مصيره وعالمه ، وهى السمة التى كشفت عن قيمته ككاتب ، فكان لزاما أن نقدمه من خلال كتاباته ( مراسلاته ) ، وذلك بمتابعه تطور فكره عن قرب . إذ ان فهم الانسان يعنى \_ فى وجه من أوجهه \_ إدراك مغزى عمله بشكل أفضل .

ومع ذلك فإن كتابات فنسان ، تلك المراسلات المثيرة الضخمة ، تتضمن ميزة أخرى سبق وأشرنا اليها من قبل ، وهى أنها تكشف عنه كأديب مرهف الحس متميز التعبير والرؤية ، نابض بالمشاعر والتلقائية الرهيفة ، متعدد الصور ، موسوعى الفكر . مما يضعه في مصاف عظام الأدباء .

### فنسان أديبا:

يبدو فنسان من خلال هذه المراسلات كأديب موسوعي . إذ لاشك في موسوعية ثقافته الأدبية بكل ما في كلمة موسوعي من معنى ، إذ قام بتطبيق المعنين الشاملين اللذين أطلقها الكتاب والنقاد على الثقافة . فتبعا لكل من بوالو Boileau ، وسانت بوق Sainte-Beuve ، وآلان Alain ، فإن الثقافة تعنى الرجوع الى الأعيال الكبرى التي تمخضت عنها الأجيال السابغة . أما وفقا لأمثال تيبوديه المناف ، وسارتر ، فإن الثقافة تكمن في تذوق العمل الأدبي لحظة ظهوره .

ودون الانسياق في سرد كشف طويل من أسياء الأدباء ، فإننا نجد في المراسلات اعهالا لكبار الأدباء السابقين والمعاصرين ، وقد قام فسان بذكرهم أو بالتعليق على أعهاهم بنفس الشغف والصدق الذي مارس به فنه وتنساب أسهاء كل من رابليه Rabelais ، ودانتي Dante ، وبترارك Pétrar que وديكنز Dickens ، وفيكتور هيجو Victor Hugo ، وميشليه Michelet ، وزولا Daudet ودويه كاعت قلم فنسان المعبر وملاحظاته . وهنا يقول : واذا ما كنا نتأثر بكتب أو بأخرى . . فذلك لأنها مكتوبة بصدق القلب ، ببساطة ، وبتواضع ، بكتب أو بأخرى . . فذلك لأنها مكتوبة بصدق القلب ، ببساطة ، وبتواضع ،

مما يسمح لنا بالتحدث عن مطالعات فنسان ، الذي كانت بالنسبة له عبارة عن عبال للحوار والمعايشة الوجدانية ، أو على حد قؤله : « مواساة كبرى » في حياة ذلك الانسان الأزلى الوحدة . . بالاضافة إلى أنها كانت تمثل تجربة جالية يكرس لها رهافة حسه ووعيه . أي أنها كانت تجربة ذات نشاطين : فالقراءة بالنسبة له تعنى البحث عن الذات في نفس الوقت الذي يقوم فيه بالتعرف على الأديب نفسه ، من خلال أفكاره وأعاله بجانب شغف نبيل للفهم والمعرفة اذ كان يقرأ : « برغبة مخلصة في البحث عن النور وعن الحقيقة » (١٠٨) .

وها هو يقول في أحد خطاباته ، في نبرة حزينة مليثة بالأسى : و لا أجد نفسى تماما لا في رواية ثلاث وتسعون ولا في رواية الانسان المسكون ، بل أحيانا يكون كل شيء على النقيض ، إلا أن هناك الكثير من الأشياء التي اعتملت في نفسى أو تتفتح في الأعهاق أثناء القراءة » ( رابار – ٢١ ) ، ورغمها فإن ذلك لم يمنعه من مواصلة قراءة الكتاب و بحثا عن الأديب الذي كتبه » (فيلهلمين – ١٤) .

ويقوم فنسان بهذا البحث المزدوج ، البحث عن الذات والبحث عن الآخر ، مدفوعا بالحاجة الى الحوار في مستوى الزمان المعاش ، وفي مستوى التخطى البعيد الحلم ، بمعنى أن العمل الفنى أو الأدبى انما يرمز الى ذلك الحيط الرفيع الذى يمثل الحركة التصاعدية العامة نحو التطور – الحرية . مما كان يسمح له بمتابعة تفتح وتطور الفكر الانساني من جيل إلى آخر ، وأن يرى صعود الانسان من الظلمات الى الند . . .

من هنا كانت الكتب بالنسبة له عبارة عن درجات في سلم رمزى يعاونه على متابعة هذا المسعود وهو يرتقى المدارج . . وقد دفعه هذا المنهج في القراءة وفي تمثل ما يقرأه إلى أن يكتب لأخيه قائلا : ﴿ أَتَمَنَى أَنْ يَصِلُ كُلِّ النّاسِ الى اكتسابِ الميزة التي اكتسبها حاليا ، وهي قراءة الكتاب في وقت قصير والاحتفاظ بانطباع شديد الوضوح . وذلك مثل \_ مشاهدة اللوحات ، فلابد من اكتشاف مميزاتها الجمالية دفعة واحدة بلا تردد مع التأكد من التقييم » (١٤٨).

ولم يقف فنسان عند هذا الحد من الفهم للعمل الأدبى ، بل أدرك من ناحية أخرى فائدته الاجتهاعية والانسانية ، فتبنى – على سبيل المثال – فكرة هيجو التي ترجع الى ضفادع أرسطوفان Aristophane عندما أدرك أهمية أن يكون الفن انسانيا للانسان والمجتمع . لقد كان فنسان بحق من أنصار أن يكون الفن انسانيا ،

مفيدا ، يرمى الى بلورة الملامح السامية والى خلق الملحمة الاجتهاعية التى تساعد على تحرير الانسان نفسه و وتتغنى بالمثل العليا ، وحب الانسانية ، وتؤمن بالتقدم ، والصلاة إلى ما لا نهاية ، (هيجو : وليم شكسبير ، الفصل السادس : الجهال فى خدمة الحق ، . أى أن فنسان كان من أنصار ما يطلق عليه ج . ر . بلوخ .Bloch : وفنا ثوريا يساهم فى التيارات العميغة لعصره ، ليفسر ويتخطى الخلافات الاجتهاعية واضعاً فى اعتباره الضرورات الانسانية . أو ما يطلق عليه سارتر : فنا يكون صاحبه فى موقف معين مع عصره وفى انتهاء كامل .

ومثل كل كبار المعتنقين للنزعة الانسانية ، فإن فنسان كان يؤمن برسالة الشاعر وكل فنان \_ خلاق . فعلى عاتقهم تقع قيادة الشعوب ، واضاءة الطريق لها بما يقدمونه من غايات ترمى الى الحب والعدل والحق . وهي نفس المهمة التي قادت خطاه تجاه هذه الفلسفة المركبة التي جمعت في طياتها عديدا من التيارات والنزعات الفلسفية الأمر الذي يشير بدوره الى موسوعية ثقافته . .

سنسلم بأن اتساع ثقافة المرء لا تعنى حتما أن يكون صاحبها أديبا ولا تعنى أن تطلق عليه هذه الصفة . الا أن الوضع يختلف مع فنسان الفنان ـ الانسان . إذ أن الثقافة بالنسبة له كانت وسيلة حوار انسان ، بقدر ما كانت وسيلة للتعبير عما في أعراقه ، وبخاصة أن كتاباته \_ كانت في جلها \_ حواراً أخرس من جانب واحد . . أو لعلها تمثل الحوار الوحيد الدائم الذي عاشه . . فقد كان عدد الخطابات التي تلقاها من أخيه من الضآلة بحيث لا يمكن إطلاق تعبير و الحوار ، على ما تبادلاه من خطابات . . غير أن ذلك العدد الضئيل المتباطىء لم يقلل من ملكة الكتابة عند فنسان ولا من ملكة التعبير لديه ، وها هو يكتب لاخيه قائلا : و اذا لم يكن لديك الوقت الكافي لتكتب لى اذا لم ترد على خطابات عند تلقيها ، فعلى الأقل ستكون على دراية بكل ما دار في اعماقي حينها نلتقي ، (٢٥٢) .

لذلك فإن القراءة أو الكتابة ، بالنسبة لفنسان ، تعد بمثابة حاجة أساسية ، وضرورة للتعبير واكتشاف الذات . من هنا كانت كتاباته تمثل حالة نفس انسانية ، وجزءًا نابضا من الحياة استرق خطاه في ذروة الآلام ، وسكب فيه معاناته ، أو لنستعر لها ما قاله فيكتور هيجو في مقدمة التأملات من : انها ما يمكن أن نطلق عليه . . مذكرات روح ، . وجلية الأمر أنها و روح تتحدث عن نفسها » .

وقبل أن نتناول المراسلات بالدراسة كعمل أدبى ، لابد من التنويه بأن فكرة النشر لم تخطر ببال فنسان . فمن كان يعتبر نفسه مجرد ( جندى ) فى صفوف جيله . وحاول أن يكون ( عاملا ) من عمال المسيحية ومجرد ( حرفى ) فى مجال فن التصوير لم يكن ليطمع فى الحصول على لقب ( أديب ) .

لذلك لا يمكن التحدث عن فنسان وجمهوره بما أن و مراسلاته لم تطبع الا بعد وفاته بكثير ، مثلها رأينا سالفا ، غير أنه اذا لم يكن لديه في حياته سوى قارىء واحد : هو ذلك الشخص الذى يخصه بالرسالة ، فلا شك أنه سيصبح في الامكان ، فيها بعد ، التحدث عن جمهور قراء الابداع الأدبي المعبر لفنسان .

ان قراءة خطابات فنسان وعن قرب تعنى متابعة تطوره مع عصره ، عبر فنه وأفكاره . كما تعنى اكتشاف ملكة الشعر الكامنة فى اعماقه ، فلقد كان شاعرا بأوسع معانى هذه الكلمة ، شاعرا يمكن وصفه بتلك الصورة التى عبر عنها الفريد دى فينى Alfred de Vigny فى قصيدة آخر ليلة عمل والتى تمثل رجلا يطارده القدر . . انه فنان مبدع يدينه المجتمع وينتهى بقتله . .

وخلال حياته ، القصيرة الزمن للأسف ( ١٨٥٣ - ١٨٩٠) ، يبدو أن فسان قد عاصر مختلف التيارات التي اعترت القرن التاسع عشر ، من الرومانسية حتى السرياليه ، مرورا بالواقعية والطبيعية . بل من الممكن تناول الكلاسيكية عنده ، بمعناها العالمي ، متجاوزين العصر والمكان . فلقد كانت كتاباته عباة عن فن حقيقي ، يتسم بالسلاسة والترابط . ويتميز بتعبير فني بسيط وأخاذ ، بقر ما يمثل مستوى النضج والسمو الذي عرجت اليها روحه وقد اكتمل نضجها . أر على حد تعبير سانت \_ بوق Sainte-Beuve في أحاديثه : انه عمل يثرى النفس الانسانية بما يحمله من عمق وبما يتضمنه من بعد عالمي . .

غير أن ذلك لا يعنى أن فنسان كان يتبنى كل تيار من هذه التيارات أو يقضى وقته فى تقليدها . فوفقاللمراسلات لا يمكن اغفال معابشته لما يحيط به ليتمثله ويبلوره ويعيد ابداعه فى شكل جديد ، بمفهوم ذاى . فلقد سبق مارسيل بروست Marcel فى اكتشافه أن الفن ليس مجرد مسألة تقنية ، وإنما ببساطة رؤية جديدة ذاتية محتة .

وبالفعل ، لم يجد فنسان تعريفاً أفضل من ذلك القائل بأن و الفن هو الانسان مضافا الى الطبيعة ــ الطبيعة والواقع والحقيقة التي سيخرج الفنان معانيها ، والصيغة والطابع الذي يستخلصه ويحرره ويوضحه ، ( ١٣٠ ) .

وعلى الرغم من أنه يمكن استخلاص الكثير من عناصر الرومانسية عبر المراسلات ، فلا يمكن توصيف فنسان بأنه كان رومانسيا ، بما أن رؤيته أيضا تتميز بنوع من الإمتزاج والتداخل بين حياته الداخلية والعالم الخارجي ، بين اعماق نفسه ولا نهائية الطبيعة ، معبرا عنها من خلال رؤيته الذاتية الدائمة الحركة والدائمة اليقظة في مزيج فريد يتصل بأبعاد واقعية . وما نقصده بالواقعية انما هو ميل فنسان الى انتقاء موضوعاته من الواقع المعاش مع تأكيد لذلك الفاصل الذي يصعب اجتيازه ، ويحد ما بين الواقع الفني والواقع الحقيقي ، فبالنسبة له مثلها بالنسبة لفيكتور هيجو ، ان الفن انتقاء وتكثيف وتعبير .

أما ما نعنيه بالطبيعية ، فهو ذلك الميل الفج الى الحاضر المعاصر له وللوقائع الدنيوية كما هي بجرارتها ، وكما يعبر عنها شارل بوشا Charles Beuchat في كتابه عن تاريخ مذهب الطبيعية الفرنسية ، اذ نرى معه كيف غاص فنسان في تلك الأعماق الكثيبة المتفحمة لمناجم الفحم وعبر عن عالمها الذي كان مجهولا حتى ذلك الوقت ، سواء في كتاباته أم في رسومه ولوحاته . أي أنه كان في حقيقة الأمر سباقا على إميل زولا بخمسة أعوام في التعبير عن هذا المجال .

ومع تعميمه لفنه وللحياة ، اكتشف فيهان أن كل شيء له حساسيته في معبد الطبيعة ، وكل شيء يمثل معنى ورمزاً ، ولقد حاول التقاط هذه الذبذبات المتبادلة في الطبيعة عبر الأصداء ، مثلها عبر عنها بودلير Baudelaire في اشعاره ، ليبدعها في لوحاته وكتاباته وهما المجالان اللذان تتطورا معا طوال حياته .

من هنا لن يكون من التناقض أن نتحدث عن السريالية عند فنسان ، بما أنه حاول بالفعل تخطى حائط المنطق والتطلع فيها وراءه بغية التقاط تلك القوى الكونية النابضة والتحدث المتداخل في الطبيعة بين العالم المرثى والعالم غير المرثى .

والرمزية والسريالية بالنسبة لفنسان ، مثلها بالنسبة لجيرار دى نرقال gérard de ، تعبير مطلق الصدق والاخلاص . فالخطابات التي تتناول هذه الموضوعات لا تكشف عن أى افتعال أدبى . فلقد جاهد فنسان في التعبير عن تجربته الذاتية الدفينة بكل بساطة وتواضع وتلقائية ، مسيطراً على تدفق الحلم واللاشعور ، مضيفا عليها شكلا تعبيريا جديرا بالتحليل المنطقي لرؤياه . .

وعلى الرغم من وجود العناصر المميزة لمختلف التيارات في أعيال فنسان ، وان كان ذلك بدرجات متفاوته الوضوح ، فإنه لا يمكن وصفه حقا الا بأنه فنان تعبيرى صادق الرؤية .

ومن المعروف أن هذا اللفظ لا يمثل مدرسة ما ، ولا جماعة فنية ما بل ولا حتى تياراً بعينه ، وانحا يمكن اعتباره اتجاها يؤكد العنف التلقائي السائر الى الأمام ، معتمدا على الأسلوب الذاتي البحت وعلى فردية مبدعة متميزة وصلت إلى أقصى حدود البناء المنطقي السليم ، الذي لا يمكن أن يوصف بالاضطراب بحال من الأحوال ، وان تميز إلهامه بالشكل المعبر الحاد وباختيار الموضوعات الطبيعية الدرامية .

وهنا يمكن التحدث عن الجانب الدرامى للمراسلات ، ونعنى به التجربة الدينية التى خاضها فنسان والفكرة المسيحية لازدواجية الانسان وهى الفكرة التى يُرجع اليها فيكتور هيجو بداية خلق الدراما والتى تطالب بالحرية فى الفن . والجانب الدرامى فى أعال فنسان يتخذ كل معناه عبر البحث عن الملامح المأساوية فى الحياة اليومية ، وفى تفصيله للأوضاع الاجتهاعية البائسة ، وتصويره لحياته بأسم ها عبر الحقبة التى عاشها . .

الا إن أكثر ما يتميز به فنسان كاتبا وأديبا انما يتضح من وصفه للطبيعة ـ ذلك الوصف الذى لا يكاد يخلو منه خطاب ، معبرا عنه بأسلوب ذاق شديد التنوع والتفرد ، غنى بالصور

#### فنسان ووصف الطبيعة:

اذا كان فنسان فى مرحلة الشباب يبدو مثل البطل الرومانسى الشهير أوبرمان Oberman ، أى كإنسان لا يمكنه التأقلم مع الحياة الاجتهاعية ، فإن النزهات الطويلة التى كان يقوم بها ستكشف فيه عن أديب يجيد وصف الطبيعة ، ويتغنى بحبها بشغف ، وذلك بفضل التحليل الدقيق الذى يقوم به لكل ما يعتريه من مشاعر وأحاسيس حيالها ، وهى انفعالات يعبر عنها بيساطة بلا أى اطناب وبصدق مطلق ، وتلقائية فنان يمتلك كنزاً من الأحاسيس الرهيفة والأمال الانسانية .

لقد كانت الطبيعة تجذبه بسرها الكبير ، فراح يحاول قراءتها . . يحاول حل طلاسم ذلك الهمس الذي يحيطه في صمت قائلا : «كم من أشياء تتحدث الى النفس فى هذا المنظر الطبيعى المميز وفى كل ما يحيط به ، (٩٢). وها هو يسطر نجوى الطبيعة فى خلود أحرفها اذ بقول : « ان الطبيعة بأسرها تبدو وكأنها تتكلم . . وبعد التجول فيها نعود حاملين انطباع من قام لتوه بقراءة أحد أعمال فيكتور هيجو، (٢٤٨) . .

ومنذ مرحلة الشباب والطبيعة بالنسبة له بمثابة « إنسان » يمكنه التحاور معه ومناجاته في عالم من التناغم يتداخل معه ويذوب فيه كل من الفن والأدب والتصوف . .

فلم تكن مشاعره وأحاسيسه حيال الطبيعة \_ والحال هذه \_ مكونة من مجرد ردود فعل جريحة أو مجهضة أو ذكريات لألمه ، بل كانت نهرا متدفقا من ذلك العناق الوحيد الباقى له ليدفع نبض القلب من جديد لدرجة من الحلولية الخالدة المشبوبة . لقد كانت النزهة في الطبيعة بالنسبة له ، وكأنها حالة وجد لصوفى ، عبارة عن « تجدد للنور ولنار الحب الخالدة » ( ١٦٠ ) ، وغايتها « أشبه ما تكون بنزهة في رحاب الله » للنور ولنار الحب الخالدة عر حريق الحب الصافى . ذلك الحب الذي كان بالنسبة له عبارة عن « موقف ، بما أنه يتطلب فعلا ومجهودات » ( ٢٦٦ ) . أنه قوى ايجابية وخلاقة وطاقة نور لا تغيب اذ هو « اقوى من كل القوى » ( ١٦١ ) بما أنه يؤدى الى التخصى والى الحرية والاستقلال . « ان الحب هو نور العالم ، الحياة الحقة . . ونور الانسان » .

وهكذا ، فإن فنسان يبدو وكأنه فى حضرة الخالق اذ يتحاور مع الطبيعة بفضل هذا الحب الذى يرى فيه قوى الهية . « قوة للبعث أقرى من كل فعل ، وضياء أمل يمنح المرء ضميرا وسكينة فى أعهاق القلب ، فى جوف القلب » ( ١١١ ) .

من هنا . فإن وصف الطبيعة لديه يتنوع وفقا لحالته النفسية ويتخذ شكل تخطيط سريع (اسكتش) . أو ملاحظة مكثفة مختزلة ، أو لوحة تمثل انفعالا عميق الغور في رحاب التأمل . . وها هو يكتب عقب احدى جولاته قائلا : عن اليساد ، توجد حدائق بها أشجار الصفصاف والبلوط والدردار . وعن اليمين ، يمتد النهر حيث تنعكس الأشجار الفارهة على صفحته . لقد كانت الأمسية رائعة متفردة » (٧٣) .

وفي الخطاب التالى راح يدون : • ان المنظر الذي يخترقه الطريق آية في الجمال . . أرض بائرة سمراء يعلوها العشب ، ويتناثر عليها هنا وهناك بعض من

أشجار السندر والصنوبر مع مساحات من الرمل الأصفر ، ومع مرمى الأفق وفى تضاد مع الشمس ، هاهى الجبال تحدها ، (٧٤) .

ويغوص فنسان في المنظر الطبيعي عند الغسق ، فيعبر عن مشاعره قائلا : ﴿ . . . وعندما بدأت عتمة الليل ، وارتفع الضباب ، لمعنا ضوء كنيسة صغيرة وسط السهل . وكان عن يسارنا خط السكة الحديد ، على هضبة عالية . وأثناءها مر قطار وكم كانت روعة المنظر اذ ترى انبعاث ضوء القاطرة الأحمر يتبعه صف طويل من الأبواب المضاءة للعربات وهي تعبر الغسق . وعن يميننا كانت الخيل ترعى في حقل يحيط به سياج من الزعرور والأشواك » ( ٨١ ) .

وما أن يتوغل فنسان فى تأملاته ، حتى ينساب فى التعبير عن تلألؤ الألوان التى غيطه بانعكاساتها : «كنا عند المساء ، والشمس تغرب ، ضوؤها الأصهب يضىء تلك السحب الرمادية ، التى ترتسم عليها صوارى المراكب ، مع صف ممتد من الأشجار والمنازل العتيقة . وكلها تنعكس على صفحة الماء . لقد سرى ذلك الضوء الغريب للسياء ليغمر الأرض السوداء ، والحشائش الخضراء التى تتناثر فى رحابها زهور بيضاء وبراعم صفراء ، وحقول من الليلك الأبيض والبنفسجى ، بينها يتسلق البيلسان سياج الحديقة . . « (١٠٠) .

وبينها يكتب لذويه في القطار أثناء رحلة طويلة ، راح فنسان يعبر عن مشاعره في تلك اللحظة ليشركها معه . وها هو يترنم بالقلم في تنويعات رهيفة قائلا : « منذ بضع ساعات غام الجو فاكتسى باللون الرمادى وازدادت البرودة . وهأنذا لتوى أرقب الحقول الممتدة أمامي في البعيد . . كل شيء هادىء . . ها هي الشمس التي تصبغ الحقول بأشعتها الذهبية ، تغوص بين طيات السحب ، (٦٠) .

وفى صباح اليوم التالى راح يضيف فى نفس الخطاب : « كان الجو أكثر صفاءً ، وكل شيء يتوشح بالجمال ، خاصة عند نهر الموز Meuse ، وكذلك منظور الهضاب المتلفعة بالبياض الناصع وهى تغفو تحت الشمس من ناحية البحر، .

ومع غروب اليوم التالى راح يرسم بالكلمات فى نفس الخطاب ، صوراً أخرى اذ يقول : « ظللت واقفا على الكوبرى الى أن غابت الشمس وكانت المياه تبدو ، على مدى البصر ، زرقاء داكنة ، تلك الزرقة الوضاءة التى تعلوها هنا وهناك شذرات من الموجات البيضاء . أما السهاء فكانت شاحبة الزرقة ، خاوية بلا سحب . وغربت الشمس ، بينها كان آخر شعاع لها يلقى ببريق لامع فوق صفحة الماء . . » .

ويتميز وصف المناظر الذي قام به لمنطقة درانت Drenthe بنفس الصدق في التعبير وبنفس التنوع فى نغهات اللون والصورة وظلت هذه المنطقة بالذات أثيرة اعجابه العارم لتجعل من صفحات رسائله نغيات تشكيلية رنانة ذات طابع خاص . فالمنطقة عبارة عن : ( مساحات شاسعة منبسطة ، لحقول مختلفة الألوان ، تمتد في اطار شديد الضيق ، وهي تهرب ناحية الأفق ، لتعلوها بقع متناثرة مكونة من كومة حشائش ، أو قرية صغيرة ، أو بعض أشجار السندر النحيلة ، أو السرو والبلوط . وفي كل مكان أكوام من أوراق الشجر الجاف . ومن ناحية المستنقعات تتهادي المراكب بلا توقف ، محملة بالأوراق الجافة أو نباتات السعادي . بينها تتناثر بعض الابقار الهزيلة ، ذات الألوان الخلابة ، مع كثير من الخراف والخنازير . أما الأشخاص الذين يظهرون من آن لآخر في هذه الهضبة فهم يتسمون ـ عادة ــ بطابع مميز وسحر أخاذ شديد الرقمة . لذا ، فقد رسمت في القارب سيدة صغيرة بقبعة متشحة بنسيج الكريب (كانت في فترة حداد) . وبعد ذلك رسمت طفلا صغيرا بصحبة أمه ، التي عقدت شعرها بمنديل بنفسجي . ومع الأشجار الكثيرة الشبيهة بوسوم أوستاد Ostade ، ذات الاشكال التي تذكرنا بالحنازير أو الغربان . ومن أن لأخر تمرق فتاة جميلة الشكل وكأنها زهرة زنبق تتوه وسط الأشواك . وأخيراً فإن سعادتي غامرة لقيامي بهذه الرحلة ورأسي مشبع بكل ما شاهدت .

وهذا المساء كانت زهور الخلنج فائقة الجال . يوجد في ألبوم بوتزل Boetzel لوحة للمصور دوبيني Dauvigny تعبر عن نفس الانطباع تماما كانت السهاء ذات لون أبيض ليلكي يصعب وصفه فهو رهيف في رقته ، وتكسوها بعض من سحب بيضاء \_ ليست بصغيرة \_ بل على العكس من ذلك كانت طبقات متراكمة ، تحجب السهاء بأسرها ، وهي قريبة الشبه بندف تشويها الألوان الليلكية ، الرمادية ، والبيضاء ، يشقها فتق واحد نحيل تتطلع زرقة السهاء من خلاله . وعند الأفق خط أحر رائع العظمة ، تحده من أسفل حقول الخلنج الداكنة المبهرة ، بينها ترتسم كتلة الأكواخ الصغيرة على ذلك الجزء الأحمر وكأنها ظلل سوداء . وفي المساء ، كثيرا ما تصبح حقول الخلنج هذه شبيهة بما يطلق عليه الانجليز تعبير «عجيب» وه غريب » . وهناك بعض الطواحين الدونكيشوتية الشكل أو بعض الحياكل الخشبية المميزة للكباري ترتسم ارتجاليا على سهاء تفيض بالسحب . ومع المساء تصبح مثل هذه القرية ذات تأثير يبعث الرهبة بكل ما تعكسه نوافذها الصغيرة المضاءة على الماء والوحل والمستنفعات » ( ٣٣٠ ) .

وقبل أن ينهى فنسان هذا الخطاب راح يضيف: ولكن . . يالها من راحة ، يا له من مد فسيح ، يا لها من هدءة وسط هذه الطبيعة! ان المرء ليشعر وكأن هناك آلافا وآلافا من اللوحات للمصور ميشيل Michel تيمم بك بعيدا عن الحياة اليومية التقليدية .

وفى صبيحة اليوم التالى ، راح يكتب تحت تأثير نفس الموقع قائلا : « هناك شيء آخر يلفت نظرى بجماله : انه الجانب المأساوى للمنظر . إلا أن المأساوى يوجد فى كل مكان . . بالأمس رسمت بعض الجذور العطنة لشجر البلوط ، أو ما يطلقون عليه هنا « طبقات من الحث » . . . وكانت هذه الجذور غارقة فى الوحل الأسود .

و بعضها كان شديد السواد ، غارقا بكله تحت الماء المتلألىء فوقها . وكان البعض الآخر يبدو وكأن الزمن قد كساه بالأبيض فوق ذلك السهل الاسود وهناك درب أبيض يشق طبقات الحث ، بينها بمتد ذلك الورق الجاف على مدى البصر بلون السناج . والسهاء من فوق ذلك كله ، سهاء هادرة . ان هذا المستنقع الطمعي بجدوره العطنة كان بمثابة منظر كاب بالحزن ، بل منظر درامى ، كأنه احدى لوحات رويسدال Ruysdaîl الحقيقية أواحدى لوحات جول دوبريه Pules Dupré ،

وإذ تشبع فنسان بديالكتيك الطبيعة ، في أوسع تنوعات مناظرها . راح يكتب بنبض الحنين الفلسفي قائلا : « لقد تابعت الفلاحين اليوم وهم يحرثون حقول البطاطس ، بينها النسوة يجرين خلفهم ليجمعن الحبات المنزوعة من الأرض . وهو منظر مختلف تماما عن ذلك الذي رسمته لك بالأمس . لكنه شيء خاص بهذا البلد . إنه نفس المكان دوما ، لكنه يمثل في كل يوم شيئا آخر ، انها نفس العناصر التي تصوغ لوحات كبار المصورين الذين عبروا عن مثل هذه الموضوعات ، ورغمها فهي مختلفة تماما آه ، كل شيء هنا له طابعه الخاص ، شديد الهدوء ، شديد السكينة ! عنه كثيرا ، أم قليلا ، فالأمر سيان . ان الحديث لا يضيف له شيئا ، ولا ينزع منه شيئا ، ولا ينزع منه

من هذه الأمثلة القليلة يمكن القول بأن الأسلوب الوصفى كان يمثل في بداية المراسلات منظرا بانوراميا . اذ ان فنسان قد اعتاد وصف المنظر الذي يمتد أمامه ، - بصف امتداد ضفتيه ، عن اليمين وعن اليسار ، مؤكدا الملامح الأساسية لهذا

المنظر أو ذاك وقد أضفى عليه عمقا جديدا ، أو بعدا ثالثا ، وهو يتحدث فى البدء عن مقدمة المنظر ثم تتواكب أبعاده فى صور شتى . وهكذا أخذ يتبلور اسلوبه هذا وهو يكتسب مزيدا من تنويعات النغم والايقاع التى تسكب على الصور المكتوبة حيويتها وأبعادها الوارفة ، من قبيل قوله : « هنا الطبيعة فائقة الجال . كل شىء حتى قبة الساء بأسرها رائعة الزرقة ، والشمس ذات اشعاع مشاحب الصفرة ، لطيف جذاب مثله مثل الزرقاوات الساوية وتنويعات الأصفر فى لوحات فان درمير دى دلفت Van der Neer de Delft » ( ٥٣٩ ) . وها هو فى آخر خطاب لوالدته يقول : « ان هذه المساحة الممتدة اللانهائية لحقول القمح التى تحدها التلال تستأثر فى كلية . انها شاسعة كالبحر ، رقيقة فى ألوانها ، صفراوات وخضراوات تجاور لونا بنفسجيا شاحبا لحقل حديث الحرث ، منتظم تحده خضرة النباتات المزهرة للبطاطس . وكل ذلك تحت ساء رقيقة فى تنويعات من الزرقاوات والأبيض والوردى والبنفسجي » ( ٢٥٠٠) .

وكم راح يتغنى بالألوان المكملة لبعضها البعض. بأسلوب نضر الايقاع والنغم وهو يصف هذا البستان قائلا: « إنه رائع بألق الوانه ، فزهور الداليا قانية داكنة الاحرار ، والصف المزدوج للزهور وردى من جهة وأرجوانى من الجهة الأخرى التى تكاد تخلو من الخضرة . وفي منتصف البستان ، توجد شجرة داليا بيضاء قصيرة القامة ، وشجيرة رمان تكسوها زهور فاقعة بلون أرجوانى ماثل الى الحمرة ، وهناك بعض الثهار الصغيرة الصفراء ، ان الأرض رمادية اللون ، وسيقان شجر الورد ترتفع مزرورقة الخضرة بجوار شجر التين الزمردى والساء بزرقتها ، والبيوت البيضاء ذات النوافذ الخضراء وسقفها الأحر . ان ذلك كله انما هو انبثاق الصباح تحت وهجه الشمس . أما في المساء فالظلال الناجمة عن هذه الأشجار تصطف لنغمر الأرض » ( ٥١٩ ) .

وإذا ما كانت خطابات فنسان تكشف عن أديب بارع الوصف للطبيعة ، فإن محمل كتاباته تقدم للقارىء مناظر وتكوينات شديدة التنوع ولقد اعتاد أن يصف أى مكان جديد يراه أو يذهب اليه ، مما يمكن القول معه بأن المراسلات تحتوى تقريبا على نفس المناطق التي رآها أثناء تنقلاته المتعددة .

بل ان هذا التنوع يسمح لنا بكتابة عناوين اجالية لهذه المناظر التي تعبر عن الحياة اليومية مثال: جامعي القيامة وعرباتهم (١٢٦)، صعود عمال المناجم ...

الأبار (۱۲۷) ، لقاء مع كريستين (۱۹۲) مقابر منطقة هوخفين Hoogeveen (۳۲٥) . ومن ناحية أخرى فلا يمكننا اغفال عدد البورتريهات الأدبية التى صورها فنسان بالكلمة لكل الذين قابلهم فهو اذ يتحدث عن قان دى قلون Van de كتب يقول : وله رأس مربع قوطى ، الشكل ، نظرته همجية الى حد ما ، جريثة ، وان كانت تشويها . الطيبة ، انه جسور متين البنية . . . ذكرى الهيئة ، قوى ، وإن كانت أساليبه وتصرفاته لا تنم عن صفة خارقة للعادة ، (۲۹۹) .

وها هو يطلق العنان لتعبير كاريكاتورى النزعة ، اذ راح يصف أحد القسس قائلا : « يوجد هنا نوع فريد من القسس المنشقين ، لهم سحنة الخنازير ، ويرتدون قبعات ذات قرنين . ولا أفهم لماذا لا يتصرفون على الأقل بنفس منطق خنازيرهم ، فلا يضايقون احدا — على سبيل المثال — رغم طبعهم الخنازيرى ، الذى لا يتنافر مع البيئة المحيطة بهم اذ يوجدون في أماكنهم لكن ، وفقا لما رأيته هنا ، وحتى يصل هؤلاء القسس الى درجة ثقافة الخنازير العادية فإن عليهم أن يبذلوا مزيدا من الجهد ، إذ هم بحاجة إلى عدة قرون قبل أن يصلوا الى هذا المستوى . مزيدا من الجهد ، إذ هم بحاجة إلى عدة قرون قبل أن يصلوا الى هذا المستوى . لكن الآن ، فإن أى خنزير ، في نظرى ، أرقى منهم بكثير » (٣٣٢ ) .

ألا يذكرنا قوله هذا بما كتبه ليون بلوا Lèon Bloy عن الانسانية ؟! ثم ها هو يصف ساعى البريد مرتديا زيه الأزرق الزابل ، فنراه يميز بين الملامح الشكلية وما يكشف عن الطبع اذ يقول : « ان رأسه أشبه ما تكون بسقراط ، أى يكاد يكون بلا أنف ، عالى الجبهة ، أصلع ، له عينان صغيرتان رماديتان ، وخدان عتلآن بنضرة الألوان ، ولحية كثة بالأبيض والأسود ، وأذنان كبيرتان ، انه شديد الحاس للجمهورية والاشتراكية ؛ يفكر جيدا ويعرف الكثير من الأشياء ي (W.J) ، .

وبعد ذلك بقليل ، كتب يقول فى نفس الخطاب وهو يصف أحد الجنود و حلته زرقاء وعليها بعض الشرائط الحمراء والصفراء ، ومنديل كبير حول عنقه ، وقبعة حراء ذات محيط أزرق ، أما وجهه فقد صبغته الشمس ، شعره حليق ، عيناه كالقط المتربص ، أرجوانية الخضرة ، وله رأس صغير تعلو رقبة ثور » .

### أسلوب فنسان:

كل هذه الموضوعات المتعددة والمناظر والأشياء التي رآها أوعاشها فنسان تنعكس طوال المراسلات بأسلوب شديد التنوع ، صادق التعبير وتلقائي ، كما أسلفنا القول. فمن الواضح أنه قد تبنى فكرة بوفون Buffon فى كتابه المعنون محاضرات حول الأسلوب. أى: لا افتعال ولا اطناب. مجرد تعبير مباشر أصيل، نابع من القلب، يكشف عن أديب يجرؤ أن يكون هو ذاته، بلا إخفاء أو التواءات، يتجه مباشرة الى الموضوع، دون الوقوع فى تجريبية الطبيعيين غير الانفعالية.

ان الاكتفاء بسرد مميزات هذا الأسلوب العصبى الملىء بالحمية ، قد يبدو نوعا من البتر يفقده سحر التعبير بعيدا عن النص بأكمله ، ومع ذلك ، فلا يمكن اغفال الطابع الاحيائي الذي يضفى على لغة فنسان نزعة انسانية متجانسة ، من قبيل قوله و سهاء رمادية عذبة ، (٦٣) ، وو صدافة الشمس ، (٦٧) ، وو التلال الهولندية الرقيقة ، (٨٧) ، وو كانت الشمس الشابة تتمرّى فى نهر التيمز ، (٨٧) ، وو مقابر تكسوها الحشائش النحيلة والخلنج ، (٣٢٥) ، وو خلنج حزين شديد التواضع ، (٣٣٧) ، وو زهور الغار الوردى الذي مجدئك عن الحب ، أو و الحب الذي يذبل ليتبرعم من جديد ، (٢٦٦) .

في الواقع ، أن فنسان على حد قوله هو نفسه ، يجد ويكتشف في الطبيعة أيا كانت أو في الأشجار مثلا ، تعبيراً خاصا ، وكأن لها روحا . ان صفا من أشجار الصفصاف المبتور ، انما يبدو في نظره كأطياف و لأيتام ، والقمح الشاب يفوح احيانا بشيء لا يمكن وصف طهارته وحنانه أشبه ما يكون بذلك الانفعال الذي يولده الطفل الناثم . « والحشائش التي دهست على طرف الطريق تبدو مقفرة مثل سكان أحد الأحياء الفقيرة . وعندما سقطت الثلوج أخيرا رأيت بعض الكرنب الأخضر وكان يتلوع ، لقد ذكرني هذا المنظر بفريق من النساء بأردية نحيلة وقد تلفعن بشيلان قديمة ، وكنت قد لمحتهن ذات صباح في حانوت أحد تجار الجمر والمياه الساخنة ، وكنت قد لمحتهن ذات صباح في حانوت أحد تجار الجمر والمياه الساخنة ، وكنت ك

والألوان لديه تنعم بنفس النزعة الإحيائية أو بحيوية متلألثة تحت قلمه ، فهى بالنسبة له و تبدو وكأنها تود أن تقول شيئا ( ٤٢٩ ) ، بل ما هو أكثر من ذلك ، ان كل لون يبدو وكأن له نبرته المعبرة في نظره : « فالأزرق الكوبلت لون إلهي . والكارمن ، لون النبيذ القاني أهر ومليء بالمرح مثل النبيذ » ( ٤٤٢ ) ، وو الأبيض الطبيب الشاحب ، أو و الأصفر الليموني المريض ، ليست كلها سوى بعض الناذج المذكورة من و باليته ، فنسان الأدبية التي كونها بدفق عطر المشاعر الانساينة . وسيظل وصفه لطباشير الجبل من وجهة نظرنا ـ من أكثر الأمثلة تأثيرا : و أن هذا

الطباشير له روح وحياة . عكس نوع من و الكونتيه : Conté الذى أجده مقبضاً . قد تكون هناك آلتا كهان لهما تقريبا نفس الشكل ، لكن عندما تعزف عليهما فإن واحدة منهما تسرى بصوت جميل ، بينها الأخرى لا يمكنها أن تعطى شيئا .

و ان طباشير الجبل تتردد في جنباته كثير من الأصداء أوالأصوات. بل أكاد أقول
 ان طباشير الجيل يفهم ما تريده منه ، ما تود عمله ، فهو ينصت بذكاء ويطاوع ،
 بينها نوع الكونتيه لا حياة فيه ولا يتجاوب أبدأ .

د ان طباشير الجبل ذات روح غجرية مقبقية و ۲۷۲).

وعندما يكتب فنسان تحت تأثير انفعالاته ، كثيرا ما يذكر اللحظة التي يمر بها ، من قبيل قوله ؛ وحاليا ، أنظر إلى المراعى » ( ٦٠ ) ، و البحر شديد الهدوء في هذه اللحظة ، انه أقصى الجذر والسياء لونها أزرق شاحب ، رقيق ، وكأن ستاراً رهيفا من الضباب يكسوها من بعيد » ( ٦٠ ) . ومثل قوله : وبدأ الليل ينساب » ( ١١٠ ) أو و بدأ المساء يأفل » ( ١١٥ ) . وكلها تعيرات متنوعة تشير الى اللحظة بقدر ما تدفع قارئه ليشاركه وجيب انفعالاته ويضفى مزيدا من الحيوية على ما يصفه .

لقد تميز فنسان بعبقرية متفردة في التعبير عن التناقض ، وهو تفرد لا يرجع الى الشكل المزدوج الواقعي والعابر مثلها في وصف فيكتور هيجو ، وانما يعتمد على التضاد ، وتناقض الألوان وتعددها في باقة مزهرة بالتنوع .

فها أكثر العبارات التي يستخدم فيها فنسان باقة الألوان بتنوعها طوال المراسلات كأن يقول : « قناة تجرى بين مساحة من الألوان بضفتيها البيض » ، أو « وجوه سود ترتسم على سهاء بيضاء » أو « حصان أبيض غارق في الطمى » ( ٣٣١ ) .

وإذا ما كان أسلوب فنسان في وصف الطبيعة بهذا الثراء في الصور والتشبيه ، فإن أسلوبه في كتابة الخطابات لا يقل جمالا أو تنوعا . فهو عندما يكون على صلة طيبة بأخيه ، تلوح منه نبرة صداقة ، وإذا ما اختلف معه ، فإن لهجته تتأثر وتتغير ويعلو صوته بلا مواربة . كأن نقرأه مثلا يقول عقب احدى المشادات بينهها : « اغفر لى تعبيراتي المريرة التي استخدمها لأشرح لك الموقف بوضوح : انني معك في أن ألوان كلهاتي صارخة حادة وشديدة الصراخ ، لكنك بهذه الطريقة ستفهم ما أعنيه أكثر مما لو درت حول الإناء » (١٥٣)

وإذا ما زاد الخلاف بينهما وبدأ أخوه تيو يؤنبه على لهجته ، فإن فنسان يجيبه قائلا : وهل تريد منى أن أكتب لك بأسلوب تجارى ، بلهجة جافة محسوبة وكليات زائفة ، لكى لا أقول شيئا فى نهاية المطاف ، أم تريدنى أن استمر فى الكتابة اليك مثلها كتبت لك فى الاونة الأخيرة حول مختلف الأشياء ، كاشفا لك أفكارى التى تنبت وتتولد فى ذهنى من غير أن أقص أجنحة الكليات ، ودون خوف من تلك الدرجة التى عليها نبرة صوى حتى لا أدفنها فى الأعياق ؟ ! فيها يتعلق بى ، أفضل أن أكتب لك أو أن أقول لك ما أفكر فيه صراحة ، (١٦٩) .

ان هذه الصراحة الواضحة فى الفكر والأسلوب يستخدمها فنسان بنفس الصدق على كافة المستويات . ان الخطابات المتعلقة بهذا الاختلاف فى الرأى أو فى وجهات النظر الاجتماعية أو الأسرية بين الأخين تمثل قمة الحوار لدى انسان بلغ التعبير بالكلمة عنده حد الكشف عن جراح لانهائية لم تندمل . .

ومع ذلك ، فإن هذه الصراحة اللغوية ، وهذا الأسلوب الحيوى ، يأخذ شكلا غتلفا من حيث المدى في الخطابات التي يتحدث فيها فنسان الى والده . فإذا ما كانت خطاباته المتعلقة بتجربته الغرامية تكشف لديه عن تشابه بالأديب ستندال Stendhal حينها يتحدث عن بلورة الحب ، فيمكن القول بأن خطاباته لأبيه بمثابة ذوبان هذا الحب وضياعه . اذ ان هذا الأب الذي كان شبيها بالنبي في نظر ابنه ، هذا الأب الذي اعتبره فنسان و أجمل من البحر » ، ستتكشف طبقاته تدريجيا ومنطقيا ، الى أن تتم تعريته تماما ليعلن عن طبع أبعد ما يكون عن الأنبياء ، بل ليعلن عن طبيعة بشرية مزودة بالمخالب! (٣٥٨) .

ومع ذلك ، يبقى الحب . . فأبسط حركة انسانية من هذا الأب الجارح كفيلة بأن تنسى فنسان مرارة أية اساءة مهما كانت طبيعتها أو خيبة أمله العميقة تجاهها .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك فنسان وعاش ذلك الانتهاء الذى عبر عنه سارتر في كتابه مواقف ، بل لعله قد أدرك قبل سارتر بكثير كيف يمكن للكلمة أن تكون نداءً ، وصحوة ، وفعلا محركا ، وذلك ما نراه فى الحوار ، الجدلى الذى أقامه مع الفنان قان رابار Van Rappart حول الجهال الأكاديمى والجهال الحقيقى ، حول الفن وفقا للأشكال المتحجرة والفن وفقا لرؤيا الفنان الابداعية . وها هو يقول : . وانى لا أكتب لك ارتجالا ، وانما بالجدية الواجبة التي يمكنك ان تتصورها ، وذلك

رغم انطلاقة خيالى ، مثلما قلت آنفا . اننى لا أكتب لك لمجرد الثرثرة . لأن لى هدفا محددا . ألا وهو : إيقاظ رابار Rappart ، (R. 1) .

وإذا ما اكتفى بعض النقاد ، للأسف ، بألا يروا في هذا الجانب الأدبي عن فنسان سوى بعض الأخطاء الاجرومية أو بعض التعبيرات الدارجة . وهي تعبيرات قد لا يلحظها المرء بالنسبة للمضمون الانسان العميق الشديد الشاعرية للمراسلات ، فعلينا أن نذكر بأن هذه الخطابات مكتوبة بشكل عفوى وتلقائي ، تحت وطأة الآلام المعاشة والحوار الصامت مع التراث عبر القلم وفي طبات الأسطر ، بلا أي هدف حرفي أوحتى أي فكرة للنشر . ومع ذلك ، فمن هو المؤلف أو الكاتب حتى بين هؤلاء النقاد – الذي لا يراجع النص الذي كتبه قبل بل وأثناء طباعته ؟!

بقى أن نتحدث عن ذلك الملمح الجديد الآخر ، والمميز لكتابات فنسان . ألا وهو : النقد .

#### فنسان ناقدا:

ان التحدث عن فنسان كناقد أدبي أو فنى قد يبدو للوهلة الأولى - محاولة دعائية وقد يعطى الاحساس بمحاولة اضفاء مزيد من الميزات لهذا الفنان المبدع . غير أن قراءة المراسلات تكشف ، منذ صفحاتها الأولى ، عن هذه الملكة التلقائية لديه ، والتي كانت تتكون وتتطور دون اتباع منهج علمى محدد . فقد اعتاد أن يحدد مميزات العمل الذي يقرأه أو يشاهده بالنسبة لنفسه وبالنسبة لصاحبه ، مثلها كان يحدد مميزاته بالنسبة لأنداده وبالنسبة للمجتمع . ومن هنا يمكن القول بأنه كان أبعد ما يكون عن الدوجماتية ، وأن النقد لديه كان يتطور مع تطوره الذاق ، وما أكثر الدلائل التي تشير لذلك كله في المراسلات ، من قبيل قوله : « فيها مضى كنت أرى كتابا للمؤلف جيزو Guizot بنفس جمال كتاب للأديب ميشليه Michelet . ، لكن كلها استوعبت الموقف أكثر بدأت ألحظ التناقض بينهها . فأحدهما لا يكف عن الدوران وينتهى الى الابهام ، بينها الأخر ، على العكس من ذلك يستطيع أن يلتقط الانعكاسات اللا نهائية لموضوعه » .

وكتب عن قراءاته المفضلة يقول: « اعترف أننى فى بعض اللحظات أميل إلى اعهال هوفهان Hoffmann وادجار پو Edgar Poe (القصص الخيالية ، الغراب ،

الخ ) إلا أننى أجد هذا الخيال المعتم عسبرالهضم ولا معنى له لأنه لا علاقة له بالواقع أى أننى أراها اجمالا أميل ما تكون الى القبح » ( ٢٩٩ ) .

بينها كان اعجابه الشديد يميل إلى تلك الأعال التي يكتبها أدباؤهم في نظره ومصوري شخصيات ، من أمثال فيكتور هيجو وإميل زولا وتشارلز ديكنز Charles Dickens . وان ذلك لا يعني أنه لم يكن يقوم بالتمييز بين اختياراته الأخرى . وها هو ينصح شقيقته فيلهلمين ان تقرأ موباسان Rabelais ، وروشفور Rochefort أو فولتبر Voltaire في كانديد وذلك اذا أرادت الضحك . أما إذا أرادت وأن ترى الحقيقية ، أن ترى الحياة كها هي في الواقع ، فستجدين روايتي جرميني لاسرتو Germini Lacerteux ، والطفلة إليز – على سبيل المثال – عند جونكور Goncourt ، أما عند إميل زولا فستجدين رواية بهجة الحياة ، والحافة . وما أكثر القيم الأدبية التي تعكس الوجود مثلها نواه ونعيشه ، فهم يشبعون تلك الحاجة الماسة لدينا لأن تقال لنا الحقيقة » ( W . ) .

ولقد كان فنسان يقرأ باحثا عن ذاته ، وباحثا عن الانسان عبر العمل وباحثا عن الحقيقة دوما . وهنا يكتب قائلا : وأنا أيضا أقرأ الإنجيل أحيانا تماماكما أقرأ كتابات ميشليه أو بلزاك أو إيليوت Eliot ، الا أننى أفسره بطريقة أخرى تخالف أبى : فمن المحال بالنسبة لى أن أفسر الإنجيل مثلما بفعل هو ، أى وفقا للوصفات الأكاديمية التقليدية ، ( ١٦٤ ) .

ان طريقة التفسير الذاتية هذه ، التي تميز النقد عامة لدى فنسان ، فهو بحكم على الكاتب بناء على مجمل كتاباته ، لذلك كان يصر على قراءة ، الأعمال الكاملة لأديب ما لكى يتمكن من تكوين فكرة حقيقية عن مدى ملكاته الأدبية بل لم يكن يكتفى بهذه القراءة الكاملة لأعمال الأديب ، وانحا كان يقرأ بدقة باحثا عن الرسالة التي يرمى اليها المؤلف وما يود قوله من كتاباته . • إن القراءة بإمعان تجعلنا ندرك مثلا كيف ان تفاهات الحياة اليومية الزوجية التي يصورها بلزاك ليست تفاهات ، وإنما أشياة شديدة الجدية : انه يعبر عنها بأطيب النوايا ، لا بغية التفرقة وانحا من أجل مزيد من الترابط بين المتزوجين . الا أن معظم القراء لا يفسرونها بهذا الشكل الحرام كريد من الترابط بين المتزوجين . الا أن معظم القراء لا يفسرونها بهذا الشكل الحرام كيفسرونها بهذا الشكل الحرام كيفسرونها بهذا الشكل المناس (٢٦٧) .

وإذا كان شديد الإعجاب بروايات بلزاك ويراها مليئة بالحياة ، بل ويدافع عنه أحيانا ويرى فيه واحدا من مصورى المجتمع أو شريحة بأسرها من عصره ، فإن ذلك لم يمنع فنسان من انتقاد شخصيات الفنانين الذين جاء ذكرهم في الكوميديا الانسانية لبلزاك ، فقد وصفهم فنسان وأشخاصا ثقال الطل ومملين » ( R . ۳۸ ) .

وبعد أن قرأ رواية «ثلاث وتسعون » لفيكتور هيجو ، وذلك عقب قراءته رواية المطبخ كتب يقول : « أخيرا قرأت رواية ثلاث وتسعين لفيكتور هيجو . ان الجو جد مختلف . . ان لم تكن قد قرأتها فإنني أحثك من كل قلبي على قراءتها ، لأن الاحساس الذي كتبت به هذه الرواية قد أصبح نادراً بجرور الزمن ؛ ولا أرى بين الأعيال الأدبية المعاصرة ما هو انبل من هذا العمل » (٢٤٧) .

أما آراء فنسان حول أعال رينان Renan ، فإنها تقترب من تلك الصفحات الموسيقية الإيقاع التي يصف فيها الطبيعة ، مثل قوله : « لم أعد قراءة كتب رينان الممتازة . لكن كم أفكر فيها هنا وسط أشجار الزيتون والنباتات الأخرى المميزة والسياء الزرقاء . آه ! كم هو عتى في كتاباته وما أجمل أعاله التي يحدثنا من خلالها بلغة فرنسية تنضمن في أصدائها زرقة السياء وحفيف أشجار الزيتون الناعم وآلاف الأشياء الصادقة المفسرة والتي تجعل من كتابته للتاريخ عبارة عن بعث ومما يحزنني أشد الحزن والأسى أن تصل الأحكام المسبقة للناس والتحيزات الى ادانة مثل هذه الأعيال الجميلة التي تم ابداعها في زمننا . آه ! يا للجهل الأزلى ، ويا لسوء الفهم الأزلى ! وما أجل أن يعثر الانسان على كلمة صادقة حقيقية صافية . . بارك الله في طيبة ، ابنة تلوى Tehué ، كاهنة أوزيريس ، الني لم تشكو أبداً من أحد ، طيبة ، ابنة تلوى Tehué ، كاهنة أوزيريس ، الني لم تشكو أبداً من أحد ،

وبعد أن وصل فنسان الى استشفاف موسيقية اللغة وارتفع الى مجالات الإبداع وما تفرضه من شعور بالوحدة ، يبدو أنه قد تبنى صمتا فلسفيا ، أشبه ما يكون بصمت طيبة ، اذ انضوى مع ذاته بعيدا عن كل شيء . .

ومن بين كل الأدباء الذين تحدث عنهم فنسان ، فإن زولا يعد مثلا مميزا لديه ، اذ يمكننا متابعة تطور نقد فنسان له منذ اللحظة الأولى التي اكتشف فيها أعمال هذا الأديب لأول مرة ، الى أن توغل في عالمه الجديد .

لقد اكتشف فنسان الأديب إميل زولا في السادس من شهر يوليو عام ١٨٨٢ عندما قرأ له صفحة حب ، وقرر بعدها أن يقرأ كل أعماله ولقد كتب في الرابع عشر من شهر يوليو قائلا : « ان إميل زولا هذا الفنان عظيم ؛ انني اقرأ له حاليا معدة باريس ، انها رواية جميلة بعنف » .

وفى شهر أغسطس من نفس العام ، كتب قائلا : «لقد قرأت رواية خطيثة الأب موريه Mouret . ورواية سيادة أوجين روجون Mouret . ورواية سيادة أوجين روجون هذا ، ذلك الطبيب لزولا . ، انها روايتان جيلتان لكن يبدو لى أن بسكال روجون هذا ، ذلك الطبيب الذي نلقاه دوماً في خلفية عدة روايات ، كشخصية نبيلة ، انما يمثل الدليل الحي على أن هناك دائها وسيلة ما للتغلب على اللعنات بالحيوية والمبادىء مهها كانت درجة الانحلال ، (٢٢٦) .

وفى الخطاب التالى كتب قائلا: «لقد انتهيت من قراءة رواية المطبخ لزولا . اننى أرى أن أقوى الفقرات هي تلك التي يصف فيها ولادة آديل ، تلك الطباخة الريفية التي تعيش بقملها في القبو الشحيح الإضاءة . كما أن شخصية جوسران Jesserand مرسومة هي الأخرى بأسلوب قوى ملىء بالإحساس ، (٢٤٧) . وفي مناسبة أخرى بعدها ها هو يقول : «يا لروعة أعمال زولا ، اننى افكر خاصة في رواية الحانة ، (٢٨١) .

وإذا ما كان فنسان قد قرر قراءة كافة أعيال زولا بغية أن يدرك ما ترمى اليه برمتها ، فإن ذلك لم يمنعه من قراءة أعيال أخرى في نفس الوقت اذ كتب يقول : 
و لقد أتممت قراءة ذكر لكامى لمونييه Camille Lemonnier انها رواية جميلة . 
تحذو حذو أسلوب زولا . أى أن كل شيء فيها مأخوذ من الواقع وتم تحليله بدقة » ( ٢٨٤ ) .

لقد كان فنسان يواصل القراءة والمقارنة والتفسير والتحليل للأعهال والأدباء . وها هو في الخطاب رقم ٢٤٨ يقول : « أخيرا استطعت بالأمس أن أقرأ أحد أعهال ميرجر Murgre ، شاربي المياه . إنني أجد فيه نفس الجاذبية التي في رسومات ناتيني Nateuil ، وبارون Baron ، وروكبلان Roque plan ، وتوني جوهانو Tony ، مع مسحة من الذكاء اللهاح .

و ومع ذلك ، يبدو لى أن هذا المؤلف تقليدى بعض الشيء ، على الأقل فى العمل المذكور آنفا ، غير أننى لم أقرأ له أى عمل آخر إنه يختلف عن الفونس كار Alphanse Karr ، وسوفستر Souvestre ، مثلا ، قدر اختلاف هنرى مونييه Henri Monnier وكونت \_ كاليكس Conte-Calix ، عن هذين الفنانين . اننى أتعمد ذكر المعاصرين لكى يمكننى المقارنة بينهم . قد نجد فى روايته ذلك الجو البوهيمى الشائع فى وقتنا هذا (وإن كانت حقائق العصر مخيفة فى طيات هذا

الكتاب) وذلك هو ما يعنيني أنه يفتقد الى الابتكار والى الاحساس الصادق. أن أعيال نفس الأديب والتي لم تكن شخوصها من المصورين أفضل بكثير من شخصيات هذه الرواية: ألا يقولون ان الأدباء الذين يتعرضون لخلق شخصيات لمصورين انما يجازفون بالفشل ؟ خذ مثال بلزاك ، ان شخصيات المصورين الذين أبدعهم لا قيمة لهم أما شخصية كلود لانتيبه ، ان شخصيات المحقيقية أمثال كلود لانتيبه ، وهو مثال حقيقية ومثال كلود لانتيبه ، وهو مثال مأخوذ من الواقع – وان كنت أفضل لو أن زولا قد عبر عن شخصيات مصورين مستلها نماذج أخرى ليست بأسوأ ما في المدرسة المساة بالتأثيرية ، اذ ان هؤلاء لا يمثلون نواة حقة لجاعة الفنائين ٤ (٢٤٨) .

واذ عاد فنسان الى قراءة أعيال زولا ، كتب فى شهر يونيو عام ١٨٨٣ يقول : ولقد قرأت قصة عداءاتى لزولا . هناك أشياء جميلة جدا فى هذا العمل ، وإن كان زولا يخطىء \_ فى نظرى \_ فى افتراضاته العامة . ومع ذلك لا بد من مراعاة : أن ما يعجب الجمهور عادة هى الأشياء التقليدية ، ما اعتادوا رؤيته كل عام ، ما اعتادوا عليه من شحوب وكذب منمتى ، وعادة ما يرفضون الحقائق الجلية بكل قواهم ، (٢٩٧) .

وفى بداية شهر يوليو راح يدافع عن هذه الرواية فى خطاب طويل مكون من ثلاث صفحات الى صديقه الفنان رابار (R. ۳۸). وبعد ذلك شهر، تبنى احدى جمل زولا قائلا: «إذا ماكنت، حاليا للهاء أساوى شيئا، فإذ ذلك يرجع الى أننى وحيد وأمقت الحمقى، والضعاف، والمعتوهين، والثرثارين البلهاء الأغبياء» (٣٠٥). وبعد ذلك بقليل، أخذ يتبين الأسباب الحقيقية الني تؤدى الى ضياع النسوة في رواية الحانة اذ يقول: «ومع ذلك، فهؤلاء النسوة لسن سيئات، اذ أن خطأهن وخطيئتهن ترجع الى استحالة الحياة المستقيمة وسط الثرثرة والنميمة الكامنة في الضواحى الفاسدة، (٣١٧).

وفي هذا المجال ، فإن فنسان يعتبر زولا واحدا من أفضل الأدباء الذين يتناولون العصر الراهن ؛ (٣٣٣) ، وإن كان يختلف معه حول رؤيته في أن الفنان الذي فتح الآفاق العريضة للفن المعاصر هو ميليه Millet وليس مانيه Manet (٣٥٩) . ومن الملفت للنظر ذلك الذي يغوص فيه فنسان مبحراً في العالم الأدبي لزولا والى أي مدى يتحدث عن شخصياته وكأنها شخصيات حقيقية !

وهناك بعض الفقرات حول رواية ثعيم السيدات من قبيل مقولته عنها بأنها « رائعة » أو « سامية » بما فيها من غموض \_ تجعله يقارنها بلوحة « صلاة التبشير » للفنان ميليه ( ٣٧٨ ) . الا أن الرواية التي كان توافا الى قراءتها بفارغ صبر فهى الحصاد ، التي التهمها بنهم ، وأعجب بها أشد الاعجاب لأنها ذكرته بمنطقة بوريناج وعمال المناجم الذين عاش بينهم ذات يوم ( ٤٢٩ ) .

وقد وصل به التأثر بهذه الرواية والانفعال بذلك البؤس الآدمي لدرجة دفعته الى رسم عدة لوحات تتصل بهذه الرواية ووقائعها وشخوصها .

وإذ راح يعيد قراءة رواية عداءاتى ، وتلك كانت عادته كلما اهتم بعمل ما ، كتب معبراً عن اعجابه بالنزعة الانسانية عند زولا قائلا : ( ان زولا الذي يخطى ، بعنف في نظرى حندما يتحدث عن فن التصوير ، يقول في عداءاتي تعبيراً جد جميل عن الفن بصفة عامة : انني أبحث في اللوحة (في العمل الفني) عن الانسان ، أبحث عن الفنان واحبه ، (٤١٨) .

وما أن بدأ فى قراءة الرواية الجديدة المسهاة العمل الفنى حتى راح يقول « أظن ان هذه الرواية ، مع توغلها بصورة ما فى عالم الفنانين ، سيكون لها أثر طيب . ان الجزء الذى قرأته صادق تماما » (٤٤٤) .

وفى الخامس من شهر يوليو عام ١٨٨٨ كتب قائلا : « لقد انتهيت لتوى من اعادة قراءة رواية تعيم السيدات ، ووجدتها أجمل من ذى قبل » (٣٤٨٢) .

ومع الوقت ، يزداد موار الانفعال لدى فنسان وينخذ الامتزاج بين العالم المعاش والعالم الحيالي بعداً أكثر اتساعا ، اذ كتب يقول : « بالنسبة لى ، ان الكتب والواقع والفن تمثل كلا واحدا لا يتجزأ ، ( ٢٢٦ ) . ومن هنا نجده يرى أن فلاحى منطقة آرل Arles يذكرونه بشخصيات زولا ( ٩٠٠١ ) ؛ وإن يوما يقضيه في منطقة مونماجور Montmajour سيكون له نفس أصداء الجنة التي يصفها الروائي مونماجور وإن مدينة آرل تجعله يقول : « إنني أشعر بكل من زولا وفولتير Voltaire في كل مكان بشكل لا ارادى . انه احساس في غاية الحيوية » ( ٥١٩ ) .

ولعل أجمل تحية يمكن أن يكتبها عن أديب ، تلك التي قالها : « لقد قرأت رواية الحلم لزولا . لذلك لم تكن لدى أية لحظة اكتب لك فيها » ( PB.P ۱۹ ) .

وبعد ذلك بعدة أيام كتب عن نفس هذه الرواية قائلا : ( ان صورة المرأة التي تقوم بالتطريز جميلة الى حد بعيد وكذلك وصف التطريز الذهبي . إذ ان الوصف هنا يتناول الفروق اللونية لمختلف أنواع الأصفر بتنويعاتها ، (٥٩٣) .

وها هو يلخص رأيه فيما ستقوله الأجيال القامعة عن أعمال ذلك الرواثى الكبير ، ممثل مذهب الطبيعية في الأدب قائلا : « إن روايات زولا ستظل جميلة دوما لأنها صادقة الحياة » ( ٥٩٧ ) . أما آخر جملة خص بها ذلك الأديب فهى : « إن اعجابي بزولا يفوق الحد . . » .

ومثلها تكشف المراسلات عن فنسان ناقدا أدبيا فإنها تكشف عنه ناقدا فنيا بنفس الصدق ، مهتها بالتعبير الذاتي للفنان ، ويقف دوما بجانب الحياة . ولا نذكر هنا الاعلى سبيل المثال قوله : «إن بورتريه الفنان كوربيه Gurbet حيوى الرجولة حر التعبير ، ملون بمختلف الألوان العميقة الحمرة والذهبية والبنفسجية ذات الظلال ، وقد استعان بالأسود لإبرازها ، كها استعان بقطعة نسيج يشوبها البياض لكى يربح العين . إنه لأجمل من أى بورتريه لأى فنان آخر اكتفى بالاهتهام بنقل وتقليد ألوان الوجه بدقة مفزعة » ( ٤٢٩ ) .

وبفضل ذلك الثراء التعبيرى ، الشديد التنوع والألوان للجانب الأدبي للمراسلات لا يمكن اغفال تلك الفلسفة الانسانية الهادثة التي تشع بتواضع من هذه الصفحات النابضة عبر الزمان .

ان ذلك الانسان الذي كان يكره الموت ، وأدان مختلف أنواع الأحكام المؤدية إليه ، سواء أكانت طبيعية أم مسبقة . . كان يبجل الحياة حتى وان أدى ذلك الى عدم فهمه أو إلى أن يلعنه المجتمع . لقد كان يحتفظ بشعلة الأمل متقدة في أعهاقه ، رغم عمق آلامه الدافعة الى الياس .

ولقد آثر العزلة ليكرس نفسه كلية لعمله ، لذلك العمل الذى كان يحلم بتحقيقه وإن أودى بحياته . . وهنا يتضح مدى التناقض الذى دارت مأساة هذا الانسان فى رحاه . . إذ أن ذلك الإنسان لم يكن بحاجة \_ على حد قوله \_ الا الى اللانهائية والمعجزة . . اللانهائية كمجال للمشاركة والحوار ، والمعجزة كامكانية لتحقيق هذه الرغبة . . و فذلك هو ما عبر عنه الرجال العظام فى أعهالهم ، أولئك الذين فكروا وبحثوا وعملوا أكثر من غيرهم ، أولئك الذين أحبوا وتوغلوا فى أعهاق

عيط الحياة أكثر من غيرهم . و فالاتجاه ناحية الأعماق هو واجبنا أيضا ، إذا اردنا أن نحقق شيئا ذا قيمة ؛ وإذا ما اضطررنا إلى العمل طوال الليل دون أن نصل الى شيء ، فلا يجب أن نياس بسبب ذلك ، وعلينا أن نلقى بشباكنا مرة ثانية عند الفجر ، (١٢١) .

تُرى أيَّةُ مبالغة في أن نحييٌ ذلك الانسان بنفس التحية الثلاثية التي استقبلت بها الإلهة أرتميس أبوللو وهو عائد من فتوحاته في الكون الأثيري؟:

والمرابية والمراوية والمناوية فيتكاف أرازا فالأفاقلال والمراد

ولقد آمنت بعملك: وتلك علامة نبل سلالتك.

( لقد أردت عملك : وتلك إرادة بطوليه.

ولقد أتممت عملك: لذلك اخترت من بين ألف،..

### اكتثاف الدينة

ان هذه الفترة التي تعرض خلالها فنسان الى سلسلة من الفشل والتغيرات المفروضة والاحباطات بعامة توضح من ناحية ، اكتشافه للمدينة ومتآمرى مؤسساتها . ومن ناحية أخرى ، فهى تكشف عن تكوين وعيه وادراكه موقفه حيال ذلك المجتمع ، وهو التطور الذي سوف نلحظ تكوينه منذ بداية كتاباته بأسلوب بسيط ، تلقائي ومباشر ، ذي تعبير ذاتي شاعرى . وهي الميزة التي تظهر منذ الخطاب الأول وتتضح معالمها طوال المراسلات .

## لاهای (أغسطس ۱۸۷۲ ـ مایو ۱۸۷۳):

كان فنسان في السادسة عشرة من عمره عندما اضطر الى أن يوقف تعليمه في مدرسة بروڤيلي Provily الداخلية لكي يعاون والده الذي كانت موارده المالية غير كافية وبفضل عمه ، الذي كان أحد ملاك قاعة عرض جوبيل Goupil سابقا . في مدينة لاهاى ، استطاع أن يُعين فنسان بائعاً بها اعتبارا من عام ١٨٦٩ . الا أن من يتصدى لترجمة حياة فنسان لن يمكنه متابعة خط سير حياته الا ابتداءً من شهر أغسطس عام ١٨٧٧ ، وهو تاريخ أول خطاب منشور . ومع ذلك ، فلا يمكن الجزم بأن هذا الخطاب يمثل حقا بداية المراسلات ، إذ ان فنسان كان قد تسلم عمله قبل ذلك بثلاث سنوات ، أي أنه كان بعيدا عن داره وذويه منذ هذه الفترة ، عا قد يشير الى وجود مراسلات له تتصل بهذه الحقبة ، ورغم كل شيء ، فإننا إذا ما تناولنا الخطاب الذي يقال انه الأول ، نراه يتكون من حوالي عشرة أسطر ، غير أنه يكشف عن السمة المميزة ، أو لنقل ، النقطين البارزتين اللين ستزدادان وضاءة مع الوقت ، الا وهما : حب الخير والشعور بالوحدة أو الاغتراب . وكلها مشاعر تلقائية منفردة دفينة الأبعاد ، تتناقض مع مظهر شاب مرح محب للحوار .

وفى شهر أغسطس عام ١٨٧٧ ، وبعد أن حضر تيو لتمضية بضعة أيام فى الإهاى مع أخيه ، عند آل روس Roos ، حيث كان يقطن فنسان . يبدو أن تيو قد كتب بضعة كلمات شكر لأخيه عند عودته ، اذ أن للراسلات تبدأ بالرد على هذه الكلمات .

وإذا ما كانت الحياة تبدو ( غريبة ) بالنسبة لفنسان بعد سفر أخيه ، مثلها كتب في ذلك الخطاب المؤرخ شهر يناير ١٨٧٣ ، فقد كان سعيدا اذ عرف من والديه ، أن أخاه الأصغر قد تم تعيينه في نفس المؤسسة التي يعمل بها . لقد كان تيو في السادسة عشرة هو الآخر عندما اضطر الى الانقطاع عن الدراسة لكى يعاون أسرته ، وقد تم تعيينه بالفعل في فرع المؤسسة بمدينة بروكسل .

وإذا ما كان طقس شهر أغسطس يعلن عن أفول الصيف وقدوم الخريف ، الا فنسان كان مازال يعيش فصل الربيع . . وكأن شعاعا جديدا بدأ يلوح في أفقة الجزين . اذ شعر آنئذ بجانب ذلك التألق العاطفي بالارتياح الغامر ، فها هو أخوه يشاركه العمل في تلك المؤسسة . لقد تلاشي شعوره هونا بالغربة ، ومن ناحية أخرى فقد حصل على علاوة قدرها عشرة فرنكات فزاد راتبه الى خسين فرنكا ، بالأضافة ألى حصوله على نفس القيمة كحوافز انتاج . وكان ذلك و رائعا » بالنسبة له . رائعا ولاشك بما أنه بدأ يلحظ امكانية تحقيق حلمه الدفين وأمله في أن يعول نفسه ، دون وطأة الاحساس المرير بالتبعية . لقد أصبح بإمكانه أخيرا أن يحلق في المينة وفي الطبيعة ، وأن يكون هو نفسه ا . . وراح يدون بهدوء يتسم بالنضج بالنسبة لأعوامه التسعة عشرة قائلا : وإذا ما كانت الحياة صعبة أحيانا فكل شيء بالنسبة لأعوامه التسعة عشرة قائلا : وإذا ما كانت الحياة صعبة أحيانا فكل شيء وما كان فنسان يتمناه في الواقع ، كان أبعد ما يكون عن تجارة الفن كما سيتضح من وما كان فنسان يتمناه في الواقع ، كان أبعد ما يكون عن تجارة الفن كما سيتضح من

لقد بدأت سعادته الوليدة تنعكس بشغف على خطاباته . لم يكن يحجب شيئا مما يكتشفه أو يفكر فيه ، وراح يطلب من تيو أن يكتب له بنفس الإسهاب التلقائي ، ويحدثه عن كل قراءاته أو كل اللوحات الفنية التي يراها وكأن تجربته الذاتية لا تكفيه لرى ظمئه أوكأنه يثريها بتجارب الآخرين . .

وبخلاف عمله الذي كان يؤديه على أكمل وجه ـ حتى إنه حصل على علاوة لراتبه ـ فإن اهتهامه الأكبر كان التحاور مع الطبيعة . فقام بتلك الجولات المتعددة التى تملأ أعطافه بهدوء لا نهائى يرتفع بقامته ليضارع كبار الرومانسيين الذين كانوا يخصون الطبيعة بعبادة راسخة . وكم كتب فنسان من صفحات متألقة البلاغة مترنمة بايقاع رهيف لفنان يتنسم من الطبيعة رحيق الجمال والحياة .

وفى شهر مارس عام ١٨٧٣ ، بدأت آفاقه تغيم : فقد أحيط علما بنقله إلى فرع المؤسسة في لندن ! ولقد واجه فنسان هذا النبأ بعلامة استفهام كبرى تمثلت فى انبهاره وهلعه معاً من هذا التغيير ، وبدلا من أن ينزلق فى كآبة عامة ، وهو الذى لم تكن من عادته أخذ المسائل من جانبها المأساوى ، بدأ يتروى لتحديد الجوانب الطيبة لهذا التغير ، وكان أولها : ضرورة انتهازه هذه الفرصة ليتعلم اللغة الانجليزية ، التى يفهمها جيدا لكنه لا يتحدثها بطلاقة بالاضافة الى احساسه بما ستتيحه له هذه الفرصة من التعرف على الفنانين البريطانيين ومشاهدة أعمالهم عن قرب .

غير أن هذه الرؤية الموضوعية ، وهذه الطريقة الايجابية لبحث المواقف ، لم تمنعه من أن يتساءل حول السبب الحقيقي لنقله . ، وهكذا اعتراه القلق ؛ اذ لم يعثر على اجابة تبرر له هذا التصرف . فلجأ الى الغليون يستمد منه الشجاعة ، اذ كتب يقول : و انه علاج ممتاز حينها يصاب الانسان بالقلق وتساوره الهموم مثلها يحدث لى من آن لأخر في الأزمنة الراهنة » . ( ٥ ) . وهكذا انتقل فنسان الى لندن وهو يحث خطاه لرؤية أفق جديد وان تداخل خيط رهيف لِفم قلق حاول أن يتجاوزه ، لكن لندن بوقائعها كانت شيئا آخر .

# لندن (يوينو ١٨٧٣ مايو ١٨٧٥):

على عكس ما كان فنسان يتوقع ، فإن مدينة لندن كانت تدخر له العديد من الاحباطات وخيبة الأمل . وكان أولها يتعلق بالعمل : اذ تم نقله الى مخزن متواضع للوحات ! ورغم أن عمله الجديد أتاح له فسحة من الوقت على عكس عمله فى لاهاى ، الا أنه وجد نفسه للأسف بعيدا عن أى اتصال بالجمهور وفى هذه العزلة المفروضة ، عثر فنسان على إجابة لتساؤله وفهم السبب فى استبعاده . . لقد كان ذا عيب كبير فى نظر أصحاب ومديرى المؤسسة . وهو أنه كان يدلى برأيه فى اللوحات التي يقدمها للزبائن ، ويوضح لهم اذا ما كانت اللوحة جديرة بالاقتناء ، أو أنها لا تساوى شيئا من الناحية الفنية ، أو ما إذا كانت مجرد عمل منقول وليس أصليا !

وبما أن عمه كان صاحب هذه التجارة فيها مضى ، ولما تزل له بعض المصالح في هذه الدار ، فإن أصحابها الجدد لم يكن . في وسعهم أن يبدأوا بفصل ابن شقيقه . فقد اكتفوا باستبعاده . وأودعوه مخازنهم في مدينة لندن ، بعيدا عن أى اتصال مباشر بجمهورهم المبجل !!

أخذ فنسان يقوم بمهام وظيفته بهدوء ، من التاسعة صباحا وحتى السادسة مساءً . دونما شكوى . . دونما رنة ألم تصدر عنه . لقد كان يمضي أمسياته بصحبة . ثلاثة من الألمان من نزلاء نفس الفندق الذي حط رحاله يه ، كانوا مثله يجبون الموسيقى والغناء ويجيدون العزف على البيانو ، غير أنه ما أن دخل دائرة صحبتهم ، وخطا أولى خطواته بينهم ، حتى اصطدم بازمته اللا نهائية . أن رفاقه ينفقون ببذخ ، أما هو فإمكاناته محدودة ولا تسمح له بمجاراتهم . وفي صمت شديد ، رغم تعلقه بالرفاق والموسيقى التي سيسرها فيها بعد ، تباعدت خطاه عنهم ليحيا عزلته من بالرفاق والموسيقى التي سيسرها فيها بعد ، تباعدت خطاه عنهم ليحيا عزلته من رحابها الواسعة . . فانساب لروعة جمالها الذي يتسم بمزاق وعطر نفاذ جد مختلف عها الفه من رحيق تلك المناظر الهولندية والبلجيكية . وبهدوء شديد ، بينها كان ينصت الى زنين الأجراس البعيدة ، أخذ يغوص في تلك الشمس الشديدة الحمرة ، التي تتدفق منها اشعاعات متعددة الألوان عبر فيوضها . .

وانعكس هذا التلألؤ في تلك التعبيرات والرؤى التي غمرت كيانه قبل أن تنساب على صفحات مغموسة بالكليات الحزينة . لقد جذبته الطبيعة مثلها استغرقه الأدب الانجليزى ، بحيث لم يلتفت الى قصر الكريستال أو برج لندن الشهير أوحتى متحف الشمع لمدام توسو Tussaud . وانما بدأ يشع ذلك الحياس الفنى الذى كان يضىء كل الخطابات التي راح يوجهها الأهله ولمعارفه .

ومثلها كان الفنان أوجين ديلاكروا Eugène Delocrox يفعل في يومياته ، كان فنسان يقوم بنقل تلك الفقرات التي تسترعى انتباهه في قراءاته ، أو تلك التي تمثل حالته النفسية أو تكشف له عنها . وتلك هي القيمة السيكولوجية لهذه الفقرات التي تم حذف كثير منها ـ للأسف ـ في كافة طبعات المراسلات لتحل محلها مجود اشارة عابرة تشير اليها .

وبخلاف الكتابة ، لم يكن هناك ما يملأ عالم فنسان ويزيح عنه غمام الوحدة سوى الرسم والقراءة وتأمل الطبيعة . لقد كان يجاهد لاستبعاد هذه الوحدة الضارية بالعديد من المطالعات الا هذه الوحدة القاسية قد أصبحت \_ منذ ذلك الوقت \_

تلازم خطاه كظل داكن اللون . . وكأنه تجسيد لقصيدة ألفريد دى موسيه Alfred . . de Musset

وفى شهر نوفمبر عام ١٨٧٣ ، تم نقل تيو ليحل محل فنسان فى مدينة لاهاى . وهكذا سنحت فرصة جديدة لكى يقوم فنسان بمد أخيه بكافة المعلومات الضرورية بالنسبة للعمل . واقتراح المتاحف التى يمكنه زيارتها ، وكتب الفن التى عليه قراءتها ، والمجلات والدوريات التى لابد له من الاطلاع عليها ، حتى يمكنه القيام بعمله على أكمل وجه . وكم جثه على رؤية الجوانب الجميلة فى الأشياء خاصة وأن معظم الناس يرون بجوارها دون أن يلحظوها . لذلك نصحه بالتجول كثيرا ، وسط الطبيعة ، وأن بجبها ، و فهى الطريقة الوحيدة لتعلم الفن وفهمه بشكل وسط الطبيعة ، وأن بجبها ، و فهى الطريقة الوحيدة لتعلم الفن وفهمه بشكل أفضل » (١٣) ) . فمنذ تعيينه فى ذلك العمل ، وفسان يحاول فهم و المجال الغريب الروعة لعالم الابداع والخلق » ، أى فهم الفن والاهتمام به وليس بتجارته ،

ان السعادة المتزايدة التي نلحظها في هذه الفترة تمتد بنورانية تثير الفضول . وفي العام التالى انتقل فنسان ليقطن مع أسرة وصفها بأنها و شديدة اللطف ، وأن الأم وتدعى الأرملة لواييه Loyer \_ تدير حضانة للأطفال . لقد كان المسكن جميلا ، يسمح له بمشاهدة لندن والتعرف على الانجليز وعلى اسلوب معيشتهم . الا أن هذه المشاهدات لم تكن لتشغله عن اهتهاماته الأساسية وهي : الطبيعة ، والفن ، والشعر .

وبحصوله على تلك الضروريات التي يمكن أن يحتاجها الانسان ، بدأ فنسان يشعر بأنه يتحول تدريجيا إلى « مواطن عالمي حقيقي « ، وعلى حد قوله ( P ۱۳ ) ، ليس مواطناً انجليزياً أو فرنسيا فحسب ، وانما مجرد « انسان » . . انسان بأوسع ما في هذه الكلمة من معان . . وقد راح يفسر هذا المعنى فيها بعد الى الأب نيم أو يستريك Nimes Oostrijk قائلا : « أي أن يكون الانسان مناضلا » . . وهي السمة التي لازمته حتى آخر لحظة .

وتعكس المراسلات في هذه الفترة مُوْلِدَ عالم جديد يتفتح في آفاقه ، يفيض بالسعادة والحيوية . . فلقد بدأ فنسان يجب . . في صمت نبيل احتوى اعهاقه . . كان حبا عارما ، بلا حدود ، عاشه دون أن يشرك فيه أحداً ولا حتى أخيه أو والديه فلا تعكس خطابات هذه الفترة أي شيء عن أورسول Ursule ابنة صاحبة المسكن الذى يقطن فيه . ومع ذلك ، فهناك نصيحة واحدة كتبها لأخيه ، قد تنم عن شيء ما ، اذ قال باقتضاب : « يا صاحبى ، لتكن جد حريص على قلبك ، احرص عليه جيدا » ( ١٤ ) وهو تحذير تتبعه ملاحظة جلية الوضوح اذ إنه يعمل حتى الثيالة ! انه بحاجة الى أن يشغل نفسه في كل لحظة من لحظات ذلك الصمت العارم الذي يحتويه .

وفى الواقع ، كان فنسان قد تعرض لإهانة رفض جارحة من أورسول ، وهى اهانة جعلته يغرق معنويا فى دوامة « أعنى من موجات البحر الصاخب » ، بل لقد بدا وكأنه يغرق بالفعل ، اذ راح يتأرجح بين الحياة والموت . وبدءاً من خيبة الأمل الأولى هذه ، لاحت له فكرة الانتحار التى كانت تعتريه مع كل محنة جديدة ، ومع ذلك ، فقد آثر الحياة . .

رغم ما عاناه فنسان من رفض أورسول له ، الا أنه لم يترك نفسه للضياع والأحزان ، بل راح وينمى حديقته ويهتم بها و وفقا لتعبير فولتير الذى يعنى أنه لا وقت للوقوف عند شوك الأحزان ولسعاتها بل على الانسان أن يواصل تنمية ذاته وملكاتها . . وتبوعت قراءاته لتضم أعمال إيليوت ، وميشليه ، وداروين وها هو يلجأ الى الرسم من جديد ، ويوليه اهتهاما أساسياً ، ( من المعروف أن أولى رسوماته ترجع الى عام ١٨٦٢ ، منذ كان في التاسعة من عمره ) . وهو ما كتبه لأخيه تيو في السادس عشر من شهر يونيو عام ١٨٧٤ ، اذ يقول : و لقد عدت الى الرسم ثانية ، في الأونة الأخيرة ، الا أننى لا أرسم شيئا معينا بالتحديد » (١٧) .

لم يكن يرسم شيئا بعينه ، فقد كان يبحث عن خرج يجتاز به السياج العاتية لخيبة آماله أو لفجيعته المزدوجة سواء في الحب أم في عالم تجارة الفن . ومن المعروف عادة أن المحب الذي يستغرقه هيامه وشغفه بالمحبوب ثم يجابه بالرفض القاطع ، قد يندفع إلى أشكال شتى من العزوف عن الواقع في متصل من الزهد الى الانتحار والجنون . وان ما حدث لفنسان كان ينم عن مزبج قريد من الزهد والوحدة المستأصلة في تكوينه ، بجانب اضطراب بعض معالم الواقع هونا وهو الذي لم يتمكن من تنمية حبه ومعايشته في الواقع ، لذا غاص في تجارب الاخرين ليرى كينونة ذلك من تنمية حبه ومعايشته في الواقع ، لذا غاص في تجارب الاخرين ليرى كينونة ذلك الوهج . . واصبح كتاب الحب لميشله و اكتشافا جديدا وانجيلا يلجأ اليه » ( ٢٠ ) وترك ذلك الدرس بصات لا تمحى . . وابتداء من هذه الفترة أيضا بدأ التداخل

لديه بين العالم الخيالى والواقع وإن وظف ذلك كله فى عالمه الأدبى الذى أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياته ، بل أصبح العالم يغترف منه تجاربه المعاشة . .

وباكتشافه لتلك الأشواك التي أدمته في عالم الحب. الذي لم يعد يراه الا في مجال الأدب والخيال الابداعي ، اختفت رغبته في الرسم واجتاحت معها مشاعر التعبير والتجاور . وإذ أغلق حب أورسول أبوابه في وجه فنسان ، يبدو أنه قد أوصد كل شيء أمامه ليفتح له بابا جديدا على مصراعيه ، هو المجال الفني والأدبي .

لقد ترك فنسان ذلك المسكن الذى كان كل جزء فيه يذكره بخيبة آماله وبجراحه وحرمانه ، ليقطن فى مسكن مغطى كلية بنبات اللبلاب . . وكأنه بالنبوءة بالنبت الذى سيكسو مقبرته فيها بعد . . بل إن هذا الزرع ، سواء أكان متسلقا أم زاحفا على الأرض ، لن يكف عن أن يكون الرمز الدائم لعاطفته الجياشة ولوحدته الساحقة .

وواصل فنسان طريقه حزينا ، حاملا كأبته ووحدته فى صمت . . فكل شىء يبدو ذابلا ، بلا حياة . . كل شىء . . ما عدا أنين خافت يتردد فى صمت الأعماق ، عاكساً صورته على صفحة ماء نهر التايمز المضطربة . . ليلوح له السراب عن بُعد . . بلده . . أرض الطفولة حيث جذوره الممتدة الضاربة فى جوف الأرض ، تناديه فى نفس الصمت .

وبالاضافة إلى هذا الشعور بالاغتراب ، الذى أكدته مرارة احباطاته فى العمل وفى الحب ، تضافرت مرارة أخرى من قبيل الأسرة : ففى شهر مايو عام ١٨٧٥ ، ذهب كل من عمه كورنليوس وابن عمه ترستيج Tersteeg \_ وكان الأول مالكا لإحدى قاعات العرض ، والثانى مديرا لأحد فروعها فى لاهاى ، ذهبا الى لندن لإنهاء بعض الأعال دون أن يهتما حتى بمجرد القاء نظرة على قريبهم المسكين ، القابع فى مخازن تجارتهم . وهنا يشكو فنسان لأخيه بشىء من الشعور بالاهانة قائلا : وأعتقد أنها قد ذهبا عدة مرات الى قصر الكريستال والى أماكن أخرى كانا فى غنى عنها ، ويبدو لى أنه كان بوسعهما أيضا أن يلقيا نظرة حيث أقطن . آمل كما اعتقد الا أكون بهذا السوء الذي يعتقدونه فى ، (٢٦) .

لكن ما تراه فيه الأسرة وخاصة أفرادها الميسرون، لم يكن فى صالحه، فهو فى نظرهم خارج على القانون، ثورى النزعة، انسان فاشل يجرؤ على قول الحقيقة ولا يعرف المواربة والالتواء!

وفي مثل هذه العزلة الاجبارية ، كان فنسان يزداد تعلقا بأولئك الكتأب الذين يجرؤون على قول الحقيقة ، والدفاع عمن قهرهم المجتمع أو أدانهم ظلما . وكم لجأ إلى مؤلفات هاين Heine ، وديكنز ، وكارلايل ، ورينان . إن الفقرة التى سنستشهد بها بعد قليل ، والمكونة من خسة أسطر ، أثل آخر ما كتبه من فترة اقامته في لندن . لكنها فقرة تكشف عن وعيه الاجتاعى بقدر ما تكشف عن قراره : اذ ان ذلك الانسان الذي أدين ظلما ، وظل دوما غير مفهوم بل ومحتقرا من الآخرين وخاصة من أهله ، قد قرر أن يرى عن قرب تلك الأسباب التي يدان من أجلها هو وأمثاله .

وكلها أمعن النظر في أسلافه ، لم يكن فنسان يجد سوى مهنتين أساسيتين : تجارة الفن وخدمة الدين . وما كاد يخطو أولى خطواته في مجال تجارة الفن حتى اكتشف الاعيبه والزيف المحرك له . فلم يكن أمامه سوى المهنة الثانية ، التي كان والله يمثل نموذجه المحبب الى نفسه . لذلك قرر أن يختار طريقه في هذه الدنيا ، وأن يصبح مبشراً لفكرة دينية تمثل كل كيانه . فكتب يقول مع رينان : « ان الانسان لم يخلق لكى يكون سعيدا فحسب ، بل ولم يُخلق ليكون مجرد أمين . إنه هنا على الأرض ليحقق اعهالا كبيرة للمجتمع الذي يعيش فيه ، ويصل الى نبل الأخلاق ، متخطيا السوقية التي يقضى معظم الناس كل حياتهم فيها » (٢٦) .

لقد قرر فنسان أن يكرس حياته للمجتمع وأن يتوغل فى أعياقه بدلا من أن يعيشه كمتفرج هامشى يرى الواقع عن بعد . لقد قرر أن يعلو فوق الواقع ويمضى للأمام .

باریس (۱۵ مایو ۱۸۷۵ – ۲۸ مارس ۱۸۷۱):

التسامى والتخطى ، ذلك هو الهدف الذي حدده فنسان لنفسه عند خروجه من أول خيبة أمل متعددة الملامح .

وفى شهر مايو عام ١٨٧٥ تم نقله مرة أخرى . من لندن الى باريس . وإذا ما اكتفى جورج شارنصول قائلا فى ملاحظاته : د أنه بتعيينه فى الدار الأساسية ، فإن آل جوبيل كانوا يهدفون الى مساعدة موظف كان يرضيهم بخدماته منذ سبتة أعوام ، ( المراسلات الجزء الأول ، صفحة ٣٣ ) . فإن الحقيقة كانت غير ذلك تماما اذ ان السبب فى هذا النقل كان هو نفسه السبب المقنع السابق الذى من أجله تم نقل

فنسان من لاهاى الى لندن . فأيا كان البلد الذى يوجد فيه فنسان ، فإنه لم يستطع اغفال أن « هذه التجارة عبارة عن سرقة » ، وكان يقولها جهارة لمديريه !

ترى كم من الوقت سيظل فنسان فى باريس ؟ لا أحد يعلم ذلك . . وهكذا كان على فنسان ان يحيا غربته من جديد ، ورغمها فقد كان يواصل تثقيف نفسه ذاتياً ، مضيفا الى قراءاته الاجتهاعية والانسانية بعض الأعمال الرومانسية مثل موسيه Musset ، كها كان يتابع الكتّاب المعاصرين . وفى هذه الفترة بدأ تكوين مجموعة الحفر الخاصة به ، وبدأ زيارة المتاحف والمعارض بانتظام . ومن الملاحظ أنه كلما تقدم فى تكوين نفسه واتسعت مداركه عن العالم ، كلما ازداد توخلا فى الزهد والانزواء ، تعمق فى فهم ذات الله والاقتراب من حضرته . .

وفى التاسع عشر من شهر يونيه عام ١٨٧٥ كتب قائلا: و ان الانسان يفكر لكن الله يقود خطاه ٢ . . وهى المرة الأولى التي نقراً فيها اسم الله فى المراسلات ، وقد كتبه بعد كتابة الكثير عن الفن ، والطبيعة ، والحب . . ولم يفكر فى رب عقدى كبلته المؤسسات فى تفاسير جامدة ، وانما كان يفكر أن الله هو الحب الكائن فى كل مكان .

وبدأ فنسان يتحول فى صمت . لقد ظل حزينا لكنه دائم المرح \_ على حد قول القديس بطرس . لقد تلاشى احساس عارم من الورع الدينى ، المحب للغير ، لدرجة أنه عندما كان يزور معرض رسومات ميليه بمبنى درووه Drouot ، واردته هذه الجملة فى ذهنه : واخلع نعليك فذلك المكان الذى تطأه قدماك مقدس » . وتزايد التناغم ، ما بين الشعور الدينى والشعور الفنى فى أعماق فنسان ، الذى كان يشعر بتجاوب غريب بين الفنون والدين والطبيعة .

وهنا نلاحظ نفس التغيير في اختياره للفقرات التي كان يستشهد بها لأخيه تيو. ، أو في اختياره للكتب التي كان ينصحه بقراءتها أو يقوم بارسالها اليه . فلم تعد كتبا للأعمال الرومانسية أو الشعر ، وانما الانجيل ، وكتب عن حياة السيد المسيح ، وبعض المزامير والأيات الدينية .

وبذلك انتقل من الحب الدنيوي الى الدين . . الى حب الله . .

لقد غاص فنسان فى قراءاته واستغرقته الصلوات آملا أن يظل « مطمئناً طاهراً كالحيام ، وأن يصبح حريصا كالثعبان » . لا لكى يؤدّى أحداً ، وانما لكى لا يُلدغ من جديد ! وأصبح مفهمومه فى الحياة هو : الخير وعدم الاهتمام بما يقال ؛ خشية الله والالتزام بقوله . ولم يخرج فنسان عن هذه المفاهيم البسيطة والملائكية والعميقة طوال حياته .

ورغم تلك الرغبة الجامحة فى نسيان خيبة أمله العاطفية ، رغم حاجته الملحّة فى تخطى كل شيء ( ٣٧ ) ، فقد كانت الحياة فى نظره كالموت تحمل مزيدا من الأمال ــ أكثر مما تحمل من الذكريات . لقد التصق بذلك الطريق الصعب الضيق . . وفى أحلك الأيام التى مر بها ورغم كل ما تعرض له من ياس ومعاناة ، لم يكن يردد لنفسه سوى قول واحد : التقدم . . التقدم دوما . .

وبرفضه الفراغ العدمى . رغم وحدته الضارية ، حاول فنسان أن يتوحدبأبيه ، بذلك القس الذى كان يعتبره من أندر المخلوقات التي أدركت كنه الله ، الله كحقيقة مطلقة . وكان فنسان يود أن يصبح مثله و ثريا بالله ، . فآثر حب الخير والعمل والتقوى ، لكنه دفن حبه الدنيوى ، حبه الكبير لأورسول . . ليختار طريق المعاناة ، طريق الألام الذى يؤدى الى الحياة الحقة ، محتذياً نهج المسيح الذى أتى ليخدم الاخرين لا لكى يخدمه أحد .

وبأناة شديدة ، وفي تواضع محمود . أخذ فنسان في التباعد والانسحاب ، ممتلئا بطيبة غامرة وقلب كبير وتاج شوك يكلل جبهته ، وتقبل المحن بغية أن يتطهر بعد أن اختار طريقه وحمل صليبه ليتبع من أصبح مثله الأعلى ، مؤملاً في الخلاص . وهنا كتب يقول : « بعد المطر يصفو الجو » (٤١) . وتعلق بذلك الأمل بل راح يؤكده إذ أن المملكة التي كان يبحث عنها هي مملكة الايمان التي ألقى بنفسه في رحابها شغوفا متغنيا . وواصل السير والتقدم عبر الفرح والآلام ، بقلب جريح لكنه دائم السعادة ، مفعم بالشباب ، ليخوض معركته في الحياة . .

وفى باريس ، سكن فنسان فى حى مونمارتر ، مع أحد الزملاء ، وكان انجليزيا يدعى جلادويل gladwell و هو شاب ساذج ، ريفى يسخر منه جميع العاملين فى قاعة عرض جوبيل . وكان ذلك الموظف المسكين من الحَرَجُ بحيث لم يكن يخرج أبدا فى غير مواعيد العمل . . وفى الأسابيع الأولى وجده فنسان ريفى النزعة ، يأكل الخبز الجاف فى وجباته الثلاث ، وبعض ثمرات من التفاح أوالكمثرى . د وكان نحيلا كالعصا » . وشعر فنسان بالألم من تلك المعاملة التى يخصون بها ذلك الزميل ،

وبدأ يتعاطف مع و المنبوذ ، الجديد . وبعد الانتهاء من العمل ، كانا يعودان سويا الى البيت ، يأكلان معا . ثم يحضيان بقية السهرة فى قراءة الانجيل . ولم يكتف فنسان بأن يشرح له فلسفته فى الحياة وضرورة الزهد فيها ، وانما بدأ يعلمه تذوق الفن وزيارة المتاحف .

وبعد فترة خشى فنسان أن يضيق أفقه ، فعاد الى أصدقاء الصمت القدامى الذين تخلى عنهم : عاد الى كتب الأدب والشعر . لكنه عاد إليها بحرص ، يتقوّت منها الجرعات اليومية التى تساند خطاه ، فبعد ان أدان كل شيء ، بدأ يختار بحذر . وتحولت قراءاته الى منبوذ عام ١٨١٣ ، واترلو ، السيدة تريز للأديب اركان شاتريان Erkman chatrion . أما لوحات الحفر نقد اقتنى منها مجموعة الأوهام لجول بريتون Brion ، والوداع لبريون .

لقد بدأ يقرأ لكى لا يغوص فى أعهاق وحل الدنيا . وحاول البحث عن النور والحقيقة من خلال حقيقته هو ومن خلال تجاربه الذاتية الا أن القلق بدأ ينتابه من جديد كشجن ناى يسلل فى السحر ، حيث الوحدة والغربة والسكون الذى تسرى

فيه النغيات الحزينة . لقد عاد ليمسك غليونه الذي كان قد تركه منذ فترة بعيدة . وفي العاشر من ديسمبر عام ١٨٧٥ كتب لأخيه قائلا : « هل أخبرتك أنني عدت الى الغليون ثانية ؟ لقد عثرت فيه على صديق قديم شديد الوفاء ، وأعتقد أننا لن نفترق أبداً بعد الآن ، (٤٨) .

وبالفعل ، ان هذا الصديق الوفى سيكون أنيسه الوحيد حتى آخر لحظاته : وقد ظلا معا على مشارف الغروب يومين متتاليين ينتظران مجىء الموت فى صمت وبهدوء شديد . .

ومنذ ذلك الوقت ، اقتصرت اهتهامات فنسان على القراءة والكتابة وتدخين الغليون ، وعلى غكس ما رآه معظم من تناولوا حياته في نوعية أسلوبه ومضمون خطاباته من تكرار أو شوائب ، فقد كان يكتبها لحاجته الشديدة الى التعبير عها كان في نفسه . اذ كتب يقول : «يا أخى . افهم جيدا (واعتقد أنك تعرف ذلك) : اننى لا أنوى أن أمل عليك الدروس والنصح والمواعظ . لأننى أعلم أنك تعرف ما أعرفه وفي قلبك ما في قلبي . لذلك أتحدث معك بمثل هذه الجدية أحيانا »

وسافر فنسان لتمضية أعياد الميلاد مع أسرته كالمعتاد . وعند عودته فوجىء بأنه أعفى من منصبه ! وهنا أيضا يصمت المؤرخون ويخفون الحقائق حاملين باللائمة على فنسان ، مكتفين بالقول ، انه سافر بلا اذن ! الا أن للحقيقة وجها آخر يقرره لويس رولانت في كتابه عن الأخوين ، عندما يقول : « لايمكن رفت موظف يعمل منذ ست سنوات لمثل هذا السبب التافه ، خاصة وان عمه كان مازال له مصالح بهذه الدار » ( صفحة ٣١) .

أما السبب الحقيقي فيرجع إلى أن فنسان تجرأ وقال لرئيسه: وان التجارة هي حب الربح ، وحب الربح عبارة عن سرقة مقنقة ). وهي جملة تذكرنا بالتعبير الشهير للكاتب الاجتهاعي برودون P.Prudhon مهاجاً مبدأ الملكية قائلا: والملكية هي السرقة ). مما يكشف من جهة عن اتجاه الفكر الاجتهاعي عند فنسان ، ومن ناحية أخرى ، فإن ذلك يتفق منطقيا مع نفس التصرف الذي أدى الى نقله ثلاث مرات من قبل .

وبما أن فنسان قد كشف دخيلة رؤسائه الذين لم يتقبلوا أمانته مع جمهور يضطر للشراء في فترة الأعياد فإنهم ــ والحال هذه ــ لم يحتملوا وجود شخص لا يكف عن

إدانة طبيعتهم فى كل وقت . وكتب فنسان قائلا : دلقد دفعنى المدير المبجل إلى أن أتفوه برغمى قائلا اننى سأترك العمل فى أول أبريل ، وحثنى على شكرهم على كل ما تعلمته اثناء تواجدى فى مؤسستهم ،!! (٥٠).

وفى الواقع ، أن ما تعلمه فنسان أثناء عمله فى تجارة اللوحات لن ينساه ابدأ : سواء أكان ذلك قراءاته الفنية أم اكتشافاته للمجال التجارى الذى سيهاجمه فيها بعد . وكلها تجارب غنية بالذكريات دافعة الى التأمل .

ومرة أخرى وجد فنسان نفسه مهيض الجناح في العراء بلا عمل وغام كل شيء في الظلام أمام ذلك الانسان المتطلع الى نجمة الصبح وفجر النهار . ترى ما الذى ستقوله أسرته ؟ شاب في الثالثة والعشرين من العمر ، مطارد بالذكريات المرة ولم يجد طريقه بعد ! وها هو رغم كل ما كان يعانيه يتوسل الى شقيقه لكى يخبر والديه حتى لا يسبب لها أية آلام ، على الأقل في الوقت الحالى . ثم راح يرجو أخاه أن يكتب له خطابات طويلة بحدثه فيها عن معطيات الحياة اليومية . . عن تلك الحياة البسيطة البعيدة عن التعقيد والمشاكل . . فكم كان متعطشا الى ذلك ! . .

وها هو في أشد الفترات حلكة ، في الأوقات العصيبة التي كان بحاجة فيها إلى انسان بجواره حيث صقيع الوحدة والصمت الأزلى ، يجد نفسه وحيدا تماما مصلوبا للعواصف العاتبة ، فحتى زميله الشاب الانجليزى الحجول لم يعد قادراً على مواجهته لأنه اضطر الى استلام العمل بدلاً منه في نفس الوظيفة . .

وبينها الوحدة تعتصر كيانه ، ويحلم ويتمنى صديقا يؤانسه في الزمن الكليل ، على ذلك يهدى من روعه وحصره النفسى ، لكن سرعان ما أدرك عبث أمنياته . . وفي ذلك الفراغ الحائق ، كانت أصداء جملة واحدة من آخر موعظة سمعها ، تتردد في ذهنه وتشدو بها جوانحه : (إن أبناء الرب سيحاولون التخفيف عن الفقراء ) . . . ألم ينتم دائها الى هذه الطبقة المعدمة ؟ كيف له أن يتطلع الى غيرها ؟ ! لقد كان دائها وحيدا معلقا فوق حافة القدر ، يصارع الظلام ، وعليه أن يواصل السير وسط أمثاله من المعدمين ، على نجمة شاحبة تهديه السبيل . .

وجال فنسان بنظراته فى الغرفة : لا أحد . ويا لسخرية القدر . . لم يجد غير فأر صغير يؤنس وحدته حتى آخر أيامه بباريس . وقد اعتاد ذلك الفأر الصغير ان يجد قطعة خبز ، كل مساء ، فى نفس المكان !!

لقد ردد بعض المؤرخين في تعسف ، بأنه ظل ينتظر بباريس دوغا عمل أوجهد البحث عن عمل ، وهو أمر بعيد عن الصواب في أكثر الاشارات التي يبين منها أنه كان يتابع اعلانات الصحف ويسأل عن أية وظيفة . لكن ، في أيامه مثها في أيامنا هذه ، أي صاحب عمل يقبل تعيين شخص فصل من عمله ؟ إن فنسا ، ب رغم المعاناة والبحث عن وظيفة . كان يقضى مرات الانتظار الطويلة هذه في قراءة قصص أندرسن Andersen ، وإيفانجلين الونجغيلو Longfellow ، ومناظر من الحياة الكهنوتية لجورج إيليوت . وقد أثارت آخر قصة من هذه المجموعة انتباهه بصفة خاصة : د إنها قصة حياة قسيس يقوم بزيارة سكان أفقر الشوارع في المدينة . وقد توفي في الرابعة والثلاثين من عمره . وأثناء مرضه الطويل ، كانت تقوم بتمريضه سيدة من أولئك اللاتي ألفن تعاطى الخمر لكنها اقلعت عنه بفضل مواعظه ، سيدة من أولئك اللاتي ألفن تعاطى الخمر لكنها اقلعت عنه بفضل مواعظه »

كان فنسان ينظر إلى أيام إقامته المتضائلة فى باريس بهلع ومرارة . . وبدأت آخر أيام الشهر تقترب مثقلة بالأحزان . . فراح يرقب غروب الشمس فى صمت ، شمس ضخمة نحتنقة ، تحيط بها السحب الداكنة ويطاردها الليل . . بينها أجراس قداس المساء تقرع عن بعد ، على الضفة الأخرى . .

وفي صباح يوم رحيله ، لم يكن في وداعه بالمحطة سوى جلادويل Godwell زميله الإنجليزي القديم .

عاد فنسان الى أبويه حزينا ، مفصولا صفر اليدين . . ولم يكن قد تلقى الا ردا واحدا على كل المحاولات التى بذلها بحثا عن وظيفة جديدة : لقد عُرضت عليه وظيفة مدرس فى مدينة رامسجيت Ramsgate ، على أن يمضى شهراً تحت التدريب . ولم يرفض العرض ، علما بأنها كانت وظيفة بلا أجر ، يحصل منها على الماوى والطعام مقابل العمل ! وفى نهاية مدة الاختبار يرى مدير المدرسة إذا ما كان يستحق الوظيفة أم لا . وهنا يكتب فنسان المتواضع ليزف النبا الى أخيه قائلا : لك أن تتصور سعادتى لحصولى على مثل هذا العمل ؟ ! (٥٩) .

لقد غادر فنسان باريس ، مهموم الخاطر ، مثقل الخُطا ، محملا بأوزار ذلك الفشل الذي يفرضونه عليه والذي لم يكن في استطاعته عمل أى شيء حياله . لكنه من ناحية أخرى ، كان قد احتمى من فلول الظلام والمعاناة بروح وثابة ، فاكتسب معلومات فنية وأدبية واجتهاعية وأصبح أكثر انجذاباً للفن والدين ، لفن التصوير والايمان .

### انجلترا (۱۷ أبريل - ۳۱ ديسمبر ۱۸۷٦):

فيها بين فرحة اللقاء واحزان الفراق أمضى فنسان اسبوعين فى قرية إيتين Etten ، حيث مسكن الأسرة الجديد ، شهال غرب منطقة بريدا Breda ، ثم غادرهم الى انجلترا ، وكالمعتاد ، لم يكن الأب والأم يتوقعان الا فشلا جديدا . . أما بالنسبة الى فنسان ، فكان سفره يعنى أنه يعود مرة أخرى الى أرض الذكريات الجريحة ، الا أنه كان أكثر شجاعة وأكثر ايمانا بحظ أفضل . وكم كان فى أمس الحاجة الى أن تباركه الأيام بدلا من أن يكون الملعون دوما . .

ويبدو أن الطبيعة وحدها هي التي كانت تشارك انفعالاته ، تفهم وتعكس حالته النفسية . . وفي القطار ، بدأ يكتب لوالديه تحت تأثير اللحظة . فكل شيء رمادي هاديء . وكل شيء يغوص ببطء . الشمس تغرب خلف السحب . وهي تلقي بالوانها الذهبية على الحقول . . ألوان عارمة الحنين . . وبالتدريج ، بدأ فنسان ينجذب الى عالم الذكرى ، عالم الغائبين . . وغاص فى أيام الطفولة وأيام . . دراسته عدينة زفنبرجن Zevenbergen حيث مدرسته الداخلية . . وعادت اليه ذكرى والده الذى كان أوصله الى المدرسة ، بينها وقف هو على عتبة الباب بجوار مدرسة بروڤيلى Provily ، وكان فنسان الطفل يرقب عربة والده وهى تبتعد على الطريق المبلل . . أنها أصداء سيتجرعها دوما : إذا كان عليه أن يشرب كأس الفراق حتى النهالة . ومنذ ذلك الوقت لن يكف طريقه عن البلل سواء كان ذلك بالدموع والأمطار أم الندى والوحل . . منذ تلك الطفولة والأحداث تفرض نفسها عليه ، أو بتعبير أصدق يفرضونها عليه . كان يرنو للربيع لكنهم حجبوا شمسه ، فكان عليه أن يعاني الشتاء إلى الأبد . .

وباقترابه من مقر عمله الجديد ، رأى فنسان أن السحب بدأت تتبدد والشمس غير تسطع : «شمس بسيطة كبيرة ، كأكبر ما يمكن لانسان أن يتخيلها ، شمس غير حقيقية » ( ٦٠ ) . ، وعند الفسق ، ومازال فنسان منبهرا بالشمس ، ظل يتأملها ويرقب غروبها في منحني الأفق وصفحة الماء تتلألاً بآخر شعاع ذهبي لروعتها . . ثبعها صمت موحش . . صمت مليء بالشجن . .

وخلال هذا الخطاب الراثع الذي كتبه فنسان الى والديه ، راح يتحدث عن الطبيعة بشغف متألق وأسلوب أديب متمكن ، ليعكس تطورات ألوان الشمس وتنوعها ، مما يمكن القول معه بأن مصيرفنسان قد ارتبط بأطياف لهب الشمس التي خصها بعبادة حقة ، هي عبادة النور . .

وفى مدينة رامسجيت ، بدأ فنسان بزيارة المدرسة : كانت متواضعة قاتمة لم يكن بها سوى أربع وثيانين تلميذا فيها بين سن العاشرة والرابعة عشرة . ثم راح يتجول فى المنطقة وبدا له المنظر خلابا من ناحية البحر وكانت معظم المنازل تطل على الساحل ، مبنية بأسلوب قوطى بسيط ، لكنها فى نفس صرامة مبنى المدرسة ونقشها . أما الحداثق فكانت داكنة الخضرة ، مليئة بأشجار الأرز الحزين .

وفى المساء بعد عودته من الكنيسة ، واعتكف فنسان فى حجرته اعتصرته آلام الوحدة لتنخر عظامه . . وكانت جدران الغرفة مطلية بالجير عارية ، لا تعلوها أية لوحة أو صورة . لم يكن بها سوى سرير « ملىء بالبن » ! وكان من الصعب عليه تحمل مثل هذا الفراغ القارص . وذات يوم ، أثناء تجولاته الطويلة ، كان على وشك العودة إلى لاهاى ! فذهب إلى محطة القطار ، لكنه عدل عن رأيه : اذ لم يكن من عادته الهرب \_ وكان عليه مواجهة مصيره ، متحملا ضربات القدر على أمل أن يصبح الربيع أبديا !

وعند عودته . ظل طوال ، الطريق يفكر فى أخيه ثيو ، متمنيا تزايد ارتباطها العاطفى . وهى أمنية لم يكف عن تكرارها لأخيه اذ كان الشخص الوحيد الذى يشاركه حب الفن وحب الطبيعة .

أما فى المدرسة ، فكان على فنسان أن يقوم بتدريس اللغة الفرنسية والألمانية والرياضة والقيام بالإملاء وسياع المحفوظات . وخلرج ساعات التدريس ، كان عليه مراقبة التلاميذ ، ومساعدتهم فى الاعتناء بأنفسهم ، لكنه كان يحثهم بصفة خاصة على قراءة الأداب التى اعتبرها ضرورة يومية . وبدأ يختارهم قصص أندرسن .

واذ ابتعلته مهامه المتعددة بايقاعها المتكرر دوما ، فقد بدا فنسان سعيدا هادئاً يكرس حياته للاخرين ، ويشعر بأنه يقوم بدور ما في ذلك المجتمع الذي لا يكف عن نبذه ! ومع ذلك ، فقد كان يرتاب في أعهاقه من هذه السعادة : كان يخشي خيبة أمل جديدة ، بينها العديد من التساؤلات الخرساء تعتمل في الأعهاق . . أهو الطريق الصحيح ؟! ولم يجرؤ على الاجابة .

وفى نفس ذلك الوقت ، كانت مشاهدة مئات الأشخاص المتجهين كل يوم أحد لسهاع المواعظ تلفت نظره . أولئك العمال والموظفون ، مئات الوجوه الشابة الورعة ، لكن كم هى منهكة ، محنية ، مطحونة تشم منها رائحة العظام المسحوقة . وراح يتأمل تلك الحاجة الماسة لدى الناس للتعلق بالدين ، وتلك الرغبة الدفينة في الحاجة للمساندة . انهم ليسوا وحدهم في فراغ الدنيا الممتد والمئقل بالألام . . لكنه بدأ يلحظ في نفس الوقت الفرق بين تعقيدات المدينة وبساطة الريف في بلده . . وكيف أن حياة المدن تبدد بكورة ندى الصباح . .

وفى المساء لم يكن لفنسان سوى السهاء التى يتأملها ويتوسل اليها عبر نافذته الصغيرة ، وهناك ، فى الأبعاد المترامية ، فوق أسطح المنازل وقمم الأشجار ، عند الأفق اللانهائى ، كانت توجد نجمة واحدة ، جميلة ، كبيرة طيبة تؤنس وحدته

وتجعله يفكر فى أسرته . . وراح يرتل فى صمت : «اللهم لا تجعلنى ابنا تحمرٌ منه الوجوه خجلا ، اللهم باركنى ، لا لأننى استحق بركتك ، وانما من أجل أمى ، (٦٧) .

لقد عانق فنسان جبين الساء ، ولوح للنجمة الوحيدة ، ومسح الغيم وصادق الشمس ، ورغم هذا العشق للطبيعة لم يكن له سوى كآبة الحنين المنبثقة من كل شيء حوله في ذلك المكان الضيق الذي وجد نفسه حبيسا وسط هذا المزيج العجيب الذي كان يبحث فيه عن شعاع أخير للأمل . لكن شظف الحياة التي يعيشها أولئك التلاميذ تزيد من يأسه . فقد كان يتم عقابهم لأتفه الأسباب ويحرمون من طعام المساء أو وجبة الأفطار في الصباح ، ولم يكن أمامه الا أقل القليل في مثل هذه الحياة . وبدأ يدرك بؤس المجتمع الواسع من خلال آلام ذلك المجتمع الصغير وهو يتجرع البؤس الذي يتجاوز كل ما قرأه في أعمال إيليوت وديكنز وغيرهما عمن اهتموا بحياة الفقراء وأزمنة الهجير والواقع اليباب . .

وفى شهر يونيو عام ١٨٧٦ ، قام السيد إستوكس Stokes بنقل مدرسته من رامسجيت إلى مصب بنهر التايمز فى آيلورث Islworth ، الضاحية العالية فى لندن ، حيث كان يأمل تحقيق المزيد من المكسب بزيادة عدد التلاميذ . ولم ينجح فنسان فى الحصول على ثمن تذكرة السفر من السيد إستوكس صاحب المدرسة ، لأنه كان يعمل بلا أجر فى مقابل المبيت والطعام . ولم تكن معه أية نقود لذلك اضطر الى السفر على الأقدام ، ليقطع مسافة خسين كيلومترا تقريبا ! وفى المساء كان ينام على عتبة كنيسة قديمة ، داكنة اللون ، اذ لم يجد مأوى بداخلها ! . .

يتطلع في أبعاد الواقع تمتد اللحظة الوحيدة ليحدق في موجتي هذا المجتمع المتلاطم ، انها نهر ومستنقع ، وشتان بين الإثنين ، غني فاحش وفقر مدقع .

ومن نفس ذلك الفقر المدقع \_ منذ ثلاثين عاما \_ كان فريدريك انجلز . F. يستمد مادته العلمية لكتابه عن حالة الطبقات الكادحة في انجلترا ، ثم كتب بعد ذلك ، عام ١٨٤٨ ، البيان الشيوعي مع كارل ماركس .

ويقول الكاتب فلوريسون Feoisoonعن هذه الفترة: (في لندن، شاهد فنسان ذروة الآثار الناجمة عن نظرية فِرَّاج أوكونور Ferrague O'connor وميثاقه الذي أعطى للبلوريتاريا الانجليزية نظاما كبيرا للتعاونيات والنقابات، ومفهوماً دوليا متهاسكا، مهد لتكوين الماركسية، (قان جوخ، صفحة ١٧).

ومنذ هذه المرحلة بدأ فنسان في دراسة الاشتراكية ، التي راح يتعمق فيها فيها بعد في دوردرخت Dordrecht وبوريناج Borinage . لقد تأثر بهذه الدراسات حتى إنه حاول تطبيقها فيها بعد ، في المجال الفني ، مضيفا اليها نظريات فورييه Fourier المتعلقة بالجمعيات التعاونية .

ولم يستطع فنسان أن ينتزع أى شيء من ذلك البؤس الملقى على أزمة إيست إند الملتوية المعدمة ، فعاد الى صاحب المدرسة صفر البدين ، مشجون القلب ، ثاثر الرأس ، ولم تكن هذه النتيجة لترضى السيد إستروكس المتعطش الى الكسب . ومن السهل تصور الحوار الذى دار بين الاثنين ، والذى كان من نتيجته اضطرار فنسان للبحث عن عمل آخر ! بعدما أكد له صاحب المدرسة أنه في استطاعته العثور على العديد من المدرسين الذين يقبلون العمل مقابل المسكن والطعام !

ومرة أخرى لم يكن عدم الاستقرار المزعوم هو الذى دفع فنسان الى ترك وظيفته ـ مثلها يردد كثيرون من كتاب سيرته بجانب حشد كبير من أطباء النفس بأرديتهم البيضاء التى لم يلطخها طين معاناة فنسان ، وانما كان دافعه لترك عمله تلك الانسانية العميقة التى تشبثت بها أوجه روحه وحلقت فى آفاقها ، والتى ما كانت لتنفق والمصالح المادية لرؤسائه سواء أكانوا ملاكاً أم تجاراً .

وعاد فسان مرة أخرى يبحث عن وظيفة براتب شهرى ، ليتمكن من اعالة نفسه ومساعدة والديه . وطاف المدينة من طرف الى آخر ، وقابل العديد من الناس ولئي طلبات العديد من الاعلانات . وكم نام بعيون مفتوحة تحدق في الأحياء النازفة .

ان هذه الشهور القليلة التي أمضاها بالمدرسة قد نمّت فيه رغبته وولعه للعمل من أجل الآخرين . . ولم يستطع فنسان أن يتراجع عن هذا الطريق ، ولم يكن ذلك بفضل الارتياح الذي كان يشعر به اذ يستطيع أن يزرع الفرحة في عيون طلابه الكليلة ، ولا بسبب الأشواك والعثرات التي تؤلمه . . وانما لاقتناعه بأنه لا عمل له على هذه الأرض إلا في مهنة تنحصر ما بين التعليم أو الوعظ ، وبدا له أن وظيفة مبشر في لندن ستكون مثالية ، اذ ستسمح له بالتجول وسط الفقراء لينثر كلمات الانجيل بينهم . حيث لا يمكنه مساعدتهم بطريقة أخرى .

وبالفعل كتب فنسان إلى أحد رجال الدين البروتستانت ، طالبا أية وظيفة يكون لها علاقة بالكنيسة . ويعد هذا الخطاب من أكثر الخطابات تأثر ا ( ١٦٩ ) - في هذه الفترة - نظرا لدقته وبساطته . إذ راح يلخص أحداث حياته موضحا ما يكنه من حب تلقائي في أعاقه ، حب الله وحب الناس . ومن ناحية أخرى ، فإن هذا الخطاب يكشف عن مدى ادراكه لوصفه الاجتماعي المتواضع وغيبة أية تطلعات طبقية . الا أن عدم الثقة ظلت قابعة في الأعماق ، قلقة ، مشيعة بأهات شبيهة بشهقات مكتومه متتالية من الغليون . . لقد كان يخشي فشلا جديدا . لكنه راح يأمل في ذلك الشعاع الذي بدأ يلوح له عن بعد . . وبدت سكينته الداخلية بازدياد ميله إلى الزهد في كل شيء والبعد عن كل شيء .

وفى أوائل شهر يوليو عام ١٨٧٦ تم تعيينه كمساعد مدرس ومساعد واعظ فى مدرسة السيد چونز M. Jones ، القس الإصلاحى . وكتب فنسان لأخيه عن هذه الوظيفة قائلا : « لا تتصور أننى أنعم بحرية ما هنا ؛ إن لى العديد من القيود ، منها المهين ، بل من الواضح أن ذلك سيزداد مع الوقت ، (٧١) .

واينها قادته خطاه ، يبدو ان ( اللجام ( الذي يكبله به المجتمع كان في انتظاره . الا أنه رفض الخضوع للتقاليد المفروضة وتمسك بحريته .

وابتداء من هذه الفترة ، ها هو أسلوبه يزداد ميلا الى التأثيرية ويغرق فى جو من التصوف الجلّى ، تجرفه سيول الوحدة فى الدرب الذى يعيش فيه بلا رفيق وكانت مهمته الجديدة مع الطلبة تتلخص فى تعليمهم التاريخ الدينى : وهى المادة الوحيدة التى كان فنسان يشعر بالأمان معها . . أما كل ما عداها فكان كالرمال المتحركة . . ومناء كل يوم اثنين كان ولم يحض يوم دون أن يصلى الى الله أو يتحدث اليه . . ومناء كل يوم اثنين كان

يذهب الى الكنيسة الاصلاحية ، ويحاول شرح كلمات الانجيل والتعليق عليها . (\*) إلا أن صورة أرض زوندرت Zundert ، أرض مولده التى انتزع منها ، كانت تنبض فى الأعماق رغم كثرة اهتماماته . . أرض زوندرت الغالية التى كان التفكير فيها يسبب له آلاما لا تطاق . . ولم يكف فنسان عن التساؤل لماذا يتناثر كل أفراد أسرته بهذا الشكل ؟ وترتل شفتاه فى صمت : «ليجمعنا الله وليزد من ترابطنا» .

ان عدم الترابط هذا الذي كان يعاني منه بعنف ، سواء في الحياة أم في الأسرة ، سيكون الدافع الذي يجعله مهتها بتحقيق الوحدة والترابط أينها كان . ألم تكن تلك القصاصة التي يحملها في صدره عند وفاته تتعلق بالوحدة بين الفنانين؟ ا

إلا أنه كلما ازداد قربا من تلك اللوحة الشاسعة التى ترتسم عليها الدراما الماساوية لمعركة الانسان كلما ازداد رعبا . ، كيف يمكنه المساهمة ؟ كيف يمكنه المساعدة ؟ واذ اعتراه الاعياء والتعب وغلفه المرض . غاص فنسان في هاوية اليأس . وتسلل برد قارس في أعياق قلبه الضامر . ذلك القلب المفعم بالحب التلقائي والعطف العارم . وذات مساء ، بينما عينه ثابتتان محدقتان على نجمته الصديقة في الأفق الطليق ، كان يتأمل قول هيجل حول تلك الدائرة الضخمة التي تضم حياة الانسان والتي تتلخص في تلك الكلمات : الميلاد ، العمل ، الحب ، ثم الأقول . . إلا أن فنسان راح يضيف متمتما : ثم البعث . .

وبعد عدة محاولات استجاب السيد جونز الى طلب فنسان ، الذى كان يرغب فى التقليل من التدريس للطلبة حتى يمكنه الاهتمام بزيارة الناس فى ضاحيته الدينية ويتحدث معهم . وكم تمنى أن يبارك الله هذه المهمة التى يقوم بها . وها هو مرة ثانية سيعود الى الاتصال المباشر مع الناس . وبدأ فنسان يعد نفسه لهذه المهمة اذ كتب يقول : وان من يود التبشير بالانجيل ، عليه أن يستوعب كلهاته فى قلبه أولا ، لأن الكلهات البسيطة النابعة من القلب هى وحدها التى تأتى بالثهار » (٧٧) .

وفى أواخر شهر أكتوبر ، حصل أخيراً على الموافقة ليقول أول موعظة له فى دار من ديار الرب . كان اليوم من أيام الخريف المشرقة ، وكان فنسان شديد الانفعال والتأثر . وبينها راح يسير من آيلورث إلى ريتشموند Richmand حيث توجد الكنيسة التى سيعظ بها ، كان يستمد قواه من الطبيعة التى افرد لها زاوية كبرى فى قلبه .

وعندما وجد فنسان نفسه واقفا على المنبر ، خيل اليه أنه ينبثق الى النور ، كينونة النهار ؟ خارجا من الظلمات . . وكم كانت سعادة ذلك المنبوذ المطارد دوما أن يعثر على بصيص من النور في عمله الجديد . . فمن الأن لن يقوم الا بالتبشير . ولم يكن ليجهل كيف أن أى واعظ فقير متواضع يجد نفسه دائيا منعزلا عن العالم . . كان يعلم أية صخرة عليه أن يقوم بالتشييد . . الا أنه كان مسكا بخوض معركة الايمان المقدسة ، وأن يتمم عمله باتقان .

وكانت أول موعظة لفنسان ، الواعظ المساعد ، تتعلق بالمزمار ١١٩ الاصحاح ١٩ : « إننى لست الاضيفا على الأرض : فلا تحجب عنى وصاياك ، وهو اختيار له مغزاه ، قال عنه نيتشه في كتابه المسافر : « أن من يود الوصول ، بقدر ما إل حرية العقل ، لا يحق له أن يشعر بنفسه الا كمسافر على هذه الأرض ، ( انسانى ، شديد الانسانية صفحة ٤٧٦ ) .

لقد كان فنسان يرمى إلى الوصول إلى حرية العقل – بحق – بعيدا عن أية قيود وخلال هذه الموعظة تحدث فنسان عن الحياة ، عن تلك المسيرة التى تتم من الميلاد حتى الموت . ويبدو فنسان من هذه الموعظة الوحيدة المنشورة بالمراسلات أنه مفكر موضوعى انسانى النزعة مطمئن ، يرفض اليأس . فكل الآلام فى نظره مصحوبة بالأمل . كما يبدو انسانا حيويا ، يجارب الجمود ، بما أن الحياة فى حركة دائبة ، عبارة عن مرور دائم من الظل إلى النور . ويبدو فكره المتأثر بالمادية فى إيمانه بالتغيير الذى يحدث فى الانسان وفى كل شىء ؛ فهو مناضل يدعو الى الكفاح ، ومؤمن يبشر بحب الله والأخرين ، فو ميول إنسانية يرى قلب الانسان كلبحر الواسع ، له عواصفه وله فترات هدوئه مثلها له أعهاقه ولألئه . . انه نفس تطلب السلام والسكينة دون رفض للصعاب ، انسان يعمل ويتغنى بالعمل وبمجده ، حانا مستمعيه الى العمل والى أو بقول آخر ، يبدو فنسان كمفكر لا يتوقف عند ثنائية الحياة وأضدادها ، واغا يجعل أو بقول آخر ، يبدو فنسان كمفكر لا يتوقف عند ثنائية الحياة وأضدادها ، واغا يجعل من هذه الازدواجية المحرك الأساسى لفكره وعمله وكتاباته .

وحتى هنا ، كان على السيد جونز أن يسعد بمساعده ويفخر به ، إلا أن فنسان المسكين قد اقترف ذلك الإثم الذى لا يغتفر في نظر رئيسه القس المبجل في استشهد في موعظته ببعض الأشعار في محاول التقريب بين هذا المزمار واحدى لوحات بوتن Baughton المعروفة باسم : مسيرة الحجاج . وعلى الرغم من أن القصائد واللوحة كانت تتناول موضوعات دينية الا أن السيد جونز ، ذلك القس

الجامد ، اعتبر هذا التصرف كالصاعقة المدوية فى ساء التقاليد بينها رأى فنسان ان الفن والطبيعة والدين فى كيان واحد يمثل قمة الفكر الانسان الذى يمد الانسانية بمصادر تطورها!...

واذ لم يتمكن القس من رفت فنسان لمثل هذا السبب ، فقد اكتفى بأن أعفاه من مهام منصبه بحجة عدم اتقانه للغة الانجليزية . بينها كتب ترالبو Tralbout قائلا : و ان ما قاله فنسان لأتباع الدين الاصلاحى يكشف عن عقيدة صادقة ، واختيار الكلهات يؤكد أنه كان يجيد التعبير عن أفكاره باللغة الانجليزية . بل انه يجيدها بطلاقة » ( فنسان قان جوخ صفحة ١٩) .

وتم تكليف فنسان بجمع التبرعات ، بالاضافة الى مهامه العادية ومرة أخرى كان عليه أن يسير من لندن الى هوايت تشايل White Chapel ، ومن لويسهام كان عليه أن يسير من لندن الى هوايت تشايل Acton-Green وهى منطقة شديدة البؤس الموالقذارة ؛ ثم يجرى من بيترزهام Petersham الى ترنهام جرين Green ليحضر مدرسة الأحد ، ثم الى ريتشموند Richemond ليعود أدراجه الى بيترزهام . في حركة دائرية لا نهاية لدوارها المرير ، عبر طرقات يعلوها الطين وتلال يعلوها الشوك والأعشاب الجافة . ومع ذلك ، فلم يمنعه عمله وسط البؤس الانساني ، من أن يتأمل الطبيعة القريبة منه ، أو تلك التي تلوح له عن بعد ، أو أن يعجب بالنور الأحمر الخافت للقاطرة وهي تجر صفا طويلا من الأبواب المضاءة لعربات تقتحم الغسق بايقاع رتيب . . كان يحاول معايشه ذبذبات الصمت في لعربات تقتحم الغسق بايقاع رتيب . . كان يحاول معايشه ذبذبات الصمت في وسط الطبيعة وينعم بتلك الراحة التي يوحي بها الريف بعد يوم مثقل بالعمل . . ففي وسط الطبيعة ، كان يشعر فنسان بأنه أمام الكون الطاهر الذي أبدعه الله . . وينزع عنه عبء الدنيا الذي يفرضه عليه المجتمع وينسي بؤسه وآلامه . . وفي مثل هذا الهدوء كانت كل فكرة من أفكاره تتخذ شكل صلاة من الصلوات .

ويواصل فنسان تراتيل معاناته في صمت . .

وفى الأوقات القليلة المتاحة له بين الدروس ، كان يكتب لأخيه أو لوالديه ، وفى المساء ينغمس فى مطالعاته ويدون ملاحظاته وتأملاته الا أنه أثناء الليل ، أثناء تلك الوحدة الطاحنة ، كانت تعتريه لحظات من الإحباط ، إذ أن كل الأمال التى بناها كانت تنهار . . وتمر السنون أمام عينيه بكل ما تحمله من ذكريات ومضايقات وخيبة أمل ! ويتساءل فنسان : ترى ما الذى يستطيع عمله فى ذلك العالم الشاسع ؟ ترى ما الذى يستطيع عمله من أجل ذلك العالم الشاسع ؟ إنه يشعر بالغربة والاغتراب حيال كل شيء . . ترى هل يخفى الله نوره عنه ؟ ! تساؤل يجول بخاطره ، وتنساب دموعه . . تنهمر في صمت ، فيمسحها ببطء . . لا . . حتى هذه اللحظات المريرة في حياته لم يغب عنه نور الله فيها . . فقط عليه أن ينتزع الايمان من براثن الفشل . . عليه أن يواصل مهنته ليصبح خادما للمسيح ، ولم يقل أبداً رجلا من رجال الدين !

لقد تقبل المحن بكل شجاعة ، وتصدى لضباب المصير وخواء الأيام وبراكين الآلام المندلعة ، وراح يتساءل : عندما يشتعل الخشب الجاف ألا يعطى نارا أكثر ضوءاً ولهبا أكثر وميضا من ذلك الخشب الأخضر ؟! اذن ، عليه أن يجترق داخليا ليضىء بآلامه طريق الآخرين ؛ يحترق ، لكى يدفىء قلويهم ويشعل من ذاته ناراً للحائرين والذين يعانون بؤس المصير . . لقد كان عباً . . والحب لا يعرف الوجل . وقد كرس فنسان نفسه للآخرين بكل الحب . وكان عليه أن يعطى حتى آخر رمق فى جعبته . أليس العطاء أكبر وأعظم أفعال الحب ؟ . .

وتتألق مشاعر الحب والدين ليتناغبا في أعياق فنسان ، الذي راح يؤكد لأخيه : و إن الذي لم يحب . لم يعرف الله ، لأن الله حب والحب هو الحياة الحالدة ، ( P A Y

ولم يلق فنسان بنفسه فى مغامرة دينية مثلها راح يكتب عديد من المؤرخين ، وأنما حاول أن يشق لنفسه طريقا ، وأن يجد لنفسه دورا يلعبه ، ومهمة يؤديها فى ذلك المجتمع . كان دائم البحث عن لحظة يتحاور بها مع أمثاله من البشر . وبما أنه كان انسانا سويا \_ على عكس ما يزعمون \_ لا يعرف الحلول الوسطى ، فقد كان طبيعيا الا يعرف حدوداً لعطائه . الا أن الكثير منها للأسف قد أسىء فهمها حتى أثناء حياته . لذلك فزع السيد جونز من هذا العطاء الذى لايكل . ووضع حداً لوظيفته ، الا أنه \_ فى حقيقة الأمر \_ قد فصله من العمل بأسلوب غاية فى الأدب !!

وتعالت زفرة طويلةبسطيئــه بجدولة بآهة حرّى ناحية الساءوكان على فنسان أن يتحمل . .

ومرة ثانية وجد أن تحقيق أعز أمانيه فى مسيرة البحث عن الايمان والحب، البحث عن وجود الله فى كل مكان، تعتريه العراقيل وتكاد تذروه العواصف. وعاد الى والديه اللذين لم يريا إلا علامة فشل جديد تصطك بمنكبيه.. وفى اعياد

الميلاد ، اجتمعت الأسرة لتناقش وتُقرِّر ، مثلها كانت تقرر دائها . وتم الاتفاق على أن يعرض فنسان \_ وكأنه في سوق نخاسة \_ على السيد برات Braat ، مدير مكتبة بلوسيه وقان برام Brussé & van Braam ، في مدينة دوردرخت ، كي يرى فيه رأيه ان كان يصلح للعمل معه أم لا . وكان السيد برات في زيارتهم بمناسبة الأعياد .

ووافق السيد المدير على أن يعمل فنسان تحت اشرافه ، وإن كانت موافقته قد جاءت على مضض اذ لم يكن من المالوف \_ في هذه الحقبة \_ رفض المجاملات بشكل قاطع سواء في الأسرة أم بين الأصدقاء . . وهكذا استسلم فنسان لمصيره الجديد صامتا ، فها هو بدلا من أن يهتم بالتلاميذ سيهتم بالكتب : المهم أن يعثر على وظيفة . وهل كان له أن يرفض أويناقش أو يتردد \_ خاصة وقد اقترب من الرابعة والعشرين ؟!

### دورخت (۲۱ ینایر- ۹ مایو ۱۸۷۷):

بعد تمضية ثلاثة أسابيع في مدينة إيتن ، سافر فنسان الى مدينة دوردرخت وهمي ميناء صغير عند مصب نهر موس Meuse ، حيث توجد ترسانات ضخمة لبناء السفن . وهي المدينة التي انعقد بها المجمع الكنسي فيها بين ١٦١٨ – ١٦١٩ ، وكانت قراراته ما زالت تحكم الكنيسة الاصلاحية في هولندا . أي أنها كانت منطقة مزدوجة الأهمية وشديدة الحركة ، تتداخل فيها تيارات الاشتراكية والدين .

وابتداء من يناير ۱۸۷۷ تولى فنسان مهام وظيفته الجديدة كامين مكتبة عند السيد برات ، صديق الأسرة ، الذي يعمل ابنه لدى بوسو وفالادون & Boussod في باريس ، أى أنه يعمل في قاعة العرض التي يعمل بها تيو . وراح فنسان يعمل بنفس الضمير الحيّ ، من الثامنة صباحا وحتى منتصف الليل ، وأحيانا حتى الواحدة صباحا . وبخلاف اهتهامات وظيفته ، كان يمضى فترات راحته جالسا الى ذلك المكتب الصغير المخصص له ، يلتهم الكتب التي تقع في متناول يده ، والتي كانت تتعلق \_ خاصة \_ بالمسائل الدينية والاجتهاعية . و لقد كانت المسائل الدينية تثير اهتهامه لكنه كان يعان من الخلافات الناجة عن مفاهيم الإنجيل وتطبيق المسيحية بالصورة الحالية ، (مقدمة خطابات فان جوخ الى اميل برنار صفحة المسيحية بالصورة الحالية ، (مقدمة خطابات فان جوخ الى اميل برنار صفحة ) .

وعادة فإن أى موظف صغير قادم من الريف لا يمضى وقته فى القراءة وانما يخلد إلى الراحة أو على الأقل يظل ينتظر موعد العمل . وسرعان ما أثار هذا النشاط النهم للثقافة قلق السيد برات . ذلك التاجر الصغير الذى كانت لديه فكرة مسبقة عن عدم استقرار فنسان ، ولم تكن ساعات القراءة الطويلة وحدها هى التى أثارت فزعه لكنه رأى أنه يتعامل مع شخص يخرج عن نطاق المألوف ، وبلغته البورجوازية اعتبره انسانا فاشلا مرفوضا ، لا مكان له فى النظام الصارم أو المؤسسات المتوارثة فى المدينة .

ومن ناحية أخرى ، فإن أسلوب حياة فنسان لم يكن مشجعا فى نظر من يكتفون بالحكم على المظهر . فقد استأجر غرفة عند آل رايكن Rijken ، وكان رب هذه الأسرة يعمل تاجرا للغلال والدقيق ، وسرعان ما بدأ فنسان فى تغيير شكل جدران غرفته المطلية بالجير ، ليكسوها بالصور واللوحات ، مثلها فعل فى كل الغرف التى سكن فيها من قبل . مما دفع بأصحاب المسكن الى لفت نظره بأنه يسىء استخدام الجدران بما يعلقه عليها من لوحات وبما يصفة اليها من كتب !

ومنذ اللحظات الأولى قام فنسان بتقسيم وقته فيا بين مهام الوظيفة ، وقراءاته ودراساته الدينية . فهناك في بلدة دوردرخت ، بدأ تحليل العهد القديم والعهد الجديد ، مقارنا نصوصها مدوناً ملاحظاته وتأملاته . وهي الدراسات التي راح يستكملها بحضور المواعظ في الكنائس ذات الاتجاهات المختلفة ، بل وفي المعبد اليهودي . ودارت حياته فيها بين الطبيعة الشاسعة منبع كل الفنون ، وتأهيل نفسه بغية هدف بعينه . لقد اختار فنسان أسلوب حياة شديدة التقشف . عما زاد ضيق أصحاب المسكن . فبدلا من أن يخلد للنوم كان يظل يرسم ويكتب ويدرس ، غير مهتم بمظهره ولا بطعامه . وهو ما دفع احدى شقيقاته لتقول عنه فيها بعد : و بأنه قد صار غيا من كثرة الايمان ي ا ومع ذلك ظل فنسان يواصل عمله في صمت ، ويعيش حلمه الخاص في الخلاص .

ورغم هذا النشاط ، لم يغفل عن الكتابة إلى الفس جونز وزوجته اللذين ظل على علاقة طيبة معها . فراح يحدثهما عن منصبه الجديد ، طالبا منهما أن يحتفظا له فى قلبيهما بفكرة وأن يغلفا ذكراه فى و ثياب الرحمة ، ! كما احتفظ بصلة طيبة مع والديه وازدادت علاقته بأخيه عمقا ، وواصل اطلاعه باكتشافه الدءوب واستمر فى ارسال لوحات الحفر لأخيه لكى يثرى له مجموعته ، وذلك بالاضافة الى ارسال الكتب اليه أو نقل فقرات طويلة منها فى خطاباته .

واستمر ذلك الهدوء الظاهرى حتى بداية شهر فبراير ، عندما وقع فيضان عنيف كان فنسان عائدا من عمله بعد منتصف الليل والرياح تعوى عاصفة ، بينها القمر يلوح مترددا بين سحابتين منتفختين بالأمطار التى تنهم متلألثة في مياه القنوات التى بدأت تفيض . . وما كاد يصل الى المنزل حتى كانت المياه قد ارتفعت وبدأت تغرق المسكن . فهرع مع الأخرين لنقل ما يمكن انقاذه من الدور الأرضى الى المأدوار العليا وذهل الجميع من تفانيه في محاولة الانقاذ هذه اذ كان الوحيد الذى استطاع أن يواصل هذا العمل الشاق لمدة يوم ونصف اليوم .

لكنها كانت لمحة اعجاب عابرة ، عاد بعدها فنسان ـ فى نظر الجميع - الى ذلك النقش المصلوب بحروف الريبة . ولم تسانده فى وحدته العطشى الى المعرفة سوى بعض الأصداء المنبقة من أعماقه : فكلما تعمق العمل والبحث فى أساس المشاكل الدينية والاجتماعية . خيل اليه أنه يدرك ويفهم ويعثر على اجابات لتساؤلاته الحبرى .

وحتى تلك الفترة لم يكن قد توغل بهذا القدر فى دراسة الدين أو المجتمع ، بل ولا حتى فى تأمل الطبيعة . وإذا ما كان فى انجلترا قد وجد نفسه فى مواجهة صراع الاشتراكية والامبريالية ، ففى مدينة دوردرخت راح يعيش الصراع العارم بين الحب الدنيوى والحب الساوى .

وسرعان ما أصبح الانجيل والشمس هما النشيدان اللذان يتجاذبانه ويعرج فى صداهما من خلال وضعها الانسان . . ففى الانجيل ، وبفؤاده المجنح ، كان ينهل قواه اليومية ويحاول حفظه فى قلبه قبل ذاكرته . لكى يرى الحياة فى نور كلماته . . وفى الشمس . كان فنسان يعانق تلك الأسطورة القديمة التى تربط الأصفر ، لون الذهب الحر البراق بالنور الإلهى ، ومن هذين النشيدين كان يملأ شرايينه العطشى بنور الحب . . .

ولم يدرك آل رايكن Rijken ، أصحاب المسكن ، أى شيء من هذا التحول الذي كان يدور في أعباق فنسان الصموت ، فاستدعوا أخاه ، وبالفعل وصل تيو في الحامس والعشرين من شهر فبراير ، واحتدم البوم في مناقشات طويلة بين الأخين . . وعند الغروب اتجها معا الى عطة القطار ، عبر طريق قديم ، تحده اشجار قديمة فارهة ، خالية ، لكنها جافة سقطت أوراقها ، لتكسوها طبقة نحيلة من العفن الأخضر . .

وفى بداية شهر مارس تم استدعاء الأب ، اذ يبدو أن السيد برات ، مدير المكتبة التي يعمل بها فنسان ، كان يخشى المساس بأصداء المجاملات الأسرية ، وفى الأن نفسه لم يكن يستطيع أن يتحمل وجود من يحمل على عاتقه أربع رفتات متتالية . . فأراد أن يستشهد بأبيه قبل أن يتجرأ بفصل فنسان للمرة الخامسة . . فنسان ذلك الذي كان قدره الدائم أن يجزق الأخرون تواصل اللحن الشجى الذي علا أوردته بحثاً في الكتاب وولهاً بالشمس وفرحا بالطبيعة .

وبعد أسبوعين ، قام الخال كورنليوس ، الذي يدير احدى قاعات العرض في بلدة ليدشنشترات Leidschenstraat ، باستدعاء الشقيقين قان جوخ اللذين توجها معا اليه في أمستردام ، وذلك في أواخر شهر مارس . وكان سبب هذا الاستدعاء بالطبع متعلق بمستقبل ذلك الابن الأكبر الذي يبدو فاشلا في نظر الجميع . وانضم القس شتريكر Stricker ، خالها ، الى هذا الاجتماع العائلي الذي انتهى بقرار بعينه هو : ضرورة مساعدة أقاربهم محدودي الدخل الذين لا يستطيعون مواجهة تكاليف الدراسات الدينية العليا وكان طبيعيا أن يقع الاختيار على فنسان ليقوم بهذا الدور \_ فيها بعد \_ حتى يشق طريقه في الحياة .

وإذا ما كان فنسان قد أراد هذا الطريق واختاره ، الا أنه لم يفكر فيه على شاكلتهم ، عبر التحكيات الجامعية ، وانما كان يود أن يمد نظره – على طريقته – احساسا بضمير فنان وتواضعا من أجل الفقراء ليظل واحدا من خدام المسيحية ، يزرع برعها في الوجدان ، وليس واحدا من مؤهلاتها العليا ، يحفظ مردداً عتمة الأسطر بينها يشقى الفقراء .

وكم كانت تؤلمه مثل هذه الاجتهاعات العائلية التي يقررون فيها مصيره وتثقل قلبه بالأحزان . . وكأنه مجرد جماد يقررون بشأنه ما يروق لهم في أمسياتهم المعتمة . لقد تصور فنسان \_ والحال هذه \_ أن كل ما يفعله خطأ أوعلى الأقل لا بد من تأمله من جديد . فاعتراه احساس بالمهانة والغنيان والاحباط ، وانفتحت المسافات \_ الطويلة للتساؤلات الحيرى . لم تبد كل أفعاله غير مفهومة ، ولا تروق لأحد ، وتسبب له الادانة دائها ؟ لكن ، سرعان ما رفض الانسياق لكآبته اللعينة ، وانحنى محتفيا بأنغام الأعهاق . فأمسك بالانجيل ، وترك لتجارب الحياة أن تسكب في أيامه ما يتعلم منه درس الغد ، وراح يأمل \_ متعلقا بالله \_ أن تتاح له فرصة جديدة ، وأن تدب الحياة في ذلك القلب الجريح الذي يتوق إلى شوق النور الألهى . .

كم تمنى أن يصبح مبشراً! ألم تكن هذه رغبة والده أيضاً ؟ وها هو قد فشل فى مجارة الفن ، فليتعلق اذن بذلك الخيط الثانى الذى يميز جذور هذه الاسرة . و فبقدر ما نظرنا إلى أسلافنا من جيل إلى جيل ، نرى أسرة مسيحية بمعنى الكلمة ، فقد كان هناك دائها واحد أو أكثر فى خدمة الدين . فلهاذا لا يكون لجيلنا هذا نفس الطريق ؟ » ( ٨٩ ) .

ولأول مرة نرى فنسان يصلى ويصلى ويطلب من الله أن يزيح عنه و سوء الطالع المربد ، الذى يثقل بنُذُره على أى شيء يقترب منه ؛ وأن يخمد ذلك الوابل من بركان اللوم الموجه اليه بلا توقف !! وأن تتاح له فرصة اثبات أنه إنسان قادر على العطاء والعمل ، وان قلبه الكبير ملىء بالطيبة رغم مظهره المضحك فى نظر الجميع . . وتمنى أن يصبح ممن يبذرون الكلمات . . بذاراً تنجذب له القلوب المكلومة . . كم كان متعلقا بهذا الموضوع الذى صوره عدة مرات فيها بعد ، بل كان من آخر اللوحات التي صورها قبل وفاته . .

لم يكن فنسان يجهل أنه باختياره هذا الطريق سيحمل كل يوم مزيدا من المعاناة والقلق ، فباذر الحب في الحقول . تأى له الأرض كل يوم بكثير من الأشواك والأعشاب التي يلملمها مع الحصاد وكم تدمى يداه . . لكنه بالأمس نزفت شرايينه وتعلم منها ، غرق في الضباب لكنه رأى الشمس ، احتواه الظمأ لكنه استطاع أن يتنفس ، أنه بحمل أمسه سواء أكان جرحا عميقا أم ثمرة مريرة ، لكن لغة الانجيل والشمس والطبيعة قد جرت في عروقه . . لقد اختار وعليه أن يتفياً في ظلال ما يجب من لهب ما يعتريه ، وهكذا . . ذات مساء ، في إحدى المرات النادرة التي تبادل فيها الحوار مع رئيسه في العمل ، قال له فنسان إنه يطمع في أن يصبح قسا مثل والده . فأجابه التاجر الطبب بأن ذلك لن يفيده كثيرا . وأجابه فنسان حانقا لكنه أنسب مكان يمكن أن يحط فيه رحاله ، لم لا يكون واحدا عن يرعون النفوس البشرية ؟ واحدا عن يرتوون من عشق النور ؟ وفي آخر شهر ابريل عام ١٨٧٧ ، ألسبرية ؟ واحدا عن يرتوون من عشق النور ؟ وفي آخر شهر ابريل عام ١٨٧٧ ، أكون مسيحيا حقا ، أن أكون واحداً من خدام المسيح » ( ٩٤ ) . ألا يكفيه كل ماضيه لكي ينجح في هذا الاختيار ؟

ولعل ذلك الشعور قد نما لديه من معرفته الواسعة ببعض المدن مثل لندن وباريس وخاصة في احيائها الشعبية الفقيرة ، بالاضافة التي التجارب التي عاشها في أماكن مختلفة مثل مدرسة رامسجبت أو آيلورث. لذلك تعلق بالانجيل وبحياة الحواريين وبأضغاث المستضعفين. كها أن معرفته الفنة والأدبية لأعهال أو لأشخاص مثل جول بريتون Jules Breton وميليه ورامبرانت وديكنز أو بوسبوم Bosboom وغيرهم ، تعطيه منبعا لا نهائيا للأفكار التي تكمل معلوماته الدينية والتي تسمح له بأن يطمع في هذا النجاح . غير أن تلك الرغبة الجاعة لاتباع خط سير والله والتمثل به لم يكن نابعا تلقائيا من قلبه ، ذلك أن هناك كلمة واحدة توضح أن ذلك الاختيار \_ رغم كل صدقه الظاهر والخفي \_ كان بمثابة التزام ، بما أنه سوف و يجاهد ، من أجل تحقيق هذا الاختيار . ففي واقع الأمر ، فان فنسان ، في أعهاق أعهاقه ، كان يتمني تنمية مداركه الفنية : ليس في مجال التجارة وانما عبر فن التصوير أموصداً أمامه لأنه لا يسمح بالربح الوفير ، كما أن المجتمع الريفي لا يتقبله بسهولة ، فقد وافق على اختيار الفرع الآخر في أغصان عائلته ، ذلك الفرع الديني ، الذي كان يعيشه في حب لا يعرفونه ، ورغبة متأججة في أن يمارس هذه الدينية بكل ما تتطلبه من تواضع انساني .

لقد كان في الرابعة والعشرين من عمره عندما أبحر الى شاطىء الدين ، وكان عليه أن يحصل على مؤهل عال ديني ، هو « جواز السفر ، الذي تمنحه مؤسسات المدينة !

## أمستردام ( مايو ۱۸۷۷ ـ يوليو ۱۸۷۸):

بعد أن شاهد فنسان عن قرب ذلك القاع المأساوى لمدينة لندن وباريس ودوردرخت، دون أن ينسى بؤس بلده، لم يعد بوسعه الابتعاد عن فكرة مساعدة الأخرين، ان يكون مفيدا لمنبوذى الأرض، لتلك السلالة التي يعد هو واحداً منها. ولم يكن يتطلع إلى وظيفة كبرى في كيان المجتمع الكبير، حيث لا يسمح لأمثاله بالدخول، وانحا كان خلاصه في الدين رشفة من رحيق محتد ووسيلة ليشبع رغبته الملحة في مد يد العون، فشد الرحال ال رحابه لكن كلما تقدم زاد انجذابه للفنون الجميلة، لعالم الابداع اللانهائي.

لقد كان عليه اجتياز امتحان تمهيدى ، والقيام ببعض الدراسات الإعدادية لمدة عامين حتى ينخرط فى سلك الدراسة الدينية بالجامعة ، اذ أنه لم يكمل تعليمه الثانوى . لقد تكفل عمه جوهانس فان جوخ ، مدير احدى الترسانات البحرية بإيوائه بينها قام خاله ستريكو بمتابعة . دراساته . وفي هذا الميناء الكبير ، الشديد الحركة التجارية والذي يقع على نهر الأمستل Amstel \_ حيث توجد مبان ضخمة بحرية وميكانيكية ، تفوق ما شاهده في دوردرخت بكثير . أمضى فنسان أربعة عشر شهرا من عمره ، في بلدة سبينوزا Spinoza وفلسفته الحلولية القائلة بوحدة الوجود ، وسط المناظر الطبيعية التي ألهمت ابداع امبرانت وهالز Halls ، ورويسدال Ruysdel والعديد غيرهم .

وفى المكتبة التى كان عليه أن يطلب الكتب الخاصة بدارساته الدينية ، بدأ فنسان يتأمل مجموعة لوحات الحفر ، واشترى ثلاثة عشر لوحة ليحيط نفسه بجو يرتاح اليه ويعاونه على التفكير . . لقد كان يشعر بالأمان فى مدخل العشق عندما يجد نفسه محاطا باللوحات .

وعلى عكس ما كتبه شارنصول فى ملاحظاته حول فترة امستردام (المراسلات المجلد الأول، صفحة ١١٥). فإن فنسان لم يكف عن الشكوى من صعوبة المواد المفروضة عليه (انظر المجلد الأول، الخطابات رقم ١١٦، ١١٩، ١٢٧، ١٢٧ - ١٢٧ الآول، المجلد الأول، المجلد الأول، المجلد المال المواد المواد المواد المواد المحلوب وأن يجاهد .. ومثل نبات اللبلاب، راح يتقدم ببطء غير ملحوظ، ليملأ كراسته بالواجبات والرسومات.

وبعد أسبوعين ، شعر فنسان بالاجهاد ولم يعد في استطاعته الاستيقاظ مبكرا . وبدأ يرغم نفسه متسائلا ان لم يكن قد وصل الى نهاية أيامه ! وسرعان ما أدرك صعوبة المهمة الملقاة على عاتقه ، لكنه كان يواصل ، بأمل ينبثق من إصرار نبيل على الكفاح ضد كافة العقبات التي تراكمت الا أنه بعد حياة حافلة بالحركة ، لم يعد قادرا على التعود على إيقاع يوم رتيب ، منهجى وشديد الملل . وباله من حمل ثقيل لمن كان يود دراسة الانجيل على نحو آخر يتسم بتلك البساطة التي تسلل بها شعاع الايمان لروحه ليملأ عليه كيانه . لكن ها هو قد أصبح مجبرا على دراسة النصوص اليونانية واللاتينية والتاريخ العام والجغرافيا والجبر والهندسة بالاضافة الى الملغة الهولندية ! ورغم ذلك كله كان يجاهد في الصعب مبحرا للجديد متشحا بإيمان عميق بالله ، واثقا بأنه يراه ويرعاه ، مؤمنا بأن الانسان يتعلم كيف يعمل من خلال العمل

نفسه ، وعندها يصبح العمل والاستغراق فيه أفضل وأكثر جدية وفعالية . لكن ذلك كله لم يمنعه \_ بطبيعة الحال \_ من أن ينثر أحرف شكاياته بتلك التلقائية والشفافية التي نعرفها عنه .

وكرد على شكاواه المتعددة تلقى فنسان خطابا من تيو، ننقل منه الجملة التالية: (ليتنى أترك كل شيء . إننى سبب كل شيء ولا أكف عن جلب الأحزان للجميع . أنا وحدى الذي جلبت هذا البؤس على نفسى وعلى الأخرين ، (٩٨) .

وإذا كانت هذه العبارة تكشف عن الدور الذي لعبه ثيو اذ يبدو أنه قد مارس ضغوطا بعينها على أخيه للقيام بهذه الدراسة . أو أنه على الأقل قد تبنى وجهة نظر الأسرة ، الا أنها من جهة أخرى تكشف عن نفسية فنسان الذي أضاف اليها الجملة التالية بعد أن نقلها في الخطاب الذي يكتبه ، اذ قال : « لقد لفتت نظرى هذه العبارة في خطابك ، لأنني أشعر بفس هذا الإحساس ، ليس أكثر ، في ضمرى » !

وايا كان المعنى أو الواقع الذى لم يتم الكشف عنه ، فمن الواضح أن الشقيقين كانا يعانيان من ضغوط عائلية . وهو ما نأسف معه لضياع أو احتجاز خطابات تيو ، اذ لم يتم نشرها بالكامل ، لأنها بلا شك كانت ستلقى الضوء على كثير من الجوانب الغامضة . فلا يوجد منها سوى حوالى عشرين خطابا ، وكلها تتسم بأهمية لا يمكن اغفالها كها سنرى . لكننا في نهاية المطاف نستخلص من المتاح ما يلقى الضوء على الحقيقة التي غابت في طيات السهل والرؤى المتسرعة التي استراحت للشذرات التي

يسمح بها المنتفعون من أسطورة تشويه فنسان . وها هو فنسان عندما يتذكر الماضى ، ويفكر فى المستقبل وفى المصاعب التى يصعب اجتيازها ، وفى نوعية الجهود المطلوبة لمثل هذا الإعداد الذى لا يروقه لكى يصبح من جنود الرب ، ما الذى تمنى أن يتجنب أساليبه التى تتضافر معها تلك العيون المصوبة نحوه وكم التأنيب الذى يتحمله والذى تزداد قسوته كل مرة . عندما يتأمل فنسان كل هذه العقبات التى تتزايد مع تقدمه فى السن وتقبع فى كهوف الحياة ، ويسترجع فى ذهنه كل المعاناة والآلام والإحباط ويرتطم فيها تثيره فى نفسه من خوف ، ويتفشى خجل الفشل ، فإن رأسه تستشاط غضبا وتصل لدرجة من ذوب الاحتراق . . فتتداخل أفكاره فى ظلهات داكنة ولا تتملكه سوى رغبة واحدة : أن يهجر كل شىء . .

وفي المساء ، حينها يغوص كل شيء في الصمت تحت ظل النجوم ، ويبحر فوق موجة مؤرقة ، يسترجع فنسان كل ما عاشه من أحداث في مراحل حياته ويسترجع فترة لندن وهامبتون كورت وعراتها الطويلة وسط حدائق شجر التليو المليئة بأعشاش العصافير ؛ وهوايت هول المغطى بنبات اللبلاب ؛ وويستمستر بلونه الرمادى المرير ؛ وذلك الأفق الحزين الرتيب الذي يغطى حياة سكانها المتوحلة . . وها هو يسترجع نزهاته الطويلة المهيئة المؤلة في طرق الهجير والجليد المعنوى الذي يطوح بفكره الى تلك النزهات الرائعة التي يحكى عنها چان جاك روسو ، وعندما يستولى على فنسان خدر الحياة التي تلقيه من ضياع الى ضياع ، في ضلوع سرى فيها السهاد ، فيظل يقظاً خائر القوى مكفهراً شارد الفكر . .

وعلى العكس ما قاله لامارتين Lamartine من أن روح المكان تنعكس على الشخص، يبدو أن حالة فنسان هي التي انعكست على المكان من حوله ، فلونته بأطياف خواطره التي أبحرت به لشطآن الكآبة وايقاع رئينها الرتيب . وبينها هو غارق في تلك الأصداء اذ بعاصفة عنيفة تدوى وتهطل الأمطار كالسيل على المدينة . ثم تبعها صوت أصم ثقيل أشبه ما يكون بتدفق بحر متلاطم . واعترى فنسان شعور عارم دفعه الى النافذة ليرى قرابة ثلاثة آلاف عامل يتجهون الى الترسانة البحرية ! ومع كل بَرْقة رعد ، كانت الأشجار تتلوى تحت عصف الريح ، وينهمر المطر كعصف فؤاده مطقطقا على الأحشاب المتراكمة مداهما أسطح المراكب ، وتتراقص القوارب بعنف عشوائي ، بينها الرجال ، هؤلاء الألاف من المعذبين يواصلون سيرهم الى التيه ، في خطى منتظمة . حيث عذاب لقمة العيش والأحلام الضائعة التي تبطل في عروقهم مطر الأسي . .

واعترى التأثر كيان فنسان لتسرى فى نخاعه رعدة حادة ويثور فى أعاقه عواء صامت لا يقدر حتى على الصراخ ، اذ لم يحتمل منظر ذلك البؤس الجارف لعال كأنهم عبيد من عصور غابرة اجبروا على السخرة . لكنه رغم ثورته العارمة الصموت لحال هؤلاء العال الاجتماعية ، فإن ذلك لم يمنعه من تأمل القيم الجمالية لتلك المسيرة التى تكد تحت الرياح العاصفة والأمطار . . وقد كتب هذا المنظر قائلا أنه أهم وأجمل من النصوص اليونانية واللاتينية ! ودون وعى منه وجد فنسان نفسه يتبع أولئك القوم وقد حمل كراسة ، اسكتشاته ، تحت أبطه . ولم يكتف فنسان بدراسة الشكل الخارجي لتلك الأطياف السوداء المربوطة بلجام الحاجة والفقر ، وانما راح يدرس

حالتهم وحياتهم المسخرة ، المسكونة بالمعاناة المضيئة لطريق خلاص جديد بالنسبة له ، وهكذا ترك كتب سيرة المسيح لينتقل إلى كتب الثورة الفرنسية . أى أبحر من شطآن الدين إلى لجج المجتمع والبؤساء . .

لقد ظل الوقت الضائع ينساب . . بينا فنسان يصارع باحثا عن معنى ، منفرطا بين الأمس واليوم ، يحاول أن يصل للساعة الخامسة والعشرين ، لكنها الساعة بعد الأخيرة ، اذ كان ذلك هو المستحيل الذى صارعه باليقظة الدائمة على حساب عدد ساعات نومه حتى يتمكن من حضور المحاضرات وعمل الواجبات المطلوبة ، ومتابعة المواعظ التى يلقيها الأب لوريار Lauriyard \_ الذى يتحدث مثلها يصور الفنان . . كما كان ينتهز الباقى من ساعات راحته ليتمكن من الذهاب إلى متحف تريبنهويس كما كان ينتهز الباقى من ساعات راحته ليتمكن من الذهاب إلى متحف تريبنهويس الكتب اللازمة ، ويدون ملاحظاته وانفعالاته ، مقارنا قراءاته بالواقع الذى يحيط به . وذلك كله بالاضافة الى جولاته المرهقة ، جولاته ليرسم من الطبيعة حياة أولئك القابعين أحياء لبعض الوقت فى ظلمات الأزمة الضيقة المتداخلة والتى تتكدس فيها الحوانيت عشوائيا ، بجانب الصيدليات ومعامل و الليتوغرافيا ، والمطابع وتجار الخوانيت عشوائيا ، بجانب الصيدليات ومعامل و الليتوغرافيا ، والمطابع وتجار الخرائط البحرية ومحال لوازم المراكب والحدادين وصانعى البراميل . . وكلها أماكن عديه فى صمت نابض يثير الشجن فى نفسه \_ وإن حبست كونا من الدلالات فى عينيه ، كان عليه أن يكتشف كنهه . .

وهكذا ، وأثناء جولاته الطويلة هذه ، وبمروره يوميا أمام نفس المناظر بتضاريسها الانسانية ، كان فنسان يلتقط لحظات التوافق والتحاور الداخلي ، ويرى مساحات لم يصورها فنان ، حيث تثير الأشياء التقليدية للحياة اليومية شعوراً غريبا لم يتفتح عالمه بعد ، بقدر ما تكشف عن تلك الانفعالات الكامنة التي يحولها الى خطوط وكلهات . . ومن متاهات العشب الشوكي يطلع برعم الوميض اللوني في العيون والخلجات . .

وعند اقتراب موعد الامتحانات بدأ ظل فشل جديد يطارده . إن هذا الطالب ابن الحياة اليومية الذي كان يستقى معلوماته مباشرة من الواقع المعاش الانسان ، ليمسك بالنور في ظلال الحقيقة القاتمة . بعيداً عن الوهم ، كان يمضى الليل في استذكار دروسه على ضوء « لمبة غاز ، متأملا لهيبها المتراقص . . وها هو أستاذ،

منديس داكوستا Mendès da Costa يؤكد له أنه سيكون مستعدا لأداء الامتحان بعد ثلاثة أشهر ، عل في ذلك الردح من الزمن ما يسكن غلواء قلقه النبيل . غير أن هذا التأكيد لا يبدو أنه هدأ من روعه فقد تحالف معه قلق آخر ، هو خيبة أمل مكتومة كانت تبعث في أعهاقه صليل معركة قادمة . . لم تكن بجرد فكرة أولئك والاساتلة الماكرة» وشائعاتهم هي التي تحدد مستقبله . . فقد كان حظاهريا - يقوم يوميا بعمل خطط لليوم التالي للاستذكار والبحث ويأمل في التغلب على مصاعبه . لكن في الداخل - كان وتريشتد إواره . . وتر لم يعزف بعد ، لأغنية تجيش وترهص ، تفيض وتؤرق . . وتر يتأوه في نشيج مكتوم إيذانا بالصرخة .

وقى صمت ، راح ينسج تاجا باشواك الحياة . . تاجا لا يخص الناس ، لكن الله وحده يراه ويسمع أنينه وتفجراته فى نفسه . . « إنها قضية عمرى ؛ النضال من أجل الحياة ، لا أكثر ولا أقل ، (١١٤) .

وفي نفس الوقت ، فإن الاعجاب الشديد الذي كان يكنه لكل من خاله وعمه ، في بداية اقامته ، قد بدأ يخبو ويتخثر . . لتحل محله خيبة أمل جديدة على عتبات شاهقة من الياس . . فعندما كان يلحظها يتحدثان في المساء ، عند عودته كان منظرهما يشعره بانقباض في القلب ، وهمساتها المريبة تزيد من ادراكه لحقيقة تعليقاتها التي هي أبعد ما تكون عن وظيفتها كرجال دين ، وكلها أمور أبعد ما تكون عن دينهم نفسه ! وهنا نقاط ضوء لم تمس ، فتلك سمة يغفلها كلية معظم الذين تناولوا حياة فنسان . خاصة وقد آثر فنسان الصمت فيها يتعلق بهذا التغير ، بل آثر أن يكون موضعاً لا تهام الغير بدلا من نقوم هوباتهامهم وكشف حقيقتهم بل آثر أن يكون موضعاً لا تهام الغير بدلا من نقوم هوباتهامهم وكشف حقيقتهم تاركا إياهم – وبفهم ديني إستغرقه – لحساب السهاء ، حتى إنه لن يعترف لأخيه بأنها كانا سبب فشله الا بعد زمن طويل . لقد انتظر نهايته المتوقعة ، وفضّل خيبة الأمل وطرق الهجير والعذاب على أن يشبهها . فها في نظره ليسا مسيحيين صالحين

وإن تبوءًا مرَاكز دينية عالية . لكن ماذا تعنى الوظيفة الدينية بلا سلوك يتشبع بأجنحة الدين . . أن ما يبدو نقصاً في تصرفاتها إنما هو نقصان في أعماقهما . .

وفى نفس هذ الفترة كان فنسان يقوم بزيارة كي Kee ، ابنة خاله ستريكر ، وكانت متزوجة من السيد ڤوس Vos ، القس السابق . وعندما كان فنسان يراهما جالسين معا في المساء على الضوء الشاحب للمصباح ، قرب غرفة طفلها ، كانت تعتريه نفحة من الذكريات . . وكم تأثر بهذا المنظر البرىء ، الملىء بالحنو ، لعالم كم حُرم منه فقد كان يعد جو الأسرة القائم على التفاهم والحب قوة إلهية تقاوم اعوجاج هذا العالم وتتحدى ما كان يطلق عليه و الجانب المعتم ، للحياة . وكثيرا ما راوده هذا المنظر بحنين عارم وهو يتأمل الغسق بينا يترجم تلك اللحظات المباركة بكلمة البعث . . الا أن ابنة خاله هذه ، والتي ستصبح ذات يوم حبه الكبير ، ستزيد من احزانه القاسية عندما ترفضه هي الأخرى . .

وفى حضرة الغسق ، كما فى أفول الشفق ، يبدو فنسان وكأنه متعطش الى الله . . لكن ، يا لعمق الهاوية التى تتراءى أمام عينيه ! ان هناك جرحاً بعيدا يبدو فاغراً فاه تسرى شظاياه فى كيانه الى ما لانهاية . .

لقد ظلت النيران متقدة تحرق ذلك القلب المرفوض ، وقد هال فنسان عمق الهاوية التي تدار رحى حياته فيها ، وكاد يهوى متسائلا بهلع : « أين أنا ؟ ما الذى أفعله ؟ وإلى أين اتجه ؟ ، لكنها لم تكن سوى هفوة عابرة وهو يبحث عن المضى و في الغامض والملبد بالغيوم . . وهكذا ، وبإرادة لا تلين ، انكب ثانية على دراسته وقراءته ، الا أنه إلى جانب مؤلفات كل من كمبيس Combès وميشليه وكالفين ما Calvin أضاف اليها لامرتين وجوتييه Gduttier وموسيه ، وكأن الأشعار راحت تضفى على مشاعره رجفة خفيفة اذ ترتوى من موسيقاها . وبدأت أفكاره تتبلور وتخيد عمقا ، لتعكس مراسلاته في مرحلة التكوين هذه جُماعاً للنور والطبيعة والمعاناة ، وأقواسا من الشمس والظلال والغسق ، ويبقى الانسان فيها لحنا متفرداً لا تأفل ارادته رغم النكبات التي تُصهره وتكشف أروع وأنبل ما فيه . .

أما مجموعة مقتنياته من لوحات الحفر ، فقد راح يضيف اليها لوحات عديدة عن الثورة الفرنسية ، وهي مجموعة تكمل ـ في نظره ـ مؤلفات ميشليه وكارليل وديكنز . . اذ كان يرى عند كل هؤلاء الكتاب والمصورين نفس الروح التي تعكس مقوله و انني البعث والحياة ، التي كثيرا ما رددها أبطال روايات ديكنز . الا أن تلك

المقارنات والتطلعات الفنية والأدبية قد جلبت له أولى اتهاماته بالجنون من قبل أعهامه وخاله ؟ وفى نهاية العام ، أمضى فنسان فترة الأعياد مع أسرته فى إيتن Etten ، وانتهز هذه الفرصة ليناقش والده فيها يتعلق بموقفه . وفى الثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٨٧٧ ، قال فنسان لوالده : ( من الأفضل أن نواجه بكل موضوعية كيف يمكن وقف هذه الدراسة ) . ورفض الأب مصعوقا أن يداس كبرياؤه ، مستندا إلى قرار مجلس العائلة ، إلى كبار الذين يقررون . وكان على فنسان أن يواصل وينكب على دارسة الترجمة والأجروميات !

واعتراه الاحباط . .

عاد لمحارة الوحدة يواصل بلورة الرمال وهو على يقين من أن جهده الضائع فى هذه الدراسة لن يجنى من ورائه غير الضياع . . وفى هذه المرة أيضا ، أخذ يكتفى فى وجبة الإفطار بقطعة خبز جاف وكوب من الجعة . . وها هو يبين للمرة الأولى عن السبب فى ذلك ، اذ كتب يقول : « ان ديكنز يقدم هذه النصيحة لكل الذين يفكرون فى الانتحار على أنها وسيلة شديدة الفعالية لتثنيهم عن فكرتهم لبعض الوقت » (١٠٦) .

وجاهد فنسان ليواصل مسيرته المخضبة بالجراح . .

وذات مساء ، فى احدى اللحظات النادرة الحوار ، عرض عليه عمه كور Cor احدى لوحات المصور جيروم Gérome ، وكانت تمثل آلهة الجمال . ثم سأله أن لم تكن جميلة . وكم كانت دهشته عندما سمعه يقول بتواضع أنه يفضل عليها أى لوحة لإمرأة قبيحة الشكل ، على أن تملك روحا وتكون معبرة ! ان الجسم الجميل لدى الحيوانات أيضا ، أما الروح التي عانت من آلام الحياة لأكثر جمالا فى نظر فنسان والذى لا يفهم شيئا ، فى الجمال البارد !

ولم يصدِّق العم ما كان يسمعه ، فسأله مذهولا عها اذا لم يكن يشعربأى شيء تجاه أى امرأة أو فتاة جميلة الشكل ؟! وكم كانت حيرة العم ، تاجر اللوحات ، وقلقه عندما سمع فنسان بجيبه قائلا : «لا شك إننى أفضل أن أتعامل مع إمرأة قبيحة الشكل أو عجوز أو فقيرة أو بائسة لسبب أو آخر ، لكنها انسانة عجنتها خبرة الحياة واكسبتها الآلام عقلا وروحاً ، (١١٧) .

10

59

ولم تلتق الشخصيتان أو يتكامل تفاهمهما ، وانما أصبحت الهاوية فاصلة الى الأبد بين فنسان المتعطش للانسانية وللجهال الانساني ، وبين عمه المرتبط تماما بقيم المجتمع البورجوازي .

وفى بداية شهر فبراير تم استدعاء والد فنسان ، وتم انعقاد مجلس عائل حضره الاستاذ داكوستا . وفى المساء راح فنسان يكتب لأخيه قائلا : « أن كمية المواد التى يجب معرفتها مذهلة . ومهم حاولوا اطمئنانى ، فإن ذلك يعطينى دائما شعورا بحصر نفسى أعجز عن وصف حدته » ( ١١٩) .

وهكذا رفض فنسان مواصلة هذه المسيرة الاجبارية .

وبعد أن قام بتوصيل والده الى المحطة ، وتابع القطار بعينيه ، وتأمل دخانه المنساب إلى أن تلاشى ، عاد فنسان الى حجرته ، وأغلق الباب بالمفتاح . وعندما القى بنظره على المقعد الخالى حيث كان والده يجلس بجوار المائدة الصغيرة التى تعلوها الكتب والأوراق منذ البارحة ، أدرك مدى مأساته وكم هو طفل مهجور بقسوة .

لقد أصبح المقعد خاليا ليمتد هذا الفراغ الذى تركه رحيل انسان محبوب ، انسان كان فنسان شديد الارتباط به ، وها هو يثرك بصمة ألم لا تمحى فى ذاكرة الفنان ، الأمر الذى لم يعبر عنة الا بعد ذلك بسنوات ، عند رحيل جوجان Gauguin من البيت الأصفر . . لتصبح لوحة المقعد رمزا للفراغ والوحدة الساحقة والانسان المهجور . .

وأثناء جولته التالية اتجه فنسان الى كنيسة فرنسية حيث كان أحد الوعاظ من ضواحى مدينة ليون قد قدم إلى هذه المنطقة ليلقى موعظة تسهم فى جمع التبرعات باسم احدى الارساليات الإنجيلية . وتحدث عن حياة العبال فى مصانع المنطقة ، تحدث عن المعاناة والألم ، ورغم أن أسلوبه لم يكن سلساً الا أن فنسان قد عاد مضطرب النفس متأثرا بتعبيراته و النابعة من القلب والتى كانت تجد أصداء عصيقة في قلبه المرهف المملوء برائحة طينهم .

وللحظة توحد فنسان بذلك المبشر القادم من ليون Lyon ، وتصور نفسه يتبنى قضية العمال ، قضية تلك الطبقة المقهورة ببشاعة ، والخاضعة لعناء البؤس حتى لم يعد في عظامها الجافة ما تعطيه . . واجتاحه شعور بالاحباط والقلق . وراح يتساءل لماذا يجب عليه أن ينتظر خمسة أعوام ؟ ! خمسة أعوام من دراسة لا معنى لها ، فى وقت كان عليه أن يذهب مباشرة الى هذه القلوب المنكسرة ، التى تعيش فى الرعب ! ترى ما هى قيمة مؤهل دراسى بالنسبة لهؤلاء المعدمين ؟ !

وكأن فنسان كان يناطح صخورا عاتية لا تتزحزح ، بينها الحقل الانساني يمتد أمام عينيه ، ويجذبه الى أقصى حد . . عالم بأسره من العاملين الذين يكدون في ظلمات الحياة . . وعاد ليتساءل مع نفسه ، ترى ما جدوى هذه الجهود التي لا معنى لها ؟! ماذا يعنى كل هذا العناء الذي يتفاقم مع الزمن الضائع في دراسة أكاديمية قد يتكلس قلبه معها ويتحجر مثل خاله و أعهمه؟! ترى هل يكف عن مواصلة السير؟ هل يعود أدراجه ؟ وحاول فنسان ألا يفكر . . . اد أن ذلك قد يعنى التعرض الى مشاكل أصعب وأكثر ألماً ، وسيكون عليه آنذاك مجابهة نفس مجالس العائلة حيث لا يكفون عن وصمه بكل شنيع والاشارة اليه بأصابع تقطر بالاتهام ؟!

ومرة ثانية ها هو فنسان يجاهد لتخطى الصعاب .. لقد راح يعمل ، لكنه أثناء عمله كانت أنامله ترسم وتتأمل .. أتم بعض الرسومات وراح يقدمها للقس جانيبان gagnebin ، تحية وشكرا لكل المشاعر الطيبة التي تركتها مواعظه في نفسه .. لقد كان الرسم هو الشيء الوحيد الذي كان بوسعه أن يعطيه كل مشاعره ، لأنه نابع من نفسه ، معبر عن احتياج جامع ، وهو ما يوضحه قائلا : وإنني أشعر بهذه الحاجة ، أن أرسم من وقت لآخر ، لأنني أشك في النجاح أو في عمل كل ما يطلبونه مني ، (١٩٩) .

لقد انضم ظل الموت الى هذه اللحظات العصيبة. واذ علم بوفاة بريون Brion ، ثم دوبيقى Daubignyاستيقظ فى أعاقه شعور عارم وهو ينظر الى اللوحات المعلقة على الجدران: انه يود ابداعاً يظل بفضله حياً فى ذاكرة الناس ، على الأقل فى ذاكرة بعضهم . . وأن يعطى مثلا طيبا للذين يتبعونه .

كان الفن والدين يتلاحمان في كيان فنسان لكنها كانا يتصارعان أيضا . فلم يكف عن التساؤل الموار : ترى هل دفعه حماسه المشبوب بالرسم الى الضياع ؟ ترى هل يسلك عبر الكهنوت طريقا خاطئاً ؟ ترى هل اخطا الاختيار ؟ وكم شعر بالاهانة من هذا التناقض المتهاوج في بحور أعهاقه والذى يتلاطم فيه صخب التردد وعدم الثقة . . الا أن شبح انتظاره المحتوم لخمس سنوات دفعه ليكرس حماسه لنشاط محدد يستوعب كل طاقته المتدفقة : فقرر أن يختار لمصبه أولئك الملعونين على الأرض الذين

يحملون عبء المعاناة بلا هدأة نفس أو راحة كيان . فكتب قائلا لأخيه في الثالث من شهر أبريل عام ١٨٧٨ : « فيها يتعلق بي ، يجب على أن أصبح واعظا جيدا ، إنسانا لديه ما يقوله من طيب الكلام ، شيئا مفيدا في هذه الدنيا » .

لقد كانت تجاربه الماضية بما يعتمل في طياتها من التجارب الفنية والأدبية والانسانية تسمح له بأن يأمل في النجاح. لقد كان يؤمن بأن العقل المتقد الذي يعرف ويحب العديد من الأشياء ليس عيبا في نظره ، بل على العكس من ذلك ، فإن القوة الحقة تكمن في هذه الفكرة البسيطة والتلقائية الكامنة في قيمة الحب . لقد رأى أن من يجب يستطيع الكثير ، وما يتم عمله بحب فهو وحده العمل الذي يستحق الحلود .

لقد تخلى عن دراسته الأكاديمية وألقابها العلمية ، بعد أن خاب ظنه عندما رأى أولئك القوم عن قرب . ويالهم من قوم محدودى الفهم ، يتمسكون بالصغائر ، ويتحدثون كثيرا ليخرجوا أصواتا فارغة ، سهلة النطق ذات صخب وضجيج ، لكنها بلا أدنى فائدة .

لقد اختار فنسان أن يختصر فترة الانتظار الخاملة ليلتحق بمدرسة للمبشرين لا يحتاجون فيها الى مؤهلات عليا لقد اختار مجال نشاط بعينه ، على أمل أن يحتفظ بحرية تفكيره وتصرفاته المستقلة التى تثير الفزع فى نفوس أولئك السادة المبجلين الغارقين فى دوجاتية متحجرة عقيمة .

وبعد خمسة عشر شهرا من الجهود والخضوع لرغبات الأخرين ، لم يكن أمامه الا أن يترك أمستردام ، متخذا مثله الأعلى في أولئك الرجال الشرفاء متقبلا اجتياز تجربة الاحتراق من أجل الأخرين . . وها هو يعود مجرحاً ممتلئاً بالبحث عن الانسانية ، مدركاً أن أتونها سيصقل روحه ويقويها . .

#### رسالة مجمضة

حمل فنسان صليبه المثقل بالفشل المفروض عليه ، واصل مسيرته القاسية مندهشا من أنه مازال على قيد الحياة بعد كل هذه الكوارث . وكم كان على حق وهو يتأمل لوحة جول جوبيل Jules goupil المساة : « المواطن الصغير من العام الحامس ، ذلك المواطن الذي يبدو وكأنه قد صمد لكل أهوال الثورة الفرنسية .

لقد كانت هناك عاصفة شعواء تجتاح أعاق فنسان الشاب ، الذى لا يستطيع التضحية بالمثل العميقة الجذور في نفسه وحلمه النهارى الذى لا يستطيع تحمل رجفات العبء التقليدى الذى يفرضه المجتمع . فحاول القيام بنوع من التقارب بين الطريقين المتصارعين : رغبته في الذهاب مباشرة لمواساة أولئك البؤساء وبين القوانين التي تفرض عليه الحصول على مؤهل عال في العلوم الدينية . الأمر الذى انعكس في تعبيرات درامية تلون كتابات هذه الحقبة التي عاشها والربح عاصف وسهاء الواقع والوقائع ملبدة بالغيوم .

### أيتن (يوليو أغسطس ١٨٧٨):

فى الحامس عشر من شهر يوليو عام ١٨٧٨ ، سافر فنسان الى بلجيكا بصحبة والده والقس جونز ، من آيلورث ، وكان قد ظل على علاقة طيبة معه . وقاموا بزيارة عدة أعضاء من لجنة التبشير ، ومنهم القسس فان دن برينك Van den Malines من قرية رولرز Reulers ، وبيترسن Pietersen من قرية ملين Brink ودى جونج de Jonge من مدينة بروكسل . الا أن القسس المبجلين قد ترددوا في قبول من لم يتمكن من إتمام دراسته الجامعية ، بل وما هو أكثر من ذلك : لم يتمكن من اتمام امتحان قبوله في الجامعة اللاهوتية ، وفي الآن نفسه لم يكن بوسعهم البدء برفض ابن زميل لهم ، خاصة وقد جاءهم مصحوبا برفقة زميلين آخرين . فقرروا أن يبدأ فنسان بتمضية ثلاثة أشهر في مدرستهم ليعجم عوده ويكتسب المعرفة اللازمة للبدء في هذا المجال الا أن هذا الاقتراح المكلف كان يتعدى الإمكانات المتواضعة للقس فان جوخ . وبدماثة خلق ، اقترح فنسان أن يمضى فترة الاعداد هذه واللازمة كثرط لقبوله بين أسرته .

ولم تكن هذه التكاليف التي حاول فنسان أن يجنبها لوالده غير تلك التي تتعلق بالمسكن والمأكل ــ اذ ان الدراسة نفسها كانت مجانية ، على عكس النظام في أمستردام حيث كانت التكاليف جد باهظة .

كانت مدة الدراسة في هذه المدرسة الفلمنكية التكوين ، والتي يتم فيها اعداد المبشرين ، ثلاث سنوات ، يعد الطالب إبانها للحصول على مهمة تبشير كنوع من التمرين . وكان كل المطلوب أن يكون في استطاعته إلقاء محاضرات عامة بلهجة عطوفة ، وأن تكون قصيرة مركزة ، وغير متحدلقة . كما لم يكن من شروط هذه المدرسة اجادة أي من تلك اللغات القديمة على كل تلك الدراسات النظرية العقيمة . مما شجع فنسان على اختيار محدد ليصبح مبشرا جماهيريا ، خاصة وأنه سيتمكن من ممارسة رسالته التي تتمثل في معايشة أولئك الفقراء الذين أحبهم وامتلأ قلبه بهم ، وذلك ابان استكماله لدراسته .

لقد أمضى فنسان مع أسرته في إيتن هذه الفترة الجديدة من الانتظار المرير ، لمن كان يود الانغياس في العمل مباشرة . وبدأ يتدرب بالفعل على الحديث الى الناس بعلم وحماس ، بلا جود وبلا افتعال . اذ و ان هذه الكليات لابد أن يكون لها معنى ، لابد أن تعبر عن اتجاه ما ، بحيث تدفع المستمعين الى بذل ما في وسعهم لتنبثق أعياهم بدافع من الحب ) ( ١٢٣ ) لقد استراح صدره أخيرا إلى هذه الطريقة الذاتية الجديدة التي عمل أستاذه على اقرارها بدأب يشوبه التسلط . ولكنه تناسى هذا التسلط في غمرة لهفة نبيلة لمعايشة الفقراء . وهكذا استقر فنسان أخيرا في غرفة صغيرة أعدوها من أجله . كانت تطل على الحديقة وقد غطى اللبلاب جدرانها الخارجية . وبحسه الرهيف بدأ بتنسيق المجموعة التي يقتنيها من اللوحات على

الجدران من قبل أن ينكب على تمارينه فى صياغة المواعظ . وليس غريبا أن يكون أول موضوع يتناوله بالتعليق مرتبط بلوحة رامبرانت الموجودة فى متحف اللوڤر واسمها : بيت النجار . ثم تناول موضوع حبة الحردل الأسود . ، وكتبه فى سبع وعشرين صفحة ، وأن بدأ يرسم فى نفس الوقت نقلا عن إحدى لوحات إميل بريتون المعروفة باسم : صباح يوم الأحد .

ومما يؤسف له ان كل هذه الموضوعات التحضيرية للمواعظ لم يتم نشرها الأمر الذى كان يمكن ان يلقى ضوءاً جديداً ويكشف عن ملامح غير معروفة عن فنسان ، مثلها سبق ورأينا فى الفصل الأول ، عندما تناولنا موعظته الوحيدة التى تم نشرها بالجزء الأول من المراسلات (ص٩٣ – ٩٨) . وهنا تجدر بنا الإشارة الى أهمية الموضوعات التى كان يختارها للتعليق عليها مما يسهم فى الكشف عن الملامح النفسية التى غمرته فى هذه الحقبة وهنا يقول رينيه ويج René Huyghe الذى أتبح له أن يسك بين يديه بنسخة الانجيل الحاصة بفنسان ، (وكانت بحوزة أحد القسس السويسريين) و لقد خط فنسان على هامشها كل الفقرات التى تثير اهتبامه : وكانت فى كلها أكثر الفقرات درامية وعنفا ويأساً (فان جوخ صفحة ٢٥) .

ورغم أن فنسان كان يقضى نهاره برفقة والله فى جولاته بضاحية زوندرث Zundert أو فى القرى الصغيرة المجاورة لها ، الا أنه قرابة الغروب وعند عودتهها ، كان يغوص فى تأمل تلك الشمس الفسقية الحلابة الحمرة ، وهى تغيب أمامه خلف أشجار الصنوبر ، بينها تنعكس السهاء المتقلة الألوان على سطح المستنقعات . . وكانت هذه المستنقعات بأعشاب الحلنج ورمالها الصفراء والبيضاء أو الرمادية – مثل بعض لحظات عمره – تبدو له وكأنها تفوح بالسكينة والتوافق .

ورغم الأمطار والعواصف التي تميز شهر أغسطس، فإن ذلك لم يقلل من انبهاره بالريف. لقد أسرته حقول القمح بقدر ما كان شغوفا بتتبع المراحل المختلفة لدورة نبات البطاطس الذي تذبل أوراقه عندما يتم نضج الثهار. واعتبرها ميلادا متجددا ينبعث فيه الوجود والعدم. وكم كانت تستوقفه حقول الحنطة المزدهرة بزهرات بيضاء واثعة تتألق بندى الصبح أو تلمع في وهج الشمس بقلر ما تضيء صفحة الأفق مع الغروب . . . ولكها مناظر سوف يقوم بتصويرها فيها بعد أو يصفها في خطاباته .

لقد راح يبث لأخيه تيو هذا الحب العارم للطبيعة ، وحب الفن في كينونته الأولية في كون الله ، وها هو يحث أخاه على البحث عن كل ما يضفى الحياة والحيوية على الكون والأشياء . اذ أن الغذاء الحقيقي للحياة في نظره هو ذلك الذي نستمده من لون الظلال التي تكون انفعالاتنا ومن أعهال الذين يعبرون بقلب صادق في حدس لماح . ولا غرابة آنذاك في أن يطلب من أخيه أن يحدثه ، بدوره عن كل ما يدور في تلك الحياة الفنية والأدبية في لاهاى وعن الفنانين الذين تعرف اليهم . لقد كان يرى أن الأدباء والفنانين هم وحدهم من يستطيعون أن ينشروا الوعى لنهض الرؤى ويسرى الجهال .

وفى أواخر شهر أغسطس سافر فنسان إلى بلجيكا ويالها من لحظات فراق أخرى . لكنها هذه المرة تختلف عن رحيله الى رامسجيت فى انجلترا اذ وقف والداه ينظران اليه بقلق لا يخفى شوائب الادانة المسبقة ، وراحت الأم تتمتم قائلة : د إننى أخاف دوما من ذلك الشيء الذى يمكن أن يفعله فنسان فيثير المشاكل ويحطم كل شيء بغرابته ومفاهيمه غير التقليدية عن الحياة ، (لوى بييرار Louis Pierard ، فان جوخ صفحة ٥٥) . ويضيف الأب بشيء من الأسى : ومن المؤلم أن نرى أنه لا يعرف أى شيء اطلاقا من مباهج الحياة إنه يسير دائما محنى الرأس \_ باحثا بدأب عن كل ما يقوده الى المصاعب ، (المرجع السابق) .

وهكذا فإن رصيداً لا يتزعزع فى قلوب المقربين منه كان يتسم و بالغربة المغلقة ا ليفصح عن أبجدية عدم الفهم لذلك الفنان المبحر فى أفق ممتد من مفاهيم إنسانية مثقلة بالجراح اذ تموج برؤى غير مألوفة يغمرها شجن حياة أخرى تحلق صوب البائسين ، الأمر الذى اعتبره الأهل والمقربون طريقا إلى الهاوية وخطى حثيثة للفشل .

# بروكسل (٢٥ أغسطس- نوفمبر ١٨٧٨):

وفي مدينة بروكسل أصبح فنسان واحدا من ثلاثة تلاميذ للقس بوكها Bokma . للوهلة الأولى بدا بينهم غريبا ، اذ لم يعرف أى خضوع للمظاهر ، وأكثر من ذلك فقد رفض تفسير استاذه الحرفي للكلام المقدس ، مؤثرا الاحتفاظ بحرية رأيه الشديدة الوضوح واثنى كانت تتفق والمعنى العميق للانجيل . وهكذا وجد فنسان نفسه أشبه ما يكون و بقط في مكان غريب عليه » (المرجع السابق صفحة ٥٦) .

ومع شعوره بالقهر والتضاد ، بدأ يعانى من نفس ضيق الأفق والتعنت الذي عانى منه في أمستردام . راح يتوقع مسبقا نفس النهاية المتوقعة لهذه التجربة أيضا ، ألا وهي : الفشل المفروض عليه !

وفى بداية شهر نوفمبر ، تم استدعاء والده . الا أن الأب لم يتمكن من السفر فأرسل ابنه تيو نيابة عنه ، وسافر تيو فى منتصف الشهر وقد حمل معه هدية لأخيه عبارة عن لوحتين من الحفر .

وأيًا كانت نوعية المناقشات التي دارت بينها ، وأيًا كانت اختلافاتها في الرأى ، فإن تمضية يوم بطوله في حوار مع إنسان يجبه يعد بالنسبة لفنسان يوما سعيداً . . يوما لم يدم سوى لحظة خاطفة لذلك الانسان الوحيد ، المتعطش الى الحوار الآدمى المتبادل . . وخلال تلك السويعات لم يفت فنسان أن يصطحب شقيقه الى المتحف وأن يتأمل بصحبته أعال دى جرو De groux ، ولييس Leys ، وغيرهم من الفنائين الذين أعجب بهم .

وبعد أن قام بتوديع أخيه ، عاد فنسان سيرا على الأقدام من لا يكن Laeken ( إحدى ضواحى بروكسل ) ، وبدلا من أن يسلك اقصر الطرق ، ها هو يمضى مع الطريق الموازى للنهر ، يحلق صوب السهاء البعيدة محتميا بالغهام ، وقد لازمته هذه العادة مع عادة أخرى اذ كان يفضل الاتجاه للمدن عبر مقابرها . . . وكأته يود دفن كل ما يلاحقه من عتب ونظرات لا تكف عن اتهامه ، والتي تطالبه بأن يغير من طبيعته ، والا يكون هو نفسه . . نظرات وأقوال تجبره على تبنى أسلوب حياة الأخرين وأفكارهم التقليدية الموغلة في تخوم المالوف والذعر من كل جديد صادق .

وأثناء الطريق ، عِبر حقول الصمت الأزلى ، حلول فنسان أن يتلمس الأصداء الحافتة التى تحيط به وكأنها تهمس بما خيل اليه أنها تردد ؛ ( اعمل طوال اليوم قبل أن يأت المساء ، حيث لا أحد يمكنه أن يعمل آنئذ ) ( ١٢٦ ) . وهى نفس الفكرة التى سيعبر عنها الأديب مارسيل بروست Marcel Proust بعد ذلك بثلاثين عاما .

لقد صادفته فى عودته مجموعة متنالية من العربات تتجمع لتتلاقى عند أول الطريق تؤلف من هيكلها لوحة متفردة للحظة عودة و الكناسين ، بعرباتهم التى تجرها جياد بيضاء منهكة ، وتوقفت خطى فنسان أمام المنظر الغريب ، إذ تذكر أن تلك اللوحة التى يشاهدها مؤخراً كانت من مجموعة حفر بعنوان حياة حصان والتى كتب

عنها قائلا: وهناك حصان عجوز أبيض اللون ، منهك الى درجة الإعياء لفته حياة مثقلة بالعناء . والحيوان المسكين يقف وسط مكان قحط كثيب ، فى سهل تعلوه الأعشاب النحيلة الجافة . تتناثر عليه بعض الجذوع الملتوية المحنية أو تلك التى كسرتها العاصفة . . وبجواره جمجمة ملقاة على الأرض . وعن بعد ، بجواد كوخ القصاب ، يوجد هيكل عظمى لحصان تحول لونه الى أبيض شاحب . . وتعلو ذلك كله سهاء عاصفة . وياله من يوم زمهريرى خيم الظلام بأجوائه ، (171) .

ولو أننا تجاوزنا الإشادة بأسلوب فنسان الذى أجلا التعبير عما فى المنظر من معان مأساوية ، فليس باستطاعتنا أن نغفل ذلك الشعور المنبئق بصدى جو حزين وملتاع من هذا المنظر السوداوى . الذى ظل يتأمله بانفعال شديد . . وتحولت نبضاته المتلاحقة لأفكار مريرة مملوءة بتخوم الليل للخضب بالسواد ورائحة الموت الترابية ، فهو أيضاً \_ ذات يوم \_ سيجد نفسه فى مواجهة مأزق الموت . . ورغم ضفاف الصخب الموار بأعماقه لم يثر الموت قلقه ، فما الموت «غير غموض كبير لا يعلمه الا وحده ، والذى افصح لنا عنه بوضوح فى قوله ; هناك بعث للموتى . . .

وهكذا عاد فنسان الى سكينته ، وبين تراتيل العينين ذلك المنظر الكثيب الحِذَاذُ ، حصان مسكين أوخادم عجوز أمين يوغل خلف سراب العمر ينتظر ساعاته الأخيرة بين النبض الخافت والحضوع الصبور والسهد الموجع ، فى شجاعة مسوقة بصرامة تستمد معينها من رحلة الحياة . . ويالها من لحظة ، ترسم بالأنفاس اللاهثة لوحة فيها الكناسون هم الأخرون بكل ما عليهم من خرق بالية أكثر غرقا وأكثر توغلا فى البؤس مثل العربات التى يقودونها . . لقد تباعد عنهم كل شيء . . حتى الموت ما عاد يأتى ليلعق جراحهم . .

أن أكثر ما يلفت الانتباه في هذا المشهد الماساوي هي صورة الوحدة الضارية والهجران التام والتجرد من كل شيء حتى الموت . وكلها نُذُر بحالته المنكسرة في تلك الأونة . . لقد واصل فنسان سيره من ضفاف النهر الى المقابر عِبْر أرض المساواة ، ليواصل المتعبة الى بروكسل لاستكمال محنه .

وفى أول خطاب كتبه لأخيه ، فى ذات المساء ، مساء سفره والخطى الكدرة والمنظر الفاجع ، اعترف له فنسان بأنه يميل الى رسم استكشات لكل ما يصادفه فى الطريق ، لكنه يتهالك حتى لا يعوقه ذلك عن دراسته . وبالفعل ، ما أن وصل إلى غرفته بعد عودته من وداع اخيه ، وارتداد بصره عن غبار الطريق . حتى بدأ يحتشد برسم المناظر والتكوينات التي يشاهدها لكنه سرعان ما ترك كراسة الرسم ليكتب تعليقا لموعظة حول وشجرة التين العاقر؛ (لوقا ١٣،، ٩٠٦).

لقد ارتد بصره من الرسم الى الكتاب المقدس ليبين عن هذه الأزدواجية التى تتقاسم نفسه بين الفن والدين ، والتى ستزداد مع الوقت لتكشف عن حيرته ، اذ يجد فى الفن ملاذا يسكن فى العين التى ترصد المعاناة وتتدفق فى اللوحات بتلقائية بقدر ما تكشف من ناحية أخرى عن شعوره بالقهر لكل ما هو عجر على بذله من جهود لاستكمال دراسته الدينية ليحصل على وظيفة تسمح له بالاستقرار الاجتماعى خاصة وان مجال الفن الابداعى لم يكن من المجالات التى تسمح بذلك الاستقرار آنذاك .

وما إن قرغ من كتابة موعظته حتى انكب على كراسة الرسم ليرسم لأخيه منظرا يضمه للخطاب الذى لم يفرغ منه منذ أيام . وراح يكتب له عن هذا الرسم الذى عنونه فى منجم الفحم قائلا : و لا يوجد بهذا الرسم أى شيء ملفت للنظر . الا أننى رسمته آليا من كثرة مشاهداتى لمناظر الفحامين هنا . إنهم أشخاص متميزون تماما . ان هذا الكوخ يوجد قرب الطريق الموازى للنهر . وفى الواقع إنها حانة صغيرة يأتى إليها العمال لتناول قطعة خبز وكوب من الجعة ساعة الغذاء » ( ١٢٦ ) . لقد عبر فنسان فى رسمه للعمال المعدمين عن معاناتهم وكأن هذه الطبقة تقوم تلقائيا بتنفيذ نصيحة ديكنزلاستبعادهم عن فكرة الانتحار إذ أنهم فى الحقيقة موتى فى صورة أحياء!

لقد ذكره ذلك الرسم الصغير بالطلب الذي أرسله بغية الحصول على وظيفة مبشر وسط عهال المناجم . الا أن المسئولين قد اكتفوا بالتعليق مصرين على بلوغه الخامسة والعشرين من عمره على الأقل ! لقد اهتم هؤلاء الرسميون بحساب عدد سنوات عمره لكنهم لم يهتموا برؤية ما باعهاق هذا الانسان الذي كان \_ قبل بلوغه السن القانونية المطلوبة للتبشير \_ قد أدرك واحدة من أهم المعانى الأساسية للإنجيل \_ بل أدرك لب كيان هذا الكتاب المقدس ألا وهو : مضمون النور . . ومن الظلهات الى النور » . ذلك هو ما كان يتأمله طويلا . . فمن في نظره بحاجة الى النور والمسائدة ، في هذه الأونة ، التي يتأمله طويلا . . فمن في نظره بحاجة الى النور والمسائدة ، في هذه الأونة ، التي وصلت فيها الضغوط الاجتهاعية والاقتصادية المشبوبة بالقهر الى ذروة استبدادها ؟ !

لقد لجاً فنسان إلى تجاربه الذاتية مثليا لجاً الى قراءاته ، وخاصة الى رواية الأزمئة الصعبة لديكنز ، تلك الرواية التي كانت أول من تحدث عن جحيم حالة الطبقة العاملة فى مناطق مناجم الفحم . وإذا امتلأت مشاعره وأفكاره بأخلديد معاناة أولئك الذين ألفت عيونهم المعاناة والظلمة الداكنة ، وجد أنه من المنطقى ضرورة تطبيق فكرة النور بالانجيل فى تلك المناطق حتى يضىء ظلمات من يعملون فى غياهب الأرض ، أولئك الذين ينتهى بهم المطاف إلى نسيان ضوء الشمس . . .

لقد كان مفعها بحبهم ، وما كان للصعاب التي تعترض طريقه أن تثنيه بسهولة عن رأيه . ومن ثم فقد تمسك فنسان بتلك الرغبة المتقدة للذهاب الى عمال المناجم في محاولة يائسة لينشر بينهم معانى التنوير دون انتظار الثمن . وكان يعلم أنه في جنوب بلجيكا ، في مقاطعة هينو Hainant قرب مدينة مونس Monsالتي تقع عند الحدود الفرنسية ، في منطقة تدعى بوريناج Borinage ، يعيش فيها تعداد كبير من عمال المناجم والفحامين . وما هي الا لحظات حتى راح يبحث في كتاب الجغرافيا ليقرأ عن هذه المنطقة : ﴿ إِنْ سَكَانَ بُورِينَاجٍ يَعْمَلُونَ فِي اسْتَخْرَاجِ الْفُحْمِ . انَّهُ لَمُنْظُر عميق الأثر ، فالمناجم ممتدة لعمق ثلاثهائة متر تحت سطح الأرض ، ينزل اليها يوميا عدد هائل من العيال الجديرين بعطفنا . إن عامل الفحم الحجرى نمط مميز في بوريناج ، فالنهار لا يوجد بالنسبة له . . وليس له أن يرى ضوء الشمس في غير يوم الأحد . انه يكد في عناء على ضوء مصباح صغير شاحب ، في سراديب ضيقة وهو محنى الجسم ، وقد يضطر أحيانا إلى الزحفُّ على بطنه . أنه يعمل لا ستخراج تلك الخامة المعدنية ــ التي نعرف جميعا قيمتها ــ من احشاء الأرض . وهو يعمل وسط آلاف المخاطر المتجددة دوماً . ومع ذلك فهو مرح الطبع ، اذ ان هذا العامل البلجيكي قد اعتاد مثل ذلك النوع من الحياة ، وعندما يتجه الى بطن الأرض مرتديا قبعته المزودة بمصباح يقود خطاه في الظلهات فإنه يسلم أمره للرب الذي يرى عمله ويحميه هو وزوجته وأولاده، (١٢٦).

ويا لسذاجة ذلك الوصف الشبيه ( بالليتوغرافيا الملونة ) على حد قول لويس بيرار الذى يضيف قائلا : ( لأكتفى بقول ان هذه الثلاثهائة متر التى يتحدث عنها كتاب الجغرافيا هذا تدفع بابتسامة ساخرة الى من يعرفون مناجم بوريناج ، ذلك أن آبار منطقة فليمو Flému التى نشأت بجوارها تصل الى أكثر من ألف ومائة متر فى العمق . وما أسهل توضيح بقية المغالطات التى يغص بها هذا النص ، ( الحياة المأساوية لفنسان فان جوخ صفحة ٥٨) .

لقد قرر فنسان الذهاب الى منطقة البؤس هذه . . ألم يحض القديس بولس ثلاث سنوات فى الجزيرة العربية قبل أن يبدأ سفره الطويل ومهامه التبشيرية ؟ ! ولم لا يختار فنسان منطقة بوريناج ليعمل بها بهدوء بينها يواصل تعليمه فى المدرسة الدينية ؟ وها هو يمضى قائلا : « ان شاء الله وإذا امتد بى العمر ، سأكون على استعداد قرب الثلاثين من عمرى لبدء مهمتى واثقا من نفسى ، وأنا أكثر نضجا ، هبغضل ما أقوم به من استعداد وبفضل مثل هذه التجربة الفريدة » ( ١٢٦ ) . لقد كان يرى لنفسه مهمة تبشيرية شبيهة بما قام به القديس بولس . وقد اعطى نفسه لهذه المهمة بلا حدود . .

وأثناء فترة التدريب المحددة بثلاثة أشهر والتي فرضها مديرو المدرسة على فنسان ، كان يعمل بدأب واضح ، الا أن عين الفنان فيه كانت في الوقت نفسه نقوم باستشكاف المناظر الطبيعية والتكوينات المحيطة بالبلدة التي يقيم فيها فمن مدينة بروكسل ذهب إلى سان جيل saint gilles حيث توجد منطقة مقابر مليئة بشجر الأرز ونبات اللبلاب ، ثم زار منطقة السد القديم ، وواصل السير حتى مونسانجان الأرز ونبات اللبلاب ، ثم زار منطقة السد القديم ، وواصل السير حتى مونسانجان Al semberg ، في السمبرج Forest ، الى أن وصل فورست التي يبذرها الفلاحون بالقمح أو ينزعون منها ثمار البطاطس أو يفسلون الفجل . التي يبذرها الفلاحون بالقمح أو ينزعون منها ثمار البطاطس أو يفسلون الفجل . والطرق الضيقة الحنايا والدروب التي تمر عليها جياد صغيرة بيضاء ، نحيلة العود ، مزركشة اللجام بأشرطة حمراء ، وساثقو العربات بحللهم الزرقاء . . كل ذلك مزركشة اللجام بأشرطة حمراء ، وساثقو العربات بحللهم الزرقاء . . كل ذلك بيته رغم احساسه بالحنين المشبوب بالاغتراب ، لكن بدلا من أن تصيبه بالحزن ، بيته رغم احساسه بالحنين المشبوب بالاغتراب ، لكن بدلا من أن تصيبه بالحزن ، كانت تسكب في وجدانه مددا من الحاس والحيوية .

لقد كان فنسان فى حوار دائم مع الطبيعة الشاسعة بعقل متوهج بالشوق ، لا يكف عن المقارنة بين ما يراه والأعال الفنية والأدبية التى اغترف منها . . ويا لجهال وتفرد ما كان يشعر به من تأمل منتشيا بالطبيعة مرتجلا بخواطره تجاه الأعهال الفنية ، وهنا يعطى فنسان مفتاحا جديدا لمغزى هذه المجالات بالنسبة له . إذ كتب يقول : ولكى لا يشعر المرء بالوحدة عليه أن يتمثل كل ما يراه ، عندها لن يصبح أبدا وحيدا بكل ما تتضمنه الكلمة ، (١٢٦) . وهى عبارة تكشف عن ذلك الوجد المذى ارتاح الى صدره حبا للفن الذى ينشد عبره الخلاص الجميل ، اذ هو الوجود الوحيد الذى كان يثرى وحدته الدائمة .

وسرعان ما تأتى العواصف تجتاح قاربه وتتساقط الأوجه الجامدة ، فيا أن انتهت فترة الشهور الثلاثة حتى قام كل من القس دى جونج ويوكيا باعلان فنسان أنه لم يعد في استطاعتها الاحتفاظ به في المدرسة بنفس الشروط الميسرة للبلجيكيين . أن أقصى ما يمكنه أو يأمله إنما هو متابعة الدروس ، إن أحب ذلك ، ومجانا ، إن اقتضى الأمر ، وأنه لن يحصل عل أية مهمة تبشير مادام لا يملك نقوداً !! . . ومرة ثانية يرتطم فنسان بالشكليات الكهنوتيه ويقلة موارده الأزلية

فلكى يظل فى هذه المدرسة ، كان لابد أن يكون لديه بعض الموارد المادية ، بالاضافة الى ضرورة الخضوع لرؤسائه . ترى هل من ضرورة للتأكيد على ذلك الموقف غير الكريم وغير المسيحى لأولئك القسس الذين يتعامل معهم ؟! من الواضح ان الناحية المالية لم تكن غير ذريعة حتى يتخلصوا بها من ذلك التائة الذى يجزج أحرف الكتاب المقدس بأنين الانسان ورؤى الفنان ويصوغ من الجمع فجراً . وليس أدل على تناقضهم وتراجعهم من أنهم فى بادىء الأمر وأمام والد فنسان والقس جوبز الذى كان فى رفقته ، لم يشيروا الا لمصروفات رمزية للمبيت والماكل حيث إن الدراسة مجانية ومهام التبشير كانت تمثل جزءاً لا يتجزأ من برنامج الدراسة . لقد كانوا فى حقيقة الأمر يحاولون اقتلاع ذلك الشخص الذى رحل صوب المضمون ولم يأبه للشكليات سواء فى حياته أم فى طريقة تفكيره .

وكم كانت فجيعة فنسان الذى لم يعد بوسعه أن يظل بالمدرسة أطول من ذلك . لنقص موارده المالية . فقرر أن يواصل طريقه بمفرده وسافر الى منطقة المناجم . فى شهر ديسمبر ، على أمل من أن يبدأ معايشة الواقع ، يبثه رسالته ، قانعا بصدق الحديث ، ملونا رؤياه بما يضىء وجه الحقيقة . .

# باتوراج Baturages (دیسمبر ۱۸۷۸\_ ینایر ۱۸۷۹):

في أول خطاب من فنسان لأخيه تيو في السادس والعشرين من شهر ديسمبر عام المدهد كتب يقول : « فيها يتعلق بي وبمنطقة بيتى قام Petets Vasme فسوف تدرك أنه لا توجد لوحات في منطقة بوريناج ، إنهم عادة ما يجهلون حتى معنى كلمة لوحة . ومن البديهي أنني لم أر أية أعمال فنية منذ رحيلي من بروكسل ، الا أن ذلك لا يمنع أن المنطقة نفسها مميزة الجمال والتكوينات الفنية ، يكاد كل شيء فيها يتكلم ويعبر عن ذلك الطبع المميز » .

ها هو قبل أن يتحدث عن عمله أو عن مواعظه أو حتى عن نظام حياته ، بدأ بملاحظة رهيفة عن غياب الأعمال الفنية غياب ذلك « الغذاء الحقيقى للحياة » ، ثم راح يصف الطبيعة التى تدور حياة هؤلاء العمال فى رحاها ، ويتحدث عن ذلك المنظر « الغريب » خاصة عند المساء ، ساعة الغسق ، عندما يمر عمال المناجم متشحين بالسواد على خلفية من الثلج الأبيض . . وهو منظر يذكره بلوحات الفنان بروجل Breughel فى القرون الوسطى ، بقدر ما يذكره بكل أولئك الفنانين الذين برعوا فى التعبير عن التناقض الحي .

لقد بدأ فنسان \_ الفنان بالسليقة \_ برؤية الجانب الجالى لعالم العالى المدفون في غياهب الأرض. وهو اذ يلاحظ حياتهم أخذ يدرس تكوين حركاتهم في الطبيعة ، وتحركاتهم اذ يصعدون من الآبار السحيقة إلى النور ، أو هم يتجهون إلى أكواخهم الصغيرة المتناثرة على جوانب الطرقات الخاوية ، والتي يعلوها الدخان . . لقد كان يتأمل في عمق تلك النوافذ المضاءة ليلا ويجاهد لكى يفك طلاسم تلك اللوحة الشاسعة الممتدة أمام ناظريه . محاولا قراءة تلك «الثلوج التي سقطت في الأيام الأخيرة لتجعل المنظر برمته أشبه ما يكون بصفحة بيضاء تعلوها الكتابات ، وكأنها صفحة من صفحات الإنجيل » (١٢٧) .

ويخلاف قراءة الطبيعة والتمعن فيها ، كرس فنسان كل وقته لمعايشة بؤس تلك الطبقة المعالية المكونة من ثلاثين ألف شخص بينهم آلاف الأطفال ، بنين وينات ، لما يبلغوا الرابعة عشرة من عمرهم ، ورغمها فهم يعملون في المناجم! لقد انطلق يعظ ويساعد العاثلات ويزور المرضى ويعالجهم ويقرأ معهم فقرات من الانجيل . وفي المساء كان يعطى الدروس لأبناء فان در هايجن Van den Heigen . ذلك المبائع المتجول الذي كان يقطن عنده . ومع تدفق النشاط الانساني لفنسان الا أنه أبدالم يشعر بالرضى . فكلها أعطى لذلك المحيط الذي لا قاع له رأى عدم كفاية ما يعطيه . ويا له إحساس مرير اذ أدرك أن المطلوب ليس جهد انسان بمفرده بل ولا جماعة تؤمن بما يؤمن به ، وانما لابد أن يكون جهدا من قبل الدولة حتى يمكن تغيير الظروف الاجتماعية لطبقة ذابت في البؤس وتعايش حده الأدنى .

ومع ذلك فقد كان يواصل مهمته دون كلل ، محاولا التوغل في أعماق ذلك البؤس المدقع . فكان يتحدث في الأماكن العامة أو عند بعض العائلات المجتمعة في المساء . أما أكثر الموضوعات التي كان يتحدث فيها ويتلظى بها فهي « حبة الخردل

السوداء ، ود شجرة التين العاقر ، ود الأعمى ، . وهي موضوعات تمازج شبها بحاته النائسة . .

لقد انتهز فنسان فترة الأعياد ليحدثهم عن اسطبل بيت لحم والسلام على الأرض . وفي الأسبوع التالي حدثهم عن نص و بولس الرسول ورؤية المقدون . .

وتواصل الكلام بالكلام بعد ما كان فى البدء متعثرا فى فهم لغة عهال المناجم فى الوقت الذى هم كانوا يجيدون فهم لغته الفرنسية التى كان بحدثهم بها ــ شريطة أن تسرع كلهاته حتى تشبه لهجتهم و التى ينطقونها بسرعة فائقة ، وكأنهم يتخلصون من آخر حرف يربطهم بالحياة . لقد ظلوا لاهين عنه فها جدوى تلك العظات التى تداوى جراحهم بكلهات منمقة ، لكن ما أن بدأ فنسان بحدثهم عن ذلك المقدوني المتعطش الى كلهات الانجيل ومواساته والى معرفة الله قائلا ؛ و يجب علينا ان نتخيله كواحد من العهال الذين ينم تعبير وجوههم عن الألم والمعاناة والتعب أن نتصوره عاملا من بين العديد من العهال ، بنفس بساطتهم ، وإن كانت له روح خالدة ، عاملا من بين العديد من العهال ، بنفس بساطتهم ، وإن كانت له روح خالدة ، تلك الروح التى تطلب غذاء لا يغنى ، هى كلهات الله ، ( ١٢٧ ) .

وما أن سرت هذه الكلمات التي تحمل ايقاعات ألمهم وآمالهم حتى تحلقوا حوله ينصتون ويستزيدون من بساطته واحساسه بهم .

ومنذ بداية مسيرته في مجال التبشير ، خاصة في منطة بانوراج ، في « تلك البلدة التي تعد من أكثر البلدان البلجيكية ميلا للاشتراكية والتصوف » ، على حد قول فلوريسون Florisoon (فان جوخ صفحة ٢٢) ، وها هو يتقرب الى عالها وأهليها البؤساء يصدق الرؤية التي تنبذ الجلسات المتحذلقة ، التي لا يمكن فهمها ، محاولا التقريب بين الرؤية الإنجيلية والفكر العالى . وذلك بشرح وتقريب النص الديني « غير المفهوم بالنسبة لهم » الى مستوى فهم هؤلاء البسطاء حتى يمكنهم أدراك نور هذه الكليات المقدسة .

وبمحاولة اقترابه من مستوى هذه الجماعة التي تعتبر من أشد الجماعات بؤسا على سطح الأرض ، وجد فنسان أنه يعايش عمله بكل جوارحه . . ولم لا ، أليست هذه هي الطبقة الوحيدة التي تقبلته ، حيث لا يوجد لديها ما تفقده ولا تتمسك الا بآخر ما بقي لها ألا وهو : انسانيتها .

الا أن هذا العطاء الانساني المتدفق وهذا النفسير الذاتي البسيط لكلمات الانجيل والواضح المعنى بالنسبة لمستمعيه ، قد عجل بنهاية فنسان في نظر رؤسائه . . فهو وان لم يكن قد اقترف إثما محدداً الا أن مجرد وجوده بين هؤلاء البؤساء قد أحرج رؤساءه ، اذ اندلعت ألسنة المقارنة بينهم ربين ذلك القادم الجديد . مما دفعهم الى التخلص منه بإبعاده عن مقاطعتهم .

وفى شهر يناير عام ١٨٧٩ ، وبلا أية مقدمات ، تم تعيين فنسان فى قرية ڤام Wasmcs ، بوظيفة مبشر لمدة ستة أشهر . نفس الوظيفة التى طالما توسل للحصول عليها والتى طال انتظاره لها ! الا أنها فى الواقع لم تكن سوى طريقة لإبعاده بلا ضوضاء . .

### - قام (يناير- يوليو ١٨٧٩):

في قرية قام هذه ، وجد فنسان نفسه دفعة واحدة في مواجهة صراع مزدوج : صراع ديني وصراع سياسي . اقتصادي . فمن الناحية الدينية كان النزاع محتدما بين الكاثوليك والبروتستانت . وهو خلاف في الرأى وصل الى حد الاضطهاد والمطاردة ، وفي الوقت نفسه ، فإن البروتستانت أنفسهم كانوا منقسمين الى فتتين : إحداهما تتبع الكنيسة القومية ، والأخرى تتبع الكنيسة الحرة ، تلك الكنيسة الأخيرة التي ترفض مساندة الدولة وتدعيمها واذا ما كان الكاثوليك ينظرون الى هذه الفئة المعروفة باسم الاصلاحية باعتبارها تمثل و الخارجين على القانون ، في نظرهم ، فإن فنسان نفسه كان يبدو مارقاً في نظر رفاقه البروتستانت في أكثر ما عايش الفقراء وانفتح على دروبهم وفسر كلهات الرب في ضوء معاناتهم ولأجلهم . مما يوضح مدى تقدم فكره بالنسبة لماصريه وخاصة في تلك الأماكن النائية .

ومن المؤسف والغريب في آن واحد ملاحظة أنه لم تتم أية دراسة جادة – فيها وصل البنا للآن – حول الفكر الديني المتحرر والاشتراكي المتقدم لفنسان ، والتي كانت ستلقى – بلا أدني شك – بأضواء جديدة على أماكن الظلال العديدة التي مازالت تكتنفها هذه السيرة التي تم تزييفها مع سبق الإصرار . .

أما عن الظروف الاقتصادية لهذه المنطقة ـ آنذاك ـ فمن المثير والمؤلم انسانيا متابعة منحنى أجور العمال من الوثائق الرسمية التى استعان بها بييرار Pierard ، من أحد الأبحاث التى قام بها مناضل اشتراكى فى بلدة قام وكان تلميذا لمثان جوخ ، (المرجع السابق صفحة ٦٦). ومن المؤسف أن بيبرار لم يتابع تلك المقولة الهامة التى أوردها وهي و مناضل اشتراكي كان تلميذا لفان جوح المزيد من الدراسة اذ كانت ستأتى بجديد خاصة من الناحية النضالية السياسية عند فنسان. وهو الجانب الذي أغفله كل الذين تناولوا كتابة حياته ، رغم ما سنراه فيا بعد من أن بعض تلاميذه في مجال الرسم – اذ كان لفنسان بعض الأتباع – كان يقوم بتدريس الاشتراكية لهم بينها كان هو نفسه يقوم بدراستها.

وفی کشف الأجور هذا نری أن العامل کان بحصل عام ۱۸۷۲ علی ۳٫۰۱ فرنکا فی الیوم ، وفی ۱۸۷۳ : ۳٫٤۲ وفی ۱۸۷۷ : ۳٫٤۲ فرنکا ، وفی ۱۸۷۵ : ۳٫٤٤ فرنکا وفی ۱۸۷۲ : ۳٫۱۹ فرنکا وفی ۱۸۷۷ : ۲٫۰۶ فرنکا ، وفی ۲٫۵۲ : ۲٫۰۲ فرنکا !

وفى مواجهة هذا البؤس المدقع ، لم يكن بوسع فنسان الا أن يتفانى أكثر وأكثر في عطاء لا ينفذ . وها هو بخلاف المواعظ التي كان يلقيها على العمال ، ورعايته للمرضى ، ومساعدته للنسوة اللاثى أهلكهن العمل المضنى ، قام بتأسيس مدرسة لأطفال العمال ، في نفس الوقت الذي كان يواصل دراسته المنتظمة للاشتراكية . ونجد الاشارة الى أن مايرجراف Mayergraf ، وبيرار ، وبيروشو هم وحدهم فيما وصل الينا ـ الذين اكتفوا بمس هذا الموضوع عند تناولهم لسيرة فنسان . في الوقت الذي نراه جانبا جديرا بدراسة مستفيضة تكشف عن الفكر السياسي والاجتماعي عند فنسان . ذلك الفكر الذي كان من أهم الأسباب ان لم يكن السبب الأساسي في الاستغناء الدائم عنه في كل موضع حل فيه .

وفى هذه المرة ، فإن أعضاء المجمع الكنسى المبجلين قد فجعوا من تصرفات فنسان التى لم يقروها . فقاموا باستدعائه ذات يوم ليقولوا له : ديا فنسان ، انك انسان متطرف وتجلب العار لهذا الدين ، (لوى جيران Louis Guérin فنسان قان جوخ فى بوريناج صفحة ١) . وحاول القس بونتى Bounty تهدئة هذه العبارة قائلا لفنسان بعض الملاحظات حول أسلوبه فى فهم رسالة التبشير ، وهو أسلوب يراه غير لائق ومفجع اذ أن وكثيراً من التفانى بمكنته أن يصيب هدف الدين بالأذى . لا يجب الخلط يا بنى بين الرموز والواقع ، نرجو أن تهدىء من روعك بالأذى . لا يجب الخلط يا بنى بين الرموز والواقع ، نرجو أن تهدىء من روعك وحماسك ، وهنا أضاف أحد أعضاء المجمع ، وكان فى زيارة تفتيشية قائلا : وتطرف مؤسف فى العطاء ، ان هذا الشاب تنقصه ميزات الادراك السليم والتوازن ولتى تجعل منه مبشرا جيدا » .

ودون أن ينبس ببنت شفه ، وقف فنسان يستمع فى صمت لكنه بعدها راح يواصل عمله بنفس التفانى والعطاء . . وبعد ذلك بشهرين ، لم يعد بوسع أعضاء المجمع الكنسى المبجلين احتيال و تطرف عطاء ، فنسان ، ذلك التطرف الذى لم يكن ليتفق وكرامتهم الشكلية والمظهرية . فارسلوا لوالله بستدعونه على عجل . ووصل القس فان جوخ فى شهر مارس ، وكم كان ذهوله عند رؤية ابنه فى تلك الحالة من التجرد من الكياليات وفى مثل هذا الاحباط . ولم يتيالك الأب نفسه وراح يصيح فيه قائلا : وإن الواعظ ، مثله مثل القس ، لابد له من الاحتفاظ بمسافة ما ليحافظ على قائلا : و إن الواعظ ، مثله مثل القس ، لابد له من الاحتفاظ بمسافة ما ليحافظ على فنسان . . ترى هل من ضرورة للإشارة هنا الى أن من يتحدث بمثل هذه اللهجة فنسان . . ترى هل من ضرورة للإشارة هنا الى أن من يتحدث بمثل هذه اللهجة المتعالية انما هو قس ، وقس بروتستانتى ؟ !

ان هذه المسافة وهذه الكرامة التي يتحدث عنها لم تكن في نظر فنسان سوى تفاهة وضيق أفق وتباعد عن الطريق القويم الصادق . . فبعد اختصار المسيحية الى تلك النقاط الثهانية للراحة الأبدية مثلها أعدها المسيح لحوارييه ، ألم يحدد لهم أهم ثلاثة خصال أساسية فيها يريدون اتباعه ، طالبا منهم : « أن يكونوا ملح الأرض ، وأن يكونوا في غاية الدقة في تطبيق وصاياه - إن لم يكن عدلهم أكثر » ؟ !

ألم يسبق للمسيح أن قال لهم : ولا تحملوا أية نقود ولا أكياس ولا أحذية ، ، ثم أضاف : وإذا أردت أن تكون كاملا ، بع ما عندك ، وأعطه للفقراء وسيكون لك كنز في السهاوات ، ثم اتبعني ، ؟

وبطاعته لكلمات المسيح ، بأوسع معانيها ، فإن فنسان لم يكن يفرق – بالفعل – بين الرمز والواقع ، ولا بين النص ومضمونه . فبالنسبة له لم تكن هذه الكلمات وتفسيرها ومعناها المباشر وما ترمى اليه غير رمز يمثل كلا واحدا لا يتجزأ ولا ينفصل عن بعضه . ألم يكن اسمه : الإنجيل ؟!

ومع إلحاح أبيه ، اضطر فنسان الى ترك الكوخ الصغير الذى كان يقطن فيه ليسكن مع أسرة الخباز دنيس Denis . وهناك بدأ بتعليق بعض اللوحات ويعض رسومه التى عملها فى بوريناج . وواصل مسيرته . وذات مساء . بعد يوم من العناء المنهك والعديد من المضايقات ، ترك فنسان لقلبه العنان ليتحدث . . وبحنين عارم وحب تلقائى حفظ الشاب جان باتيست دنيس Jean-Baptiste Denis ، وكان فى الناعه الانسانيه - ٩٧

الخامسة عشرة من عمره ، ما قاله فنسان عن ظهر قلب ، أثناء ذلك الحوار الحزين الذى دار بينها . اذ قال له : و أى بنى دنيس الصغير ، منذ مجيئى فى الدنيا وأنا أشعر اننى فى سجن ، كل الناس يعتبروننى عديم الفائدة . ومع ذلك . فلدى ما أعمله أشعر أننى خلقت من أجل تحقيق شىء لا يستطيع أحد سواى عمله . لكن ما هو ؟ ما هو ؟ لم أقكن من معرفته بعد ، ولوى جيران فتسان قان جوخه فى بوريناج صفحة ١ ) .

وفى قمة عطائه ، كان فنسان دائم البحث عن ذلك الشيء الذى خلق من أجله . ففى قرية قام ، مثلها فى قرية باتوراج ، وجد السكان أميين ، شديدى الجهل ، لكنهم أذكياء ومهرة فى مهنتهم ، شجعانا وغيورين على حريتهم . . وهم عادة قصار القامة عريضو المناكب ، بعيون غائرة الا أن أكثر ما لفت نظره فيهم انما هو توترهم العصبى الذى يضفى عليهم نوعاً من الكراهية الحوشية ، العميقة ، والحرص التلقائى تجاه من بحاول تطبيق القانون اذ أن ذلك يعنى بالنسبة لهم ، مزيدا من البؤس ، ومزيدا من الفهر .

ويفضل معايشته عاملهم ، بنفس أسلوب حياتهم ، استطاع فنسان الوصول الى مفتاح تلك النفوس المغلقة باحكام حرصا وانتقاما . وهنا كتب لأخيه قائلا : ولكى تشق طريقك وسط المناجم ، يجب أن تكون واحدا منهم ، وألا تصطنع الادعاء والتعالى عليهم ولا حتى التحذلق ، اذ لا سبيل آخر للتعامل أو الحصول على ثقتهم بغير ذلك ، (١٢٩) .

ولم يفتح أسلوبه في التعامل مغاليق قلوب عهال المناجم فحسب ، وانما كشف من سيكلوجية الأخاء والمحبة لدى فنسان الذى لم يفهمه أحد ، والذى كان يتبع مثل من قبل عنه أنه و رغم اصله الالهى ، فلم يتمسك بالمكانة التى تضعه في مصاف الألهة ، وانما أفنى نفسه متخذا موضع العبد الخادم . متشبها بالرجال ، (إصحاح فيليب ، الجزء الثانى ٦ ـ ٩) .

لم يكن اذن متطرفا فى التصوف أو فى الجنون ـ مثلما ادعى العديد من مؤرخى مسيرته أو كما تزعمه تلك الأسطورة التى صاغتها الأسرة ببراعة بغية طمس معالم نضال فنسان ومواقفه الحقيقية التى تختلف عما يزعمونه من قبيل (أنه كان يلطخ وجهه) أو يحيا (كالصعاليك)، تعاطفا معهم أو تقليدا لهم! ان الحقيقة تشى بعكس ذلك تماما، اذ أنه بفكره وفهمه، وإنسانيته، كان سباقاً لمجتمعه وإن اتبع

مفاهيم تتصل بالفكر النضالى للاشتراكية الانسانية السائلة آنذاك ، والتى انبثقت بعد أحداث ثورة عام ١٨٤٨ وظلت شعلتها متقدة . لقد انحنى فنسان على هذه الجموع البائسة المستبعدة لكى يعاونها على النهوض الى مثل معينة ، إلى حياة وضاءة تنفعهم وتمكنهم من معيشة أفضل ـ ألم يقم السيد المسيح بغسل اقدام أتباعه وكأنه خادم لهم ؟ ا

لقد فتح فنسان وبحق وبجزيد من الحب والابمان ، أبواب المدراسة والتطبيق وجمع بين الفكر والعمل وحاول الاقتراب من ذلك الواقع الجحيمى الذي يعيش فيه هؤلاء المستبعدون في الأرض. وهو ما لم يقم به أى قس أو مبشر من قبله ، الا أن هذه المحاولة مثلها مثل كل أفعاله قد أسىء تفسيرها واصبحت من أسباب انهامه وادانته! ففي شهر أبريل ، أمضى ست ساعات في السراديب الغائرة في باطن الأرض لمنجم مركاس Marcasse ، وهو من أقدم وأخطر المناجم في هذه المنطقة . . وعندئذ غاص بالفعل في الظلمات لينتقل من شطآن الجانب الجمائي أو الرؤية عن بعد الى موج الالتزام والمعايشة عن قرب . .

لقد كان لهذا المنجم تاريخ مشين ، اذ سبق له ان ابتلع العديد من العيال الاحياء سواء عند نزولهم ام اثناء الصعود ، وذلك بسبب جوّه الخانق أو الانفجارات الغازية والمياة الجوفية بجانب انهيارات السراديب القديمة . لقد كان منجها شؤماً ، مقبضا ، جنائزى المناخ . وهاهو فنسان يرسم بالكلمات لوحة غنية مضرجة بألوان العذاب والآلام التي يحسها اذ يقول : و ان معظم العيال قد اشتدت نحافتهم شاحبو الوجوه من الحمي ، يبدون منهكين . مجهدين ، جلودهم مصبوغة ، لقد انتابتهم الشيخوخة مبكرا وداهمتهم قبل الأوان . ان زوجاتهم هن الأخريات \_ وبعامة \_ تسمن بنفس هاتيك الذبول والشحوب ، (١٢٩) .

وقبل أن يكتب اميل زولا روايته جرمينال Germinal ( ١٨٨٥ ) بخمسة أعوام ، كان فنسان يستكشف هذا الجحيم ويعنف ويرسم بؤس هؤلاء ، الملعونين . وقد نزل إلى عمق سبعائة متر ليرى أطوار ذلك العالم القابع فى قاع الأرض . . وثارت ثائرته لرؤية تلك الكتلة البشرية مشدودة كالبهائم الى العربات يبدأ يومهم من الثالثة فجرا بأحط أنواع العمل ، ولا يصعدون إلى سطح الأرض الا بعد ثلاث عشرة ساعة . لقد كان عليه أن يجمع أشلاء روحه التي تمزقت عند رؤية كمية الخيول التي أصابها العمى والتي تموت في جوف الأرض دون أن تصعد إلى السطح ثانية بعد نزولها !

لم يكن بهذا المنجم الكون من خسة طوابق ، سوى طابقين يعملان اذ أن الثلاثة الآخرى قد استنفدت وتم طردهم . أما الطابقان الآخران ، فكانا يتضمنان مجموعة من الاقبية أو الزنزانات في سراديب ضيقة طويلة شديدة الانخفاض ، تسندها شدات بدائية من الخشب . . وفي كل زنزانة ، يقف أحد العمال مرتديا ثيابا بدائية من النسيج الخشن ، القذر والملطخ كمنظفى المداخن ، يستخرج الفحم بضربات من البلطة على الضوء الخافت المنبعث من المصباح الصغير . . وكان بعض العمال يضطرون للعمل وهم يزحفون على بطونهم . . لقد قارن فنسان بين هذه السقالات والمدعامات الخشبية و بالمعرات الضيقة الكثيبة الداكنه في أحد السجون قمت الأرض ، . . ولم تكن فكرة السجن بذاتها غرية عليه ، اذ وفقاً لاعترافه إلى ابن دنيس الخباز ، أنه يشعر وكأنه في سجن منذ مولده ، أن رؤية كل هذه الكتل البشرية المسجونة بالفعل من أجل لقمة العيش قد ربطت فنسان بمصيرهم ،

وواصل فنسان استكشافه لذلك العالم المدفون ، فرأى عددا من العمال بحملون قطع الفحم على عربات يجرها أطفال تسير على القضبان ، بينها جماعات أخرى تعمل على تدعيم بعض السراديب الآيلة للسقوط ، أو مجفرون غيرها وكأنهم يحفرون لحودهم .

وعن النزول الى هذه الأقبية كتب لوى جيران بعد جولته فى منطقة بوريناج عام ١٩٣٩ هذا التعليق العام عن عاملين كانا فى رفقة فنسان : « تخيل أنه ذات يوم نزل معنا فى منجم مركاس ، وعندما رأى أننا نعمل كالعبيد ، هاج وبدأ يصبح : كيف يكن معاملة مخلوقات الله بهذا الشكل ؟ ثم ذهب لمقابلة أصحاب المنجم لإنصافنا ، لكنه لم ينج من سبابهم وقالوا له : يا سيد فنسان ، إذا لم تتركنا وشأننا سنحبسك عند المجانين . وبعد ذلك بقليل أضرب عمال المناجم وكان فنسان هو نفسه زعيم الإضراب . لقد كنا نود حرق المنجم ، لكن فنسان نبذ العنف . كان يقول لا بد وأن نظل رجالا محترمين لأن العنف يقتل كل ما هو خبر فى الانسان . لقد كان يسافر الى فرنسا سيرا على الأقدام ليجمع لنا التبرعات » .

إن أهمية هذه الشهادة تكمن في دلالتها القاطعة التي تثبت بأن الجنون كان سلاحا للتهديد في أيدي أصحاب المنجم ومديريه ، أو في أيدي أي شخص آخر يمسك بسلطة ما ويزيد الكيد لفنسان عقابا له على هذا الموقف أو ذاك ، بجانب ما تشير اليه من سمة شخصية تتصل بموقف فنسان حيال الاضراب عندما يرفض العنف ، مدركا أن العدوان يتنافي وكرامة الانسان وكل ما هو انساني . ان هذا الدور الذي لعبه فنسان كزعيم للاضراب ، حتى وان أغفلته جل الدراسات الخاصة به ، يكشف عن نوعية الدور الاجتاعي الذي عاشه بالفعل ، ويوضح إلى أي مدى كان التزامه بهذه الطبقة المقهورة والى أي درجة من التفاني كانت تصل نزعته الانسانية وتضحيته من أجل الأخرين لقد وجد فنسان نفسه يناضل ضد الجمود الديني وضد الرأسهالية وضغوطها اللا إنسانية والتي فاقت أهوالها ما كان قد رآه في إيست إند في لندن إن هذه الصخرة الصلدة المزدوجة التي كان يناطحها فنسان الحا كانت تعنى القوتين الثابتين الراسختين اللتين تملكان الحكم في المنطقة ، وكان عليه أن يواجهها مجمعتين غير هياب ، لكنه سرعان ما أدرك \_ ثانية \_ عدم جدوى عليه أن يواجهها مجتمعتين غير هياب ، لكنه سرعان ما أدرك \_ ثانية \_ عدم جدوى جهوده ، إذ أن تغيير الواقع لم يعد في مقدور فرد واحد . وهي ملاحظة تتضمن جهوده ، إذ أن تغيير الواقع لم يعد في مقدور فرد واحد . وهي ملاحظة تتضمن يكتب : د اذا ما استطاع أحد أن يرسم هذه الدعائم الخشبية ، فسوف يرسم شيئا جديدا ، لم يرسمه أحد من قبل ، ( ١٢٩ ) . ، وهي ملاحظة لم يتم تحقيقها الا بعد عدة سنوات عندما قام الفنان كونستنتان مونيه Constantion Meunier بالتعار والعية حياة عمال المناجم ، أو عندما ذهب أوچين بوش Constantion Meunier عنده عال المناجم ، أو عندما ذهب أوچين بوش Constantion Meunier عندة عمال المناجم ، أو عندما ذهب أوچين بوش Eusene Bosth يصور عن واقعية حياة عمال المناجم ، أو عندما ذهب أوچين بوش ويناج .

ان عين الفنان لدى فنسان تتميز فيها تتميز به بذلك الحس الذى يتكون بأطياف شتى تغوص فى ابداعات تفتح أفاقاً ممتدة لرؤى الواقع . وها هى عاصفة مروعة تدوى فى الحادية عشرة من مساء إحدى أمسيات شهر يونيو ، وفى وسط ذلك الليل الكالح كالجحيم كانت ألسنة الرعد تضىء كل المنطقة لمدة ثوان ، لكنها كانت غريبة الأثر فى عينى فنسان : ففى مقدمة المنظر كان يرى المبانى الضخمة لمنجم مركاس وهى ترتفع وحيدة فى السهل ، أشبه ما تكون بسفينة نوح عندما كانت فى مهب العاصفة تحت الأمطار الهاطلة . بينها ومضات الرعد تمزق ظلهات الطوفان .

وعقب تلك الانفعالات التى أثارتها العاصفة ، بدأ فنسان يقرأ على مستمعيه المحيطين به نص الإنجيل عن غرق السفينة . ثم انهى هذه المطالعة ببضع صفحات من رواية كوخ العم توم . مما دفعه لتأمل موضوع العبودية بأشكاله المختلفة ، والقيام بمقارنة هذه الرواية العظيمة ببساطتها الصلاقة ، برواية الأزمئة الصعبة للديكنز الذي أدان العبودية القائمة في بطن الأرض ...

ا رغم أن موجات من حزن شرس كانت تجثم على صدره بلهيب المعاناة ، الا انها كانت تنبعث في ذاتها تلك الصفحات التي كتبت ( بعقل وحب وصدق وعناية فائقة بمصالح العمال المقهورين ». وهو ما أدى الى التطور الاجتماعي لفنسان المناضل المقيد الحركة ، والى تحديد مفاهيمه الفنية فحتى ذلك الوقت لم يكن يعرف وصفاً أفضل للفن سوى تلك المقولة : « إن الفن هو الانسان مضافا الى الطبيعة » . لكنه سرعان ما راح يضيف : « الطبيعة ، الواقع ، الحقيقة التي يبرزها الفنان ويفسرها والطابع الذي يعبر عنه ويستخلصه ويحرره ويوضحه » ( ١٣٠ ) . قبالنسبة لفنسان ، أن الفنان اذ يعبر عن الأشياء بوجهة نظر جديدة . إنما يجدد رؤى الذين يتأملون ذلك العمل الفني .

ومع ذلك ، فإن الجانب الجمالى لم يكن النتاج الوحيد للعاصفة التي اندلعت في ذلك المساء . ذلك أن منجم بركاس إذ بدا من الخارج كسفينة نوح ، إلا أنه غرق في الداخل تماما ورغمها لم يمتنع العمال عن النزول إلى فاع المنجم ، لأن عدم نزولهم كان يعنى خصم أجر ذلك اليوم ! وتكاتفت الصور مندثرة في نفس فنسان بطعمه المر إذ لا يملك أن يفعل شيئا ، وها هما ماساتان أخريان ليسا لفيتها لسلفتيها : وباء التيفود ، وقد تبعه بعد عدة أسابيع انفجار غازات مروع في المنجم .

وتم انتشال عدد كبير من الجرحى . ويقول بروشو ؛ « للأسف لم تكن هناك أية مستشفيات فى المنجم إذ أن اصحابه رأوا أن صيانتها باهظة التكاليف و حياة فنسان فان جوخ صفحة ٧٥) .

ان دنيس ابن الخباز سيكتب فيها بعد إلى لوى بييرار خطابا أورده الأخير فى كتابه (صفحة ٧٢) بكل ما به من أخطاء املائية وأجرومية ، ليعبر فى بساطته عن نشاظ فنسان خلال هذه المحنة المأساوية التى داهمته ، وها هو ابن الخباز يقول :

د فى نفس ذلك العام وقع انفجار غازات فى البئر رقم ١ بمنطقة المناجم البلجيكية واحترق العديد من العمال . ولم يهدأ صاحبنا فنسان طوال النهار والليل وقد مزق البقية الباقية من ملابسه الداخلية ليضع ضهادات عريضة بالشمع وزيت الزيتون لكى يغطى حروق المنكوبين فى الكارثة .

 ( إن إنسانية صديقنا كانت تتزايد يوما بعد يوم بينها اضطهاد الرؤساء له كان يتفاقم باستمرار . إن تأنيب أعضاء المجمع وشتائمهم القاذعة أخذت تتصاعد بينها
 ظل فنسان في أقصى وأعمق درجات الخشوع ، . وعلى عكس موقف الأطباء ، اهتم بالحالات الأشد خطراً ، بأولئك الذين يشس الطب منهم ، حتى انه أصر على نقل أحد المصابين في غرفته ، وكان الطبيب قلد اعتبره و منتهياً ، بسبب وجهه المتفحم والدماء التي كانت تسيل بغزارة من جراحه . واذ حكم عليه الطب بالنهاية ، لم يكن لدى فنسان ما يقدمه له سوى الحب وايمانه العميق بالله وبالحياة . وشيئا فشيئا بدأ العامل يتهاثل للشفاء بفضل فنسان وعنايته الفائقة به ، وهنا كتب فنسان قائلا : وأمام هذا الإنسان الملىء بالجراح ، خيل إلى رؤية السيد المسيح وقد بُعث حياً » .

ومثل المسيح الذى كان يعتبره مثله الأعلى ، ظل فنسان يعالج ويستكمل أول عملية لتضميد جراح ذلك الذى ظنه الطب فى عداد الأموات ، ضاربا أعظم نماذج التفانى والحب الأخوى والعطاء .

أمه من الناحية الرسمية ، فقد ظلت فرق التطوعين تتناوب البحث عن المنكوبين أو جثثهم لمدة عشرة أيام تقريباً . . مما أدى لتوقف هؤلاء عن العمل . الأمر الذى أدى إلى وقف صرف مرتباتهم ! وفى نهاية اليوم الثانى عشر أصدرت الشركة أوامرها الى فرق الانقاذ هذه أن تكف عن البحث : وكان على العمال أن يعودوا ثانية الى أعمالهم والا سيتم اغلاق المنجم كلية . . وفيها بين امتداد الاضراب أو الجوع الدائم ، لم يكن لعمال المناجم الكثير من الاختيار .

أما فنسان الذى سبق أن فصل مرات ومرات ، بل وسبق أن هدد بالإيداع مع المجانين ، فلم يتوقع معاملة أفضل . ورغم كل شيء لم يسلم ظله لليل بل حاول أن يبدد الظلمات من حوله بمعاودة محاولاته من أجل انقاذ أولئك المحكوم عليهم بالموت . لكن ما من أحد استجاب لصوته الذى أسلمه للرياح ، فطلب المعونة من بروكسل ، الا أن طلبه ظل بلا اجابة أيضا . وبالتدريج بدأ يدرك عدم جدوى صراحه في البرية وما من مجيب .

ومع بؤس الكارثة وشدتها ، نحت نبته فى قلوب أولئك المعدمين ، فها هم العمال يطلبون من فنسان اقامة قداس على أرواح سبعه وخسين زميلا دفنوا أحياء فى قاع المنجم . ورغم انهاكه الشديد ، فإن فنسان الذى لم يكن قد تناول أكثر من قدح من القهوة السوداء طوال يومه ، لم يستطع ارجاء مثل ذلك الطلب فبدأ إقامة الصلاة فى نفس الكوخ الصغير الذى كانوا مجتمعين فيه جميعا ، غير مكترث بتواضع المكان . وعلى ضوء مصباح شاحب وقف فنسان يتحدث فى حزن شديد وصوت متهدج وهو

محاط (بالوجوه المسودة ، النحيلة ، الضامرة ، التى مزقها الجوع واليأس ، على حد قول ج ستون J. Stone ( الحياة الانفعالية لفنسان قان جوخ صفحة ٧٥٤ ) وفجأة الفتح الباب بعنف . .

وكم كانت فجيعة فنسان عندما اقتحم الكوخ المتداعى بمشهده المأساوى الراهبان المبجلان ، القس دى جونج وقان دن برنك ، فقاما بوقف القداس على الفور وصاحا فى وجه فنسان قاثلين بنبرة حادة : « ما الذى أصابك ؟ كيف تقيم قداسا فى مثل هذا الكوخ ؟ أيّ دين همجى جديد تنوى اقامته ؟ ألا يوجد لديك أى إحساس باللياقة والمراسم ؟ أهذا تصرف يليق بأحد ممثلى الله ؟ هل جننت تماما لترتدى مثل هذه النياب ؟ أتود جلب اللعنة على كنيستنا ؟ ! » .

ويستطرد القس دى جونج الذى هاله منظر الكوخ قائلا: ( من حسن حظ الكنيسة أننا لم نعينك إلا بصفة مؤقتة . ومنذ الآن عليك باعتبار هذا التعيين كأن لم يكن . إن تصرفك جد مشين !! ( المرجع السابق ) .

وماتت الكلمات فى حلق فنسان . . داهمته القسوة الجامحة المتلفعة بالمراسم . وأحس بالنذير العاصف مثلها حدث له مع مديرى قاعة جوبيل . . لقد اضطر فنسان الى الاستقالة ، أو بتعبير أكثر دقة لقد تم فصله . وفى صرامة فظة فإذا هؤلاء القسس المبجلون المفعمون بحب اللياقة والشكليات ، لم يحتملوا ذلك المخلوق الخارج على مألوفهم والذى لا يأبه بالشارات الرسمية والمظاهر التى تغفل جوهر الحقيقة ، وقاموا بكتابة تقرير يبررون فيه تصرفهم هذا . وهو التقرير رقم ثلاثة وعشرون للمجمع الكنسى للتبشير ( ١٨٧٩ – ١٨٨٠ ) فى اتحاد الكنائس البروتستانتية ببلجيكا ، والذى لم يتم نشره فى باريس الا عام ١٩٣٧ ، وجاء فيه :

و إن التجربة التى تمت بقبول خدمات أحد الشبان الهولنديين وهو السيد فنسان فان جوخ ، وكان يعتقد أنه يمكنه القيام برسالة التبشير في بوريناج ، ان هذه التجربة لم تأت بالثيار المتوقعة ذلك أنه رغم جهوده الرائعة بجوار المرضى والجرحى والتفانى والتضحية التى عبر عنها عديد من المرات بالسهر عليهم أو بجوارهم طوال الليل والتجرد من جزء من ثيابه وملابسه المداخلية . الا أنه لم يضف الى ذلك كله موهبة الكلمة والتحدث بها ، وهى صفات أساسية لأى شخص عليه أن يشغل مثل هذا المنصب ولولاها لكان السيد فنسان مبشرا متكاملا .

وعما لاشك فيه أنه من الصعب وغير المعقول طلب مواهب فاثقة للعادة . لكن
 من المتفق عليه أيضا أن غياب بعض الصفات المطلوبة قد يجعل من المهارسة الأساسية
 لمهمة التبشير كارثة محزنة .

وإن ذلك بكل أسف ، هو وضع السيد فان جوخ . ويناء عليه ، فانتهاء الشهور المحدودة التي منحت له كتجربة ، كان لابد من العدول عن احتفاظه بمهامه لمدة أطول .

وقد تسلم الذي يقوم بالعمل بدلا عنه هو السيد هوتن Hoten ، وقد تسلم مهمته اعتبارا من أول أكتوبر عام ١٨٧٩ .

يا لتفاهة السبب الذي يبررون به فصله ، انه نفس التبرير الذي كان القس جونز قد لجأ اليه من قبل لينهي تعاقد فنسان كمساعد مبشر في ضاحية آيلورث ، اذ كتب يقول في أواخر عام ١٨٧٦ : د معرفة غير مرضية باللغة الإنجليزية ،!

وإذا ما كان اعضاء المجمع قد برروا تصرفهم للتخلص من فنسان مدّعين افتقاره الى د موهبة الكلمة والتحدث ، \_ فإن هناك خطاباً أرسله القس بونتى Bounty المقيم في قرية فاركيني Varquigni قرب قرية قام ، إلى لوى بيراد ، بناء على طلبه . وها نحن نورده كاملا لنوضح التناقض الذي يمثله مع التقرير الرسمي السالف الذكر . ولفد أورد لوى بيرار هذا الخطاب في كتابه عن الحياة الدرامية لفنسان فان جوخ (صفحة ٦٨ ـ ٧١) ، وجاء فيه :

وأود تلبية طلبك بقدر الامكان بجمع بعض الذكريات عن فنسان فان جوخ .
 لقد عرفته بالفعل منذ أربعين عاما في بوريناج ، حيث كان يعمل مبشراً ( وليس قسا اذ لم تكن لديه ألقاب دينية ) . ولقد عمل في منطقة قام قرابة عام .

 وكان ابن قسيس هولندى ، ومازلت أذكر يوم وصوله فى بوريناج . كان شابا أشقر الشعر ، متوسط القامة ، مليح الوجه ، مهنلما دمث الخلق والتصرفات .
 ويتصف بكل السيات المميزة للنظافة الهولندية .

 وكان يجيد التعبير بالفرنسية وباستطاعته التحدث بشكل مرض في الاجتهاعات الدينية لجهاعة البروتستانت في قام حيث كان يتم تعيينه . وكانت هنأك جماعة أخرى في قام لها مبشرها . كان على فنسان قان جوخ الاهتهام بالمنطقة القريبة من الغابة ، ناحية فاركيني . وكان يرأس الاجتهاعات الدينية في قاعة كانت إحدى قاعات الرقص فيا مضي .

 ولقد استأجر شابنا مسكناً فى قرية بيتى ــ قام . وكان هذا المنزل جميلا بصفة خاصة ، متميزاً عن غيره من المنازل بشكل واضح ، اذ كانت تحيط به أكواخ العمال من كل ناحية .

وأما الأسرة التى استضافته فكانت بسيطة العادات والتقاليد وتحيا مثل العمال . الا أن مبشرنا الشاب سرعان ما أعرب عن عدم رضائه بهذا المسكن الذى رآه شديد البذخ . مما كان يؤثر فى تواضعه المسيحى ، بعدما لم يعد يستطيع أن يعيش بطريقة مختلفة عن عمال المناجم ، فترك هذه الأسرة التى كانت ترعاه بعطفها وسكن فى كوخ صغير . لم تكن به أية منقولات ويقال إنه كان ينام فى ركن المدفأة .

دأما ثيابه فكانت تنم عن نفس أفكاره المميزة. اذ كان يخرج مرتديا إحدى سترات الجنود القدامي وقبعة بالية . وكان يجوب القرية بهذا الزي . ان الثياب الجميلة التي كانت معه عند وصوله قد اختفت ولم يشتر غيرها .

 ومع أن راتبه كان ضثيلا الا أنه كان كافيا ليرتدى الثياب التي تتفق ومستواه الاجتهاعي .

(إن لا أفهم كيف تطور الأمر بهذا الشاب هكذا).

وحيال البؤس الشديد الذي كان يلقاه في جولاته ، دفعته شهامته لتقديم كل ثيابه معونة للآخرين ، كما كانت نقوده أيضا تذهب الى الفقراء ولم يحتفظ لنفسه بأي شيء تقريبا . كانت مشاعره الدينية شديدة اليقظة وكان يود اتباع كلمات السيد الى أقصى حد مطلق .

 وكان يشعر بأنه عليه الامتثال بأوائل المسيحيين ، وأن يضحى بكل ما يمكنه الاستغناء عنه وأراد أن يحيا نفس حياة التقشف التي يحياها عمال المناجم الذين كان يقرأ لهم الإنجيل .

 وهنا لابد أن أضيف أن النظافة الهولندية قد هجرته بالتدريج ، وتخلى عن الصابون باعتباره بذخاً فاحشاً . لقد كان وجهه متفحاً مثل الفحامين ، وان لم يكن الفحم يعلوه . وإن المظهر الخارجى لم يعد يعنيه مطلقا اذ كان مستغرقاً فى مثله الخاصة بالزهد
 والتقشف ، ومن الواضح أن موقفه لم يكن من قبيل الاهمال وإنما تطبيقا أمينا للأفكار
 التى يؤمن بها .

د ورغم أنه لم يعد يهتم بنفسه ، فإن قلبه كان مفعها بالسهر على احتياجات الأخرين . وكان عادة ما يذهب الى أكثر الناس بؤسا ، الى الجوحى والمرضى ويبقى طويلا بجوارهم . لقد كان مستعدا لكافة التضحيات من أجل التخفيف عنهم .

و كانت حساسيته العميقة تمتد الى أبعد من حدود الانسانية . . فقد كان فنسان فان جوخ يحترم حتى حياة الحيوانات مهما قل شأنها . أنه لم يزدر شرنقة على سبيل المثال ، اذ كان يعلم أنها مخلوق حيّ ويجب الحفاظ عليها .

د لقد أخبرونى ــ ذات يوم ــ فى تلك الأسرة النى كان يقطن عندها ، انه إذا ما صادف شرنقة على الأرض كان يلتقطها برفق ويضعها فوق شجرة .

د إننى أعتقد أن فنسان فان جوخ كان يؤمن بمثل عليا جميلة ، الى جانب هذه الصفة التي قد يراها البعض عديمة المعنى أو غبية ، وأن نسيان الذات والتفان في إسعاد الأخرين كانت هي الأفكار الأساسية التي يتقبلها بكل قلبه .

د ولا أقلل من شأنه إذا قلت إنه كان لديه عيب واحد هو : أنه لا يكف عن التدخين . وقد مازحته ذات يوم حيث اننى من اعداء التدخين ، وقلت له انه يخطىء بعدم تخليه عن هذه العادة . ولم يقل أكثر من أنها عبارة عن ظل صغير فى اللوحة والفنانون بحاجة الى بعض الظلال . .

دأما فيها يتعلق بتصويره ، فلا يمكنني التحدث اليك عنه كشخص متمرس به
 وفي كل الاحوال ، لم يكن أحد يأخذ أعماله الفنية محمل الجد .

دكان يجلس على الانقاض بجوار المنجم ويصور بعض النسوة وهن يجمعن الفحم أو يحملن الأجولة المليئة . كنا نلحظ أنه لم يكن يصور الأشياء البراقة ، تلك التي نطلق عليها نحن صفة الجمال .

د لقد قام بعمل بعض البورتريهات لنساء متقدمات في السن ، وباختصار لم يعره أى مخلوق اهتهاما باعتبار أن ماكان يصوره انما هو من قبيل التسلية .

 عير أنه يبدو أن صديقنا كان موهوباً أيضا في مجال التصوير وإن كان يبدو لنا ذلك في غاية التفاهة . « تلك هي يا سيدي ، بعض الذكريات التي جاهد ذهني العجوز في جمعها » .

 د لم يهتم أحد بتدوين أى شيء عن مرور فنسان فان جوخ بمنطقة بوريناج لم يكن أحد يعلم مصيره ، والكل شديد الاندهاش ـ لمعرفة أنه قد بلغ مطافه ليكون فنانا حقيقيا » .

لقد ذهب فنسان الى نفس هذا القس لتوديعه ليلة مغادرته المنطقة . . وردا على كلماته التي لم تخلّ من عتاب وانتقادات ، قال له فنسان بحزن ومرارة : ﴿ لم يفهمني أحد ، انهم يعتبرونني مجنونا لأنني حاولت أن أكون مسيحيا حقيقيا . إنهم يطردونني كالكلب قائلين إنني أثير الفضائح لأنني أحاول التخفيف من بؤس التعساء لا أعرف ما الذي سأفعله . . ربما كنتم على حق وأنه لا جدوى منى وانني مجرد أبله على هذه الأرض ، (لوى جيران : فنسان فان جوخ في بوريناج صفحة ٣) .

ثم ابتعد وحيدا ، جارا قدميه ، بينها الأطفال من خلفه يتصايحون ؛ 
«المجنون» . . ويسكتهم القس بونتي قائلا لزوجته الواقفة بجواره على السلم : 
د لقد اعتبرناه مجنونا ، وربما كان قديساً . . » ان الذاكرة والفهم تلفظ أنفاسها الأخيرة إذا لم تقف عند هذه الجملة :

# (لقد اعتبرناه مجنونا، وربما كان قديساً...

إنه تعبير جدير بالاهتهام والدراسة بغية وضع فنسان المبشر في مكانته الحقيقية ، خاصة وأن من ضحوا بأنفسهم بمثل هذا العطاء والتفاني لوظيفتهم الدينية جد نادرين . فقد اعتبر المسيح مثله الأعلى ووصاياه النموذج الأمثل الذي يجب الالتزام به والاحتذاء بهديه دون الاهتهام بالشكليات أو للظاهر الفارغة .

وعلى حد قول بروشو Peruchot : ( كان لابد لفنسان من كسر ذلك الاطار الذى يتم فيه ترويض وتعديل التطلعات التصوفية للانسان ، وكبت جماح قلقه حيال المجهول والغموض الذى يحيط بالعالم ، (حياة فلن جوخ صفحة ۸۷).

ومع ذلك ، فمن المؤسف والمحزن معاً ، وقد يدفع للأسى والغضب ، متابعة ذلك الاستخفاف الذى تم به تناول تجربة فنسان فى بوريناج وكيف تم توريتها واخفاؤها أو تجاهلها فى جمهرة المراجع التى تناولته حتى ان يواكين بير Joachim Beer فى كتابه بحث فى علاقة الفن ومرض فنسان فان جوخ (صفحة ٣ وما بعدها) لم يتناول هذه الحقبة بغير ثلاث جمل تساير الأكذوبة التى روج لها المستفيدون من أسطورة جنونه الكاذبة وها نحن نذكر ما كتبه على سبيل المثال من بين العديد من المؤلفين : وذلك لأن دكتور يواكيم بير هذا يعد من كبار المتخصصين فى سيرة فنسان ، ورغمها ها هو يقول : ﴿ فَى شَهْرَ أَعْسَطْسَ عَامَ ١٨٧٨ بِدا ﴿ فَسَانُ ﴾ تعليمه فى بروكسل كمبشر فى إرسالية التبشير . وكان لأسلوبه الحقير أثره السيىء . ولم يتقبل أية نصيحة من رؤسائه الذين افزعهم بتصرفاته المجنونة » !!

أى نزاهة علمية تتجاهل الوقائع وتلوى عنى الحقيقة وتطلق بالباطل أقاويل لا تستند لأى دليل ؟ إن الحقيقة والأمانة العلمية يلزماننا بأن نشير إلى طرف ليس خفيا \_ بجانب عوامل أخرى \_ فى ترويج هذه الأكذوبة عن جنون فنسان ، الا وهو وعيه الاجتماعي والانساني وصدقه الديني الذى بالغ فى الزهد وكلها كانت سببا فى ادانته اذ يبدو شارة أمارة على عورات المحيطين به ، بقدر ما تبين ثورته على كل فساد اجتماعي أو ديني عن المصير الذى يلقاه كل ثائر بحق ، حتى فى يومنا هذا للأسف !!

لقد كان فنسان يتصرف في حقيقة الأمر كثورى بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، اذ كان يقاوم الظلم وقهر الانسان لأخيه الانسان ، ويكافح الجرعة الماثلة ضد الانسانية وبخاصة تلك التي تتكرر في ظروف العمل السيئة ، ويكشف عن الظروف الحياتية المفروضة على أناس هم ضحايا نظام اجتماعي وسياسي غير انساني . لقد كان ثوريا يتبني قضايا الفقراء والمقهورين وضحايا الظلم السائد متمكسا بحياتهم معايشاً معاناتهم لا يعرف التعالى عليهم أو العبارات الجوفاء دونما فعل ، وهو نفس الدور الذي قام به السيد المسيح منذ عشرين قرنا . ولولا ان و الصلب على يكن مستخدما في القرن الماضي لتضافر رجال السلطة الاجتماعية والراسالية والكنيسة ليقيدوه ويصلبوه ، ولما لم يجدوا سبيلا لذلك لم يكن أمامهم غير استبعاده واتهامه بالجنون .

وعلى عكس ما تروج له تلك الأسطورة ، فإن فنسان بخروجه عن ذلك الاطار القهرى المفروض اجتهاعيا ، قد أثبت صدقه الذى لا يلين ، وعبر عن ارادته الأمينة ولم يكن سلوكه هذا سلوك مجنون بحال . لكن ، مما يؤسف له ، أن رفضه للمسايرة الساذجة وابتعاده عن التظاهر ومعايشته لمضمون الكتاب المقدس وروح الدين الحق وفهمه الانساني البالغ الرهافة لقيمة الانسان ونضاله من أجل الفقراء والمقهورين . كل ذك قد جلب عليه إدانة مذهلة من قبل أهله والآخرين . فإذا ما كان الأهل فيها

مضى قد قبلوا فشله بنوع من الخضوع للقدر ، فإن هلعهم هذه المرة قد فاق التصور لرؤية ابنهم الكبير وواحد من افراد أسرتهم مطروداً من أحد بيوت الرب!! وهو الأمر الذي لم يحدث أبدا في هذه العائلة المبجلة ، على مدى تاريخها العريق الذي يرجع الى القرن السادس عشر!!

وما كان لنا أن نعلم الا بعد عامين ونصف عام (من الخطابين رقم ٢٠٤ و٢٠ ) بذلك الموقف الشائن للأب ، الذى انتابه الغضب وحاول أن يجبس هذا الابن الملعون في فظره في مستشفى للأمراض العقلية بمدينة خيل Gheel ، عند ضواحى أنفراس Anvers . ولا داعى لأن ننو، هنا أيضا بأن كافة المراجع ، باستثناء رولاندت وموناكيا ، يغفلون ذكر هذه الواقعة المهينة انسانيا .

واذ لم يجد أطباء هذه المستشفى أية أعراض فعلية للجنون ، أوحتى المرض النفسى Neurosis \_ فإن الاب لم يتمكن من ابداعه ـ بدون وجه حق \_ فى المستشفى بحجة الجنون . وكم كانت فجيعته عندما فشل فى محاولته هذه .

وفي المقابل لم يكن الفشل المفروض على فنسان يمثل بالنسبة له مجرد فصل أو حرمان وانما كان يعنى غلق باب التبشير الذى كان يعد نفسه له الى الأبد . بعبارة أخرى كان بمثابة نهاية لكل المستقبل الذى كان يتطلع اليه بصدق واخلاص . . وأدت به هذه المحنة الساحقة الى ادراك جديد مؤسف ، سيقود خطاه فيها بعد ، الا وهو ؛ ان الله لا يمكنه عمل أى شيء ، ولا دخل له بشيء ، وأنه يتعين على الناس كى يبدلوا أوضاعهم الاجتهاعية وينالوا حقوقهم أن يغيروا من مؤسساتهم الجامدة المتحجرة تلك والتي يمارس مسئولوها كل أنواع القهر ضد اخوتهم في الانسانية .

ان ذلك لا يعنى أن فنسان وقد تخلى عن فكرة الله عندما رأى حقارة من يخدمونه ، مثلها قال بيير ماروا Pierre Marois (سر فان جوخ صفحة ٣) . أوأنه تخلى عن ايمانه الشديد به . ان ذلك لم يدر بخلده أبدا وانما هو التخلى عن الزيف الشكلى الذي يخدمونه به . ان الله سيظل دائها بالنسبة لفنسان وحتى آخر لحظات حياته منبعاً ومصباً للحياة . أنه القوى الحقيقية التي يود الاتحاد بها . .

لقد أدرك فنسًان أنه بمفرده لا يستطيع شيئا حيل هذه القوى المزدوجة للدين والاقتصاد . إنه صراع يفوق امكانات أى انسان بمفرده ــ كما سبق وذكرنا ــ اذ لم يستطيع معاونه أخيه الانسان ورفض فكرة د العدم والاغتراب الساكن ، على حد قوله ، فقد حاول أن يساعد نفسه . وعندما تخلى عنه الجميع . فقد بدأ فنسان يجوب الله ، فقد حلى ألى ماريا هوربك الله الحي مسيراً على قدميه ، كالحيوان المطارد ، من بروكسل إلى ماريا هوربك . Maria-Hoorebeke ، وتورنيه Tournai ، وواصل مسيرته حتى بادى كاليه Bas-de-Calais ، آملا في العثور على أي عمل ، أي عمل مها كان شأت فقد كان وعلى استعداد لقبول أي شيء ، (١٣٦) — على حد تعبيره هونفسه .

وكان طبيعيا ألا يجد شيئا وكيف كان له أن يجد شيئا وهو الذى فقد كل رصيد لديه قِبَلْ هؤلاء الذين يبجلون المظهر ، من محدودى الفهم الذين يرفضون آليا أى انسان سبق فصله ، فكيف الحال وفنسان لم يتم فصله عدة مرات فحسب بل هو مطرود من رحمة المبشرين والقسس الذين غلظت قلوبهم وكان الطرد أولى بهم من رحمة الرب!

ورغم كل شيء ، فإن وراء هذا الحطام الأدمى ، ومن تحت هذا الرماد القاتم ، كانت هناك شعلة تأرجح رغم الغيام والاختناق ، انها شعلة الفن الذى كان لما يزل أفقا ممتدا إلى ما لا نهاية بين انامل ذلك البائس الذى لم يمسك سوى القلم أو قطعة من الفحم ليرسم بها ، وإذ كان يبحث عن خلاص ، اتجه فنسان الى عالم الفن المجانى ، الذى كانوا قد أغلقوه فى وجهه بإحكام . ورغم المعاناة والألم فقد آثر الا يبوح عن موقف الأسرة القهرى الا فى أواخر أيامه . لقد وجدوا أن مجال الابداع الفنى بالنسبة له غير مجد ، ولم يسمحوا له الا بالتعامل مع الجانب التجارى فيه ! ولم يدركوا الا بعد حين قيمة وقامة فنه وانسانيته تلك الاخيرة النى أصدروا معارجها فى ظلام أسطورة الجنون!

## کویم Cuesmcs (أغسطس ۱۸۷۹ اکتوبر ۱۸۸۰):

لقد حدث التغير الجذرى في حياة فنسان وهو في أشد حالات البؤس: اذ قرر تنمية حبه التلقائي للفن بالدراسة المتعمقة، واتبع نصيحة القس بيترسن Pietersen ، وهو من رجال الدين النادرين الذين يهتمون بفن التصوير في لحظات فراغهم . وكان الوحيد الذي شجع فنسان في معا الطريق . واستقر فنسان في بلدة كويم في أغسطس عام ١٨٧٩ ، بعد أن اشترى كراسة رسم كبيرة . وعاد بجوار الجموع البائسة التي قبلته بينها بلا خجل ، لكنه عاد لا لكي يبدر كلمات الله رسميا ، واغا لكي يجاول ادخال هذه الطبقة المعدمة في مجال الفن ، وتقريب الفنون رسميا ، واغا لكي يجاول ادخال هذه الطبقة المعدمة في مجال الفن ، وتقريب الفنون

لمن لا يرونها ، علهم يتلمسون في أفق الطبيعة نبضا للحياة التي حرموا منها . وذلك هو الدور الاجتماعي الذي حاول أن يضفيه الى رسوماته .

وفى هذه المرحلة الحيوية ، كان فنسان بحاجة الى مناقشة عمله ، وأن يعرض الرسوم التي كان يبدعها لأول مرة بفكرة أن يرسم ــ اذ أن رسوماته السابقة كانت بمثابة حوار مفعم بملأ به فراغ وحدته . لكن ها هو هذه المرة ، يكتب إلى تيو طالبا منه أن يتوقف بالمحطة قليلا وهو متجه الى باريس : ووذلك لكى يمكننى أن أطلعك على بعض رسوماتي وهي تمثل شخصيات من المنطقة وإن كنت لا أحسبها تستحق أن تنزل من القطار ، ( ١٣١ ) . لقد كان كل ما يرجوه آناذ أن يعرف اذا كان قد نجح في التقاط تلك الجوانب المميزة لما يراه حوله .

وخلال النصف الأول من شهر أكتوبر ، كان تبو متجها إلى باريس ، فتوقف فى بلدة كويم وأمضى بضع ساعات مع أخيه . تلك الساعات التى كانت من أعصف اللقاءات بين الأخوين ، ومن أكثرها احباطا بالنسبة لفنسان ـ الذى كان لما يزل متعطشا لرى الحياة بين أهله ، ووسط أسرته ، فى حوار آدمى حى . لقد انهكته حياة الوحدة كسجين محكوم عليه بالموت مع ترتيل البؤس من حوله ، بخاصة أنه لم يعد بامكانه العثور على أى عمل . لقد كان بحاجة إلى صداقة حميمه ، متبادلة تعوضه هدير العذاب من حوله . كان بحاجة إلى أن يشعر بأن هناك من يسكب له قطرات من عطاء ، اذ ادرك أن العطاء من جانب واحد فى العلاقات الانسانية جد مهين ، أوعلى حد قوله : « إننى لست ينبوعاً مستباحاً ، ولا خزاناً من حجر أوحديد ؛ لا يمكننى أن أعيش كأى انسان طبيعى مثقف وبداخلى ذلك الشعور بأن شيئا ما ينقصنى » (١٣٢) ) .

وكم كانت خيبة أمل فنسان كبيرة عندما رأى شقيقه تيو مرتديا حلة سوداء جيدة الصنع ، بياقة عريضة من و الستان » . وياقة قميص مرتفعة ناصعة البياض برباط عنق أبيض ضخم » وهو يلقى باللائمة ويقوم بتأنيبه على ثيابه المستهلكة البالية ، وعلى طريق معيشته وتصرفاته ، ! ثم راح يلقى عليه بالمحاضرات الطويلة منتقداً هذا التصرف الذى يدينه الجميع . وأكثر من ذلك ، ها هو يتهمه بضيق الأفق وعهاء البصيرة ويحثه على الحركة وتغيير ايقاع حياته من أجل نفسه ، وراح ينصحه باتخاذ وظيفة اجتهاعية مناسبة ، تجلت في اقتراحه له بأن يعمل في مجال و الليتوغرافيا لطبع عناوين الفواتير والبطاقات الشخصية ، أوعله يجد سبيلا للعمل في وظيفة محاسب عناوين الفواتير والبطاقات الشخصية ، أوعله يجد سبيلا للعمل في وظيفة محاسب

أومساعد نجار أو حتى خبازا ؛ ! وكلها اقتراحات تكشف عن تلك الشخصية المتعالية بقدر ما تكشف لنا عن ذلك الوجه الآخر لمن يدعون إيمان تيو ويرددون عن غير وعى تلك الأسطورة المدوية التي ترجع كل قيمة لفنسان الى فضل تنبؤ تيو بها !

لقد شعر فنسان باحباط عارم وها هو قلبه يعتصر متقلصا بكل ما يقذف به تيو من اتهامات . ولم يعد أمامه الا أن يوقن كم أصبح دخيلا على هذه الاسرة التي تعتبره عالة عليها ، وكم كانت هذه الفكرة تقتله . والأكثر منها ألما أنه يرى نفسه يسبب كل هذه الآلام لأسرته . وعاودته فكرة الانتحار ، ذلك المخرج البشع الذي يروى أرض الغربة التي يعيشها ، والتي ابتعد عنها عدة مرات بفضل نصيحة ديكنز . . لقد عادت تتراقص أمام عينيه من جديد وهو يصارع الحزن واليأس في صمت . .

وفى ذلك الحوار اللانهائى ، الذى تتردد فيه أصداء كل التعليقات الجارحة وكل أنواع العتاب واللوم الذى تتمخض عنه اجتماعات الأسرة ، حاول فنسان أن يقف من جديد ، أن يرفض الانهيار . وصاح قلبه بالرفض . كان مازال يدمى من محنة أمستردام التى و كانت نتيجتها مريرة محزنة ؛ كانت محاولة غبية بحق . وكثير ما أقشعر بردا كلما تذكرتها ، . صاح حاسماً رافضا لكافة أنواع التحكيات . رافضا كافة مجالس الأسرة والنصائح المتعالية . كأن ثائر بوريناج يقف متحديا فى مواجهة كل هذه الممنوعات والمحرمات . . فغير مسموح له أن يعيش كالعال ، وغير مسموح له أن يعيش كالعال ، وغير مسموح جان أو يتصرف وفقا لتعاليم الله ، وغير مسموح له خاصة أن يقول و ان مواحظ القس جان أودرى Jean Audry لا تتفق وروح الانجيل وليست سوى كلمات جوفاء » !

لا . لقد آثر فنسان أن يموت موتة طبيعية بدلا من أن يساق الى الموت البارد الأكاديمي أيا كان عنوانه : موتا دينيا ، أوموتا عائليا ، أواجتهاعيا ! ( ١٣٢ ) . فإن هذه الثورة العارمة لم تمنعه من أن يتعلق بما هو انسانى فى ذلك الأخ المتباعد الذى تركه . . وها هو يمد يده لتيو بالحب وبكل النواضع الانسانى . . ليرجوه أن تعود الصداقة بينها قائلا : و من الأفضل أن يظل ترابطنا بدلا من أن نتعامل كحشتين هامدتين خاصة وأن ذلك اشبه ما يكون بسوء السريرة وليس عدلا أن نفتعل الموت قبل أن نموت حقاً ، (١٣٢) ) .

لقد كان موقف تيو يذكره بموقف غر لما يبلغ الرشد بعد ويتصور أن كل كرامته وكرامة اسرته تكمن في أن يرتدى قبعة عالية ! في وقت كانت عظمة الإنسانية في نظر فنسان بعيدة كل البعد عن كل هذه الشكليات البورجوازية . إلا أن يده المعروقة بالمعاناة وامتدت بفجر المصافحة بكل الصدق ظلت ممدودة بلا أى رد . . لقد كانت المسافات شاسعة بين الحلة السوداء المتأنقة لدى تيو وتلك الحرق البالية التي يرتديها فنسان . . وكان من الطبيعي أن يكسب المستوى الالجتهاعي الجولة . .

ومنذ ذلك الخطاب المؤرخ في الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٧٩ ، حتى شهر يوليو عام ١٨٧٩ ، امتد الصمت ليحيط فنسان بقسوته اللاهية . كان تيو بتقدم بازدهار في تجارته ، بينها كان فنسان يسوخ في جحيم محنته . . وعلى عكس ما يقوله شارنصول في ملاحظته المتصلة بهذه الحقبة مسايرة لبقية المؤرخين فليس فنسان هو الذي قطع علاقته باخيه تيو أو كف عن الكتابة اليه طوال شتاء ١٨٧٩ ، وانما تيو هو الذي لم يستجب لنداء اخيه الذي أنهى آخر خطاب له بجملتين شديدتي الوضوح : وربما كتبت لي قريبا ، وإن حدث ، فسوف يسعدني ذلك كثيرا ، وإذا ما فكرت في الكتابة الى ، فهاك عنواني . . .

وكان أقسى وأعنف شتاء يجتازه فنسان . . فقد تقاذفته كافة أنواع العواصف ، وتصور فى أعتى درجات البؤس ، لكنه تمسك بحلقة النجاة الوحيدة المتاحة له آنذاك الا وهى : الرسم ، تلك الوريقات السريعة التى كان يخطها فى حدة الآلام والمعاناة ، والتى كان ينجح أحيانا فى استبدالها بقطعة خبز جاف ، مع أناس ليس لديهم ما يعطونه غير ذلك . . لقد عاش شهورا مرة مضطرمة بعواصف الشتاء ، يحتمى منها بالرسم المتواصل . .

ومن تلك الفترة المأساوية التي أمضاها في قرية كويم ، فإن الوثيقة الوحيدة التي بقيت هي خطاب المواطن ن . ج . ديلسو N.G. Nelseu ، الذي كان يعرف فنسان عام ١٨٨٠ ، وهو الخطاب الذي أرسله للسيد لوى بيرار وقام هذا الأخير بنشره في كتابه عن فنسان ( صفحة ٨٧ و٨٨ ) ، لنعلم من هذا الخطاب أن الأب ، القس تيودورس فان جوخ ، اذ لم يستطع التخلص كلية من ابنه ، انتهى به الأمر بارسال مبلغ ضئيل ما كان ليسد الرمق ، لكنه يسمح لفنسان بسداد أجر مسكنه . الا أن فنسان ، الذي لم يفقد ايجانه بالله ، قد اشترى بهذا المبلغ بضعة نسخ من الانجيل وكان يوزعها على الفقراء والمعدمين ، بينها يمضى في الطريق راسها ما تقع عليه عيناه .

وفي الرسم وجد العزاء . . وفي العطاء وجد الأمل ، حتى انه عندما حيل بينه وبين أن يبذر الكلمات المقدسة بصوته ، لم يتمالك من أن يقدم الكتاب الذي يحتوى عليها ، مساهما بذلك في تنوير أولئك القوم القابعين في الظلمات . لكن هذا العطاء النذر اليسير الذي ما كان يملك غيره قد أثار القس المبجل والده ، فها هو ديلسو يضيف قائلا : أن والده اضطر إلى الحضور الى كويم ليضع حدا لهذا الصرف على الكتاب المقدس ؟! أمن ضرورة التعليق على مثل هذا الموقف غير الكريم ، الذي ما كان يمكن أن يقترفه أب ما ، فها بالنا وهو صادر من قبل شخص مسئول عن نشر كلمات الله والتبشير بها ؟!

لقد حرم القس المحترم ابنه حتى من هذه المساعدة المالية الضئيلة ، وأصبح انسانا غير مرغوب فيه ، عليه أن يتوارى من أعين الأسرة ، أن يجوب في الطبيعة الواسعة . . ويكتب فنسان قائلا انه يجوب و جامعة البؤس الكبرى ليتعلم منها بالمجان . . .

واذ نبذه ذووه ، وكل الذين يعرفونه ، وجد فنسان نفسه في العراء ممعنا في رحلة العذاب عبوساً في قفص بشع ، مصنوع من سمعة سيئة فرضت عليه عمدا ، مليئة بالمغالطات ، تثقل عليه بالأحزان وتفرض عليه قدراً ساحقاً . . شعر وكأنه محبوس ، عاطا بالجدران الشاهقة ، مدفون ، وإن كان لما يزل على قيد الحياة ، تحيط به السياج العاتية الراسخة ، في سجن مصنوع من الأفكار المسبقة يلطمه بسوء التفاهم والجهل الأزلى بالحقيقة . والاغتياب والخجل الزائف . وفي مثل هذه الحال . كان يكن للمسة حب وفية صادقة عميقة أن تزيح عنه كل شيء . . لكن ما من لمسة ربتت . . وطوال خطاب من أكثر خطاباته أنينا وحزنا وألما من هذه الفترة ( ١٣٣ ) ، وفيه لم يكف فنسان عن التعبير بمختلف الأساليب عن حاجته الى صديق ، الى أخ ، الى انسان يجبه \_ فلقد كان الحب هو القوة الوحيدة التي يمكنها فتح أبواب مثل هذا السجن الذي دفن فيه حياً . لكنه ظل في بؤس حياة شرسة القسوة ، أكثر غراوة من الموت نفسه .

ومثله مثل المسيح فى قمة آلامه ، راح يتساءل : ﴿ يَا الله ، هَلَّ سَيْدُومُ هَذَا اللهُ عَلَى سَيْدُومُ هَذَا الرضع طويلا ؟ هَلَ سَيْدُومُ للأبد ؟ ، ويجيبه الصمت المطبق بالصمت . . لم يكن هناك انسان مستعد لتحريره من جدران تلك اللعنة التى حلت به بينها رأح يتمتم من قاع الهاوية التى دفع اليها ، دون أن يفقد ايمانه : ﴿ إِنْ امْكَنَى الْعَمْلُ فَحَسَبُ ، إِذَا

آستطعت مواصلة العمل ، سوف أطفو من جديد : . . ورغم كل ما يعتريه من آلام ، وسط ذلك البؤس المهين ، شعر وكأن قواه تعود اليه ثانية ، فكتب يقول : وأيا كان الأمر ، سأصعد ، سأعود لأمسك بقلم الرسم من جديد بعد أن تخليت عنه في فترات الأحباط الكبرى ، سأرسم من جديد ؛ (٣٣) .

وبعزم شديد ، بدأ فنسان يرسم كل ما تراه عيناه في مجتمع قرية كويم المحدود ، وفي المساء ، لم يكن معه آنذاك ، سوى كتاب واحد بعنوان آخر يوم في حياة انسان محكوم عليه بالإعدام ـ تلك التحفة الانسانية الرائعة التي كتبها فيكتور هيجر ضد حكم الإعدام ، والتي تتفق بشكل غريب وارادة فنسان ضد الموت ، وتتناغم في نفس الوقت بحالته النفسية . .

وأثناء العمل ، وجد فنسان بعض المصاعب في استيعاب المنظر الشاسع الممتد أمامه ، في قطعة من الورق ، وكم كان بحاجة لمن يرشده ويفسر له بعض التقنيات ، وأن يرى عن قرب كيف يمكنه التعبير عها يراه . وجال بنظره من حوله ؛ لا أحد . لم ير سوى أناس مقهورة ، مشدودين الى عربتها الجحيمية ، وليس من المعقول أن يفسروا له شيئا .

وببصيص من الأمل ، راح فنسان يفكر فى الفنان جول بريتون Jules Breton . ذلك المصور الذى كان يعجب به والذى يقطن بلدة كوريير Courrière \_ منطقة المناجم الأخرى التى تقع فى شهال فرنسا وعلى مسافة مائة كيلومتر من كويم . وبكل ما اعتراه من حماس اتجه ليركب القطار ، لكنه اكتشف أن العملات البائسة القليلة التى معه ما كانت لتقوده الى أى مكان ! وجدوء شديد ، نزل من القطار . . وبلا أى يأس ، قرر بعزيمته القوية السفر سيرا على الأقدام !!

وطوال أسبوع بأكمله كان يسير ويتعثر في سيره ، حتى وصل إلى بلدة كوريير ، ومنها إلى مرسم جول بريتون . وهناك توقف ملبداً بغيوم خيبة أمل جامحة من ذلك الشكل الخارجي للمرسم ، واعتراه الإحباط . فكتب يقول : « كان مرسها جديدا ، حديث البناء بالطوب الاحمر ، منتظم بدرجة منهجية كنسية شكله غير كريم وبارد وممل ، (١٣٦) .

واذ اعتراه البرود والملل ، لم يجرؤ فنسان على التقدم خطوة ، ورفض الاقتراب ، وكأن ذلك التعبير عن شكل المبنى و المنهجى الكنسى ، يقول كل شيء ، فشعر وكأنه بمثابة نشاز وسط كل هذا البذخ غير الكريم . ولمعرفته اليقينية بما تحتوى عليه مثل هذه الجدران ، فقد انسحب في صمت ، وحاول البحث حول بلدة كوريبر عن أية آثار أخرى لجول بريتو ، أو لأى فنان غيره . الا أنه لم يعثر على أى شيء عها كان يريده . وهنا كتب يقول : • كل ما عثرت عليه هو صورة فوتوغرافية له عند أحد المصورين الفوتوغرافيين ، وفي الكنيسة القديمة ، في أحد أركانها المظلمة . عثرت على لوحة منقولة عن لوحة الفنان فسيان Titien وهي النزول إلى المقبرة . لقد وجد بعض الصور الفوتوغرافية واللوحات ، المنقولة والعديد من الأشياء . لكنه لم يعثر على أثر لأى فنان حي .

وقف فنسان وحيدا ، يعتصره الأسى . ثم راح يتجول فى القرية ويتأمل المقهى المدعو و مقهى الفنون الجميلة ، وكان مزدانا برسوم حائطية تمثل دون كيشوت ، وراح يتمتم : وحتى المقهى مصنوع من ذلك الطوب الجديد البارد غير المضياف ، انه بارد حتى الموت ، . وعندما لم يجد أى ترحاب بالقرية ، اتجه ناحية الحقول . .

وفى وسط الطبيعة التى عشقها ، تنفس الصعداء وراح يصلى ويتحاور مع السياء التى بدت له زرقاء صافية هادئة . سياء لا تعرف الدخان ولا الضباب مثلها كانت فى بوريناج . ان ذلك الانسان الذى ألف الألوان الداكنة راح يتأمل بنهم كل الألوان الجديدة الوضاءة التى تحيط به : تلال القمح والأرض البنية التى تعلوها البقع البيضاء حيث يبدو نهر مارن Marne ، مساحات من المزارع والهناجر باسقفها المغطاة بالقش . . لكن كل هذه الألوان التى كثفتها الطبيعة الممتدة أمامه لم تمثل – فى نظره – سوى الخلفية التى يرى عليها أشكال الفلاحين المميزة أو الحطابين أو من يجرئون الأرض أو أشكال النسوة بقبعاتهن البيضاء .

لقد استطاع عند عودته ان يستبدل رسومه مقابل بضعة أرغفة . وعرج عبر الحقول بمرح ليمضى لياليه المرة فى عربة مهجورة حيناً ، ووسط كومة نفايات حينا . . آخر ، ومرة أخرى فى كومة قمح حيث استطاع أن يحفر لنفسه فجوة صغيرة بها . . الا أن الأمطار التى كانت تنهمر أقلقت راحته .

وعلى الرغم من أن هذه السفرة لم تكن مشجعة على الإطلاق ، وعلى الرغم من عودته منهك الكيان ، الا أنه لم يندم على القيام بها : لقد كان في غاية السعادة لمشاهدة مناظر جيلة . لقد كان يرى في المحن القاسية بعين أخرى ، وكان شغوفا دوما بأن يتعلم كيف يرى . .

وأثناء هذه الرحلة أيضا ، اكتشف عالما جديدا بالنسبة له هو: قرية النسّاجين ؛ نماذج من الناس يبدون وكأنهم يحلمون ، أو يسيرون ويتحركون وهم نيام وقد أثاروا انتباهه وحركوا مشاعره الفنية . . وها هو من الناحية الانسائية يرى أنه ليس وحيدا في البؤس . . ومن جهة أخرى ، لقد وجد أن هذه الناذج تماثل طبقة عربين عيال المناجم ، تلك الفئة الأخيرة التي يتصورها معظم الناس على أنها طبقة غربين وسارقين . . أولئك الذين يعيشون في قاع الهاوية ، ويكتنفهم الغموض ، فهم أكثر العيال اضطهاداً واحتقارا .

ولقد استطاع فنسان أن يعرف الطباع المميزة والمؤثرة لتلك المخلوقات البائسة بمعايشة حياتهم . فتعلم أن يرى في صمت أن تحت ذلك السطح الحشن ، الذي يمثل المظهر الخارجي لتلك الفئتين من العمال ، تلقد شعلة روح انسانية ، لها نورها الداخلي الذي يضيء في الظلمات .

وها هو يمسك القلم من جديد في شهر يوليو عام ١٨٨٠، وبعد قرابة عام من ذلك الخطاب الذي كتبه في الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٧٩، والذي لم يرد عليه تيو، لقد أمسك بالقلم أخيرا وو رغها عنه ، على حد قوله ، ليكتب خطابا يحطم الصمت الذي يلفه لكى يمد للوقائع أهمية مزدوجة . إنه الخطاب الذي يحمل رقم ١٣٣، والذي يشتمل على ست صفحات كبيرة هي بمثابة عريضة دفاع رائعة تكشف عن الأعهاق النفسية لإنسان أدين ظلها ، بقدر ما يعرض للواقع الذي عايشه في بساطة ويسر وكشف فيه عن زوايا للحقيقة التي تحجرت في العيون ، لقد كان أول خطاب يكتبه كله باللغة الفرنسية ، مما يشير في الوقت نفسه إلى تأثير البيئة على أسلوب المراسلات : ففي هذه الفترة كان تيو قد تم نقله إلى الفرع الرئيسي للمؤسسة في باريس ، وكان فنسان في بلدة تتحدث بالفرنسية .

ولقد كشف الخطاب ضمن ما يكشف عن جنبات من طباع فنسان التى تتسم بصراحة غير مألوفة وها هو يبدأ خطابه لأخيه الذى أصبح غريبا بالنسبة إليه قائلا : د لقد وضعتنى فى هذا الموقف الذى وجدت نفسى فيه ، ربحا لما كتبت لك ولا حتى الآن ، عازفا عن الكتابة لك ، ولولا الضرورة لما كتبت لك الآن كها اكتب. لقد علمت فى إيتن انك أرسلت الى خسين فرنكا قبلتهم بقينا بقلب غير راض وبجرعة من المرارة لا اعرف معها كيف اتصرف إذ اننى فيها يشبه الطريق المسدود ، أى أننى اكتب لأشكرك . وطوال دفاعه المثير عن نفسه في هذا الخطاب ، أخذ فنسان يوضح لأخيه كيف أصبح بالرغم منه \_ انسانا مشبوها وغير محتمل في تلك الاسرة د التي لا تنقصها الاحكام المسبقة والتمسك بالشكليات والتحذلق » . لكنه \_ رغم كل شيء \_ لم يأس في استعادة ثقتهم وأن يرى الوئام يسود مرة أخرى بين أعضائها .

وإذا ما كان فنسان قد خرج على المألوف \_ من وجهة نظر البعض \_ إذ حاد عن ذلك الاطار المنمق النمطى لمجتمع كان قدره أن يكون غريبا فيه ، متها بالجنون ، مستبعداً من رحمته ، فلقد كان في الواقع و انسانا انفعاليا ، كها يصف نفسه ، انسانا متكاملا سويا ، واضح الرؤية متاسك الفكر والأفعال . متحمسا بلا حدود لكل ما يفعله . له ولع لا يقاوم للكتب ، ورغبة جاعة في أن يتعلم ويدرس باستمرار ، وأن يرى اعهاق كل ما يقوم به ، لقد كان نها للمعرفة والحوار مع المطحونين . يعيش بهم ولهم ، فهو ذو نشاط متسق مركز ، بلا أية تطلعات طبقية ، بل هو يقت ذلك الزيف الذي السراء على دم الفقراء ، لم يطلب لنفسه شيئا ويجسد حبه للآخرين في التواجد الفعال الأثر ، بتواضع نبيل لا يقدر عليه الا من أحب الانسان . ولقد كان فنسان انسانا يريد ويعمل لا على أن تتم المساواة فحسب ولكن على أن تتم الوحدة ، الوحدة ، ييفضل عليها تلك المسحة التي تدفع الى الأمل والتطلع الى الأحران الغائمة السوداء ، ويفضل عليها تلك المسحة التي تدفع الى الأمل والتطلع الى الأحران الغائمة السوداء ، ويفضل عليها تلك المسحة التي تدفع إلى اليأس .

لكن هذه المفاهيم الغارقة في مثل انسانية سامية اذا ما وُجدت في بيئة متواضعة كالريف أو الوسط الديني أو التجارى لابد أن تثير في ظننا ـ شيئا من الفزع . وزاده ـ للأسف ـ اضطراره الى أهمال مظهره ، اذ كان مغموسا في الفاقة والبؤس والاحباط . الا أن الشيء المفزع حقا هو أن كل هذا الضياع المفروض عليه ، وكل هذا العطاء من جانبه والذي يصل إلى درجة مثالية من التجرد ، تدينه الأسرة وتصفه بالانحطاط!! ، وهو تعبير مهين هز كيان فنسان بعنف ، فراح يرد عليه في احتداد عارم:

وحقا لقد كسبت لقمتى أحيانا . وتصدق على البعض أحيانا أخرى ، لقد عشت تبعا لظروفى . قدر استطاعتى ، بالحسنة والسيئة ، لقد فقدت ثقة الكثيرين حقا ، كما أن أحوالى المالية فى حالة مرثية ، وها هو المستقبل معتم أمامى بحق ، لقد

كان بوسعى أن أتصرف أفضل من ذلك ، لكنى أضعت الكثير من الوقت حقا \_ لمجرد أن أكسب قوق ، وحقا أن مستوى دراستى في حالة محزنة تدعو لليأس ، وما أكثر ما ينقصني من أشياء تفوق بمراحل عدة ما لدى ، الا أن ذلك لا يسمى انحطاطاً أو استكانة » .

لقد اعتبرت الأسرة هذه السنوات الثلاث التي أمضاها في بوريناج انحدارا اجتهاعيا ، دون أن تحاول رؤية حقيقة هذه التجربة الإنسانية وعلى العكس ، فإن فنسان ، الواضح البصيرة والمدرك لسير الأحداث ، قد لمس ، السبب الحقيقي لما اطلقوا عليه و انحطاطا ، ، تماما كها أدرك السب الحقيقي لاستبعاده عندما راح يتحدث عن تجربته في التبشير . فكتب يقول في نفس ذلك الخطاب : و يجب أن تعلم ان الوضع مع رجال الدين مثله مع الفنانين . . هناك مدرسة اكاديمية ، عادة ما تكون منفرة ، استبدادية بعيدة عن الأسي ، تمثل الرجال وكأنهم خوذات أو درع من فولاذ مكون من الأفكار المسبقة والأعراف المتفق عليها . وهؤلاء عندما يتولون من فولاذ مكون من الأفكار المسبقة والأعراف المتفق عليها . وهؤلاء عندما يتولون مصالحهم واستبعاد الرجل الحق . إن إلههم هو إله فالستاف ، السكير بمسرحية شكسبير ، وأقصد هنا و خبايا الكنيسة » . وفي الحقيقة ، فإن بعض السادة المبشرين ؟؟؟ يوجدون بمحض الصدفة (ولربما أصيبوا هم أنفسهم بالدهشة لتواجدهم في مثل هذا المكان ، إن كان لديهم شيء من الشعور الانسان ) في نفس مكان ذلك الشخص السكير وقد اسند اليه القيام بأشياء دينية . لكن من المشكوك فيه أن يتحول عهاهم ذات يوم — إلى بصيرة في هذا المجال » .

يه الم يتحون عامم دات يوم المهجة تقليلا من شأنهم وانما عن دراية ببعض الجوانب المزيفة والتي عارضها واحتج عليها بكل قواه . وهنا يكمن بالفعل ذلك السبب الحقيقي الذي تم فصله من أجله من المجال الديني ومن المجتمع ، أو على حد قوله انه و أجد الاسباب التي أجد نفسي بسببها حاليا خارجا عن مكاني الطبيعي ، ولذا فإني مبعد عن مكاني لعدة سنوات ، وذلك ببساطة لأنه لدى افكار أخرى غير تلك التي لأولئك السادة الذين يبوئون الأماكن لمن يفكرون مثلهم . إنها ليست مجرد مسألة ثياب وهندام مثلها اتهموني بسوء طويتهم ، أؤكد لك أن الموضوع أعمق من ذلك مكثه الله المحالة ال

ومما لا شك فيه أن موضوع و فنسان والكنيسة ، الذي يهمله النقاد أو يخمدونه عمداً ، بحاجة إلى دراسة متعمقه ، ولابد لهذه الدراسة أن تلفت نظر كل الذين يكتفون بقبول : اللافتة ، السهلة لكلمة جنون للتمويه على الدور الحقيقى الذى قام به فنسان وتبديد آثار ظلمهم ــ لكى لانقول جريمتهم !

ودون الدخول في تفاصيل قد تمثل موضوعا يخرج عن نطاق هذا البحث ، نكتفي بالاشارة الى أن فنسان كان يعاني انسانيا من خلافات الرأى والتحيزات والمذاهب الدينية المتعارضة . فقد كان يرى أن الدين انما هو دين واحد ألا وهي : المسيحية ، بكل ما تحمله تعاليمها من رحمة انسانية واحتفاء بالضعفاء . وهو ما كان يود تطبيقه ، بالعودة بها الى أصولها الصافية الأولى . وبأن بجارسها ويطبقها بمعناها الإنساني الاجتهاعي . لكي يسهم بلبنة متواضعه في النهوض بالإنسانية . وهو الدور الذي يكشف جانبا جديدا عن فنسان الذي يبدو أنه كان من أنصار وحدة الكنيسة وإن كانت الوحدة بين الكنائس والمذاهب المتعددة في عصره من الاتجاهات المرفوضة تماما . إنها نفس الفكرة التي سيحاول تحقيقها فيها بعد في مجال الفن ، ونعني الوحدة بين الفنانين ، لا بغية التكاتف فيها بينهم فحسب ، وانما بغية تحقيق هدف واحد هو : توصيل الفن للجهاهير العريضة بأقل التكاليف . .

واذ رأى عدم جدوى المناقشة بين فريقين متعارضين تماما . حيث يقف هو من ناحية ، والمؤسسات الدوجماتية من ناحية أخرى ، تلك المؤسسات بأفرادها الذين يطاردونه كمبشر وملعون ، ، لم يتوقف عند سطح اختلاف لا مخرج منه ، بل هو يواصل تطوره ومسيرته فيها وراء الاختلافات .

لقد كان لديه ما يشغله - رغم المعاناة - ويستغرق كل أفكاره . . اذ أن ذلك الانسان الذي كان يرى ملامح من رامبرانت في شكسبير ، وأصداء من كوريج Courrége في ميشليه ، وأفكاراً من ديلاكروا في فيكتور هيجو ، ثم يرى انعكاسات من رامبرانت في الانجيل أو الانجيل في رامبرانت ( ١٣٣ ) . كان شديد الشغف بما يراه من تجارب متبادل بين الأعهال الفنية والأدبية والانسانية بعامة . كما أن ولهه باصدائها ورنينها يذكره دائها بأن الفنون كلها والآداب بتنويعاتها وفن التصوير بصفة خاصة تكمل بعضها بعضا وتنداخل في تلاحم فريد اذ تخرج من رحم الابداع الذي وهبه الحالق للانسان المبدع ، الأمر الذي حاول معه دوما أن يسير نحو ما يقوله كبار الفنائين والأدباء في أعهالهم ، وإن يفهم ذلك المعنى الذي يتضمن - في نظره - جزءاً من الله .

وبتلقائية متفردة أحس أن أفضل وسيلة لمعرفة الله لا تكمن فى حبه بشكل عجرد ، أو الايمان به غيبا فحسب ، وانما بالبحث عنه بكل الصدق والجدية ، بحب ووقدة ذهن شغوف بالمعرفة ، وبالارادة التى تتخطى الصعاب لتلتقى به فى أعماق الطبيعة وفى ثنايا ابداعات العقل الانسانى والحياة بعامة . اذ ان كل شىء فى الوجود يتضمن جزءاً منه ، وكل شىء فى الوجود يقود اليه . .

وبتوصله ومعايشته لهذه الفكرة الحلولية ، لم يكن فنسان يغرق فى تصوف مجرد ، وانما كان يموج برغبة عارمة للعمل ، ويشعر بأن له رسالة ما فى هذا الوجود ، ويود صادقاً لو أسهم فى ذلك التطور المتصاعد الكبير للفكر والابداع . الا أنه ارتطم بقضبان ذلك السجن الذي يحيط به ، وظل وحيدا مخدرا بآلامه . .

لقد كان خطابه الأخير السابق الاشارة اليه ، مرسى من المراسى التى تلقى الأضواء على رحلته الصعبة ، وها هو قبل الانتهاء من ذلك الخطاب المثير ( ١٣٣ ) عاد يشكر أخاه مرة أخرى لمساعدته ، وللمرة الثانية راح يكتب له عنوانه قائلا : ( أعلم أنك بالكتابة إلى سوف تعاونني كثيرا » .

ومن غير أن ينتظر شيئا ، بدأ يرسم بحياس كل ما يحيط به : الفحامين ، وجامعى القيامة اذ يتجهون صباحا الى الأبار وسط الثلوج ، سائرين على حافة طريق تحده الأعشاب الجافة والأشواك . كما انطلق لسان قلمه يخاطب أطياف الناس عن بعد ساعة الغسق . فيسجل حواره فى كراسة رسمه كما كان يتمرن على نقل لوحات الحفر التى كان يشتريها ، وكلها متعلقة بالحياة الريفية والحقول ، بالاضافة الى رسومات مجلدين بعنوان المتحف العالمى .

وفى العشرين من شهر أغسطس عام ١٨٨٠ ، بعد ذلك بشهر واحد تقريبا ، أمسك فنسان ثانية بالقلم ليكتب لأخيه تيو طالبا منه ارسال رسؤمات الفنان ميليه المعروفة باسم اعهال الحقول . وكتب فى نفس الوقت الى ابن عمها ترستيج Tersteeg ، الذى يدير فرع قاعة العرض فى لاهاى ، ليطلب منه ان يعيره منهج تعليم الرسم لبارج Bargue ، وكتاب تمارين بالفحم ، بالإضافة إلى بضعة كتب تعليمية اخرى ـ وقد تلقاها بالفعل من ابن عمه وان لم يحظ بأى تعليق معها !

أما تلكم الأشياء التى طلبها من تيو ، فلم تصله الا فى الرابع والعشرين من شهر سبتمبر . فكتب يشكره على اللوحات وعلى الخطاب الذى كان معها . وبدأ فنسان وكأنه يطفو الى السطح من جديد . . وبيلما كان يدرس الرسم ، اتبع نفس منهجه الدراسى بأن يضىء معالم الجانب العملى بالقراءات . . وفى هذه الفترة بالتحديد انهمك فى قراءة كل ما امكنه الحصول عليه حول المنظور والتشريح – وان لم يتخل عن قراءة الروايات الأدبية . وها هو يكتب معلقا على هذه الفترة قائلا : « ان هذا الجهد قد يبدو عقيها ، لكنه أشبه ما يكون بمخاض الوضع : الألم أولا ثم الفرحة » ( ١٣٦٦ ) .

وكم كانت فرحته الغامرة بأن يعود الى الرسم بشكل جاد . وكم كانت سعادته لأنه استطاع أخيرا أن يكرس نفسه لتلك الرسالة الفنية التى كانت تدفعه اليها أعهاقه وجوارحه ونمت فى خلاياه لقد انطلق فنسان فى عالمه الجديد ممتلئا بهدف محدد ، إذ كان يود تعلم فن الرسم ، لكى يكون سيدا لقلمه أو لقطعة الفحم أو لريشته أو لأى اداة يخط بها . كان ما يشغله بحن هو أن يصل الى صنع و عمل ممتلىء بشىء إنسانى » . وفى هذا المجال الجديد المشبوب بصراعه الفنى ، كان عليه أن يصقل أدواته وينمى صياغته لمجرد اللمسة ليجعل اللوحة أكثر نبلا ، وأكثر قدرة على التعبير والتواصل ، وأن يضمنها أو أن يظهر من خلالها تلك و اللؤلؤة النادرة ، التى هى الروح الانسانية » .

لقد أخذ نفسه بالشدة المعهودة التي ألفها ، وها هو منذ الصباح الباكر وحتى المساء ، بل ولساعات طويلة متأخرة من الليل ، يرسم ويجوّد ، ويدرس . ويقرأ ، متجها نحو ذلك الباب الضيق الذي يعبر منه الى مراح الانسانية الحقة . . وهنا كتب قائلا : د إن الطريق ضيق ، والباب ضيق ، وقلة هم من يستطيعون العثور عليه » . .

ويوما بعد يوم كان يشعر بمزيد من القوة فى يده وفى روحه . لفد أكسبه العمل اصرارا لعبور البرزخ . وأما أكثر الأشكال التى حاول التعبير عنها فهى شخصية الفلاح باذر الحبّ ، ذلك الانسان الذى يبذر فى الحقول بصمت ، متجاوزا آلامه ، اذ أنه يبذر بسخاء لمحصول المستقبل . .

لقد أبحر ينشد قِبْلَة الانسان ، لكنه كالعادة ــ سرعان ما النقى بالاعصار ، اذ ما كاد يعثر على بداية طريقه ويستقر المجرى ، حتى وجد نفسه مضطرا الى ترك الغرفة التى تأويه . الغرفة التى كان يقطن بها عند آل ديكروك Decrouq ، ويشارك أبناءهم فيها ، لقد زعمت السيدة ديكروك أنها بحاجة الى هذه الغرفة للغسيل ! ورغم المصاعب الجديدة والغيوم التى تلوح والتى تظهر دوماً ، كان عليه

أن يتحمل دون أن يشكو . فقد كان ايمانه عميقا ومحبته واحدة للجميع ، محبة تتمثل مفاهيم الكتاب المقدس ، أى أنها تغفر كل شيء ، وتصدق كل شيء ، وتأمل في كل شيء ، وتتحمل كل شيء ، ودون أن ينبس ببنت شفه ، وافق عل ترك مأواه . ولم يشغل نفسه بالشاطيء الجديد الذي سيرسو اليه مادام يستطيع أن يرسم . وما هو أكثر من ذلك كله إنه اصبح يمتلك هدفاً في الحياة يعيش من أجله .

واذ لم يعد فى مقدوره البقاء فى بلده كويم . فقد اقترح عليه تيو أن يذهب الى باربيزون Barbison ، مثلها كان والده قد اقترح عليه فيها مضى أن يظل فى ضواحى إيتن . أى على مقربة لكن ليس فى نفس المسكن . الا أن فنسان قد اثر الابتعاد عن المكانين . وها هو يضطر للرحيل فى بداية شهر أكتوبر عام ١٨٨٠ ، ليس مدفوعا بعدم استقراره الأزلى مثلها تردد جمهرة المراجع التى تناولت سيرته ، وانما كنتيجة حتمية لتلك الظروف التى تدفعه إلى ذلك ولقد وقع اختياره هذه المرة على أن يذهب إلى مدينة ، بروكسل ليقيم فيها ، مزوداً بآمال حيوية مطلقة . ثابتة لا تتزحزح . . كان سعيدا رغم الألام .

وقبل الرحيل ، ها هو يلقى نظرة أخيرة على تلك الأماكن المتفحمة بسواد البؤس ، على أرض بوريناج التى انتزعوه منها بعد أن فرضوا عليه فشلا جديدا. لقد كانت انفاسه المختنقة فى طيات العبرات تزفر مع مقولة القديس بولس ، ذلك الحوارى الذى كان فنسان يتخذه مثلا أعلى : «أيها الأخوة ، أقول لكم بكل طهارة الضمير اننى تصرفت أمام الله حتى يومى هذا » . .

وبكل طهارة النفس والضمير سوف يتصرف فنسان حتى آخر لحظاته . .

### المنبوذ دوما

بانتقاله من عالم الدين إلى عالم الفن ، وبتركه أجواه وظيفة المبشر ليصبح فنانا عصاميا فإن فنسان لم يغير من افكاره ونزعته الإنسانية ، وظل بنفس طابعه المحب للآخرين ، يحمل بين طياته هدفا واحداً هو : المساهمة في رقى الإنسانية إلى ما هو أفضل .

## بروكسل (أكتوبر ١٨٨٠ ـ ١٢ أبريل ١٨٨١):

في السابع والعشرين من العمر، في تلك السن التي كان الفنان مازاتشيو Masaccio يوت تاركا الأسس الفنية التي قام عليها عصر النهضية، كان فنسان يواصل تعليمه العصامي في مدينة بروكسل. ومنذ وصوله إلى تلك المدينة، غاص بنفس الحياس الصادق في أوساط الفنانين ووصل به الأمر إلى تسجيل اسمه في اكاديمية الرسم \_ رغم عدائه الشديد المعلن عنه مراراً لكل ما هو أكاديمي. وحتى لايرى البعض أي تناقض في مثل هذا التصرف، فإن فنسان، المتعطش إلى العلم والدراسة يبادر بالقول ببساطة في أول خطاب له من بروكسل في أول نوفمبر والدراسة وبه تدفئة. وهي ميزات لا يستهان بها خاصة في فصل الشتاء، جيد الأضاءة وبه تدفئة. وهي ميزات لا يستهان بها خاصة في فصل الشتاء».

ما كان لفنسان أن يهمل مثل هذه ( النعمة ) خاصة وأن موارده المادية كانت لما تزل شحيحة كما كانت عليه أيام تواجده في بوريناج . ان كل ما كان يرسله له والده ، انما هو راتب شهرى عبارة عن ستين فرنكا ، غير أن هذا المبلغ لم يكن ليسمح له بأكثر من أن يدفع ايجار غرفة قبيحة بخمسين فرنكا ، يحصل معها على وجبة من الخبر الجاف وفنجان من القهوة السوداء في الصباح والظهيرة والمساء . واذ رأى فنسان أن ما يحصل عليه أساسيا لقوت يومه ، فقد كان يدخر الفرنكات العشرة المباقية لمعدات الرسم . لقد كان هذا الزاد المكون من الخبر الجاف والقهوة غذاءه الوحيد الذي سيتناوله طوال فترة اقامته في مدينه بروكسل \_ وان كان سيضيف إليه أحيانا\_ وكلها تيسر له ذلك \_ بضعة حبات من البطاطس أو القسطل المشتراه من الطريق .

وهكذا انقض بحياس بالغ على الجزء الثالث من منهج تعليم الرسم لبارج ، واستكمل نقل لوحات الحفر التي تمثل مناظر من الحياة اليومية مريرة الصدق ، لعدد من الفنانين امثال جافارني Gavorni ، وهنرى مونييه Henri Mon nier ، ودومييه

Daumier وأخذ ينمى دراساته بقراءة كتاب لافانار Lavatar ، وجال Jal عن المحيا والفراسة الذى يتناول الكشف عن طمع الانسان كها هو واضح من ملامح الوجه وشكل الجمجمة . وفى الآن نفسه لم يغفل قراءاته الأدبية لأعمال كل من شكسبير وفيكتور هيجو التى كان لا يزال يرى بها اصداء وانعكاسات من أعمال رامبرانت(١٣٦) .

لقد كان هدفه الأول من هذه الدراسة المكثفة أن يستطيع اعالة نفسه بنفسه . اذ كانت علة كفالة اسرته له تطارده ، لقد حاول ـ كها رأينا سالفا ـ منذ تعيينه في قاعة عرض جوبيل ١ن يحقق هدفه المتواضع ذاك ، وهو الهدف الذي لم يكف عن محاولة تحقيقه . وفي هذه الحقبة بالذات ـ في بروكسل ـ بدأ يتطلع إلى الحصول على وظيفة رسام في إحدى دور الصحف أو في إحدى دور النشر .

ر وفى شهر مارس عام ١٨٨١ . علم فنسان من والده ـ وكان فى زيارته ـ أن تيو يسهم فيا يرسل له من نقود من وقت لأخر . فكتب ليشكره ثم أضاف : د آمل الا تندم ابدا على مساعدت ، اذ بفضل مساعدتك سيمكننى تعلم مهنة ، حقا انها لن تغنينى ، لكنها ستسمح لى على الأقل بالحصول على مائة فرنك كحد أدنى فى الشهر ، (١٦٢) . غير أن مجلس العائلة قد اجتمع مرة أخرى ليدينوا فنسان ـ كعادتهم ـ ويمنعوه من ان يظل عاله على أخيه فى مثل سنه هذه .

وفي نفس ذلك الوقت ، كان بعض المعارف الذين كونهم في الوسط الفني أو في الأكاديميه بحجمون عن مساعدته بنصائحهم ، ليتضافر القحط المالي فيثقل على كاهل فنسان ويضع حداً لتواجده في بروكسل وها هو رغما عنه ، يضطر إلى قبول العودة إلى بيت أبيه في إيتن ، مدفوعا بحاجته التلقائية إلى الثقة والفهم . غير أن هذه الحاجة ظلت كالسراب دوما . إذ أفراد أسرته استمروا في معارضته وفي اطلاق الاحكام المسبقة ضده وضد كل أفعاله ورغمها ، لم يحقد فنسان على أحد ، مدركا تمام الادراك كيف أن الناس نادراما يدركون لم يذهب الرسام إلى أماكن قد لا يخطوها شخص آخر وكيف انهم لا يفهمون بواعثه للاستغراق . وها هو يبث أخاه أحزانه قائلًا : ﴿ إِنْ أَى فَلَاحٍ يُرْقِبنِي وَأَنَا أَرْسُمُ جَذَعَ شَجْرَةً وَأَعْمَلُ لَمُدَّةً سَاعَةً دونَ أَن اتحرك ، يتصور أنني مجنون ويسخر مني . وما من سيدة من أولئك الذين يشمئزون من رؤية عامل تعلوه الاتربة ويرتدي سترة مليئة بالرقع ويكسوه العرق ، تستطيع أن تدرك لماذا يدفن نفسه في منطقة مثل بوريناج أو لماذاً يذهب إلى هايست Heyst أو ينزل آبار المناجم . ولسوف تجزم هي الآخرى بأنني مجنون . انني لأسخر من كل ذلك بالطبع ، على أمل من أن تكون وأبي وأعمامي مدركين لم أفعل وتبثوني الشجاعة بدلا من أنَّ تكيلوا إلى أنواع الانتقادات ، ( ٤٢ ) . ومما يؤسف له أن كلماته فعبت أدراج الرياح فقد كانت أسرت بالشخوص التي ذكرها أول من أدانته .

وفى الثانى عشر من شهر أبريل عام ١٨٨١ ، لم يكن امام فنسان إلا أن يغادر مدينة بروكسل ليذهب إلى إيتن ممثلثا بعزيمة لا تفقد الأمل إذ يرنو للمستقبل ، مصراً على مواصلة مسيرته فى ذلك الطريق المتصاعد دوما . .

### إيتن (١٢ أبريل ١٨٨١ ــ نوفمبر ١٨٨١):

منذ استقراره في بلدة إيتن بدأ فنسان يعمل بنفس الدأب بلا حدود وأخذ يدرس الألوان الماثية ، والسبيا ، والرسم بالبوص ، وحقق نتائج ملفتة النظر . كما أصر على إعادة رسم كتاب تمارين بالفحم ، وإن كان الرسم من الطبيعة \_ بالنسبة له \_ أكثر إثارة من النقل . إلا إنه أراد أن يتعلم بكل الصدق . وفي الآن نفسه بدأ ينظم مكتبة ويقرأ بنهم متزايد كل ما يقع عليه من اعبال قديمة ومعاصرة . فمن رواة شبرلي ، وچين أير للأديبة كارربل Curter Pell ، انتقل لأعمال بلزاك الذي اعتبره فنسان و الطبيب البيطري للأمراض المستعصية و (١٤٨) وكان اعجاب فنسان باعماله لا يكل ولا يهدا . ثم حاول الاستعانه بالريفيين طالبا منهم أن يجلسوا كنهاذج ليصورهم . وكم كان يعذبه ان يشرح لهم ان الأمر برمته مجرد تمارين له . أما هم فقد كان ذلك يعنى بالنسبة لهم : وارتداء ثياب الأحد المنمقة ، حيث لا أثر لإنبعاجة الركبة أو الكوع ، ولا أية معالم من الظهر المحنى أو أية أجزاء أخرى من الجسم ، تلك التي تركت بصمتها (١٤٨) .

وفى شهر اغسطس ، قرر فنسان السفر إلى لاهاى ليعرض رسومه على كل من ترستيج Tersteeg ابن عمه ، والذى كان مديرا لقاعة العرض هناك ، وانطون موفى Anton Mauve ، ابن عمه الآخر ، وكان فنانا تشكيليا . وما كان للاثنين ان يغفلا ذلك التقدم الذى أحرزه فنسان ، بل لقد اندهش أنطون موفى من تلك الاتهامات العائلية التي درك أن لا أساس لها من الصحة . اذ أحس برهافه حسس فنسان واقترح عليه أن يبدأ في تجربة فن التصوير وسرعان ما قام عمه المقيم في برينسنهاج Prinsenhage بأول خطوة من اجل تنفيذ هذا الاقتراح اذ أهدى إليه عليه ألوان زيتيه قال عنها فنسان انها (كانت كافية لإنسان مبتدى )!

ومثلما عاش في أيام لندن ، بدا فنسان وكأنه يعمل حتى الثمالة ، وايقاع واحد فحسب هو الذى ينظم يومه ناقشا الاصرار في بوابة الزمن بالعمل المتواصل الدءوب الذى لا يخفت ايقاعه . لقد كان يعمل بلا توقف بحثا عن مفهوم حقيقى سخى يعبر عن الحياة . الا إن ثمت عاصفة مكتومة كانت تدوى في الأعماق ، رغم هذا الجهد الذى لا يكل ولا يهدا . . ظل يعمل طوال الصيف ، ولم يفصح عن موار الأعماق الا في الثالث من شهر نوفمبر عام ١٨٨١ ، وبلا مقدمات ، عندما كتب لأخيه قائلا : و اننى متيم بحب كى Kee إلى درجة الجنون ، ا وحتى ذلك التاريخ لم تكن المراسلات تكشف لنا غير عطش فنان في مرحلة النكوين ، فنان شديد التمسك بجذوره المولندية . يشرب الملح ويتنفسه ، لكنه زفر عطر الأعماق التي أحبت الإنسان وتضوعت بالأمل .

ان فنسان لم يخطر شقيقه بواقعة هيامه الا عندما خرج حبه من طى الكتهان ليصبح حديث العائلة . لقد تجرأ وأحب كيت ڤوس Kôte vos ، وكانوا يدلعونها باسم كى Kee ، وهى ابنه خاله ستريكر Striker ، التى فقدت زوجها وحضرت إلى إيتن لتمضية الصيف عند عمتها ، زوجة القس فان جوخ .

ووفقا لخطابات هذه الفترة ، التي ستكشف ـ فيها بعد ــ عن حقيقة هامة حدثت أثناءها . فإن فنسان عندما أفصح عن حبه لإبنة خاله ــ رفضته بكل ، العنف والجفاء قائلة : وأبدا . لا يمكن . ابدأ ي ا ظنا منها أن ماضيه ومستقبله سيان وانه لن يمكنها ابدا ان تبادله نفس الشعور .

ودفعة واحدة ، وجد فنسان نفسه فى قمة الصراع : أيخضع أم يكافح ؟ ودفعته الذكرى المريرة لجرح قديم ان يتبنى فكرة الصراع من اجل هذا الحب ـ سواء أمطر الجرح والبلبلة أم عانق البيارق المكحلة بالعطاء . . وعندثذ بدأ يرتطم بسلسلة لاجائية مما اطلق عليه و المصائب الصغرى للحياة اليومية ، تلك التي اذا ما أودعت رواية من الروايات ربما كانت مصدراً لتسلية قارئها . . لكن كم كانت مهينة لمن يعيشها .

ومع اصراره على رفض اليأس والأحزان ، ارتطم فنسان بذلك الجدار الخالد اللهى لا يتزحزح للأفكار المسبقة التى تتمسك بها الأسرة ، خاصة أولئك الذين تقدم منهم فى العمر ، والذين اعتبروا تلك الحادثة منتهية برحيل كى Kee ، وجاهدوا لكى يتبنى فنسان وجهة نظرهم . إلا أن بصيصا من الأمل تراءى امام عينيه عندما اخبره عمه سنت Cent سراً ، بأن لديه فرصة وحيدة للنجاح اذا ما استطاع أن يكون لنفسه موقفا اجتماعيا . لكن سرعان ما خبا هذا الشعاع الأخير لتغلفه الأحزان من جديد عندما أدرك فنسان أن الوصول إلى هذه القلوب المتبرجزة كان يعنى للأسف من جديد عندما أدرك فنسان أن الوصول إلى هذه القلوب المتبرجزة كان يعنى للأسف وأن يكسب على الأقل ألف فلورين فى السنة ه !

لكن رياح الحب العاصف تحدت كل السدود والاعتراضات ، وها هو فنسان يطلب بكل هدوء مهلة عاماً ، يقوم خلالها ، هو وابنة خاله . بتبادل الخطابات والزيارات المنتظمة ، وذلك على حد قوله « حتى نتمكن من ان يعرف كل منا الآخر بصورة أفضل ، وندرك بأنفسنا أنا مخلوقان لبعضنا بعضاً (١٥٣) . الا أن العائلة الكريمة لم تدرك ذلك التفكير المنطقى السابق لعصره ، وسرعان ما أدانته ، ملقية بقفاز التساؤل التقليدى الخالد الذى كانوا يطرحونه عليه : « مما سوف تعيش ؟ ! ، . وكان يجيب بكل هدوء : « من يجب يحيا ، ومن يحيا يعمل ، ومن يعمل يحصل على طعام » . . لقد كان مؤمناً بأن « الحب عاطفة ايجابية جياشة ، ومن عمق قوتها فإن كتانها يعد بمثابة عملية انتحار » (١٥٤) .

لقد قرر فنسان ألا يضحى بحبه على مذبح المألوف وان بحاول المستحيل بغية انقاذه . وعاد بشغف نبيل يأمل فى الحياة مبحرا فى الأمل ، رافضا أى شك فى وصوله للشطأن ، ليعيش فى يقين القلب وبشارة الغدرغم الغيوم ومنذ اعتبر الرفض

الذى تلقاه بمثابة وقطعة جليد صغيرة ، أمل فى أنها ستذوب إذ هو يضمها إلى دف، قلبه النابض بالصدق ، كل الصدق . نجد ان المسافة الصعبة القائمة من ثليج التقاليد والأفكار المسبقة والمفاهيم الزائفة التى تتلفع بها الأسرة ، والانسان الصادق الذى لا يملك شيئا أكثر من قلبه والتمسك بالنضال من أجل الحب . . ما كان لها أن تتلاشى وتذوب بهذا الدفء ، واكثر من ذلك ها هى الأسرة ترميه بصقيع عبارتها النازقة : وعملية جنون . مجنون ، وزاده الرفض عناداً ، ولم يجهض المنع صداه : وهى ولا أحد سواها ،

لقد دفعته طاقة هذا الحب العارم إلى تحمل ثقل الرفض المهين بكل فخر . . بينا شعاع من الضوء يرتفع من اعتصارات حصره الداكنة ليردد في الأعماق : « من يود الخضوع فليخضع . . اما اذا استطعت ان تؤمن بهذا الحب . فعليك بالايمان ع . . واستقر رأى فنسان العاشق المتيم على معايشة بحر عواطفه . . لم تجفل خطاه ، بل امتلأ بفكرة واحدة تمسك وآمن بها : « هى ، ولا أحد سواها » . . لقد توحد بها وسحره الضوء المنبعث من لوحة وجودها اشعاعات تتلألأ في عينيه وتنير طريقه ليجتاز آلام اللحظة اذ يكتشف المجهول ، وشعر بأنه يتحول إلى انسان آخر ، يرى كل شيء بعين جديدة فتزيد الاحلام سطوعا لتضاعف قوته للعمل ، اذ اكتسب مزيداً من المعرفة نما يغمر قلبه الانساني من حب ، وتجاوز كل الأحزان ليشعر بالمرح والإقدام بملآن حياته ، ووجد في نفسه طاقة خلق لم يعرفها من قبل . وتسللت هذه الحيويه الغائقة في كتاباته التي كانت تعكس بآمانه ذلك الخط الصاعد من ضج وما يعترى روحه من حماس وحيوية .

وفى مواجهة كل هذا الحب العارم ، ها هو تيو و رجل الأعمال الذى تنهشه حمى التجارة ، على حد وصف فنسان له ، يكتب إليه محذراً : و احذر من الانسياق وراء أحلام وتصورات كبرى قبل أن تتأكد من أن جهودك ليست عديمة الفائدة ، (١٥٦) . واقترح عليه و ان يحتفظ لنفسه بباب خلفى للانسحاب من هذا المأزق ، ا وهى نصيحة تكشف عن العقلية التجارية لتيو الذى يبدو وكأنه اعتاد اختيار الكفة الرابحة أيا كانت الظروف !

وشعر فنسان بالاهانة والغضب ، ورفض أية بوادر للياس رغم ــ أو ربما ــ بفضل ذلك الرفض المرير الذى ينفذ إلى الاعباق مثل ثلوج الشتاء وظل فنسان يأمل ويبتسم بل كم ود ان يصيح بفرحة . .

وتعكس مراسلات فنسان في هذه الحقبة تطور نفسيته العاشقة ، باسلوب يعبر عن مرح الشباب المتاجع بالعاطفة . بل ها نحن نراه للمرة الأولى يتحدث عن فشله العاطفى القديم الذي عاشه في مدينة لندن . واذ عرف من قبل معنى الأبواق العاتية التي تقاذفته بين الحياة والموت بعواطف حب مرفوض مزقت شراعه ، فقد ادرك فنسان كيف ان هذه القوى الجديدة الغامرة لمشاعر الحب قد أضفت عليه نورا لا نهائيا . . فترك نفسه ينساب بعاطفة القلب ، بينها ذهنه يقتحم عالمه عاولا ادراك الفرق بين هذا الحب الكامل وتجربته الأولى الفاشلة . وهنا راح يجلى افكار الكلهات اذ يقول : ولقد كانت عواطفى الجسديه شديدة الضعف ، ربما رجع ذلك الى سنوات البؤس الشديد والعناء في العمل . وعلى العكس من ذلك . كانت عواطفى الثقافية قوية متعددة ، ولم اكن أبحث الا عن العطاء دونما اى مقابل أو الموافق على قبول أي شيء . لقد كان موقفا غبياً ، غير معقول ، خاطئا ومبالغا فيه ، متعاليا ومتهوراً ، ففي مسائل الحب يجب الا تعطى فحسب ، وانما تتلقى أيضا . أوهى بعبارة اخرى ، يجب الا تأخذ فحسب ، وانما ان تعطى أيضا » (١٥٧) .

واذا ما كان قد اخطأ فيها مضى عندما أعطى كل شىء ولم يطلب أو يأخذ شيئاً ، اذا ما كان قد غض الطرف عن فتاة رفضته لتتزوج بغيره ، و لقد تلاشيت من أمامها لاترك لها الطريق وان ظللت وفيا لها فى الذاكرة ، فإن فنسان فى هذه المرة غير مستعد على الإطلاق للتضحية بحبه الكبير ، لقد سافر إلى امستردام فى محاولة جديدة لرؤية ابنة خاله .

ومرة ثانية اعترضت الاسرة طريقه: وفرضوا عليه و ان يقطع الصلة بها نهائيا » ! لقد صعق فنسان إذ زلزلوه من جديد واوغل في الصمت . لقد ظل صامتا طوال اليوم دون ان يفتح فمه ببنت شفه . وثار . فضول والديه من هذا التصرف . وفي المساء سألاه عن السبب في ذلك الصمت المطبق ، فأجابها فنسان : وذلك ما سيكون عليه الوضع ان لم تكن هناك أيه صله بيننا . لكن ، من حسن الحظ ان الصلة بيننا ستظل قائمة ولن تقطع أبداً لكنني أرجوكها ان تفهها معنى تعبير كها وان وقطع الصلة بها نهائية ، (١٥٨) .

وثار الأب من الغضب صائحا: وأيها المجنون... انك تحطم كل الصلات انعائلية .. انك عديم الإحساس، ، ثم رجاه ان يخرج من البيت وهو يكيل له مختلف انواع السباب!! وقد يقبل البعض مثل هذا التصرف ــ جدلا ــ من أب

يعيش فى زمن تعد فيه الطاعة العمياء هى الشيء الوحيد المسموح به . الامر الذى ابتلع معه فنسان هذه الاهانه وحاول ان يفسر لوالديه معنى اهانة الطرد هذه ، وبدأ يناقشها ويقول لهما بعض الحقائق عن موقفها ولم هما مخطئان فى فهم هذا الحب وكيف ان قلوبها قد تحجرت ولم يعد فى وسعها تقبل وجهة نظر اكثر عطفاً واكثر انسانيه وحبا . وهنا يضيف فنسان قائلا : و باختصار ان وجهة نظرهما هذه محدودة ، ضيقة الأفق ، وفى رأيى أن تعبير و الله اليصبح كلمه قبيحة اذا ما أبعدنا عنه كل الحب واذا ما حاد الانسان عن عاطفة القلب ) ( ١٥٨ ) .

لقد كان وراء هذا الموقف في الواقع ، ما كان يرسله فنسان من خطابات متواصلة إى ابنة خاله . مما اثار غضب العائلة التي واجهته بالعاصفة ، لكنه أدار ظهره لكل شيء وواجه بالصمت كل هذه الخلافات ، وبدأ يرسم من جديد وقد شعر بشيء من الراحة بعد أن أفرغ كل ما في قلبه المشجون . لكن أني للشجن النازف من جرح القلب ان ينتهى ، ورغم كل شيء فقد اراد أن يمسح عن جبينه الأحزان بالعمل الذي استغرقه بالفعل منذ اوائل شهر مارس وبدأ يفهم كيفيه التعبير عن الموديل الذي يرسمه بشكل أفضل ، وأخذت خطاه تتقدم باستمرار ، إلا أن ما كان ياسف له اعتقاده بأن رسومه و ما زال بها شيء من الجمود والجفاف ، الأمر الذي كان يعزوه إليها ، إلى كي Kee ، التي كان بحاجة إليها ، إلى حبها ، إلى تواجدها بجواره لكي تكتسب خطوطه تلك الانسيابية التي كان يتوق إليها .

وفى نفس هذه الحقبة المليئة بالانفعالات . كان فنسان يكافح على المستوى الفنى أيضا ، مع زميل قد تعرف إليه فى بروكسل ، ويدعى فان رابار uan Roppast ، والذى كان قد قال لفنسان انه يفضل كل ما هو اكاديمى . واذ سبق لفنسان ان عاش عن قرب وعرف بؤس الاكاديميه الدينية الذى عانى منه . أخذ يهاجم هذا و الوحش الأسود » ذا الوجهين ، الذى قسم التعبير الفنى إلى نوعين : و المدرسة الفنيه » وو الواقع الاكاديمى » . وكم جاهد فنسان ليلفت نظر صديقه إلى الطبيعة الحية ، إلى واقع الحياة الانسانى العميق الجيال . .

وامتزج الرسم بالحب بالحياة في ايقاع واحد متناغم في كيان فنسان الذي كان فخورا بأنه يحيا مشاعره الصادقة ، فخورا بأن يكون مؤمنا بمبادثه ، فخورا بتبني وجهة نظر عصرية من اجل تحرير المرأة من الافكار للسبقة الاجتهاعية التي تكتنفها وتكبلها ، فخورا بمحاولة وقوفه كجندي في صفوف جيله ليواصل مسيرته دون ان يلتفت إلى الوراء ، محتفظا ومتمسكا بالأمل بدلا من الذكريات . واسرع الخطى مزوداً بقراره الصلب متسائلا : « اين تود الانطلاق ؟ » وتجيبه الأعياق : « في عرض البحر ! » . . اما عن مذهبه فيقول : « أيها الرجال ، لنكرس روحنا وهدفنا ، لنعمل بقلوبنا ولنعشق ما نحبه » (R. O)

وكالمعتاد دوما ، حاول فنسان الالتحام بالفكر التقدمى لجيله ، حاول الاستجابة لأولئك الرواد المعاصرين من أمثال ميشليه وبيتشر ستو Beeurer . Stoow ، وجورج إيليوت الذين كانوا ينادون في تضامن واحد : أيها الانسان ، أينها كنت ساعدنا على بناء شيء حقيقي صادق ودائم .

وكان فنسان مدركا لذلك الصراع الدائر لا في أعياقه فحسب ، وانما على المستوى الاجتماعي لحضارة بأسرها ، وانعكست عليه أصداء هذه التقلبات وساهم في نفس الوقت في ذلك الصراع الدائر بين القديم والجديد ، التقليدي والمتفرد ، الشائع والمبتكر ، ثم راح بحث أخاه تيو على ان يكون اكثر أمانه لإيقاع العصر . حتى وان ادى ذلك إلى عدم فهم أهله له ، اولئك الذين يدفعونه إلى الخضوع الكامل وهو ما كان فنسان بحاربه منذ دراسته النظرية ، وخاصة ذلك الخضوع الذي كان بحمل في طياته أغصان الندم . « انه أحد الاثقال القاتله التي يحاول بعض علماء اللاهوت فرضها على اعناق الرجال ، لكنهم هم أنفسهم لا يقربونها ولا حتى بطرف من اصبعهم ه (R. O)

لقد كان عدم التوافق بين النظريات والحياة العملية هو الذي يمثل الخلاف الأساسي بين الأب ، المحدود الأفق ، وابنه الثائر الذي يناطح سيدا يقوم بمهامه الدينية بانضباط النابعين الذين يؤدون وظيفة جامدة ، أو على حد قول بيروشو: وأب لا يمتلك أية مواهب ثقافية متوهجة أو حتى طلاقة في الحديث . اذ كانت مواعظه ثقيله مملة بلا اى دافع ، باردة وكأنها بعض التارين اللغوية ، مجرد تنويعات تقليدية على الحان مستهلكة . لقد كان يقوم بمهامه بالطبع ، بشكل جاد أمين ، لكنه خال من أية عاطفه . ما كان ايمانه ابدأ منقد الحيوية . ورغم صدقه العميق فقد كان مجردا من أية عاطفه حقيقية ، (فنسان فان جوخ صفحة ١٠)

لقد احتدم الصراع بين هذا القس السلفى النزعة والانسان المطرود من رحمة المجال الدينى المتعسف لأنه جرؤ وانتقد بشجاعة كل الخلافات المذهبية ، وطالب بالوحدة بين المسيحيين لصالح الانسانية لا من أجل بضعة أفراد ، واتخذ من المسيح

مثله الأعلى الذي راح يحتذي به ، من ثم فقد كانت الهاوية سحيقة !!

لقد نشأ هذا السد بين الاب وابنه الكبير منذ رفض فنسان استكهال دراسته الدينية في امستردام ، ثم ازداد السد ارتفاعاً عندما رفض فنسان ان و ينساق لكل ما كان القسس يطلبونه منه » ( ١٦١ ) . لقد كان يثور غضبا أو يكظم غيظه احيانا عندما يشاهد ابنه ممسكا بين يديه بكتاب فرنسي . من قبيل اعهال هوجو أو ميشليه ، لقد كان يتصور فورا بعض مشعلي الحرائق والقتلي ، وينساق وراء تخيل عالم بأسره من الأعهال الشائنة التي يظن أن ابنه يقترفها واكثر من ذلك ، لم يكن باستطاعته ان يتصور ان ابنه ، ابنه هو ، ليس صورة طبق الأصل منه ، بل والادهي من ذلك ، ها هو الأبن المتخبط يتجرأ ليرى ويفهم ما ليس مسموحا به للأحياء . . لم يكن بوسع فان جوخ الأب ان يدرك كيف يمكن لفنان ان يجهد نفسه ويبحث عن وسيلة تعبير تعتمد على الاحساس وتكون ذات طابع شخصي ويزيد على ذلك كله ان يشعر بقلبه ويجيا وفقا لما يمليه عليه ...

والمدهش ان فنسان بدلا من ان يعتبر والده عدواً له ، كان يجاول مساعدته بأن يجعله يفهم تفكيره ومراميه ، وما اكثر ما كان يحدثه عن خواطره ومعلوماته ومعرفته حتى يمكنه من استشفاف معنى النص المقدس ليتمكن الاب من كتابة مواعظه بشكل أفضل . الا أنه للأسف و لم يكن هناك كافر اعتبر من القسس ولا أكثر منهم التصاقا بالارض والشكليات ، ( ١٦١ ) .

لقد اضيف إلى سوء التفاهم القديم هذا ، ذلك الخلاف الجديد الناجم عن مفهوم فنسان للحب الذى كونه من خلال الأفكار الجديدة التى بدأت تبزغ برؤاها ، ولقد سبق له وقرأ بالفعل ما كتبه ميشليه عن الحب ( ١٨٥٩ ) إلى جانب ما كتبه من اعهال اخرى تتميز بالطابع العملى والواضح والتى يمكن تطبيقها فى الحياة العصرية الحامية الوطيس التى تحيط به . ولقد رأى فنسان ان الأنجيل كان يتضمن نفس هذه الافكار فى براعمها الاولى ، الأمر الذى يوضحه قائلا : « ان ميشليه يقول بصوت عال ما يهمس به الإنجيل فى الاذن بصوت خافت ، اذ يتضمن نفس المعطيات فى بدورها الاولى ، ( ١٦١ ) .

واذا ما تجرأ فنسان على ان يرى فى واحد من الاعهال الادبية لواحد من اولئك الأدميين الزائلين ما هو اكثر نفعا فيها يتعلق بالحياة العصرية ، فإن ذلك لم يقلل بحال من ايمانه العميق بالله ، ولا بتعلقه بالإنجيل الذى كان يدرك معانيه ويفسرها

بطريقة تختلف عن تلك التفسيرات الاكاديمية الجاملة . ومن هنا كان يرى نوعا من الامتزاج بين الله والحب في أسمى معانى الكلمة ـ الامر الذي يتفق ورؤيته الإمتزاجية بين الفنون والآداب . وها هو يقول في نفس الخطاب (١٦١) : « أننى مقتنع تماما بضرورة الايمان بالله اذا ما اراد الانسان ان يحب . ولا اعنى هنا ضرورة الايمان بالله اذا ما اراد الانسان ان يحب . ولا اعنى هنا ضرورة الايمان بكل ما يضيفه القسس في مواعظهم بكل ما يتمخض عنه تفكيرهم الملتوى وملاعهم المقطبة في الياقات العالية . ان لا أقصد ذلك ابدا . إذاً لابد للانسان من أجل الإيمان بالله ان يشعر بأن الله موجود ، وانه ليس ميتا محنطا ، وانما هو إله حى يدفعنا إلى مزيد من الحب والتسامح . هذه هي فكرتي ١ .

لقد كان الحب ، بالنسبه لفنسان ، وبالمعنى الفلسفى للكلمة المساهمة فى الحركة الابداعيه لله . فحب الناس الذين هم أساس الخليقة ، انما يعنى الاسهام فى تلك القوى الشامخة للحب الخلاق وتبجيلها . .

وفی شهر دیسمبر ، سافر فنسان ثانیه إلى امستردام بهدف مزدوج : محاولة رؤیة کی Kee ابنة خاله ، وبذل الجهد من جدید مع أهلها ، ثم الذهاب إلى لاهای لعرض رسوماته علی ابن عمه الفنان موفی Mauve .

وخلال هذه الرحلة ذهب فنسان ثلاث مرات إلى منزل خاله ستريكر ، وكم دهش لعدم وجود كى . لقد كانوا يزعمون له فى كل يوم بأنها غادرت المنزل لتوها ! ولم تكن أصداء رفضها البارد د ابدا ، لا يمكن أبداً ، قد نجحت بعد فى ان تثنى فنسان عن رأيه : لقد عاش الأمل وان كان قد بدأ يشعر بالقلق ويصارع تزايد حصر نفسى لم يعد يحتمله ، اذ تلتزم كى ذلك الصمت الممض حتى انها لم ترد ابدا على اى من خطاباته . وفى آخر زيارة لبيت خاله لمح طبقا ثالثا فوق المائدة ! فأدرك ان خاله وزوجته يفرضان عليه ارادتها ، فشعر بالاهانة واحتدم معها فى حوار أدى إلى أن ترتفع الاصوات . . . .

وفى ذلك الصباح كان القس يستريكر يعظ حول موضوع : و احذر خميرة المرائين ، وهو تحذير ضد التمسك الشديد بالشكليات والمظاهر الخارجية بلا اى احساس دينى نابع من القلب ، لكن ها هو يعارض زواج إبنته من فنسان بسبب مظهره غير المهندم ووضعه المالى المتواضع ! ولقد ثار وارغى وأزبد من تمسك فنسان جذا الحب فصاح القس المحترم في وجهه قائلا : وعندما تقترب من هذا المنزل فإن

كى Kee تهرب منه ؛ أم أضاف بحدة واصفا حب فنسان بأنه (مقزز) و رجيان ؛ إ

وكم شعور الاهانه جارفا لفنسان وهو يرى قلة ابمانهم وعدم فهمهم لحبه ، وكيف ان هذا التعنت يرمى إلى انتزاع هذا الحب من روحه ، مما يعنى الموت . . وفى لحظه يأس جد شديدة مدفوعة بالجراة البالغة والتحدى السافر لإنسان يفقد أعز ما لديه ، اندفع فنسان ناحية المصباح المشتعل ووضع يده على لهيبه قائلا : « اسمح لى جرؤيتها بقدر تحمل يدى لهذا اللهب » (١٩٣) .

وأطفأ القس المصباح مرعوبا صائحا: دأيها الاحمق، انك مجنون لابد من حبسه، ، ثم أضاف بلهجة حاسمة: دلن تراها أبداً ». وكان لأقواله وقع الصاعقة على فنسان الذي أحس بروحه تميد.. اذ يغتالون حبه بلا رحمة ..

وساد فراغ ساحق فى قلبه . . فراغ الهزيمة المطلقة . . وهو الذى يؤمن بالله ، ولم يشك ابدا فى قوة الحب ، لقد وجد نفسه وكأنه يحتضر ، واخذ يهمهم بتلك الكلمات التى يفنيها الصدى فى ذروة الآلام : (يا إلهى ، لِمَ تركتنى ؟ ) ( ١٩٣ ) . ولم يعد يفهم شيئا . .

ترى هل أخطأ؟ ولم يعد يسمع شيئا . . مجرد فراغ . . عيونه الزائغة محملة بالعذاب . . والحزن القاتل ناهزا في الضلوع . . فراغ تتردد في اصدائه صرخة مكتومة مدوية : ( يا إلهي ! ألا يوجد الله إذن !! ) .

وطوال ثلاثة أيام هام فنسان وكأنه روح فى الجحيم . . يعانى ساقيه من قهر لا يحتمل ، لقد جعلته الهزيمة يتأرجح بين مصيرين ؛ الموت القابع فى الروح والجسد ، والحياة بلا معنى أو أمل . . وكلاهما مدخل للموت . . لكن مثلها حدث له فى لندن ، وفى بوريناج ، وفى كل لحظة حاسمة من لحظات حياته كانت هناك ومضة ، لحظة عليه ان يحسم فيها التخلى التام أو الاستمرار . . وجهان يلتحهان هذه المرة للموت . . والعالم محتقن بالنفايات والعواصف ، وافكار الانتحار تراود القامة التي تسوخ بقاع سحيق . . لقد فكر فى ان يضع حداً لهذه الحياة التي لاتكف عن نفيه فى طرقات الهجير والشوك . . وفى هذا التأرجح للرير ، اذ بكلهات الأب الفنان ميليه تحوم حوله لكى يتعلق بها مردداً فى ايقاع حى : « لقد رأيت دوما ان الانتحار تصرف رجل غير شريف » .

ولأنه كان واثقا من نفسه ومن صدقه وأمانته ، فإن فنسان لم ينزلق إلى فكرة الانتحار ولم يفكر حتى فى ذلك العلاج الذى كان ديكتر ينصح به . ومع ذلك ، فإن الفراغ المبهم والبؤس الداخلى جعله يدرك لم يلقى بعض الناس بأنفسهم فى الماء ضعفا . لقد رفض فنسان الهرب من الحياة . . وقرر فى اللحظة الحاسمة ان يواجه مصيره بشجاعة . واعتبر العمل علاجا حاسها لألآمه . . وفى صمت شديد ، واصل سيره حتى لاهاى والطرقات تغيب فى غربته ، وشعور غلاب لا يفارقه بأنه ارتكن و طويلا على حائط كنيسة بارد ، قاس ، تم بياضه بالجير ، ( ١٦٤ ) واقشعرت عظامه من ذلك الحائط ، وهو ينظر إلى ذلك الباب الذى اغلق أو الذى أغلقوه فى وجهه بعنف ، وهو يضيف فى صمت : وانها عظام ونخاع روحى ، . .

طوى فنسان ذلك الفشل الجديد الذى فرضوه عليه وأضافوه إلى القائمة الطويلة التي أثقلته . وحمل صليبه وتيجان الشوك ومضى يقلوم الانحناء . لقد ادرك من الطريقة الجارحة المهينة التي طرد بها . انه لم يعد بوسعه ان يصر على موقفه . . واذ ضاع كل شيء في نظره ، ولم يعد يتحمل البرد الحارق لهذا الفراغ الذى انفلتت الوحدة المريرة من بين طياته ، راح يبحث عن لا نقيض – الحب » قائلا : « ان ذلك الحائط اللعين لشديد البرودة ، اننى بحاجة إلى امرأة ، لا يمكنني ولا أريد ان أحيا بلا امرأة . اننى مجرد رجل ، رجل ملىء بالمشاعر والانفعالات . لابد لى من امرأة والا سأتجمد من الزمهرير . سأتحجر وسأترك نفسى أهوى ارضا » ( ١٦٤ ) . ويعد هذا الخطاب من أشد ما كتبه حزناً وألماً في هذه الحقبة ، وهو في ذاته رد منطقى لكل أولئك الذين اتهموه بأنه تخلى عن حبه بمنتهى البساطة !!

واذا ما كان قد استطاع عند اول احباط عاطفى ان يلجأ إلى الدين ، فإن فنسان حاليا كان على دراية كافية بخبايا هذا المجال والعاملين به ، ومن ثم اخذ يلملم جرحه النازف وراح يبحث ، هذه المرة ، عن ملجأ يعوض به ذلك الحرمان ويعلن التحدى عند من أطلق عليهن : « مثيلاته » المنبوذات من المجتمع !

وبالفعل ، سرعان ما التقى فنسان بما اطلق عليه « نقيض – الحب » . . فبعد ثلاثه ايام من الهيام فى الطرقات وصل إلى لاهاى . ووجد نفسه فى مواجهة امرأة كبيرة الحجم هونا ، متينه البنية ، وان اعتراها الذبول . . وللوهلة الاولى رأى انها تشبه أحد أشكال الفنان شاردان Chardin . واحدة من تلك الاشكال المثقلة بالهموم والتى أساءت الحياة معاملتها . . فنظر إلى يديها ورأى انها ليستا يدى

سيدة ، ليستامثل يدى كى Kee ، وانما هما يدان لإمرأة تعمل ، بل هى مجهدة من العمل ، ولم يفته ان يكتب عنها فى نفس ذلك الخطاب الذى يقطر بالحزن قائلا : ولم تكن اول مرة اترك فيها نفسى لمثل هذا الضياع العاطفى . . وهذا النوع من الحب ، مع ذلك النوع من النساء اللائى يدينهن القسس ويلعنونهن ويكيلون لهن الشتائم من أعلى منابرهم . اما أنا ، فلا العنهن ، ولا ادينهن ، ولا احتقرهن » . .

وعلى حد قول فنسان ، لم تكن هذه أول مرة يذهب فيها إلى هذا النمط من النساء اللائى يصب عليهن القسس جام غضبهم ، ذلك ان ميله اليهن انما يرجع إلى ايام اول احباط عاطفى صادفه . وكم من مرة كان يهيم فى الشوارع وحيدا ، مريضا ، يصارعه البؤس والفقر ، وبلا نقود . فكان يتابع بنظراته هؤلاء . الرجال الذين كان بوسعهم ان يمنحوا انفسهم بذخ الخروج مع و تلكم النسوة » . . كان يخيل إليه ان هؤلاء البائسات انما هن اخواته من الناحية الاجتماعية ، فقد تشابهت تجاربهم فى الحياة : انهن منبوذات ، مطرودات من المجتمع بلا رحمه . وكم من مرة رفع عينيه فى تعاطف وتبجيل واحترام ناحيه وجه من وجوههن ، وجه نصف بال ، وضع عينيه فى تعاطف وتبجيل واحترام ناحيه وجه من وجوههن ، وجه نصف بال ، ذابل ، لكنك تستطيع ان تقرأ فيه بوضوح مرير : « ان الحياة قد أذلتنى » ! ولم يكن بوسعه ان يقترب من اى منهن أو ان يعاونها أويواسيها .

وفى هذه المسيرة الجنائزية الكئيبة ، كانت صورة كى ، كيان حبه النازف وكينونته الضائعة ، تطارده كفكرة متسلطة الثبات . لكنه مع ذلك ، لم يكن بوسعه دفن حيويته وطاقة ذهنه بسببها . انه يجبها ، لكنه لا بريد ولا يمكنه ان يندبها ويفقد عقله بسبب رفضها . واذ رأى انه لم يعد لديه فى هذه الدنيا سوى فنه . رفض ان يكرس نفسه للإحباط . لذلك قرر الاحتفاظ بشيء من الحيوية والدفء الآدمى ، ان يحتفظ بذهن رائق وجسم سليم حتى يمكنه ان يعمل . . لقد كان الحب هو النور الدافع ليرى فى ظلام أيامه ، لكن ها هو شعاعه الأخير يأفل ، ولم يعد أمامه سوى النقيض . .

لقد كان فنسان يرى \_ على عكس ما علمه القسس ايام الدراسة : و ان الحياة دون معايشة للحب هي التي تمثل إثها ، وهي الخطيئة ، واذا ما كان هناك ما يندم عليه ، فهو على حد قوله : و انني قد انجذبت لبعض الوقت لكل هذه التجريديات الدينية والتصوفية ، التي أدت بي إلى الانطواء الشديد ، لكنني عدت أدراجي شيئا فشيئا . ان المرء ليجد نفسه اكثر مرحا حينها يستيقظ الصبح يشعر انه وحيد ، ويلحظ في الضوء الخافت وعلى مقربة منه كيان آدمي آخر ، (١٦٤) .

ولأن ايمانه بالحياة كان عميقا ، ايمان بشيء حقيقى ، لم يكن امامه الأ ان يودع تلك التجريديات الماضية . ورغمها ، فقد كان على اتم استعداد لينتظر ابنة خالة على أمل من ان تعدل عن رفضها ، لكن اذ مد يديه للحب الذي جفل من بين أنامله ، اذ تمسكت كي Kee بتلك المبادىء البالية ، لم يجد أمامه من سببل للنسيان الا ان يعمل ويحافظ على البقيه الباقية من صمود ، ذلك الصمود الذي وجد بغيته في و نقيض \_ الحب ، حيث الحاجة إلى لمسة حنان حرمه الواقع منها . وها هو يقول : ولقد فعلت ما فعلته لحاجتي إلى العطف ومن قبيل سلامة الصحة » .

وبمغادرته أمستردام ، قال فنسان لنفسه انه لن ينقد نفسه فى الاحزان بحال ، ولن يسمح لأى شيء أن يجيد به عن عمله . خاصة فى الوقت الذى يجب ان يثبت فيه واقفا . وفى الطريق ، كم من مرة اقشعر وهو يتذكر كى ، التى تهلك نفسها بالتمسك بماضيها وبمبادىء بالية ، أهو القدر ؟ ! ورغم كل شيء ها هو بريق خافت يلوح فى الأفق ، رعدة أمل تلمع فى عينى فنسان الذى راح يأمل فى صمت حدوث رد فعل يتغير معه الحال لدى ابنة خاله . .

وها هو المصور انطون موق ، عندما يتأمل رسوماته المعروضه امامه لم يتمكن من اخفاء اعجابه ، واثنى على كثير من مزاياه ، ثم طلب منه ان يبدأ في العمل ، وساعده ببعض النصائح ، وشرح له كيف يقوم ببعض الأشياء تقنيا ، وكلها ملاحظات لم يقلها له أحد من قبل . وبعد قرابة الشهر ، كان فنسان قد غرق في المبالغ التي اضطر اليها ليتزود بالمعدات الفنية . وثار الأب لاعنا هذه النقود التي يبددها \_ من وجهة نظره \_ بلا طائل أو سبب ومعنى ، في نفس الوقت الذي وقف فيه موقى يتأمل ذلك التقدم الذي احرزه فنسان في سرعة لافته للنظر ، وراح يؤكد له ان «شمسه تشرق»!

وبعد عودته إلى إيتن ، أرسل له ابن عمه الفنان موفى صندوقا صغيرا به بعض المعدات الخاصة بالتصوير الزيتى . وكم كانت سعلاة فنسان أن تتاح له امكانية العمل من جديد ، وكان منذ عام تقريبا يرسم الاشكال والاشجار ، تلك التى يجد بينها بعضاً من أوجه الشبه في الخطوط أو البناء أو الطابع . لكن هذه المرة قد قرر ان يبدأ فن التصوير بالفعل . لقد كتب قائلا : « فن التصوير هو بداية طريقى . . انه مهنتى » . . وكان ذلك قرابه نهاية شهر ديسمبر عام ١٨٨١ .

لقد آن الأوان ليحول مجرى أحلامه ناحية المجال الفنى ، على أمل ان يصل ذات يوم إلى التعبير وعن جزء من روعة الطبيعة » ، لقد شعر فنسان بتطور جذرى في كيانه وعلى النقيص مما كان يشعر به اثناء فتره اقامته فى لندن ، عند بداية تعلقه بأرسول لواييه ، حبه الأول ، عندما كتب قائلا انه يشعر بتحوله إلى انسان متكامل ، فقد راح يكتب عن هذا التطور الجديد وبأنه يشعر بأنه و يتحول إلى هولندى من جديد . . . هولندى من قمة رأسه إلى أخص قدميه ، سواء من ناحية الطبع أو من ناحية الطريقة التي يرسم ويصور بها » (١٦٥) . . نعم ، لقد بدأ بالفعل يتحول من الاستقراء الفسيح إلى التركيز والتكثيف . .

اما القس فإن جوخ ، فمنذ عودة ابنه فنسان ، وهو لا يحتمل وجوده لقد تشاجرا في ليله عيد الميلاد . وكان السبب الظاهرى رفض فنسان ان يذهب إلى الكنيسة ولو من قبيل المجاملة ، مثلها فعل عند حضوره إلى إيتن . لكنه الآن تمثل فشله دفعة واحدة ، واصبح يرى قيود الدين الذى اهلك نفسه فيه لحقبة طويلة كانت مجرد و قيود بشعة ، فكان يتجنبها بكل ما في وسعه وكأنها مصيبة . لكن ثمة سبب حقيقي \_ في ظننا \_ الا هو تمسكه بذلك الحب الذى كانت العائله كلها تدينه ، وكان يرى انه آخر خيطيربطه بقيم الدين حيث ان و الله محبة ، و و أحبوا اعداءكم ، لكن ها هم القسس يبدلون قيم الله . . ويصوغون انجيل الكراهية والشكليات . . واحتدم النقاش بين الأب وابنه وازداد ذهول القس عندما رأى فنسان يرفض التراجع امام غضبه ، وثار الاب ثورة عارمة لعدم طاعة ابنه واحتد للدرجة التي طرد معها ابنه من البيت !

لقد طرده بقسوة وبحدة بالغة حتى ان فنسان لم يجد أى تبرير سواء لتصرف ابيه ، أو بقائه هو نفسه بهذا المنزل . وفى السابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٨١ عادر فنسان منزل والده واتجه إلى لاهاى . . خرج فنسان خاويا الا من الأمال والصدق ، مطرودا ، ليسلك طريقا مليئا بالعقبات ، فى فترة من أحلك فترات عمره . . وأحسن بأنه يغرق ، فحاول التعلق بحلقة النجاه مرددا صيحة السيح فى ذروة الآلام ، وراح يتمتم : ولن اتخلى عن صراعى ، لن اتنازل عن هدفى \_ سأحاول الانتصار والصعود إلى السطح ثانية ، (١٦٦) .

وكيف كان له ان يكف عن صراع من أجل تحقيق ذاته بعدما تمرس بتحدى الحياة وانتفض من غبارها محملا بالإصرار .

### لاهای (۲۸ دیسمبر ۱۸۸۱ - سیتمبر ۱۸۸۳):

لقد استطاع فنسان الحصول على اول مرسم له فى يناير ١٨٨٢ . بمساعدة ابن عمه الفنان انطون موفى . فاستأجر استديو مكونا من غرفة ومدخل ، واشترى بعض الأثاث ذى النمط العسكرى ، هى بضعة كراسى مطبخ مصنوعة من القش ومائدة صغيرة ، وحاشيه لينام عليها . ومرة اخرى راح ينمى قدراته ويطلق مشاعره الجياشة فى الرسم و مثل البحار فى حبه للبحر » . . كان يبحر فى العمل طوال اليوم ، يعمل الاسكتشات فى المطاعم الحقيرة ، وفى قاعة انتظار الدرجة الثالثه ، أو فى الاسواق والمستشفيات أو التلال . . أى فى كل تلك الاماكن التى كان يشعر بالارتياح إلى جوها غير المتعالى ويعمل فى ظلالها براحة نفس وحبور ، دون ان يسخر منه أحد أو يتهمه بالجنون !

وابدا لم يتخل عن نهجه الذي كان يتمثل في بوريناج ، ذلك ان فنسان لكى يتمكن من الحوار مع عمال المناجم هناك عاش وكأنه واحد منهم ، وها هو في لاهاى يعتبر نفسه من أفراد الطبقة العامله حتى يتمكن من رسمهم وحتى يتمكن من الانتباه و إلى ما يستحق المشاهدة ، لكن العين عادة ما لاتراه ، وفي هذا الابحار من العمل المتدفق الايقاع ، كان فنسان يحاول تحويل شراع مشاعره بعيدا عن كي Kee .

#### وانسابت دمعة أخيرة . .

أبي فنسان الا ان يمسح عينيه من الحزن المختبىء فيهها ، وضفر العمل بالغفران لأهله ، وكيف لا وقلبه \_ ابدا لم يعرف الضغينة . وها هو « ذلك المسيحى الذى لم ينطق ابدا بكلمة حقد ، على حد قول فرانك الجو Frank elgar ( فان جوخ صفحه ١٤٢ ) قد أخبر أهله بأنه استأجر مرسها وتمنى لها اطيب الامنيات بمناسبة العام الجديد ، معربا عن آماله بألا يتشاجر ثانية أبداً كها كتب لأخيه يخبره بكل ما حدث . فرد عليه تيو قائلا : « حسنا فعلت بانتقالك لتقيم ) في لاهاى ، وسوف احاول مساعدتك في حدود امكانياتى ، الى ان تنجع في كسب حياتك . الا ان ما لا اقرك فيه فهى الطريقة التي غادرت بها أبي وأمى . . اننى لا افهمك ، ( ١٦٩ ) .

وفى خطاب من أروع ماكتب، يتميز بأسلوب حاد، عصبى اللهجة الم

وتحت وطأة الظروف وتضافر ضغوطها وملابسات عدم الفهم المستمر ، إلى جانب بؤس الحالة التي يعيش فيها فنسان ، حيث حامل الرسم المتهالك ، واللوح الخشبي النحيل الذي يرتكز عليه ليرسم بينها استدار كالبرميل من شدة نحافته ، وثيابه البالية ، أدى ذلك إلى الشعور بأنه يتهالك . وتداخل مع الأمر كله ثقل الهموم المادية والقلق النابع من معاناة . . وها هو يتخبط في جدران غرفته لثلاثه أيام عاني خلالها من « الصداع النصفي وآلام حادة في الأسنان » بصورة متواصلة . مما أدى إلى تخليه عن فرشاته فأحس من جديد بالضياع لكن مع شعوره ذلك بأنه يسقط في بئر مظلمة بلا قاع ، بدأ يدرك أي تدهور تمر به حالته الصحية ـ وكان أنئذ في الثامنة والعشرين من عمره !

ورغم تحمله الذي فاق كل حد . . وصموده امام كل تعبيرات النكران والمهانة والمعاناة والأسى ، ها هو ترستيج ابن عمه في تضامن مع افراد العائلة ، منكراً امكانات نبوغه ، ناصحا اياه بأن يبحث لنفسه عن عمل ليعول نفسه ، ثم يضيف قائلا : « اننى مقتنع تماما أنك لست فنانا ، ولا شك في هذا ، لأنك بدأت متأخرا جدا » ( ١٧٩ ) . وبالفعل كان ترستيج يرى أن رسومات فنسان وكأنها « حقن من أفيون » يعطيها لنفسه بانتظام ، ونصحه اذا ما أصر على المواصلة \_ جدلا \_ أن يعيش بأقل قدر من الموديلات ، نظرا للتكاليف الباهظة التي تسببها . وكما نرى مرة أخرى ، انها النقود وليست امكاناته الفنية ! ثم حثه على عمل بعض الرسومات المائية « التي يمكن بيعها » شريطة أن تكون « متأنقة » . .

ورغم كافة أشكال الهجوم هذه ، فقد آثر فنسان أن يظل هو نفسه ويرد بالعمل على الجوانب القاسية والمأساوية فى الحياة . لقد اختار الطريق الصعب ، المتواصل فى العمل ، حتى وان كان بلا ثرار آتية ، مؤملا أن يصل إلى تلك الدرجة الفنية التى يصبو اليها بدلا من أن يهتم ببيع بضعة رسومات تعجب بعض البورجوازيين أو التجار الذين تلفعوا برماد المألوف والشكليات .

ومن الغريب أن يتغير موقف ابنى عمومته ترستيج وانطون موقى . اللذين قاما بتشجيعه فى البداية . . فلقد تذرع ترستيج بحجة أن فنسان «يتهادى فى حياة العاطلين » ، وذلك فى الوقت الذى كان يجب عليه \_ من وجهة نظره \_ أن يتكسب قوته : أما أنطون موقى فقد تباعد بحجة أن فنسان كان يرفض الرسم اعتهادا على نماذج من الجبس ، وفقا للأسلوب الأكاديمي المألوف ، لقد أغاظه أن يتجرأ فنسان فيقول عن نفسه بأنه فنان! والأكثر من ذلك ، فإن ترستيج ، «هذا الطاغية التجارى البارد » كما وصفه ترالبو في آخر أعماله (فان جوخ غير المحبوب صفحه ١٠٠) ، قد وصلت به الدرجة إلى تهديد فنسان قائلا : «سنتدخل انا وموف لكى يكف تيو عن ارسال النقود لك »!!

وفى حقيقه الأمر ، لم يكن السبب الذى يثير حنقهها هو الناحية المانية أو الناحية الفنية ، وانما ما اطلقا عليه : « الانحطاط الاجتهاعى » لفنسان ! وما اطلقا عليه « انحطاط » لم يكن سوى الجانب الانسانى ، غير المفهوم لهما عند فنسان .

وفي وحدته الضارية هذه ، لم يكن فنسان يتهلك نفسه عن استرجاع تلك السنوات الحزينة البائسة التي قضاها غريبا تحت نصال التوجع في الحارج ، معزولا بلا صحبة أو عون . وما من صوت يرفع راية انصاف . . ويالها من ليال تلك التي امضاها في طرقات لندن بثلوجها وظلهاتها ، تحت جناح الصقيع والفاقة ، أو تلك التي عاشها في بوريناج ، حيث كان يتضور جوعا ، بلا ماوى ، مرتعدا من الحمى . . كم كان يتمنى ان يشعر بأنه موجود بالنسبة للآخرين ، تلك الحاجة الانسانية العارمة في ان يحيا وسط المجتمع كانت تعتصره بالامها القاسية ، فتغيم انفاسه ، ويلفه صمت رهيب ، ما من آخر يمد له يداً . . وعبر هذه المعاناة الخرساء ، يبدو ان صداقة ما قد ربطت بين الفنان والموديل الذي يصوره ، غير ان الخرساء يالذي كانت فلسفته الانسانية تتبلور مع خطى الأيام والمعاناه ، كان يرى ان المعرفة الكبرى والحل الجذرى لمشكلة الحياة انما يكمن في تلك الكلهات التي يرى ان المعرفة الكبرى والحل الجذرى لمشكلة الحياة انما يكمن في تلك الكلهات التي تذكرنا بقصيدة موت الذئب ، وهي المعاناة في صمت . .

وكانت النتيجة المحتومة لهذا الفهم المتبادل ، وكثمرة لعديد من جلسات الرسم المتتالية والذي تمخض في لوحة مثيرة معبرة باسم : الندم وقد حاول فيها فنسان التعبير عن معنى الكآبة المبهمة الحنين لتلك الجملة الشهيرة التي علقت بذهنه من رواية الحب للأديب ميشليه ، وهي : « . . لكن يبقى فراغ القلب الذي لا يملأه شيء . . « انها عبارة شديدة الدلالة لما يشعر به في اعماقه . . وتبع ذلك الرسم السيدة الراقية ، ذلك الرسم الذي يعبر فيه عن المرأة المتعالية المتكبرة ، وهو يمثل نقيضا للرسم الآخر المعروف باسم الندم ، وإن كان الاثنان يعبران عن المرأة في نظره ، انها المرأة التي عرفها من خلال تجربته سواء مع ابنة خاله ام الموديل الذي رسمه : انهما لوحتان معبرتان للمرأة التي ترفض وتنعالي ، وإن كان كانت على استعداد

لأن تنز بالرغبة المشتهاة ، وتلك التي تقبل العطاء في رضاً وتحتمل من اجل عطائها الادانة المهينة .

وبمرارة شديدة وشجاعة معاً راح فنسان يواجه موقف الذين يدعون التمسك بالمظاهر الكاذبة ، وخاصة من أفراد اسرته ، التي تلح عليه في عدم البقاء \_ أيضا \_ في لاهاى ! بينها فنسان الذي كادت العاصفة ان تقتلعه ، كان يحاول التوغل بجموح في ارض فنه . وتلك هي الفكرة التي راح يعبر عنها في رسوماته \_ معبرا عن جانب من صراعه من أجل الحياة .

ويبدو ان . الطبيعه كعادتها معه ، كانت هي الوحيدة التي تعكس معاناته ويستطيع التجاوب معها . فقد اجتاحت البلدة عاصفة هوجاء لمدة ثلاث ليال متتالية : فاقتلعت نافذة مرسمه وتكسر الزجاج والحالق الخشبي ، وتطايرت رسوماته المعلقة على الجدران ، وسقط الحائل الذي كان يفصل الحاشية التي ينام عليها عن بقية الحجرة ، وانقلب الحامل الذي يرسم عليه وتناثرت اجزاؤه على الارض . ووسط هذا الجو المشحون الصاخب ، واولئك الذين يديرون له ظهورهم ويتهمونه بالغدر والخيانة ، ويرتابون في انه يخفي سراً يخشى النور ، راح فنسان يرعد مثل تلك العاصفة قائلا : « نعم ، ايها السادة المتخمون بالشكليات والكياسة ، سأقولها لكم دفعة واحدة ، أي المواقف تنم اكثر عن الكياسة والرقة والمشاعر الانسانية والشجاعة : أهو ترك امرأة لمصيرها ام انه الاهتهم بامرأة مهجورة ؟ » ( ١٩٢ ) .

ولقد كان فنسان منذ شهر يناير ( منذ بداية اقامته فى لاهاى ) قد أوى لحجرته امرأة حاملًا ، هجرها ذلك الشخص الذى تحمل ابنه ، فكانت تجوب الطرقات بحثا عن لقمة العيش بالطريقة الوحيدة المتاحة لها الا وهى الدعارة لقد كانت هى هى نفس تلك المرأة التى التقى بها عندما كان يهيم فى الشوارع بعد ان رفضته كى ابنة خاله . كانت هذه المرأة هى الانسان الوحيد الذى قبله فى وقت كان الجميع ينهرونه فيه أو يطردونه وكأنه كلب ضال .

ومن الغريب ان نرى إصرار ترالبو فى كتابه عن فنسان غير المحبوب (صفحة ٩٢) ، على إغفال شخصية هذه المرأة فى حين ان فنسان يقول بكل وضوح « عندما قابلت كريستين ، مثلما اخبرتك سالفا ، كانت تمشى فى العراء تحت لفحة البرد ، بينها كنت انا نفسى أسير وحيدا ، تحت وقع الحادثه التى وقعت لى فى امستردام » ( ١٩٨ ) .

لقد قام فنسان بتعيينها لديه كنموذج حى للرسم لديه ، على ان يتقاسم معها لقمة عيشه . وظل يرسمها طوال الشتاء ، لا يضن عليها \_ فى حدود امكانياته \_ بالعلاج والمقويات اللازمة لها ، ثم اصطحبها إلى مدينه ليد Geyde حيث توجد مستشفى للولادة للكشف عليها ، لقد حماها \_ رغم كل شيء \_ من الجوع والبرد والضياع . وها هو يواصل حديثه فى نفس الخطاب السابق قائلا : « أعتقد أن أى رجل يساوى قيمة نعل حدائه كان سيتصرف معها بنفس الطريقة » . لقد رأى فنسان ان هذا التصرف من البساطة بحيث يمكن الاحتفاظ به لنفسه ، معتقدا ان فنسان ان هذا التصرف من البساطة بحيث يمكن الاحتفاظ به لنفسه ، معتقدا ان بلجميع كانوا سيدركون الابعاد الانسانية لسلوكه دون ان يسألوه عنه ومن غير ان يكيلوا له الاتهامات والشتائم .

لقد كانت هذه المرأة المسكينة \_ على النقيض من ذلك الرفض البارد الصادر من كى . ومن اسرة فنسان ، ومن القسس المبجلين ، ومن المجتمع لقد فهمت فنسان بنفس البساطة التي رآها بها ، بل لقد قالت له ذات يوم : « اعرف انك لا تمتلك من النقود غير الندر اليسير ، وحتى ان كان لديك أقل منه ، فإنني مستعدة للتكيف مع ظروفك على شرط بأن نظل بجوارى وان اتمكن من البقاء معك . لقد توثق رباطي بك حتى انه لن يمكنني العيش بمفردى مرة اخرى » (١٩٤) . وهي كليات تعكس بساطة ذلك الاحساس الانساني لتلك المخلوقة التي تصفها كل الكتب التي تناولت سيرة فنسان بأنها «حثالة دنيا »!!

لقد كان فنسان آنذاك يعاملها بكل انسانية خارج جلسات الرسم الطويلة التى تمتد بالساعات ورغمها لا يتم خلالها تبادل أية كلمات وبعد ان دفن جراحه في أعمق أعماقه ، لم يكن بوسع فنسان ، الانسان ، ان يحتفظ بقناع من البرود والتعالى . لقد كان كلاهما بحاجة إلى الدف، الانساني ، إلى تلك المؤانسة التى يصعب التعبير عنها في كلمات . فقبلا بوسهها المتبادل ، وطوى كل منهما ماضيه في غوائل النسيان حتى يمكنه مواصلة الطريق بلا أحلام . . بلا تطلعات . . بلا برعم يخفضه الوهم قت وطأة الحياة وشراستها . .

واذ كان الطريق إلى المجتمع ، والدين ، والحب ، قد أغلق باحكام في وجه فنسان ، ولم يعد أمامه سوى تلك الانسانة الوحيدة التي تقبلته ، تلك الانسانة التي تعد بمثاية زميلته وتوءمه في بؤس الحياة ، فقد ارتفع فنسان بنفسه ـ في رؤاه \_ لأعلى قمم العطاء الانساني ، لقد حاول اجتذاب كريستين إلى ضفاف البعث . وهو الموقف الذي يمثل \_ في الواقع \_ قمة تفهمه الديني ، على حد قول لياري الموقف الذي يمثل \_ في الواقع \_ قمة تفهمه الديني ، على حد قول لياري

leyworie ( فان جوخ صفحة ١٩ ) : « اذا كان يعد في نظر القسس الذين يسبون ويلعنون من أعلى قمم منابرهم قد هوى إلى أخمص درجات الانحطاط ، لكنه بأسمى معانى الدين قد وصل إلى أطهر مصاف الإيمان » .

وكيف لا يكون أطهر مصاف الايمان وفسان في هذا التصرف قد أراد التوحد بمن كان يتخذه مثله الأعلى ، ألم يدافع السيد المسيح عن ماريا المجدلية وها هو فنسان لا يقتصر على الدفاع عنها فحسب وانما يهبها امكانية بعث عمليه مها جره عليه صنيعه من إدانة .

لقد اعطى فنسان بلا حدود لهذه المهمة الجديدة التي أدانها المجتمع ، وإن كانت في الواقع تتضمن معنيين متضافرين فمن جهة تمثل انفاذ امرأة مهجورة هوت إلى القاع ، ومن جهة اخرى تمثل انفصال فنسان عن المجتمع البورجوازى بكل قيمه الزائفة .

ومثلها حدث فى بوريناج ، عندما كانت طبقة عهال المناجم هى الوحيدة التى تقبلته ، ففى لاهاى تقبلته طبقه العهال دون ان تدينه بأنه و منحط ، ا ويما ان فنسان لم يكن له اى هدف فى الحياة سوى فنه ، فلم تكن له والحال هذه \_ أيه تطلعات اجتهاعية . لقد قطع علاقته بذلك المجتمع الذى لا يرى ولا يحترم الجانب الانسان فى الانسان ، وانما يوجه كل اهتهاماته إلى القيم المأليه والمادية . وهكذا اصطف فنسان بجوار أولئك المتواضعين من الطبقات االشعبيه ، آملا ان يبتعث فنه فى قلب الشعب ، وان يصل إلى اعهاق هؤلاء و المنحطين ، مثله . . لقد كان هدفه شديد الوضوح : التفائي مع اكثر الطبقات بؤساً والذوبان فيهم ليدرك الحياة فى خضم معاناة الواقع \_ مهها كلفه ذلك من مشاكل او اتهامات . ومهها بذله من عطاء وجهد ! وهنا يقول لأخيه : و بما اننى عامل من العهال ، فإن مكانى مع الطبقة العاملة ، اننى أريد ان أحيا بينها وأن اتوغل فيها اكثر واكثرى ( 197)

وبالفعل ، لم يكن فنسان يدخر الا أقل القليل لحياته ، لقد كان الرسم وانتصوير بمثابة وعمل يدوى ، يتم اكتسابه بالمهارسة الممتدة والمران الدائم . وكان يأمل في ان يتكسب حياته لا في البذخ الاجتهاعي ، وانما وفقا ، للوصفة القديمة ، التي ظل يؤمن بها دوما : «ستكسب عيشك بعرق جبينك ، (١٩٧) .

وإدراكه الواضح لمهمته ومهنته ، حق له ان يتساءل كانسان ناضح ، يمسك بكل وعى بزمام حياته متعرفا طريقه قائلا في واحد من أهم الخطابات : « أيحق لى ان

ارتدى ثياب العيال واعيش كواحد منهم ام لا؟ لمن يجب على ان اقدم كشف الحساب ومن ذا الذي يتجرأ على إملاء ما يجب على ان اعمله؟ ، (١٩٣).

وتكمن أهميه هذا الخطاب (رقم ١٩٣) في انه يكشف من جهة عن نفسيه فنسان الانسانية ـ الاجتهاعية ، ومن جهة اخرى مجدد موقفه بوضوح من ذلك المجتمع وخاصة من اهله واسرته التي نبذته منذ حقبة طويلة .

ولما لم يكن من عادة فنسان ان ينافق بين الفكر والعقل ولا يفرق بينهها ، فقد وصل إلى النهاية المنطقية لهدفه وموقفه مع كريستين بأن منحها فرصة بعث كاملة . ذلك انه أي على نفسه ان يجعلها تعيش معه في موقف خاطيء ، فقرر الزواج منها . وها هو يقول : و ان قرارى هذا سيخلق فجوة عميقة بكل تأكيد ، اذ انني أقوم عن طيب خاطر بما تطلقون عليه و انحطاط طبقي » . وإجمالا للموقف ، فلا يوجد ما يمنعني من القيام بمثل هذا التصرف بما أنه ليس فعلا سيئا ، حتى وان أدانه المجتمع » ( 194 ) .

لقد كان فنسان يرى ان المرأة لا يمكنها ان تظل بمفردها دون ان تهوى ، خاصة في مجتمع لا يرحم الضعفاء ، ويسحق تحت عجلاته من هوين ارضا بلا دفاع .

وإذ رأى هذا العدد الهائل من المسحوقين الذين أدانهم المجتمع بالا رحمة ، فقد انتهى فنسان إلى التشكيك في قيمة ما يطلقون عليه و التقدم » ، و و الحضارة » ، و و اللياقة والأداب » ، بل راح يصف بالهمجية كل ما يمس ويؤذى الحياة الانسانية . لقد كان ذلك الانسان الذي وصفوه بالانحطاط ، يحلم بحضارة قائمة على الرحمة والتراحم وفقا لمفهوم السيد المسيح لا وفقا للمذاهب الجامدة والافكار المتعالية التي لا ترى عبارة المسيح و من كان منكم بالا خطيئة » . . كم كان يود ان يفهم كل الذين يعرفونه ان كل أفعاله وتصرفاته مدفوعة بحب صادق وايمان حقيقي ، وبحاجة صادقة للحب . وان الطيش والعجرفة وعدم الاكتراث والوصولية والجمود والتعالي ليست من ساته . . كان يود ان يقدم بسلوكه دليلا عمليا على انه قد قرر التوغل في الطبقات الذيا ، في الطبقات التي لا تحمو خجلا عندما تراه بجوارها وتحتاج إلى لمسة انسان ، لكنه للأسف لم يجنٍ من تصرفه خدا غير من بالإتهامات بالجنون .

وبوصوله إلى قرار الزواج من كريستين فقد رأى فنسان ان يشرح كل شيء لأخيه تيو الذي يسانده ماديا منذ وصوله إلى لاهاى ، وأن يفسر له الموقف ، مؤثرا ان يتعرض لأسوأ الظروف بدلا من ان يكذب عليه \_ وان كان يأمل ، في نفس الوقت الا يهيىء أخوه تفسير تصرفه هذا . الا ان رد الفعل كان فضيحة مدوية في الاسرة . . . فضيحة حاول تيو تهدءتها ، دافعا فنسان إلى تحوم المنطق البرجوازي المألوف آنذاك ، والشكليات الاجتهاعية التي تقرها الاعراف ، لقد طالبه بأن و يتخلى عنها » !

كم كانت ثورة فنسان الذى لا يقبل ما يمليه عليه الآخرون ، وما عاد يأبه لرأى يلزمه به النسق العام والمألوف السائد الذى يناقض مفاهيمه الانسانية ، وها هو يقول : وإن ابجدية المنطق والاخلاق هى : حب جارك مثلما تحب نفسك ، وتصرف فى الحياة بما تستطيع ان تبرأ به نفسك امام الله ، (١٩٨ ) . تلك كانت اجابته لأخيه ولكل الذين ادانوا تصرفه بخبث ونفاق . وراح يعرض عبر عدة خطابات \_ جديرة بالاديب ستندال Stendhol \_ تطور حبه ومختلف المراحل التى مر الطرقات ، وهنا يقول : وإن والد الطفل الذى تحمله كريستين فى أحشائها قد تصرف معها وفق منطق خطابك ياتيو ، وفى رأيى انه أساء التصرف لقد كان مهذبا معها لكنه لم يتزوجها ، حتى عندما حملت منه ، فقد تذرع بموقفه الاجتماعى وبأسرته ، الخ . . وكانت كريستين مازالت صغيرة آنذاك ، وكانت قد تعرفت إليه عقب وفاة والدها . . ثم وجدت نفسها وحيدة مع ذلك الطفل ، مهجورة ، بلا اى عقب وفاة والدها . . ثم وجدت نفسها وحيدة مع ذلك الطفل ، مهجورة ، بلا اى الرجل كان آثيا بكل تأكيد امام الله ، لكن المجتمع ظل يكن له كل الاحترام لإنه قد اتاها اجرها !! » ( ١٩٨ ) .

ثم راح فنسان يفسر تطور عاطفته تجاهها بنفس البساطة قائلا : « لقد ارتبطت بها دون ان افكر فى الزواج منها مسبقا . ثم ، كلما ازددت معرفة بها ادركت انه يجب على ان اتصرف بشكل آخر ان كنت أود مساعدتها فعلا . وعندئذ حادثتها بقلب مفتوح قائلا : ذلك هو ما افكر فيه ، وذلك هو االموتف كها اراه . اننى فقير لكننى لست مخادعا . هل يمكنك ان تتفاهمي معى أم لا ؟ فأجابتني : سأبقى معك حتى وان كنت اكثر فقراً ، (١٩٨) .

ولم يكن فنسان ليتصور انه يجلب العار لعائلة رجال الدين وتجار الفن عندما ينقذ امرأة مهجورة ، بل كان يود ان تقر عائلته تصرفه هذا . لذلك كتب في نفس ذلك الخطاب محذرا: « والا سنعيش انا وانتم متحفزين كالاعداء. انني ارفض التخلي عن امرأة ارتبطت معها عبر التعاون والتقدير المتبادل، من أجل اية اعتبارات . . . اذا ما قامت عائلتي بنبذى لإغوائي امرأة ، فإنني اعتبر نفسي فاسقا عندما اقترف تصرفا مشينا من هذا القبيل ، لكن ان تهاجمني لأنني قررت الوفاء لامرأة وعدتها بالوفاء ، فإني آنذاك سأحتقر عائلتي . .

لقد كان المجتمع أبعد من ان يدرك تفكير هذين المنبوذين ببساطته الانسانية . اذ كان كلاهما يتطلع إلى تكوين اسرة ، وكلاهما كان بحاجة إلى عطف متبادل ، وإلى مساعدة متبادلة ، فنسان من أجل عمله وكريستين من أجل نجاتها وحمايتها . ونظرا لأنها كانا يعيشان معا ، فقد آثر فنسان تفادى أى موقف خاطىء يوصم بالزنى ووجد أن الزواج هو أسلم واوضح حل لوضعها .

ومما يؤسف له ان رد تيو غير معروف لنا ، اذ يبلو انه قد هدد فنسان بأن يقطع عنه معونته المالية . لذلك أجابه فنسان في الخطاب التالى بصراحة مرفوعة الهامة قائلا : و ان النقود حاليا بمثابة حق الاقوى في الماضى . . وبناء على هذا المبدأ فإنني أجازف برقبتي ان عارضتك ، لكنني لا أستطيع ان اتصرف على غير هذا النحو . اذا اردت تحطيمى : هاك عنقى . انك تعرف موقفي وتعرف ان حياتي وموتى متعلقان بشكل ما بمساعدتك المالية . . فإذا ما أجبت على خطابك قائلا : نعم ياتيو انك على حق ، سأتخلى عن كريستين ، مما يعنى اولا اننى اناقض الحقيقة بطاعتك ، ويعنى ثانيا اننى اقترف إنها بشعا . . لك ان تبتر عنقى ، ان شئت . اما الحل الثاني فهو الأسوأ » ( 199 ) .

ولمًا كان فنسان يتلقى هذه المساعدة المالية بشيء من التضرر ، وكان يعتبرها ديناً عليه ان يسدده ، فقد اقترح هذه المرة على أخيه إبرام اول اتفاق مالى بينهما ، يمده فيه تيو بمائه وخسين فرنكا لمدة عام ، سيحاول خلاله فنسان الحصول على وظيفة رسام . وهو اتفاق تنكره الاسرة للأسف ، وتغفله كافة سير فنسان لكى يريدوا من بريق موقف تيو والاحتفاء بمواقفه التي تناقض الوقائع .

وها هو أمل فنسان يتزايد أخيرا في الحصول على وظيفه لا بسبب التقدم الذي كان يحرزه في رسوماته ، وانما لحصوله على اول طلب بتنفيذ اثنى عشر رسما مقابل ثلاثين فلورين ، من قبل عمه كور . وهو طلب لن يتقاضى عليه سوى عشرين فلورين مصحوبين بنقد لاذع اذ قال له عمه : د هل تتخيل ان مثل هذه الرسومات

لها أيه قيمة تجارية ؟ ، ( ١٩٩ ) . الا ان فنسان لم يكن ليهتم بأية قيمه تجارية . فقد كان يتمسك بالقيم الفنية فحسب ، بقدر ما يفضل « الاستغراق في تأمل الطبيعة بدلا من الاستغراق في حساب الاسعار » !

وتقاسم فنسان حمله مع كريستين ، وبالتدريج نحول حبها المتفاهم إلى سعادة هادئة تعاونها على تحمل الحياة . فكانا يقضيان الأيام في العمل ، يعسكران من الصباح حتى المساء في الخلاء ، كالبوهيميين ، ولم يكن معها آنذاك سوى بعض من خبز الشعير وكيس من القهوة . كان فنسان يلاحظ تحركات العال بدقة ويشرحها لكريستين ، بينها تجلس هي في صمت . في نفس الوضع الذي يطلبه منها ، ثم يستغرق هو في الرسم . وبعد جلسة عمل طويلة يذهبان معا عند بائعة الفحم والمياه الساخنة في ضاحية شيفننج Shevneng وكان حانوت هذه البائعة يمثل منظرا لا يمكن وصف اغرائه بالنسبه لفنسان ، بما أنه كثيرا ما كان يذهب إليه في الخامسة صباحا ، في تلك اللحظه التي يتجمع فيها عال القيامة ليحتسوا القهوة مترنحين بين اليقظة والتعب وثقل لقمة العيش .

وكم تمنى فنسان ان يجعلهم يجلسون كها هم ليرسمهم من الطبيعة لكن ذلك كان سيكلفه مالا طاقة له به ، فها بالنا وها هو في الواحد والثلاثين من مايو كان قد تأخر عن سداد ايجار شهرين لغرفته ، اذ ان معدات الرسم كانت تمتص كل المبلغ الذى يحصل عليه . ولقد هدده صاحب المسكن ببيع متعلقانه في المزاد . ولما لم يكن فنسان قد تسلم اى مبلغ من اخيه منذ الثاني عشر من مايو ، فقد كتب يخطره بخطاب تقاطع مع خطاب تيو في الطريق . لأنه في اليوم التالي ، في اول يونيو عام ١٨٨١ ، كتب فنسان يشكر أخاه على المبلغ المرسل وليعلق له قبول اقتراحه بتقسيم المبلغ على ثلاث دفعات كل عشرة ايام . وفي هذا الخطاب أجاب فنسان على واقعة هامة تهملها كافة السير ، بقدر ما اغفلت الكثير من الوقائع ، وهي واقعة تكشف عن جانب من أخلاقيات هذه الاسرة . اذ ان خطاب فنسان هذا يكشف عن غياب أحد خطاباته ، أخلاقيات هذه الاسرة . اذ ان خطاب فنسان هذا يكشف عن غياب أحد خطاباته ، ثانية إلى ما تخشاه من احتيال ان تقوم العائلة بوضعي تحت الحراسة . فعلي حد قولك ثانية إلى ما تخشاه من احتيال ان تقوم العائلة بوضعي تحت الحراسة . فعلي حد قولك اذا كنت تعتقد و انه يكفى ان يأتي أبي بشاهدين ليشهدا ولو زورا بأنني غير قادر على ادارة أموالي لكي يحرمني من حقوقي المدنية والحجر على ، قد تتصور أنت امكانية ادارث هذا ، لكنني انا أشك فيه ، . قد تتصور أنت امكانية حدوث هذا ، لكنني انا أشك فيه ، .

اين اذن ذلك الخطاب الذي يكشف الجور والاضطهاد والتهديد الذي كان فنسان يعيش تحت وطأته لأسرة لم تقدر ابدا قيمة الانسان فيه ؟! ان دفاع فنسان بشموخ عن نفسه طوال الخطاب ليوضح لأخيه ان القانون الحالى يسمح للمتهم بأن يعاود الدفاع عن نفسه باستثناف الحكم وغيره من الوسائل ، بجانب حديث فنسان عن طبيعة والدهما الذي ما ان يعارضه أحد حتى يسارع بالاتهام بعدم الطاعة وعدم الاحترام .

كل ذلك انما يشى ببعض من ملامح المعركة الدائمة الدعوب التى كان القس المحترم والاسرة الموقرة يخنقونه بها ، بقدر ما يشى بما أخفوه من خطابات نكاد نجزم بأنها تمس وقائع تتصل بهم وتكشف ملامح هامة تتصل بأخلاقياتهم . لقد راح فنسان فى ذلك الخطاب يحدث تيو عن والدهما المحدود الأفق الذى لا يقدر على مناقشة اى قضية مع ابنه وان كان كثيرا ما يستخدم تعبير و الجمال ، فى مواعظه كلازمة من المرقشات اللغوية ! ان ذلك القس الذى كان مستولاً بحكم دوره الدينى عن جذب الأرواح الضالة إلى المرفأ ، كان يشتط غضبا من تلك الانسانية والنبيلة معا والمتسقة مع تعاليم الكتاب المقدس بأن يتزوج ابنه من تلك الانسانة التى رموها بالخطيثه واكتفوا بادانتها ، وفى الوقت نقسه كان يستضيط غضبا لرؤيته يعيش معها بلا زواج ! لقد كان الاب اسير اللياقة والاعراف الاجتماعيه التى لم تكن لتسمح بأن يتزوج ابن احد القسس المبجلين من خاطئة . لقد كان القس تيودورس فان جوخ يرى ان يقوم شخص آخر غير ابنه بهذه المكرمة ، ولم يكن الأمر أحسن حالا للدى تيو وان فنسان وقع فى و الاعربه والاكثر دراية من أبيه ، بأن كريستين و تتحايل ، وان فنسان وقع فى و الاعبها ه !!

ولم يستطع اى فرد من افراد هذه الاسرة المتواضعة ان يفهم ان شخصين ، نبذهما المجتمع تماما ، يمكنهما ان يرتبطا بصدق فى ذروة معاناة بؤسهما أو ربما بفضله . لم يفهم احد من هذه الاسرة المبجلة المتدينة ان فكرة انقاذ روح ضالة من الضياع ، فكرة ان يشعر المرء بانسانيته التى تتجاوز الخطيئة هى التى سمحت لفنسان ان يرتبط بالواقع ويعيد هذه الضالة للطريق القويم . وها هو ينهى خطابه هذا قائلا بوضوح :

الختصار ، ليس سهلا في يومنا هذا أن نحجر على من يعترض باتزان وحيوية
 واخلاص . حقيقة ، لا اعتقد أن تصل الأسرة إلى هذا الحد . ستجيبني بأنها قد

حاولت ذلك من قبل ، ايام واقعة خيل (١) Gheel . نعم ، ان ابي لقادر على ذلك ، وباللاسف ، لكننى اذكر لك اننى سأواجهه بكافة الوسائل اذا ما جرؤ على التحرك . اننى انصحه ان يفكر جيدا قبل ان يجازف بمهاجمتى ، لكنى اكررها لك ، اننى أشك في ان يطاوعه قلبه على القيام بمثل هذا التصرف . ومع ذلك ، فإنهم ان اردوا ذلك او ان تجرأوا عليه ، فلن اتوسل اليهم قائلا : « ارجوكم ، لا تفعلوا هذا ، اتوسل اليكم ، إ بالعكس ، سأتركهم يتصرفون كيفها شاءوا حتى يلحق بهم العار ويتكبدون تكاليف القضية ، .

ان ذلك الموقف المشين وغير الانسانى إلى جانب العديد من المواقف التى تدينها الوقائع هو ما تحاول عائلة فان جوخ أو الأفراد الذين على قيد الحياة ان يخفوه . وذلك بتزييف الحقائق أو اخفائها حتى وان ادى هذا التصرف إلى تزوير حياة فنسان! لكن دوما هناك ثغرة تشى بموضوع الجريمة وتفضح المتلاعبين .

لقد وجد فنسان نفسه فى مهب الرياح من جديد بلا مرفأ أبوى ، وكان عليه ان يصارع هدير الموج العالى فى كل خطوة ، وكان فى صراعه وحيدا لايجد من يسانده أو يدفع عنه . ولم يكن امامه غير الدستور والقوانين الهولندية ليدرس شرعية موقفه ، ثم راح يقارن هذه القوانين بالتشريعات الفرنسية أو الانجليزية . وكان عليه بعدها ان « ينتظر بقيه الاحداث بهدوء ! » كما قال بنفسه لأخيه فى الخطاب التالى .

وكمواطن هولندى فقد كان فنسان ينعم بحقوقه المدنية كاملة اذ انه لم يقترف اى تصرف لا يقره القانون . لذلك فقد عقد العزم على ألا يترك نفسه فريسة لأى تلاعب أو ان يتم الحجر عليه . وهو ما كان يشك في امكانية حدوثه اذا ما تجرأت عائلته وتمادت ولجأت للقانون . وهنا يوضح فنسان الأمر قائلا . « انني اعلم جيدا ان أعضاء عائلتنا الكريمة كثيرا ما رددوا أقاويل سيئة في حقى ، وان كنت اجهل مصدرها . ومع ذلك أشك في ان يجرأ مروجوها ليقسموا على صحتها امام القضاء اذا ما استدعتهم المحكمة لذلك » .

وعلى عكس ما كان يحدث دائما ، فان فنسان \_ هذه المرة \_ هو الذى طالب بانعقاد مجلس العائلة ، عاقدا العزم على ان يواجههم جميعا بكل شجاعة ابان عرضه لحالته بكل موضوعية . ويا لغرابة الموقف ، وها هى الاسرة المبجلة \_ لأول مرة \_ هى التى رفضت طلبه بتعال إ واكثر من ذلك كله ، يبدو ان موقف فنسان الصلد المتفهم لحقوقه و للقانون هو الذى اثناهم عن اتخاذ أية خطوة مشينة . وكلها امور علينا ان نستخلصها من الخطابات المتاحة لفنسان بين أيدينا . ، نظرا لعدم وجود أية وثائق اخرى حول هذا الموضوع .

وفى اوائل شهر يونيو أصيب فنسان بسيلان أبيض ، فدخل المستشفى العام ، بالدرجة الرابعة ، فى العنبر رقم ٩ ، حيث قبع فى الفراش محاطا بكتب عن المنظور وبعض روايات ديكنز ، ومنها إدوين درود . وفى تلك الوحدة القاسية . إذ كان يتلقى العلاج البدائى الذى يعطونه له . زادت عليه الوطأة والمرارة من اختناق ثقل صراعه مع الحياة وتقنيات الفن الذى يتعلمه بمفرده . لقد كان بحاجة إلى الراحة ، إلى تلك السكينة التى تبدد عصبيته وأرقه . لقد كان متعطشاً إلى أبسط لمسة انسانية ، لكنه لم يجد أحداً \_ على الاطلاق \_ بجانبه . وحتى كريستين هى الاخرى قد دخلت مستشفى آخر لتضع مولودها .

وفى دروة معاناته كانت صورة كى ابنة خاله ، ذلك اللحن المشجون لحب ضائع لا يكف عن مطاردة أعاقه ، ولم تكف ايقاعات ذلك اللحن بأصدائه المتعددة عن تمثيل الخلفية الحزينة المكتومة لأفكاره . لقد انساب فى الحلم ليتخيل ما كانت ستئول إليه حياته لو ان ابنة خاله كنت له مشاعر أخرى غير الازدراء الظاهرى ا وظل هذا الجرح العميق فاغرا فاه ، يجتر كافة الألام ولا يندمل ابداً . لقد هرع بكل حزنه الجريح إلى تلك المرأة الذابلة ، الشديدة الواقعية ، المدبرة ، والحريصة مثله على التكيف مع الظروف والتي كانت شغوفه برغبة عارمة لتتعلم كيف تعاونه . مما جمله يمضى في شوط التسامح معها إلى ما لانهاية . حتى انه كان يتحمل في رضا صوتها الأجش الذي كان يتفوه احيانا ببعض العبارات الخارجة . فقد استطاع ان يرى – تحت ذلك السطح الخشن – عمقا انسانيا وقلبا طيبا وكثيرا من العطاء .

وفى أول شهر يوليو غادر فنسان المستشفى وتنفس الصعداء وهو يشعر بالحياة تدب فى أوصاله من جديد . كان الطريق يمتد تحت وهج الضوء الساطع وقد ازدادت معالم الطبيعة وضوحا وجمالا فى عينيه . وما ان وصل مرسمه ووقف وسط معداته الفنية ورسوماته ومئات من صور الحفر والكتب حتى أحس بأنه اخيرا فى بيته . وضمره احساس عارم بالفخر : فرغم كل الصعاب استطاع ان يؤسس لنفسه و مرسيا له طابعه المميز ، مرسيا و ليس غامضا أو متحذلقا ، وانما تمتد جدوره فى قلب الحياة واعباقها . لقد أسس مسكنا يوجد به مهد طفل ومقعد صغير ، حيث كل شيء الحياة واعباقها . لقد أسس مسكنا يوجد به نهد طفل ومقعد صغير ، حيث كل شيء فيه يدفع إلى العمل . . ومع ذلك ، بقى الفراغ الذى ما عاد يملؤه شيء . . ولا حتى الأصداء الحزينة للحن ذلك الحب الضائع . .

واذ تسمرت نظراته عند ذلك المهد الفارغ ، اعتصر قلب فنسان القلق ، شعور قارص بالوحدة حتى انطلقت منه هذه الصيحة الانسانية الكاشفة : ويارب ، اين امرأتى ، يارب اين ابنى أنا ؟ أتسمى حياة ان يحيا الانسان وحيدا ، ؟ (٢١٣) . بلا زوجة . بلا طفل .

• فراغان يحيطان به ليحيلا وحدته إلى صراع مرير لدرجة لم يتمالك معها ان يتساءل لماذا لا تكون كريستين زوجته ، لماذا لا يكون ذلك الطفل الذى سيولد ابنا له ؟ كان يرتفع بشكواه إلى خالقه اذ ان فنسان رغم آلامه العارمة ، وحتى فى اسوأ احوال معاناته ، لم يشك ابدا فى وجود الله ، تلك القرة الخفية اللامرئية والتى يتجلى وجودها دوما فى شىء . لقد مسح فنسان دمعة منسابة فى صمت وأخذ يردد فى بطء : اننى مؤمن بالله ، واعتقد أن هذه هى ارادته ، لا ان نحيا فحسب ، وانما ان نحيا بصحبة زوجة وطفل لنتمكن من ان نحيا حياة طبيعية ، لقد كانت المقارنة تتم رغها عنه . لتردد أصداء حبه المقهور لتملأ الفراغ من حوله . .

وفى صباح اليوم التالى ذهب إلى ليد Leyde حيث وضعت كريستين طفلها . ورغم انها كانت غارقة فى اعباء الإنهاك ، الا ان إحساساً جديدا كان قد بداً يتسلل اليها بعد حياة حافلة بالبؤس والمهانه ، اذ ان آفاقا جديدة تتفتح امامها . وامام تلك الام شعر فنسان فى اعهاقة ان هناك شيئا ما ، احساسا صادقا يربطه بها وان كانت ظلال ما ضيها كثيرا ما تحوم لتهدد كيانهها . والتفت إلى الطفل ، إلى ذلك الشعاع القادم من السهاء ، وراح يتأمل ملاعه المطمئة ، غير المهمومة ، ثم أجهش فى البكاء . . بينها كلهات المسيح تتردد فى اعهاقه : وان من يأوى واحدا من هذه الاطفال الصغيرة ، فإنه يأويني ، . . وكأنه بإيوائه لهذا الطفل الصغير لم يكن يقترف , إثها أو يتصرف تصرف تصرف بكل انسانية وفقا لمعايير دينه الحقة .

وبعد ذلك بعدة ايام خرجت كريستين من المستشفى . وتغير ايقاع الحياة فى المرسم ، وعاد فنسان ليغرق فى رسوماته وقراءته وقراءة اعمال إميل زولا ، والذى كان آخر اكتشافاته الادبية ، ولقد اطلق عليه بلزاك رقم ٢ . فبالنسبة لفنسان ، مثلها سبق ورأينا ، فإن ه بلزاك رقم ١ قد صور رسها حائطيا للمجتمع فيها بين ١٨١٥ ـ المدهل ، اما زولا فقد بدأ من حيث انتهى بلزاك وتخطاه إلى مرحلة سيدان Sedon ، أو بتعبير أدق حتى يومنا هذا » (٢١٩) .

وعاش فنسان حياة هادئة في جو متواضع ، وهو يلحظ تجد وتفتح كيان المرأة التي انقذها . وفي نفس الوقت كان يعمل بنهم بحثا عن الصدق في فن حقيقي ، حتى يضفي على رسوماته ما يمكنه من ان يجعلها مؤثره ، يعكس عبرها انطباعا بعينه . في اعهاق من يشاهدها . تلك الرسومات التي يعد رسم أسف بداية مزيلة ما . ان فنسان لم يرم إلى التعبير عن نوع من الشعور بالضياع العاطفي أو المرضي في تلك الشخصيات أو المناظر التي يرسمها ، وانما كان يود التعبير عن الألم المأساوي لحياة الانسان . ونظرا لأن المجتمع كان يدينه ولم يكن هو نفسه يمثل بالنسبة لجل الناس سوى عدم لا قيمة له ، أو \_ على الاكثر \_ انسانا غير محتمل ، وغير قابل وليتهذب ، ليس له ان يتبوأ أي وضع اجتماعي ، لذا فقد كان يجاول ان يثبت من خلال عمله انه يوجد \_ رغم كل شيء \_ شيء ما في قلب ذلك و العدم الكبير ، خلال عمله انه يوجد \_ رغم كل شيء \_ شيء ما في قلب ذلك و العدم الكبير ، كل الذين أساءوا إليه . أو ان يقولوا : و ان هذا الرجل عميق الاحساس ، وُهب حساسية في غاية الرقة ، ( ٢١٨ ) . ذلك ان واجب المصور الأساسي ، في نظره ، حساسية في غاية الرقة ، ( ٢١٨ ) . ذلك ان واجب المصور الأساسي ، في نظره ، هو ان يعبر عن كافة مشاعره في عمله وان يكون هذا العمل في متناول الجميع .

وفى مدينة لاهاى مثلما فى بروكسل ، حاول فنسان التوغل فى مجال العالم الفنى ، لكنه فجع اذ لم ير سوى و تجمع قاتل لأشخاص لهم مصالح متضاربة ، وكل واحد منهم على غير وفاق مع الآخرين ، ولا يتفق اثنان منهم على الأكثر الالإيذاء ثالث ! ، ( ٢٢١ ) . لقد كان عزوفاً عن الانضهام إلى مختلف تلك المحاولات الشريرة هذه ، ذلك لأنه \_ على حد قوله \_ و انسان يتعبد فى الطبيعة والدراسة والعمل وبخاصة فى الانسان ، لذلك ابتعد عنهم فوراً .

ترى هل كان يعرف ان رياح الحظ ستلامس لوحاته فيها بعد ؟ ان فنسان نفسه يجيب على ذلك التساؤل ، وهو الذى لم تكن لديه أية نية لتبوء أى مركز اجتهاعى قائلا : ديبدو لى ان ذلك يرجع إلى عملى اكثر من اى شيء آخر . وطالما ستحملنى ساقاى ، فإننى سأواصل كفاحى على هذا النحو نفسه وليس باسلوب آخر : سأنظر بهدوء إلى مكونات الطبيعة وأرسمها بأمانة وبكل الحب ، (٣١٣) ) . اما فيها يتعلق بالموضوعات الاخرى ، فقد اكتفى بأن يكون على حذر ، سعيداً بأنه قدم لكريستين ما فعلته مدام فرانسواز إلى فلوران في رواية معدة باريس ، ولولا مثل هذه الدوافع الانسانية التي كان يقدمها قرير العين . لما اهتم بالحياة على الاطلاق!

وبتهائل كريستين للشفاء ، عاد فنسان يفكر في وعده بالزواج منها ــ والذي تم ارجاؤه حتى تضع وليدها . وكان لهذا الزواج هدف مزدوج في نظره : الا يعيش في تضاد مع القوانين الاجتماعيه من ناحية ، ومن ناحبة اخرى تحقيق وعد التعاون المتبادل ، والمسانده ، واقتسام كل شيء وان يعيش كل منهما كلية للأخر . ومع ذلك ــ فلم يكن يزمع تنفيذ الجانب المدنى من الزواج الا عندما تدر عليه رسوماته مبلغ مائة وخمسين فرنكا شهريا . كان يرغب في انقاذ حياة هذه المرأة حتى لا تعود لذَلُكَ المُوقفُ المَزري الذي كانت تتخبط فيه في أتون الفقر والمرض . ان تلك النزعة الانسانية التي امتلاً بها ، حبا للغير وإيثارا للتضحية ، لم تكن سوى التطور المتواصل المتصاعد لطباعه وسمائه الاخلاقية : ألم يقم من قبل بعلاج أحد ضحايا انفجار المنجم لمدة شهرين في الوقت الذي اعتبره الطب منتهيا تماماً ؟ ! الم يتقاسم طعامه الفتات مع احد المسنين طوال شتاء ؟ كيف ننسى \_ بعامة \_ عمق تجربته الانسانية في بوريناج مع عمال المناجم ؟ ! انه الآن يساند كريستين بالسلوك . القمة ، لإيمان لا يتزحزح قيد أنملة عن مناهضة الافكار الاجتهاعية المسبقة والطابع البورجوازي السقيم والقيم الزائفة . ان ذلك الانسان الذي ظل يؤمن بقول السيد المسيح بان يحب جاره مثليا يحب نفسه ، كان يرى انه من الطبيعي ان يكون الانسان انسانا مع الأخرين . والا فقد آدميته وكان أولى به ان يكون مع القطيع ، لقد استحال عليه ان يفهم اولئك الذين لا يكترثون بالآخرين ، وما كان يستطيع أن يحاول أن يكون مثلهم.

واعتهادا على تفكيره المنطقى البسيط ، اقترح فنسان على أخيه تيو ان يحضر ليرى حياته عن قرب ويتعرف إلى كريستين ، وحتى يتسنى لهما مناقشة كافة المشاكل وجها لوجه . وفى بداية شهر اغسطس توجه تيو بالفعل لزيارة اخيه . وفى صباح اليوم التالى امتنع فنسان عن الذهاب مع تيو إلى محطة القطار حتى لا يحط من شأن أخيه بالظهور بجواره أ مما يكشف هونا ولو جزءاً من نوعية المناقشة التي دارت بين الأخوين .

وما أن سافر تيوحتى بادر فنسان بالكتابة إليه وهو مازال تحت تأثير زيارته قائلا : « اعرب لك عن عميق امتناني لمجيئك ولسوف يسعدني ان اتمكن من العمل طوال العام دون اية مصائب تحل بي « ( ۲۲۲ ) . لقد تم إبان هذه الزيارة تأكيد ذلك الاتفاق الذى كان فنسان قد ابرمه مع أخيه ، على ان يكرس نفسه للعمل ويرسل كافة مايرسمه إلى تيو ، وذلك مقابل مبلغ مائة وخسين فرنكاً يرسلها تيو لفنسان على ثلاث دفعات .

لكن يظهر ان ثمة شرطا جديدا أضيف للاتفاق وهو ماكان فنسان يرفضه بشدة ، ونعنى بهذا الشرط تأجيل زواج فنسان من كريستين !! الأمر الذى يتضح لنا من المراسلات ذاتها ، اذ انه ابتداء من ذلك التاريخ حتى أول يناير ١٨٨٣ لم يذكر فنسان اسم كريستين ولن تعكس المراسلات سوى عمله والمجهود المتواصل الذى يقوم به .

وهنا لابد من وقفة صغيرة للكشف عن الدور الاجتهاعي الذي حاول فنسان ان يلعبه في المجال الفني خلال هذه الحقبة . فمن ناحية ، فإن هذا الدور بمثابة المرادف أو الاستطراد للدور الذي حاول القيام به في المجال المديني ؛ ومن ناحية أخرى ، فقد ظل هذا الدور في حيز الكتهان ولا يكاد يشار إليه حتى في الدراسات المتعمقة التي اهتمت بحياته الفنية . في الوقت الذي يعكس فيه هذا الدور ، حقيقة ، تواصل فكر فنسان ذي النزعة الانسانية في كافة المتجهات والمجالات ، وهو كان ويا للأسف \_ سببا في ادانته وفي الاتهامات الخاطئة التي لحقت به .

لقد قام فنسان \_ بعد رحيل تيو \_ بشراء بعض الألوان الماثية ، وألوان الزيت ، وامتنع عن شراء الألوان التي يمكنه اعدادها بنفسه وفي خطاب له في النصف الاول من شهر اغسطس عام ١٨٨٦ ، قرر فنسان ان يتفرغ للتصوير الزيتي كلية وبدأ بعدة لوحات صغيرة حتى يتمكن فيها بعد من تناول اللوحات الأكبر حجها . الأمر الذي يسهم في تحديد سنوات ابداعه في التصوير الزيتي بثماني سنوات (حيث ان وفاته في نهايه يوليو ١٨٩٠) .

وقد بدا له فن التصوير في متناول يده وأيقظ حماسه لأنه كان يجد فيه وسيلة فعالة « للتعبير ولترجمة مشاعره الحنون ، وامكانية إضفاء الحيوية على لون رمادي أو أخضر وسط كآبة الحياة ومرارتها » . ولأول مرة يفلت منه التعبير التالى : « انني في غاية السعادة لحصولي على الادوات اللازمة للتصوير ، تلك الرغبة التي كبحت جماحها كثيرا ، لكي أكون صادقاً . ان فن التصوير يفتح آفاقا أكثر اتساعا » ( ٢٢٤ ) . وفى نفس هذه الفترة أقيم معرض للفن الفرنسي فى مدينة لاهاى ، فكتب عنه قائلا : « لقد تحسست إلى أقصى حد ، لكننى مع ذلك شعرت بشىء من الأسى لفكرة ان هؤلاء العيالقة للخلصين يختفون تباعا . كورو Corot لم يعد موجودا . تيودور ، روسو Theodor, Rousseau ، ميليه Millet ، دوبيني Ddutrigny استراحوا من عناء عملهم . جول بريتون ، جول دوبريه Jules Dupze ، جاك Edmond Freier ، إدمون فرير Edmond Freier مازالوا على قيد الحياة لكنهم غير قادرين على مواصلة العمل . لقد امتد بهم العمر جميعا واقتربت خطاهم من المقبرة . اما اتباعهم ، فهل يقفون على نفس مستوى أولئك العمالية الحداث الحقيقيين ؟ ان هذا السبب يدفعني لكى أكرس كل قواى للعمل وألا أضعف أبدا ي (R. 11) .

ويبدو أن هذا المعرض كان له نفس تأثير تلك الموعظة التي سمعها عن العمال والتي دفعته إلى التوجه بلا تردد إلى عمال المناجم.

وستى الخامس عشر من شهر أغسطس ١٨٨٧ ، اى فى اقل من اسبوعين ، كان فنسان قد صور اول سبع لوحات فى حياته . وعندئذ فكر فى تحسين معداته الفنية وفكر فى شراء « بعض الفرشات من صنف جيد من صنع مارتر Martre ، فهى فرشات صنعت خصيصا للرسم بالألوان ، لقد كان الرسم والتلوين بالنسبة له لا بنفصلان اذ كان يعتبر الرسم بمثابة « العمود الفقرى » الذى يحمل اللون .

وها هو فن التصوير يستغرق فنسان ، ويفجر نبع خصوبة لذلك المجال الذى حاول مقاومته طويلا بأن يخفيه فى الأعياق . وهنا يكتب فنسان ما يمكن اعتباره أحد مفاتيح عمله المقبل : « ان التصوير يلامس اللامدى . . لايمكننى وصفه الا بهذه المكلمات . . انها وسيلة رائعة للتعبير عن أعياق النفس البشرية واطوارها » ( ٢٣٦ ) . وفى نفس الوقت كان يقرأ روايات زولا خطيته الاب موريه ؟ و حصة الكلاب ، و سيادة أوجين روجون ، تلك الزاوية الاخيرة التى اعجب فنسان اعجابا شديدا بشخصية بطلها باشكال روجون ، ( الذى تعاطف معه بنفس الدرجة التى تعاطف معه بنفس الدرجة التى تعاطف معه بنفس الدرجة التى تعاطف مه مدام فرانسواز فى رواية معدة باريس ) .

ان شخصية الطبيب النبيلة التي يقابلها فنسان في خلفية عدة روايات تمثل بالنسبه له و الدليل الحي بأن هناك دائها وسيلة ما ــ ايا كان انحراف جماعة ما ــ للتغلب على القدرية بالطاقة والمبادىء ، . انه نفس ذلك الدور الذي كان فنسان , يحاول القيام به عندما يصارع بحياس بالغ ضد الفساد الاجتماعي الذي يلتف من كافة الجهات حوله ، وكان عليه في مواجهته أن يتمسك إلى أقصى حد بجبادئه الانسانية .

لقد أحد يعمل بحياس لدرجة لم تستطع معها احدى العواصف ان تقتلعه من امام اللوحة . ورغمها ، فإن ثنائية واضحة كانت تتقاسمه : ترى هل يواصل التصوير رغم تكاليفه الباهظة ، ام يكبت جماح هذه الرغبة الملحة وهى فى بدأياتها » ؟ ! . . ها هو نفسه يقول : « اننى فى صراع مع الشك ، لقد فاقت نتيجة عملى فى التصوير كل توقعاتى ، وربما كان من المفيد ان أركز كل جهودى فى فن التصوير » ( ۲۲۷ ) .

ومن ناحية اخرى ، يبدو أن سكينة كبرى سائت أعماقه بفضل ذلك العمل المتواصل . . الا يصبح العمل ضرورة حينها تتعلق كافة الأمال بالماضي ؟ ! ومع ذلك ، فإن هذه السكينة ، هذه الفرحة الوحيدة التي بقيت له ـ ما كانت لتجيب على تساؤله ، اذ كان يود أن يعرف و اذا ما كانت هذه الأعمال التي ينجزها تساوى ثمن القُرش والقهاش والألوان التي يستخدمها ، ام ان عملية التصوير الغزيرة هذه ليست الا مرادفا لضياع النقود ؟ ٤ . . واجتاحه ذلك الحزن الذي تزايد مع قراءته لرواية خطابات ويوميات جرار بيلدرز ، ذلك المصور الذي لقى حتفه في التاسعة والعشرين ، في نفس ذلك العمر الذي بدأ فيه فنسان فن التصوير .

ولم يكف هذا الصراع عن ملاحقته دوما: فهو يحب فن التصوير لكن الرسم لا يسبب له نفس التكاليف المالية! ترى هل يرسم أم يصور؟! ان معدات التصوير تبتلع معظم النقود التي يتلقاها. ولقد حاول ان يضغط من مصروفات البيت ، لكن ، ما الذي كان في وسعه أن يوفره من الخبز الجاف والقهوة السوداء؟!!

لكن ما إن توصل إلى نوع من الحوار والتعبير مع فن التصوير ، حتى قرر المواصلة بلا هوادة رغم سوء حالته الصحية ، وان راح يكتب لأخيه قائلا : « اننى بصحة جيدة ، ان أتوق للعمل حتى حينها أكون منعبا . ها هى حالتى الصحية تتحسن بدلا من أن تسوء . وعلى اية حال ، اعتقد أنه من مصلحتى ان اعيش فى تقشف ، لكن التصوير يظل أفضل علاج بالنسبة لى » ( ٢٢٨ ) .

ذلك هو العلاج الذي لن يكف عن طلبه من الأطباء فيها بعد ، لكن أحدا للأسف لم يكن على استعداد لفهمه ولا لفهم الاسباب الحقيقية لمعاناته ، واستمروا في وصف تصرفاته ــ الخارجة عن العرف البورجوازى والنطاق الاجتماعي التقليدي ــ باعتبارها نابعة من اضطرابه وجنونه . .

لقد تسلل معنى اللون والاحساس به إلى كل خلاياه ، وسرى فن التصوير فى عروقه ، على حد قوله ، وكم كانت سعادته عارمة اذ لم يتعلم ذلك الفن وفقا للمواصفات الأكاديمية أو مذاهب الأخرين ، بل راح ينصت إلى نبضات الطبيعة بكل جوارحه ، محاولا النقاط همساتها و واختزالها ، بفرشاته ليعكس هذا التعبير الاختزالي ، الشديد التركيز ، في لوحاته وكتاباته .

وفى شهر سبتمبر بدأت فرحته وتتألق مع أطباف ألوان الغابة فى الخريف بتعددات ايقاعاتها . . ان ذلك اللحن المبهم الحنين الذى تردده الأوراق المتساقطة ، وذلك الضوء الخافت . وتلك الأشكال غير المحددة الرشيقة للجذوع النحيلة ، كانت تزيد من جمال حدة ومرارة الألوان فى صراعها مع الظلال . . وبفضل هذه الثنائية التى يراها فى الطبيعة . من ذلك الجهال المتناقض ، أدرك فنسان معنى سر النور ، ذلك الضوء المنبق من الظلهات إلى النور ، من اعهاق الهاوية إلى آفاق الأمال . . عا دفعه إلى القول : « اعتقد اننى سأصل ، بفضل فن التصوير ، إلى ادراك أفضل للنور ، وقد يكون لذلك تأثيره على رسوماتي التي تأخذ شكلا آخر ، ادراك أفضل للنور ، وبعد فترة اضاف : « اذا كنت افضل الانتظار حتى تصبح لوحاتي اكثر ضخجا ، فذلك لاعتقادي ان الواني ستتغير » (٢٥٣) .

وبالفعل ، ترجع بدايات ميل ألوان فنسان إلى الدرجات الفاتحة إلى هذه المرحلة وليس بفضل تواجده في باريس سنه ١٨٨٦ ، على حد زعم جمهرة نقاد الفن ومؤرخى سبرته ، ولا نظنه غريبا أن تضم القائمة عديدا من الاسهاء الجادة من قبيل . شارنصول والذي كتب مقالا مؤخرا بعنوان اكتشاف الضوء ( جريدة نوفيل ليترير . ١٩٧٢ . Nowelles نتاferaires يناير ١٩٧٧ . صفحه ١٧ ) . ولا يخلو الأمر من نقلا ـ على قلتهم ـ تناولوا الأمر من زاوية الطبيعة دوغا تعسف لا تشى به الوقائع ، وهنا يعد الناقد ترالبو من زاوية الطبيعة دوغا تعسف لا تشى به الوقائع ، وهنا يعد الناقد ترالبو من باليتة ، فنسان واشار اليها في كتابه المعنون : فان جوخ غير المحبوب ( صفحه الكان ) .

وعلى الرغم من الحب المعارم التلقائي الذي كان فنسان يكنه للطبيعة ، فإن حياة الناس ، والحركة التي تغص بها المناظر الشعبية ، ونماذج شخصيات قاع

المجتمع تظل بالنسبة له هي المجال الحيوى الذي يجاول استكشافه أو الأرض البكر التي كان عليه ان يفلحها . غير ان عمله خارج المرسم كان يسبب له بعض المتاعب : إذ ان نفس هؤلاء الناس الذين كان يهتم بالتعبير عن حياتهم كانوا يعوقون استمراره في العمل اذ كانوا يلتقون من حوله لتأمل ما يقوم بتصويره . فكان يرحل في صمت بحثا عن مكان آخر . اذ ان ذلك الانسان المؤمن لم يكن يرد الاهانة حتى عندما كان البعض يبصق على الورقة التي يرسم عليها ! بل عادة ما كان يسامح ويبرر فعلتهم قائلا : لا يجب على ان أتبرم ، ان هؤلاء الناس ليسوا اشراراً لكنهم لا يفقهون شيئا ولا شك انهم يعتقدون ان الرجل الذي ينهمك في الرسم ليس الا مجنونا » ( ٢٣٠ ) .

وبانهاكه في تصوير المناظر الشعبية التي يطالعها في الطرقات العامة ، وقاعة الانتظار لراكبي الدرجة الثالثة ، وتجمعات الإضراب أو احدى المستشفيات ، والسوق الاسبوعي ليوم الاثنين ، وأحد أركان ملجاً بلدة خيل gheel ، ووصول مركب في الميناء ، وبعض البؤساء الملتفين حول اناء الحساء الشعبي أو في بيت الصدقة ، لقد أخذ اعجاب فنسان يتزايد بكبار رسامي المناظر الشعبية مثل رينوارد Renirire ، ولانصون laocon ، أو جوستاف دوريه gustave Doré و موران موران Morin ، جافاران Herkomer ، هيركومير Huword Pyle ، وكين فكان المصور الفرنسي دومييه Howord Pyle ، اما فنانه المفضل فكان المصور الفرنسي دومييه Howord الذي تأثر فنسان بأسلوبه الحيوى الصارم . وكان هذا الاعجاب يتزايد كلم صادفته صعوبة ما في التعبير أو في اضفاء و الحياة والحركة ، على كل المناظر والتكوينات التي يراها وتمثل المشكلة الأساسية التي تثير اهتهامه : وهنا يقول موضحا : و انني مأخوذ بكل هذه المناظر بحيث أقوم بتنظيم كل حياتي علني استطبع التعبير عن مختلف هذه المناظر للحياة اليومية . . لقد بدأت الصراع ، وانا اعرف تماما ما الذي أريده ، واي ثرثرة من قبيل ما يدور حول ما يريدونه من لوحات لن تجعلني أحيد عن طريقي » (رابار - ١٣) ) .

وباختياره الانتهاء إلى طبقه معينة وتكريس حياته للتعبير عنها ، قام فنسان بمعايشة هذا الاختيار في فنه وفي حياته . ونتيجه لتخليه عن الطبقة التي تنتمي اليها الأسرة أو « بانحطاطه ؛ عن مكانته \_ على حد قول بعض النقاد المتمسكسين بالشكليات الاجتهاعية \_ لم يعد لفنسان أية صلة بفناني مدينة لاهاى . وبدلاً من ان يعاني من ذلك الفراغ الذي أحاطه بتباعد الجميع من حوله ، فقد ملأ حياته بالعمل المتواصل. وقد انتقل اهتهامه من التعبير عن الجهال الخالد المتجدد الايقاع للطبيعة إلى حياة الناس بكل ما بها من محن. وها هو يعبر في سعادة اذ استطاع و أن يتجاهل أو يهمل التفاصيل الصغيرة الفرعية ويركز اهتهامه على الأشياء الاساسية التي تدفع إلى التفكير بشكل مباشر وذاتي ، وتمس الانسان بصفه إنسانا. بدلا من الاهتهام بالمراعى والسحب ، ( ٢٣٧ )

وازدادت فكرته وضوحا حول العمل الايجابى، ذلك أنه كان يتمثل أفكاره ومبادثه ويترجها إلى فعل محدد حتى لا تبقى مجرد فكرة لا معنى لها. ومن هذه الزاوية، فإن تحديده للطبقة التى يود الانتهاء اليها لم يقف به عند حد العواطف الجياشة الدافئة تجاه البسطاء والحب الفياض لكل الناس، وانما حاول في الآن نفسه قداسته الاشتراكية السابقة في المجال الفنى وأصبح اهتهامه الأساسى يدور حول فكرة محددة هي : كيف يمكنه توصيل عمله للشعب على الرغم من تلك البورجوازية المتداعية ؟ ذلك أن فنسان كان يؤمن بأن الفنان يبدع من أجل الشعب ، وأن تلك هي أسمى الغايات وأنبلها بالنسبة للفنان .

ومع ادراكه للمدى الذى تشتمل عليه هذه الفكرة الانسانية التى تحتفى بالناس وتهب الحب للبشر ، فقد اتجه تفكيره فى بادىء الأمر إلى عمل جماعى . فلم يكن يبغى من ورائها أية مكاسب شخصية . وراح يكتب إلى صديقه رابار Rappart ليحثه على وان يتكاتفا بجد صادق بغية انجاز عمل يفوق طاقة الفرد الواحد (مثال اعهال اركهان \_ شاتريان Erckmaum. Chatian فى الكتابة أو رسامى الحفر فى عمل مجموعة مجلد الجرافيك ، (رابار ١٦) .

وها هو يكتب لأخيه قائلا : « اذا ما وحّد الفنانون جهودهم لتصبح اعمالهم فى متناول الشعب وفى امكان الجميع ، فيمكننا التوصل إلى بدايات مجلة الجرافيك ، (٢٤٠) .

ولما لم يتلق فنسان اى رد مشجع ، فقد قام بجمع حوالى مائة رسم من رسوماته ، وكلها دراسات لأفراد من الشعب كانت ثيار آخر شهرين من العمل المضنى ، لكن سرعان ما ارتطم بذلك الحاجز الأصم لمجتمع بورجوازى متسلط ، لا مصلحة له فى تحقيق فكرة ترمى إلى خدمة الجموع . وفى نفس ذلك الوقت كانت بحله و الجرافيك ، الانجليزية ذات الميول الشعبية الانسانية ، والتى كان فنسان حريصا على ان يجمع أعدادها بدأب ، بدأت هى الاخرى تميل تدريجيا إلى التبرجز

البطىء. فى الوقت الذى كانت زميلتها الهولندية ( دى زوالو ، Detwalair محتضر ! الأمر الذى يعنى انه لم تعد هناك \_ بالنسبة لفنسان \_ أيه امكانية لطبع رسوماته الشعبية من أجل تحقيق مشروعه النبيل ! لقد سارت مسيرته فى الطرق المسدودة . ويمرارة شديده بدأ يدرك ما وراء الوقائع ، وهنا يقول : ( إن اصحاب دور النشر يزعمون ان بيع هذه المجلات لا يحقق لهم أية أرباح ، وبدلا من ان يوسعوا انتشارها هاهم يقومون بتخريبها ، (٢٤٠) .

واذ رأى عقم الصراع وعدم جدوى مناطحة الصخور الناتئة من قوى السلطة . التي سبق له وتعامل معها من قبل ، فقد بدا الامر وكأن فنسان يجبو لحظة وهو يتساءل : ترى ما جدوى ذلك كله ؟! ما جدوى كل ذلك الجهد المتواصل ، المحكوم عليه مسبقا بالفشل والذى لا يود مخلوق أن بلتفت إليه ؟! وعندئذ ترامت له تلك الكلمات الحيوية التي قالها هركومر Herkomer ، الرسام وأحد مؤسسى مجلة وجرافيك ، والذى كان يناضل ضد تبرجز المجلة .. وأذاب وهج اصرار هركومر جليد يأسه وتطلع لهدير كتاباته فادرك ان ثمة دوراعليه ان يقوم به وان عليه ان ينزع روحه من أتون اليأس والضياع ، لتنطلق ارادته في اصرار لمواصلة العمل . .

ودونما أحلام وردية جدباء ، ادرك فنسان انه ليس وحيداً في الصراع مها كان عنف المعركة ، فامتلك من جديد زمام شجاعته واستعد لمواجهة غيوم سوء الفهم والاحتقار ولعنات تجار الفن ومديريه ، اولئك الذين كانوا يمثلون في نظره . وأعداء الفن . .

وكعادته في ايام دراسته الدينية ، أو في مرحلة بوريناج والمناجم ، قرر فنسان ان يتصرف كانسان منتم يمتلك ارادته ويحشد قواه من اجل هدفه . وإن يخلع عن نفسه دور المتفرج الذي لم يستسلم له ابدا . وجاهد بالفعل لتحقيق ذلك الحلم الاجتهاعي المحدد الذي أملاه على نفسه ألا وهو : توصيل الفن للشعب . وإذ رأى ان الصراع بالكلمات لا يكفى وموقف الانتهاء فقد كتب لأخيه قائلا : وإن ما يجب على كل متعاطف مع هذه القضية أن يعمله في عيطه . هو أن يحاول تحقيق شيء ما أو على الأقل أن يجاول المساعدة على تحقيقه ، ( ٢٤١) .

ورغم عنف موار المتناقضات الاجتماعية إلا أن الصراع معها ماكان ليثنيه أو يعوقه عن صراعه الآخر مع المشاكل التقنية التي تواجهه كفنان ، والتي اعتبر حلها في ذاته . دوراً ورسالة . وبتخطيه لهذه العوائق المتباطة والتي تمثل أحد قوانين تلك

الثنائية الخالدة القائم عليها لفز الطبيعة ، واصل فنسان عمله اعتهادا على مفهومين يكمل أحدهما الآخر في نظره ألا وهما : رهافة الملاحظة والتحرر من قيد المألوف ، وتعبيره هو ، أو على حد قوله : ( عدم خفض جناح الإلهام وألا يصبح عبداً لمعطيات شكل النموذج الذي يصوره ، وهو المفهوم الذي يمثل العنصر الأساسي للفن المعاصر .

وبترويض ذاته على تحمل صعوبات تحقيق فكرته فى هذا المجتمع الصخرى راح يكتب بشىء من الحزن قائلا: وأشعر وكأن فى أعاقى قوة ثود التطور، نارا لا يمكننى تركها تخبو، ولابد لى من إذكاء إوارها دون انتظار للتتيجة التى سأصل اليها؛ ولن يدهشنى البتة اذا ما كانت النتيجه حزينة . فها الذى يمكننى ان اتوقعه من حقبة كتلك التى نعيش فيها؟ ، (٣٤٢).

لكن ايمانه الراسخ هذا ، وإرادته الصلدة العارمة ، وانسانيته الجياشة خضعت لقيد آخر يتصل برؤيته للحياة حيث : « من الأفضل ان يكون المرء مهزوما وليس غالبا ، فمن الأفضل مثلا ان يكون المرء برومثيوس بدلا من جوبيتر »! انه بناؤه النفسى الذى تتصارعه توحدات دينية بعينها لا تحتمل العدوان أو حتى مجرد شبهته ، وقد تؤثر فى نهاية المطاف انتصارا من نوع آخر حيث « من لطمك على خدك الأيمن . . » ، وعلى حد قول فوشيه Fouchet فى مقاله الممنون فنسان ، اللهب (صفحه ۱۵) : « ان الذى لا يقوله فنسان ونجرؤ نحن على اضافته بدلا عنه هو ان برومثيوس يجد انتصاره فى هزيمته ، وان جوبيتر أقل خلوداً من برومثيوس »!

ان هذا الانتهاء الكامل تجاه البشر ، والذي تسانده وحدة ضارية تدفع إلى البأس ، قد وجها نظراته مرة اخرى ناحية الطبيعة التي بدأ يتكشف فيها رؤية « ذات روح » . وعندها أضاف عنصرا جديدا إلى كتاباته ألا وهو : الاحيائية Amimisme . ولم تكن احيائية ملحمية مثلها هي عند فيكتور هيجو ، واتما رؤية اكثر انسانية ، تزيد من التقارب بين عناصر الطبيعة والانسان .

وفي شهر نوفمبر، أي بعد قرابة عام من استقراره في مدينة لاهاي، ما كان لفنسان ــ بكل رؤاه هذه ــ ان ينجح في نشر رسوماته في المؤسسات الرسمية المناهضة لكل جديد ، لكنه لم يستسلم ولجأ إلى وسيلة الحفر ( الليتوغرافيا ) ولم يلجأ إلى هذا المجال الجديد بسبب عدم الاستقرار مثلها اشيع عنه طويلا ، بل لأن الفعل لديه كان دائها سباقاً مناغها لأفكاره الطموحة . وكان هذا المشروع الجديد يخدم هدفين : أولها ، امكانية ارسال بعض من نماذج رسوماته إلى المختصين حتى يحصل على وظيفه رسام ثابته في احدى الجرائد أو المجلات. دون ان يفقد الأصل الذي حفر منه ؛ ومن ناحية اخرى كان يود القيام بعمل طبعة شعبية تضم مجموعة من رسوماته (حوالى ثلاثين رسما) من أجل طبقة العمال التي أهملها الجميع . إن أحد دوافعه كانت يقينا ـ من أجل تلك الطبقة الكادحة التي عايش خلجاتها واحس بوطأة معاناتها ، وللأسف ما من احد من الفنانين خطا خطوة عملية لعمل أي شيء من أجلها . وهي الطبقة التي لم يكن في وسعها اقتناه لوحة ما . ألم يكن من حق هؤلاء المنبوذين المستعبدين ان يحسوا بالجال ويتذوقوا بعضا من آفاقه وهم صناع الحياة وواهبوها لتلك الطبقة البورجوازية التي تسحقه؟! وهو لا يكتفي آنذاكُ بالليتوغرافيا فحسب . بل يصل بفكره وعمله إلى أعلى درجات الاشتراكية الانسانية بحاولته تمجيد العمل والعمال في رسوماته .

ومع تهمه الذى لا يرتوى من القراءة ومطالعة مجلات الحفر . ضاعف نشاطه فى المطبعة متمتها تلك الكلمات المريرة العميقة الايمان لذلك العبد المسكين فى رواية منزل العم توم الذى كان يرددها وهو ذاهب ليلاقى حتفه : « لتنهمر على الأحزان ، ذلك الطوفان الداكن ، أو عواطف الأسى ، فإن ملجى وسكينتى وكل مالى ، هو الت يا ربى ع . . .

انه استشهاد لا يتفق والحالة النفسية لفنسان آنذاك فحسب ، وانما يكشف أيضا عن ايمانه العميق بالله والذي لم يفقده ابداً وها هو يجاول ان يعبر أو يضفى على رسوماته براهين ثابتة راسخة على وجود الله والخلود . لذلك أصبح أسلوبه الجديد شغوفاً لفهم تلك العناصر التي يصعب وصفها في الطبيعة والتي تبدو كأنها تتكلم ، ومن ثم التعبير عنها . و فالطبيعة \_ على حد قوله \_ تشرح ذلك لكل من لهم بصيرة يرون بها ، وآذان يسمعون بها ، وقلب يفهمها » . . وبذلك اصبح هدفه الأساسي لعمله هو : التحدث إلى من يمكنه تأمل الطبيعة لتضفى عليه السكينة وتناشد قلبه . فالطبيعة اذن هي دافع متعدد المعنى ، يهرب اليها أيضا من وحدته ويتحاور معها فالطبيعة اذن هي دافع متعدد المعنى ، يهرب اليها أيضا من وحدته ويتحاور معها

ليتمثل ذلك الحوار في هذه اللوحة أو تلك ــ وعندها لا يشعر بالوحدة حينها يردد لنفسه : و انني حقا انسان وحيد ، لكن . . ربما تحدثت أعهالي مع شخص ما بينها انا قابع هنا دون ان أفتح فسي . ان من يتأملها آنذك لن يشك في ان المحبة لا تنقصني ، ( ٢٤٨ ) .

وكأن هذه الفكرة المتمثلة في ان العمل الفني لغة حوار ، قد أصبح الفن معها بالنسبة له وسيلة حوار مع الآخرين ، وسبيلاً أمثل بواصل هو الارتقاء من خلاله ، ومرة اخرى ها هو يجاول جاهدا ان يقدم فنه المرتبط بالناس وبالحياة إلى الكادحين الذين اهملهم الجميع ، الا ان اتساع وضخامة هذا المشروع كان يتعدى نطاق الفرد الواحد . وبدلا من ان يياس أو ان يستسلم للمتاح والمالوف ، ها هو يفكر في تكوين جمية للرسامين ، تتولى مهمة رسم ونشر مجموعة من الرسومات تمثل « نماذج من العيال من قبيل باذر الحب ، الحطاب ، المكد ، الحارث ، الغسالة وأيضا مهد صغير ، وعجوز في الملجأ » ( ٢٤٩ ) . لقد كان يفكر في « طبعة شعبية كان الواقع — وبخاصة في هولندا — في أشد الحاجة اليها » .

ان ما كان فنسان يتصوره انما هو نوع من مؤسسات الرحمة \_ بالمعنى الانساف والتصوفى للكلمة . انها مهمة التزام وواجب ، وليست عملية تجارية بحال يجب ان يساهم فيها عدد من الرسامين على ان ويتقاسموا التكاليف ، بحيث يتحمل كل فرد ما يمكنه تحمله حتى ينجح المشروع » . وهو مشروع ويتساوى فيه كل الاعضاء . . لا قوانين ولا رؤساء ، لا هذا ولا ذاك ، تكفى فيه مذكرة تثبت وجود الجمعية فحسب » .

لقد كان الأمر يعنى بالنسبه لفنسان ، أن يجرؤ المرء على التضحية والمجازفة ، ليس بغية تحقيق المكاسب المادية . وانما لأن ذلك المشروع طيب ، مفيد وضرورى حتى يصل الفن للجهاهير الكادحة هناك ، في بيوت العبال ، في القرى ، ولكل الأيدى المعروفة بقيمة العمل . بل لقد فكر فيها هو اكثر من ذلك : فكر في توزيع أول سبعهائة طبعة من الرسومات مجانا إلى الشعب ، ألم يسبق له ان وزع الانجيل مجانا ايام وجوده في بوريناج مع عهال المناجم . . ان من وهب نفسه للآخرين كان يفكر في جمعية تعمل في حيوية والتزام .

واذ لم يجد أية أصداء لهذا المشروع ، راح يكتب في خطاب من اكثر الخطابات مرارة وكشفا لخيبة آماله ووحدته قائلا : و ربما كان من الافضل ان أبحث عن مهام يمكن انجازها بمفردى ، ان أتولاها وحدى واكون مسئولًا عنها تماما ، بما ان معظم الفنانين نيام ويؤثرون الا يوقظهم من ثباتهم أحد؛ ( ٢٤٨ ) .

وفى زمن بدأت تخبو فيه القيم المعنوية ، لتحل محلها القيم المادية ، كان من المستحيل على فنسان أن يجد لنفسه مكانا في مثل ذلك المجتمع . گقد احتواه من جديد \_ ذلك الشعور القديم بأنه و مسجون » . . أشبه ما يكون بجدى تم حبسه في زنزانة بينها المكان الحقيقي الذي يجب أن يكون فيه انما هو ساحة الوغي . . لذا راح يكتب الأخيه وهو يقطر أسى : و أود أن أقول لك شيئا يثقل صدرى ، الأنني أشعر بداخلي بقوة تعوق الظروف تطورها بشكل طبيعي ، ونتيجة لذلك فكثيرا ما أحزن . انني مسرح لصراع داخلي : لم أعد أعرف ما الذي يجب على ان أفعله . ان الأمر ليس يسيراً كها يبدو للوهلة الأولى » ( ٢٥٢ ) . وبمرور الوقت كان يدرك و بوضوح أنه حتى في مجال الحفر والرسم ، فإنهم يتبعون ايضا ذلك التيار المفتعل . . ذلك أن المجلات لم ثعد تقبل سوى الركام الذي الا يكلفهم أية نقود أو معاناة » . . ها هو باب آخر يغلق ببطء ، لكن باحكام .

لقد اتسم موقف تيو حيال هذه الفكرة الاجتهاعية الجديدة والمحبة للغير ، التي طرحها عليه فنسان ، هزيداً من الصمت ، حتى ان فنسان راح يكتب له في بداية شهر ديسمبر قائلا : و اكتب لى ياعزيزى . حتى وان لم تكن لديك أية نقود ، لانني بحاجة إلى عطفك الذي يساندني بنفس القدر . .

لكن سرعان ما تغير موقف تيو ، ولم يكن دافعه \_ يقينا \_ إيمان بالمشروع الطموح والنبيل معا ، وانما خوفه من ان يتحول فنسان عن المشروع ، وكنتيجه لياسه ، إلى الشروع في الزواج من كريستين !! وهكذا اقترح عليه أن يقوم و بعمل رسومات صغيرة الحجم ه ! انه يحقق هدفين معه : ألا يصل فنسان إلى عتبه يأس تدفعه في اتجاه كريستين . وخفض المصروفات التي يدفعها لأخيه ، وكلها \_ في نظره \_ وكها يبين من الوقائع \_ أهم لديه من المشروع وقيمته الإنسانية .

وبحزن شديد أدرك فنسان ماكان إميل زولا يطلق عليه و انتصار الحقارة » ، فكتب قائلا : و ان الأنذال والجهلاء يحتلون مكان العاملين والمفكرين والفنائين ، لكن . حتى ذلك ، ما من أحد بات يلحظه » ! ( ٢٥٢ ) .

وفى شهر ديسمبر ازداد حزن فنسان وهو يرى مجله جرافيك تعلن عن عزمها نشر د نماذج من الجمال ، بدلا من تلك المجموعة المسهاة ( نماذج من الشعب ) ! وهو ما يكشف عن الكفة الراجحة فى ذلك الصراع الشرس بين تيارى البورجوازية المستغل ، والمطحونين البؤساء المستغلين . . وفى مواجهة هذه القلوب الحجرية ، لم يعد بوسع فنسان ، الذى يسعى إلى مزيد من التركيز والبساطة والفن فى عمله ، وإلى مزيد من الروح والحب والعطاء ، الا ان ينسحب إلى صمته الحزين . وقور الا يحارب فى المستوى الاجتماعى ضد هذا التيار الاقتصادى البورجوازى الراسخ الاركان ، والذى اكتسح موجه العاق كل شيء حتى ذلك الحلم البسيط من أجل فن للبسطاء . ها هو تذروه الرياح ليقف فى مفترق طريقين : ان يساير المألوف ويرسم نماذج من الجهال لاتتفق ومفهوم من انتمى للشعب بكل جوارحه ومثالياته ، أو . . .

.. وبادراكه حقيقة ما يدور من حوله ، خاصة فى ذلك الجو المميز لأعياد الميلاد ، حيث تشع المشاعر الدينية الصافية ، شارك فيها فنسان برسم يمثل رجلا يقرأ الانجيل ، ورسم آخر لشخص يؤدى الصلاة قبل وجبة الغذاء . لقد حاول التعبير عما هو خالد فى هذه اللحظة ، مناغما نفس الفكرة التى عبر عنها فيكتور هيجو فى صيغة جميلة نقلها فنسان فى أوراقه : وان الأديان تمر ، لكن الله دائم ، . . لم يبق لفنسان اذن غير فنه والله . . وكلاهما سمو لم يعد لهما مكان فى عالم المستغلين . وهكذا ، اسدل الستار على فصل جد هام فى مجال الادوار الاجتماعية التى حاول فسان ان يقوم بها فى مجال الفنون . .

وفى عشية رأس السنة الجديدة ، بدأ فنسان خطابا لأخيه ولم ينته منه إلا فى الثانى من يناير عام ١٨٨٣ . وهو خطاب شديد الحزن ، يبين منه ان فنسان غلف أحلامه فى لفائف النسيان ، ومثلها فعل من قبل حينها غادر انجلترا ، بدأ خطابه بالاعتذار لأنه لم يستطع ان يقدم شيئا له قيمة طوال العام المنصرم ، ورثى لتلك الهاوية من العداء التى تفصل بين الفنانين واستحالة تحقيق المشروع الذى فكر فيه . لذلك قرر الا يحاول مرة اخرى ان يتعامل مع الآخرين ، وان لم يفقد ايمانه بأفكاره . وهكذا اقتصر نشاطه على فن التصوير . ذلك الفن الذى ود من خلاله ان يتخطى الطبيعة وينجز شيئا صادقاً ، نضراً ، له روح متألقة .

وفى بداية شهر يناير أيضا ها هو تيو\_ هذه المرة\_ يكثب ليبوح لأخيه فنسان بأنه يمر بتجربة عاطفية مماثله لتجربته . ومن الغريب أبضا ان كافة المراجع تغفل هذه الواقعة . لتظل صورة تيو وقورة مستقيمة الخلق . . وعلى النقيض من موقف تيو حيال مغامرة فنسان مع كريستين ، فقد كتب له فنسان بكل الصدق قائلا : حقاً ان المجتمع الذى ننتمى إليه يعتبر مثل هذه الافعال حقاء وجسورة وغبية وما إلى ذلك ، ( ٢٥٦ ) ، ثم راح يحثه على اتخاذ طريق الضمير الحي والا يقع في شراك الافكار المسبقة .

ودون الخوض فى تفاصيل الاحداث أو الفروق الجوهرية بين أخلاق الأخوين ، فقد لاح لكل منها على قارعة الطريق البارد الذى لا يرحم طيف امرأة حزين مفجع . ولم يدر أحدهما ظهره . فقد توقفا وأنصتا إلى صوت الضمير الانسانى ، غير أن تصرف كل أخ كان جد مختلف عن الآخر ، وان انتصرت عليهما العقليه البورجوازية فى نهاية الواقعتين .

وبدءاً من ذلك الخطاب ، ارتكن فنسان إلى خبرته الشخصية وراح يتكلم ثانية عن كريستين قائلا : « ان انقاذ نفس انسانية لمهمة جليلة وجميلة ، لكنها في غاية الصعوبة وتتطلب الكثير من المثابرة » ( ٢٦٠ ) . وخلال تلك التجربة الانسانية التي خاضها مع كريستين ، والتي عادة ما يذكرها النقاد ببعض الكلمات المريرة اللاذعة ، فقد جاهد فنسان لتعميق فنه وحياته اذ « ان الاثنين يتواكبان » في نظره .

ومع ايقاع العمل الشاق ، والميزانية الشحيحة التي لا تكفى للغذاء الضرورى بدأ جسم فنسان يتآكل ببطء ، لتتراكم الآلام . فبدأ يشعر بدوار دائم إلى جانب آلام أسنانه ، ثم بآلام في الرأس وطنين في الأذنين ، ثم بدأ احتقان عينيه ! فأصبح النظر يؤلمه وجدات الأشياء تهتز بعض الشيء وتفقد وضوحها هونا . ودفعته هذه المعاناه إلى و رؤية الحياة بألوان المياه العكرة ، الشبيهة بحفنة رماد » . ولم يصدق انه لما يبلغ الثلاثين من عمره بعد . . ومع ذلك ، فقد كان ممتلا بالتفاؤل حتى انه توقع لنفسه ان يعيش ثلاثين عاما اخرى من العمل الجاد . لكن ما ان نظر إلى الوراء وتذكر كل ما اعترى حياته الماضية حتى راح يضيف : « ان ما سيحدث لا يتوقف على وحدى ، فالمجتمع والظروف لهم كلمتهم الفاصلة » . ( ٢٦٥ ) .

ان هذا التعليق لا يشير إلى فهم فنسان للمجتمع فحسب ، وانما يبرز أيضا لذلك المعنى الذى اختاره أنطونان ارتوAntonin Artaudعنوانا لكتابه : فنسان منتحر المجتمع ، بمعنى ان المجتمع ومؤسساته الدوجانية والأفكار المسبقة هى التى دفعت فنسان إلى الانتحار . ورغم التعب والمعاناة ، كان فنسان يواصل مطالعاته . وها هو قد أنهى في تلك الفترة قراءة الطبخ لإميل زولا ، وسجون لفرينز رويئر Frety Roeter ، والشعب لميشلبه ، والمارس المعتدل لإيليوت ، وثلاث وتسمون ، وأحدب نوتردام لفيكتور هوجو . ذلك أن مفهومه ظل واحدا لم يتغير ألا وهو أن « الكتب والواقع ، والفن ، كل متكامل » . .

ومع كل ما دفنه في الأعهاق من مرارة وشعور بالظلم والاهانة ، الا ان فنسان حاول ان يبدو طبيعيا وان يتصرف و بشكل طبيعي والا يبدو اى شيء على الوجه ، (رابار ٢١). الا ان كثرة المشاكل التي كان يواجهها في آن واحد (مشاكله الفنية ، والدور الذي يحاول تحقيقه في المجتمع من اجل الكادحين ، وانقاذ كريستين من الضياع ، ووضعه المالى ، وخلافه الشديد مع الاسرة ) جعلته يشعر وكأنه يغرق في أغوار حمى داهمه ، نبتت معها بدايات تلك الأزمات النفسية التي أسيء تفسيرها ، والتي سنتناولها بالبحث فيها بعد . وفي الثامن من شهر فبراير عام ١٨٨٣ ، راح فنسان يكتب عن حالته الصحية قائلا : و ان كل ذلك قد يؤدي إلى عسر هضم ، إلى هياج محموم ، أو إلى شدة اثارة ، اذ انني اختنق مثل صيف قبيل العاصفة . لقد مررت مرة ثانية بهذه المشاعر ، الا أنني اقوم بتغيير اهتهاماتي كلها وجدت نفسي في هذه الحالة . حتى يمكنني مواصلة كل شيء منذ البداية ،

وخلال الشهر نفسه ، كان فنسان هو المشترى الوحيد لمجموعة من الحفر في احد المزادات العلنية ! بما ضاعف من احباطه وخيبة آماله ، بل وعدم توافقه مع عصره الذي وصفه بأنه و شديد القتامة »

واذ لم يكن فى مقدوره تغيير أفكاره ذات النزعه الانسائية او كبح مشاعره فى مساعدة الآخرين ، راح فنسان يفكر فى مشروع جديد ، يقتصر نشاطه فيها بين الفنانين والموديلات العاملين معهم . وهو مشروع كم نادى الاشتراكى فورييه Fourrier بفكرته . ذلك أن فنسان بدأ يفكر فى انشاء جمعيه تعاونية فنية حتى وان كان ذلك متناقضا مع سابق قراره فى ان يتباعد والا يساهم مرة اخرى فى نشاط اجتهاعى أو جماعى ، جمعية تعاونية يجد فيها كل من يريد العمل كافة المواد اللازمة ، ولم يكن هناك من شرط سوى ان يظهر الفنان مهارة وحيوية حقيقية ، وان يعمل بحياس ، وبصدق أصيل وليس بغية ارضاء تجار الفن .

كان فنسان يتصور جمعية تضم المصورين عبر تعاطفهم المتبادل ، تجمع بينهم رغبتهم الواحدة ، وصداقتهم الحميمة ، وأمانة مخلصة وليس مجرد التواجد وعرض لوحاتهم معا . اذ ان تجاور اللوحات على الحائط لم يكن يعنى لدى فنسان ان روح الوفاق قائمة بين من قاموا بتصوير هذه اللوحات المتجاورة في المعرض !

وكان لهذه الجمعية التعاونية هدف آخر فى ذهن فنسان هو: أن يكون المرسم أشبه و بالمرفأ ، لعدد كبير من الموديلات والبؤساء. بعبارة أخرى أن يكون مأوى للجميع من البرد والجوع حينا يعوزهم المأوى . و مكان يجدون فيه الدفء وبعض الطعام والشراب ، بالاضافة إلى امكانية ان يتكسبوا بعض النقود . وفى الوقت الحالى أقوم بنفس الشيء على نطاق ضيق . لكننى اتمنى ان افعل أفضل من ذلك ، ( ٢٧٨ ) .

واذ شرع فى تحقيق احلامه على المستوى الفنى ، بدأ يدرك عدم توافق ارتباطه بكريستين . اذ لم يقتصر الأمر على عدم وجود اى حوار بينها ، يناغم ما يقوم به تيو مع صديقته ، النهمة المطالعة المحبة للمناقشات ، لكنه اكتشف أيضا مأساة أسرة كريستين الغارقة فى هاوية الدعارة . لقد كانت أسرة مقززة ، يقوم فيها كل من الأم والأخ بدفع تلك البائسة لمعاودة مهنتها ثانية تحت حجة تمكينها من العيش ومجابهة تكاليف الحياة !

وكالعادة ، بدأ فنسان برؤية الجانب الطيب فى الموقف كله ، لقد بدأ بالتبرير والتسامح ، مكتفيا بأن وضح لكريستين أنها ستكون اكثر شجاعة وأكثر أمانه مع نفسها اذا ما قاطعت أسرتها .

وعندئذ فحسب ، بدأ يندم على ذلك الموقف الخاطىء الذى عاشه معها والذى تسبب \_ إلى حدما \_ فى ابعاده عن العالم الفنى . لكه سرعان مارفض التردد وراح يستمد شجاعته من تلك العبارة الانجيلية التى تمثل سندا وعقيدة بالنسبة له : د ان من يفنى حياته سوف يجدها ثانية ، مرددا لنفسه انه ليس من حقه أن يوارى مثالياته أو أيا عايقوده إلى افتى فسيح من الرؤى . وازداد غوصا فى مطالعاته ، مواكباً التيارات الحديثة المعاصرة ، كما حاول تكوين وجهة نظر أكثر عمقا عن الفترة فيا بين المديثة المعاصرة ، كما حاول تكوين وجهة تمثل أهم الأحداث العصرية قاطبة ، مازالت تمثل \_ فى نظره \_ الدعامة الأساسية لكافة الاحداث . وراح بحث صديقه مازالت تمثل \_ فى نظره \_ الدعامة الأساسية لكافة الاحداث . وراح بحث صديقه مازالت تمثل \_ فى نظره \_ الدعامة الأساسية لكافة الاحداث . وراح بحث صديقه مازالت تمثل \_ فى نظره \_ الدعامة الأساسية لكافة الاحداث . وراح بحث صديقه مازالت تمثل \_ فى نظره \_ الدعامة الأساسية لكافة الاحداث . وراح بحث صديقه رابار قائلا : « لا أتصور كيف بحكن لإنسان أن يكون مصورا للاشخاص ولا يتذوق

مثل هذه الكتب. وكلما دخلت مرسم احد مصورى الأشخاص ووجدته خاليا من الكتب المعاصرة شعرت بالفراغ، (رابار ٣٥).

وفي حوالى شهر مايو ، يبدو أن أسره تيو قد رفضت زاوجه من تلك الشابة التي انقذها من الضياع ، بحجة نقص النقود اللازمة ! وقد أثارت هذه الحجة غضب فنسان الجامح ضد والديه . وفي خطاب يعد بمثابة مفتاح لأغواره الشديدة الانسانية ، والذي يكشف من جهة عن فكر فنسان حيال موقف ذويه المحدود ، ومن جهة أخرى يوضح تلك الحجج الصغيرة الضحلة التي تتمسك بها عائلته راح فنسان \_ الذي يؤمن بالحياة \_ يدين موقف أبيه خاصة وأن الموقف يتعلق بانقاذ نفس انسانية . فكتب قائلا لأخيه :

وحينها كان والداي يعارضانني ـ فيها يتعلق بموقفي ـ بحجة أنني لا أمتلك النقود الكافية لأتزوج ويتذرعان بضيق مواردي فلقد كانا نسبياً على حق . . وعلى ، العكس من ذلك ، ياتيو ، فإنني أرى أنها مهانة لا تغتغر وكفر مطلق من جهتهما أن يتذرعا بنفس الحجج في حالتك ، في الوقت الذي تنعم فيه بوظيفة ثابتة وبدخل طيب ( يفوق دخلهما بكثير بيني وبينك ) . وفي الحقيقة ان القسس لأكثر الناس كفرا في المجتمع . انهم ماديون بلا رحمة . لاحينها يصعدون على منبر الخطابة وانما حينها يتناولون المسائل الخاصة . . انني أرى أنه أمر قبيح ان يتحدث كل من أبي وأمي بهذا الاسلوب، في الوقت الذي كان يجب ان يكونا فيه شديدي القناعة مقتنعان بكل ما هو متواضع . انني لفي غاية الارتباك حيال هذا الموقف . كم كنت أفضل ألا نبحث جميعا الاعن السلام وان نلم شملنا بدلا من ان نتطلع إلى مراكز عالية . أن نكرس طاقتنا أيضا إلى تثقيف ذهننا وتطوير المشاعر الانسانية ، باختصار ـ في كلمة واحدة ــ ان نكتفي من حيث المبدأ بأكثر الأشياء تواضعا . . كنت أود ان تتاح لى فرصة ان أفخر بأبي ، الذي أراه كراعي قرية متواضع بأوسع معاني الانجيل . لكنني أصاب بالحيرة حينها أعلم انه يتدنى إلى مثل هذه التصرفات التي لا تتمشى وكرامة مهنته . فيها يتعلق بي ، كان يجب أن نعتمد على مساندة أبي حينها يتعلق الأمر بانقاذ روح امرأة مسكينة . أن يأخذ جانبها بالفعل لأنها بائسة ومهجورة لكنه ارتكب خطَّيتَة كبرى من جانبه . والمرء حينها يتصرف على هذا النحو لابد ان يكون غير انساني ، بل وأقل من ذلك ، حينها يتعين عليه ان يكون خادما للإنجيل ....

واننى لا أجهل أبداً أن الغالبية العظمى للقسس سوف يستخدمون نفس أسلوب أب \_ الأمر الذى أعتبر معه هذه الطائفة اكثر الجهاعات تدنياً فى المجتمع . قد يحدث لكلينا \_ انا أنت \_ أن نقوم بأشياء قد تعتبر حراما ، لكننا لسنا بلا رحمة \_ ونظل دوما ميالين للشفقة . ربما لأننا نعرف أننا لسنا بلا خطيئة ، كها اننا على دراية بسير الأمور فى هذا العالم السفلى ، ولا نضيع وقتنا \_ مثل القسس \_ فى ذم الضعيفات من النساء أو المخطئات منهن \_ وكان اللوم يقع عليهن فحسب . . اننى أرى ان اتخاذ أبى لهذا الموقف لهو أمر مشين ، (٢٨٨) .

وعلى عكس ذلك الأب الذى كان يرى شيئا من الفجور فى الزواج بإمرأة أقل شأناً ، كان فنسان لا يرى أية صلة بين المستوى الاجتماعى ، الذى يخص المجتمع ، وبين الأخلاقيات والقيم ، التى تخص الله .

ورغم هذا الموقف من فنسان ، فقد أخبره تيو في خطابه أنه ينوى انقاص المبلغ الشهرى الذى يرسله له ، وانه سيلغى ارسال مبلغ الشهر التالى نظرا لضيق حالته أو عدم الاستقرار الذى يجد نفسه فيه مع رؤسائه فى العمل . وهو ما كان يمثل بالنسبة لفنسان و ضربة شاكوش ، لأن النقود كانت تعنى بالنسبة له الموديلات التي يرسمها ، والمرسم ، والخبز . وانقاص المبلغ المرسل يساوى الموت دخنقا أو غرقا » . وفى الواقع ، لم يكن بوسعه ان يستغنى عن هذا المبلغ ولا ان يتدبر أموره بأقل منه . كذلك كتب يقول فى نفس خطابه السابق الاشارة إليه : « اكرر لك أنه لا يمكنى مطلقا الاستغناء عن نقودك قبل الحصول على وظيفة . . فالعمل بمثابة حاجة مطلقة بالنسبة لى » .

الا ان ذلك المنبوذ دوما من المجتمع لم يكن في استطاعته الحصول على عمل . في الوقت الذي كان يجلب لفنسان الظل الباقى من الدى كان يجلب لفنسان الظل الباقى من السعادة . في ان تتوقف يداه حتى يقع فريسة الاكتئاب وها هو يرى عدم ثبات هذه المساعدة ، التي يحاول تيو ، في لحظة ، ان يسحبها منه . ولم يكن في وسع فنسان آنذاك ان يدرك ان هذه المساعدة انما تمثل في الواقع اتفاقا مبرما بين فنان وتاجر ، ابدا لم تكن \_ في ظننا \_ وليدة الصدفة !!

ومن جهته ، لم يكف فنسان عن البحث عن العمل . ورغم الخلاف الذي كان يفرق بينه وبين ترستيج ، مدير قاعة عرض جوبيل ، فقد قام بمحاولة اخرى ومعه عدد من رسوماته الجديدة . غير ان ترستيج كان يعتبر هذه الرسومات «كأعمال شخص مجنون ، أوكشىء لا معقول نخالف للعقل ، ( ٢٩٥ ) ، وكان يفضل عدم التدخل لبيعها ! لقد قام فنسان ـ في الآن نفسه ـ بالكتابة إلى عمه ، الا ان خطابه ظل مهملا بلا رد .

ونظراً لقلة النقود بين يديه فقد بدت كافة المشاريع والمحاولات وكأنها قد تجمدت ، وتباعد الجميع من حول فنسان لعدم فهمهم له . ورغم كل هذه البغضاء التي كانت تعصف من حوله ، لم يكن فنسان يتمسك الا بشيء واحد ، ها هو يشير إليه في نفس ذلك الخطاب الطويل قائلا : و نعم يا تيو ، ان اول شيء أقسك به هو أنك افت \_ الذي فعلت كل شيء من أجل ، أجل فعلت كل شيء من أجل منذ البداية \_ من يمكنه دوام الرؤية بأن هناك شيئا له قيمة ما فيها أعمله . اذا أمكنني ادراك ذلك \_ فإن زيارتك سوف تمحو كافة معاناة العام بأسره » .

وعندما تلقى الرد ، لم يتمكن فنسان من دفع موجة حزن عارمة وهو يقرأ : « لا يمكنني ان اعطيك الا أملا ضئيلا فيها يتعلق بالمستقبل» (٣٠١) .

ولا نظن أن هناك ضرورة للتعليق على المعنى الذى تتضمنه هذه الجملة ، التى تكشف مرة اخرى عن راى تيو بالنسبة للوحات أخيه . ان هذه الضرية غير المتوقعة \_ التى تلقاها فنسان وفي الصدر » \_ على حد قوله ، لم يدرك سببها : ترى هل ترجع إلى سبب مالى ام انها تتعلق بعمله ؟ وهى فكرة لم يمكنه تحملها بعد ما قام به من جهد !

وعبر خطاب طويل ، أشبه ما يكون بالصرخة للدوية ، اعترف فنسان لأخيه الأصغر بشتى أنواع الفاقة التى يتضور فيها . . لقد كان على فنسان لكى يتمكن من التصوير ، ان يختار دوما بين أمرين : الاستمرار فى العمل مع مزيد من جوع ، أم الركون إلى حائط كف جد صارم ؟ وهنا يجيب فنسان قائلا : و الاختيار بين التوقف عن العمل ام الاستمرار . اننى اختار العمل حتى النهاية ي . وكان هذا الاختيار يعنى مزيداً من جوع ، يكتب عنه للمرة الاولى بهذا الوضوح قائلا : و اننى لا آكل مل عطنى » !! (٣٠١) .

وببطء شديد بدأ جسمه ينصهر فعلا . .

ونظرا لحالة الفقر المدقع ، القاسية الكفاف والتي تعوزه فيها المواد الفنية ، في وقت تآكلت فيه ثيابه ورتق حذاءه البالي من كافه نواحيه ، مما شعر معه بأنه ويغرق

فى الاكتتاب ، والضيق ، والقلق المرعب ، ثلاث كلمات دالة . كان يجب ان تنير السبيل لخطى مثات الأطباء وعلماء النفس الذين راحوا يتخبطون فيها بعد مع عشرات المسميات والتشخيصات بغية تبرير وجنونه ، المزعوم ، دون التوصل إلى اتفاق حتى على مجرد تسمية ذلك و الجنون ، الذى فرضوه عليه والذى سنحاول توضيحه فى الفصل التالى .

وبانزوائه فى حصر نفسى شديد ، لم يتمكن فسان من ادراك ما وراء هذا التباعد عنه وهذا العداء الذى يلتهمه من أولئك الذين ظلوا متجملى المشاعر حياله وخاصة حيال عمله الانسانى الصادق . ومع المعانلة والدوار الناجم عن الآلام والجوع ، بدأ فنسان يكتشف معنى الألوان . ذلك الاكتشاف الذى يتضح بشكل اكثر بلورة من ذى قبل : فقد اكتسبت دراساته مزيدا من الكثافة والحدة . وفى نفس الوقت نراه يتقدم بمعطيات جديدة لها أهميتها بالنسبة لأسلوبه ، اذ كتب يقول : ومنذ بضعة أيام حال تعبى دون مواصلتى للعمل كالمعتاد ، غير ان ذلك يبدو وكأنه يساعدنى بدلا من ان يعوقنى ، فحينها يكون ذهنى مسترخيا وأنظر إلى الأشياء عبر رموشى ، يبدو لى وكأننى أرى الأشياء اجمالا كبقع ملونة ، بدلا من دراسة مكوناتها رموشى ، يبدو لى وكأنى أرى الأشياء اجمالا كبقع ملونة ، بدلا من دراسة مكوناتها

لقد بدأ يلاحظ ذلك التطور الذى ينعكس على عمله ، فكتب مدفوعا بفضول لكشف اغواره ومعرفة مرماه قائلا : «على أية حال ، اننى أرى بوضوح أن دراساتى الاخيرة تختلف كلية عن اعالى السابقة » . وهى ملحوظة لا يؤكدها تطور رؤياه التشكيلية فحسب ، لكنها تحدد بداية ادراكه وملامسته لما وراء الواقع ، ذلك الادراك الذي أسىء تفسيره على انه «هلوسات » والذي سنتناوله بالدراسة فيها بعد .

وبهذا التحول الذي تم في عمله ، لم يعد فنسان يشك في أنه على الطريق السليم . واذا ما كان منذ فترة قد تنبأ لنفسه بتفاؤل شديد بأن أمامه ثلاثين عاما من الانتاج المتواصل ، الا انه عندما وصل إلى هذا الحد من الادراك ، الذي اتسم ببدايات جلاء البصيرة حتى راح يكتب : « انني لم أبدا الرسم في سن متأخر نسبيا فحسب ، بل واعتقد أيضا اني ساعيش بضع سنوات أخرى . . . يمكنني الجزم ، دون أية مبالغة ، بأن جسمى قد يصمد لبضع سنوات ، لنقل من ست إلى عشر سنوات . . . انني أعتمد تماما على هذه المرحلة ، (٣٠٩) .

ترى أمن حاجة لنضيف ان حسابه هذا قد تحقق بعد سبعة أعوام بالضبط ؟ وهى العبارة الوحيدة للأسف التى يجمع كافة النقاد على وصفها بأنها و نبوءة ، لأنها تحققت وثبتت ماديا ! ويواصل فنسان فى نفس ذلك الخطاب قائلا : « لا أزمع الحفاظ على نفسى ولا دفع الانفعالات والآلام بعيدا . . . اننى أعيش كجاهل يعرف شيئا واحدا بكل تأكيد هو : يجب على انهاء مهمة محدة فى بضع سنوات ، ولا داعى للعجلة أكثر من اللازم ، فلن يؤدى ذلك إلى شيء ــ لابد وأن أكتفى بعمل فى هدوء وصفاء ، وأن أؤديه بأقصى قدر من الانتظام والمواظبة فالعالم لا يعنيني إلا فى نطاق اننى مدين له ، ولى التزام حياله ، لأننى تجولت فيه لمدة ثلاثين عاما ، فعل ان اترك له بعض الذكريات عرفانا بالجميل ، وذلك فى شكل رسومات أو لوحات ، لم أقم بها بغية ارضاء هذا المذهب أو ذاك ، وانما لأعبر عن احساس انساني صادق .

دأى أن عملي يمثل هدفي الوحيد. .

وهو قرار سوف يوضح الكثير من تصرفاته القادمة . فذلك الذي كان يؤمن بصلابة و ان عملنا وحده هو الباقي ، اما نحن فزائلون ، كان المهم بالنسبة له ان يمنح الحياة لشيء ما حتى وإن كان على حساب حياته هو ، وهنا يحدد فنسان مرة اخرى الحقيقة التي وجدها في تلك العبارة الغامضة : و من يحاول انقاذ حياته سيفقدها ، لكن من يفقدها من أجل شيء سام ، فإنه سيجدها ، .

وفى بداية شهر أغسطس عام ١٨٨٣ ، بعد قرابة عام من زيارته السابقة ، ذهب تيو لرؤية فنسان . ودار الحوار بينها حول مساعدة تيو المالية ، وهندام فنسان ، وعلاقته بكريستين ، وخلافه مع والده ، القس فان جوخ ويبدو أن الحديث كان « مسموما » لدرجة ان فنسان ، ما ان عاد بعد توديع اخيه بالمحطة ، حتى أمسك بالقلم يرجوه ألا يضغط عليه بالرأى فى المسائل التى تناولاها ، ثم اضاف قائلا : « اعتقد أن سبب ذلك كله لا يكمن فى مسألة محددة بوضوح ومنعزله وانما فى اكتشاف ان طباعنا تختلف تماما فى بعض وجهات النظر » (٣١٢) .

ومرة أخرى ، ها هى الكلمات القليلة التى تبادلها الأخوان فى الطريق قد أوضحت لفنسان ان شيئا لم يتغير فى أعهاقه ، وأنه مازال يحمل نفس الجرح بكل آلام لحظاته الأولى . .

ورغم المعاناة الجحيمية التي يعيشها فنسان بسبب رفض كى Kee القاطع ، لم يستطع ادانتها . ولأول مرة نراه يتفوه بهذه الجملة الكاشفة والتي توضح كم كان ذلك الحب متبادلا معاشا بينها وليس مفروضا من جانبه وحده . وهو الشيء الذي تغفله كافة السير التي تناولت حياته ، أو التي لم يسمح لكاتبيها ان يذكروا هذه الحقيقة . وهنا يضيف فنسان : و ستفهم بالطبع انني لا أتوهم شيئا في الحب الذي تكنه لى ، وارجو ان يظل ما تبادلناه محصورا بيننا . فمنذ ذلك الوقت جرت احداث لم يكن لها ان تقع لولا ان : اولا ، لم أصدم برفضها القاطع ، ثانيا ، الالتزام بوعدى بأن أمح وجودي أمامها » .

ثم يتولى الدفاع عنها معترفا بأنها لم تنصاع للمسائل المادية إلا في نطاق المعقول: فلقد كانت عاقلة في موقفها . اما الأخرون فقد أصروا في المبالغة . ونظرا لأن فنسان قد وعد بكتهان ذلك الحب المتبادل بينها مثلاً وعد بالابتعاد عنها ، فلقد ظل يحترم فيها شعورها بالواجب حيال زوجها المتوفى ، وحاول ان يكتفى بالواجب من ناحية وانقاذ كريستين من ناحية اخرى . و فالواجب أمر مطلق على حد قوله . ونتيجة ذلك الموقف كله ؟ لم يعد فنسان يعرف سوى شيء واحد هو : و ان مستقبل عبارة عن كأس لن يبعد عنى إلا اذا احتسبته ع . وراح يتمتم مذعنا : و لتكن مشيئته ع !! لتكن ، ولا اعتراض من أحد على ذلك ، إلا أن نهاية هذا الخطاب الكاشف ذات لئن ، ولا اعتراض من أحد على ذلك ، إلا أن نهاية هذا الخطاب الكاشف ذات المتقبل المستقبل بهدوء ، دون ان تنم ملامح وجهى عن الصراع الدائر في الاعهاق . . ومع ذلك ، ستدرك بالطبع ، انه يجب ان اتفادى كل ما يمكنه ان يجعلنى اتردد ، أى كل ما ومن يذكرنى بها . وأيا كان الأمر ، فإن هذه الفكرة قد دفعتنى طوال هذا العام لأبدو اكثر نشاطا بما أنا عليه . ولتدرك اذن انني قادر على التصرف بطريقة لا يمكن لإنسان ان يفهم منها شيئا ع (٣١٣) .

ويظل لهيب هذا الحب المكتوم متأججا ، لكنه لن ينعكس منذ ذلك الوقت الا في لوحاته عبر تلك الدوامات وألسنة اللهب التي ستجتبيه في ضيائها . .

ولم يكن كل متاع فنسان ، وهو يمنح كريستين عفوه التام الانسان ، إلا حب نابض مدفون ، وجرح عميق فاغر فاهه إلى الأبد ، روعد قطعه على نفسه بالالتزام به . . واذ رأى كم كان تأثير أسرة كريستين من السوء عليها ، وخوفا عن ان تخضع ثانية لضغوطها ، فكر فنسان في الاستقرار معها في قرية صغيرة تأسره مناظرها الطبيعية . في محاولة أخيرة لإنقاذ وذلك الشيء ، الذي مازال في كيانها حيا تحت انقاض روح وقلب وعقل ضلوا الطريق . .

ويالسخرية القدر ، فلم يحصل فنسان مقابل موقفه الانساني هذا إلا على صفعة مريرة . فقد اكتشف صدفة أن كريستين تعود خلسة إلى طريقها الموبوء! وفي ثورة غضبه ، كان يلفظ مكانها هناك ، في تلك البيئة ، وبدلا من أن يدين تلك الأثمة التي هي انسان قبل كل شيء ، راح يكتب بتعاطف : « انها لم تر أبدا ما هو طيب ، فكيف يكنها ان تكون طيبة ، ؟ ! ثم راح يطبق عليها قول الأب بيانفنو Bienvene في رواية البؤساء ، والذي اعتاد أن يتوجه للحيوانات الشريرة أو السامة قائلا : وأيتها الدابة المسكينة ، انه ليس ذنبها إن تكون هكذا ، ، وهي نفس الفكرة التي تناولها أميل زولا وطورها بشكل أوسع في رواية الخيارة مرجعا النتائج إلى الاسباب الاجتاعية .

واذ لم يعد بوسعه ارجاء قراره فى ان يكرس حياته للفن ، فكر فنسان فى الذهاب إلى منطقة درانت Drenrhr ، تلك المنطقة الواقعة فى شيال هواندا على الحدود الألمانية ، حيث الطبيعة مازالت بكرا ، صادقة أصيلة ، والحياة هناك لما تزل رخيصة غير مكلفة هونا . وها هو يدفع بانسانيته إلى اقصى مداها اذ يعرض على كريستين امكانية خلاص جديدة ، واقترح عليها بالفعل ان ترافقه ، الا ان هذه البائسة قد رفضت هى الاخرى ، رفضت عرضه مؤثرة ان تقوم باتخاذ الاجراءات اللازمة ليتم تعينها فى احد بيوت الدعارة !!

اى احزان تلفه وتصفعه بقسوة وقـائعها ترى هل هى سخريه القدر ام قسوة الواقع نفسه ؟ ان فنسان لم يعد قادرا على فهم ما يحدث . . لقد كانت فكرة الزواج من كريستين وإبعادها فى منطقة درانت هى الحل الأمثل فى نظره ، لكن وباللأسف ــ لا هى ولا الظروف قد اصبحت تسمح بذلك .

وليس صحيحا ان فنسان قد هرب بعجالة مثلها تكرره كافة السير بين أيدينا وخاصة شار فصول (صفحه ١٨٤) الذي تولى نشر هذه المراسلات، وهو الذي درس نصوصها بعناية تتجاوز مجرد تصفحها . لقد حاول فنسان مرة اخرى – بكل ما فيه من انسانية متدفقة ، ان ينقذ كريستين ونُشراعلانا في لكى تحصل على عمل شريف ، ثم اعطاها اجرة السكن لبضعة أسابيع بما فيذلك من رغيف من الخبز يوميا ، ثم تقاسم معها ما يملك من ثياب ، بل واعطاها قطعه كتان من الذي يستخدمه في التصوير لتحيك قمصانا لوليدها ، واقترح عليها بأن تعقد زيجة عقلانية مع احد الأرامل ونصحها بأن تكون مع هذا الزوج أفضل مما كانت معه!!

إلا ان فنسان قد رأى ان كل هذه الجهود كانت هباءً ، وانها لم تكن تنتظر الا رحيله بفارغ الصبر حتى تعاود مهنتها القديمة ، وقد تخلت تماما عن فكرة خلاصها . ولم يكن ذلك \_ في واقع الأمر \_ تفكير كريستين ، وانما تفكير والدتها التي لم تكن نرى سوى جانب واحد من مصاعب فنسان المالية ، وهزأت من فكرة الزواج مؤكدة لابنتها انه لا يوجد هناك من هو مستعد بالارتباط باحدى «الساقطات»!

واذ لم بعد له من يتحدث إليه ويفضيه قلبه ، اتجه فنسان إلى التلال وقضى ثلاث ساعات تحت المطر ، وكأنه كان يودالأغتسالعن كل الآلام . ثم عاد ومعه دراستان : احداهما تمثل شجيرات ملتوية تحت عصف الربح ، والاخرى عبارة عن قرية بعد العاصفة . . دراستان تبدوان وكأنها تتواجدان مع حالته النفسية الدرامية .

وبد ن اعظ من ماساة العاصفة في الطبيعة ، وماساة الألم في الحياة ، كتب فنسان بحزن مرير قائلا : ( أخى العزيز ، ان كنت تعرف تماما ما يدور في كيان ، ان كنت تشعر مثلي انني أضعت جزءاً من نفسي من أجل هذه المرأة ، اعني انني قد عفوت عن كل شيء وكرست كل قواى لا نقاذها ، ان كنت تدرك تماما ذلك الحزن العميق الذي تسببه لي الحياة ، تلك الحياة ، تلك الحياة التي لم تستطع ان تجعلني غير عابيء بها ( على العكس ، انني أفضل آلامي على النسيان أو عدم الاكتراث ) ، ان كنت تفهم تماما إلى اى مدى استنفد كينتي للحد من أحزان ، وليس في التخيلات ، ستبدو لك روحي ، يا اخي ، بشكل مختلف واكثر زهداً في الحياة مما يكنك ان تتصور ( ٢٢٠٠) .

وبطيه في و لفائف النسيان ، لتلك المحاولة الانسانية لبعث كامل ، ذلك الفشل الجديد المفروض عليه ، لم و يبتعد فنسان نهائيا عن الدين ولم يتخل عن عقيدة الهمته سابقا تصرفات عالية القيمة الانسانية ، مثلها يؤكد ترالبو في كتابه قان جوخ غير المحبوب (صفحه ٨٦) . ان ذلك الانسان المؤمن بالانسان لم يفقد إيمانه ابداً أيا كانت آلامه وأيا كان مداها ، وانما كان يقوم بتحويل كل معاناته واحلامه في ذلك كانت آلامه وأيا كان مداها ، وانما كان يقوم بتحويل كل معاناته واحلامه في ذلك المجال الرهب الذي يضاهي اللانهائية ، الا وهو : فن التصوير . ذلك الفن الذي سيزداد انعكاسه بشكل واضح في كتاباته التاليه .

## العصابى العانم

خسة أعوام من التجول الهائم \_ بدأ بمنطقة درانت ، في شهال هولندا ، وصولا إلى مدينة آرل Arles ، بجنوب فرنسا ، مروراً بكل من نونن ، وانفرس Anvers ، وباريس \_ تلقى بأضواء جديدة على التطور المتواصل لفكر فنسان وعمله . اذ ان كتاباته تكشف تدريجيا عن انتهائه التام ووعيه الفنى وموقفه حيال المجتمع والأسرة .

## درانت (۱۱ سبتمبر- أول ديسمبر ۱۸۸۹):

كان الظلام قد خيم بظلاله السوداء الثقيلة عندما وصل فنسان إلى قرية هوخفين Hoogeveen ، في درانت . في شهر سبتمبر عام ١٨٨٣ ، يحمل على كاهله ثلاثين عاما من الشقاء منذ مولده . . سواد معتم له دلالته الرمزية التي ستترك بصهاتها الواضحة على تلك الفترة القصيرة التي لم تدم سوى ثلاثة أشهر . وفي أول خطاب يرسله من ذلك الشهال المظلم راح يقول : «كان الوداع ممزقا للأعماق » . . ممزقا مريرا بلا أدني شك ، اذ لم يذهب لتوديعه ـ من كل معارفه ـ الا ذلك المهندس الشاب ، ابن صاحب محل الألوان الذي كان يعطيه دروسا مجانيا . وظلت كريستين ورضيعها وأختها الصغيرة التي كانت ترعاها حتى آخر لحظة .

وبحزن عميق الأصداء أدرك فنسان أن المرء يذبل بسرعة فى هذه المنطقة الشهالية النائية . وكلما لمح عن بعد ، وسط الأعشاب ، امرأة تحمل طفلا ، كان يفكر تلقائيا فى كريستين . بينها تبتل عيناه فى صمت . غير انه كلما أمعن التفكير فيها أدرك عمق

الهاوية التى انحدرت اليها وصعوبة الخلاص منها . . وبعناء شديد حاول أن يبعد عن ذهنه شبح الوحدة الضارية التى يعيش فيها لكى لا يملأ رؤاه بغير فن التصوير . .

وفي ساعات القيظ الحادة لم يكن يرى في أعشاب الخليج وزهوره سوى ملل رتيب كالصحارى . بل كثيرا ما رأى تلك المساحات في صورة هدائية لا ترحاب فيها . وانتصبت خيبة أمله الجديدة أمام عينيه كالتحدى الأخرس . إن محاولة التعبير عن تلك المساحات الممتدة إلى ما لانهاية تحت الضوءالمعمى يصيبه بالدوار ، غير ان ذلك تماما هو ما كان يجذبه : ضوء متألق براق ، يمتد متراقصا على أرض شعثاء حوشية ، تميل إلى الحمرة ، تتداخل فيها تنويعات عديدة من البنصبجيات لتتراقص مع درجات من الأصفر أو العتمة البالغة . ومع هذه الطبيعة الجديدة بضيائها بدأت و باليتة ، فنسان تتغير وتميل إلى الضوء . وبدأت تنعكس على لوحاته لمسات أكثر حدة لها طابعها المتميز ، من قبيل لوحة في الحقول ، مراكب الحث ، وفلاح يحرق الأعشاب . وكان ذلك الحنين المبهم المنبعث من تلك المناظر والتكوينات يذكره بالحنين المنبعث من تلك المناظر

ووسط دفعات العمل المحموم هذه كان فنسان ينتظر رد عمه الذى أرسل له خطاباً قبل مغادرة لاهاى لكن الصمت كان يمتد . . امتد حتى ثار غضب فنسان الذى كان يرى أن هناك حدودا لاحتمال كل شيء فى صمت . وفى خضم تلك الثورة العارمة فى الأعماق بدأ يكشف العديد من الاحداث عن حياته الماضية وهو ما يمثل احدى المميزات الأساسية لخطابات فترة درانت وعددها عشرون خطابا (٣٢٣ – ٣٤٣) .

وكان سوء التفاهم بين فنسان وعمه ممتداً منذ أيام دراسته اللاهوتية في أمستردام . ودفعته مشاعره الانسانية المهانة إلى الاعتراف ، اذ يفلت منه التعبير التالى : ولقد أعددت فشلى في الدراسة عن عمدمسبق وتصرفت بحيث لا يقع عار التخلى عنها الا على أنا وحدى وليس على أى شخص آخر ، (٣٢٦) .

وبالفعل ، لم يكن من المنطقى فى شىء ، أن فنسان ، الذى كان يجيد عدة لغات أجنبية ، غير قادر على تعلم اللغة اللاتينية التى تذرع بصعوبتها لينهى دراسته تلك . ثم يواصل فى نفس الخطاب : ﴿ لَمْ تَكُن هَذَه الحَجة الا ذريعة كاذبة لكننى كنت أفضل \_ آنذاك \_ الا اقول لمن يعولونى اننى اعتبر الجامعة ، واعنى الكلية كنت أفضل \_ آنذاك \_ الا اقول لمن يعولونى اننى اعتبر الجامعة ، واعنى الكلية

اللاهوتية ، كبيت مشبوه لا يمكن تصوره ، أو وكر للمنافقين » (٣٢٦) . في حين عندما غادر فنسان منطقة بوريناج حيث عانى بكل تأكيد من أقصى درجات شظف العيش ، فلقد أثبت أن الشجاعة ليست هي ما ينقصه . وهو يستطرد في نفس الخطاب قائلا : د لقد كتمت آنذاك ومازلت أكتم العديد من الأشياء . إلا أنني إذا ما هاجمته يوما حول هذا الموضوع ، فسيجد نفسه مضطراً \_ مها قال \_ للاعتراف أمام الله وضميره انني لم أقترف أية خسة حياله لا الآن ولا آنذاك » .

وبدأ فنسان ينظر إلى صمت عمه بازدراء ، معتبراً موقفه هذا خالياً من الصراحة والأمانة ، وأشبه ما يكون بالسياسة السائدة وقنها ــ وهي سياسة لم يكن فنسان على وفاق معها ويعتبرها و بغيضة ، تشويها كل مظاهر الانحلال والتدهور التي سوف تؤدى إلى مرحلة شديدة من الجهل والتخلف » .

وفى وسط أرض منطقة درانت هذه ، رغم كل ما يتضافر فيها من هيبة ووقار وضوء ، لتضفى على الطبيعة نبلا فريدا ، بدأ فنسان يشعر بالقلق والاحباط ، ويعانى من اكتئاب عارم يسحق كيانه . . لقد كان التناقض شاسعا بين روعة الطبيعة ولؤم الناس وخسة الطباع ، لقد كان الفرق شديد الإيلام لمن اختار دوما جانب الانسان . وباختناق خلجاته حزنا وانعزالا ، لم يعد فنسان يدرى لمن يتوجه بسؤاله ، فراح يكتب لأخيه ليسأله عن سبب اخفاق نجاحه مع الأخرين ؟ ! ولم يتلق أى رد من أخيه الذى يقف بجانب أولئك الذين يضنون بأية مشاعر انسانية أو ثقة لفنسان .

وفى المساء ، حينها كان يعود إلى السطح الذى يقطن فيه ، كان يغوص فى جو لا يمكن تصوره من الاحباط والكآبة . كان الضوء يتسلل من الفجوة الوحيدة فى تلك الغرفة بأعلى المنزل ، لينصب على صندوق ألوانه الخالى وفرشاته التى نحلت وكأنه يزيد من بؤس حاله الموجع الذى تجاوز كل حد . . كان المنظر أليها فى حد السخرية ، لكنها سخرية خاليه حتى من بسمة شحيحة . . لقد انتهى ذلك العام المنصرم بعمليه افلاس باهظة ، أكثر بكثير مما يكشف عنه : فقد خرج من تلك المحنة منهك النفس والجسد ، يشق قلبه جرح لا يلتئم ، وفراغ لا يحوى سوى خيبة الأمل والاغتراب . وآثر فنسان أن يتألم فى صمت . فكتب لأخيه قائلا : « اننى هنا الأمل والاغتراب . وقد كلت انتهى من تسديد ديونى التى سأفرغ منها عما قريب . ان الطبيعة هنا رائعة تفوق كل تطلعات (٣٢٨) .

ولم يكف ذلك الصراع الأزلى عن مطاردة سكينته: فهو من جهة منبهر بجهال هذه الطبيعة المتفجرة التي يود تصويرها ، ومن جهة أخرى تعتصره قلة النقود لشراء المواد الفنية أو شذرات ما يتناوله من طعام . وبازدراء ضغط تلك الحلقه الفرغة بلا غرج به مع ذلك المبلغ الضئيل الذي يرسله تيو والذي لا يكفى شيئا ، فكر فنسان في ان يطلب منه التخلى عنه وتركه لمصيره وانهزامه! غير ان ذلك اليأس الواضح لم يكن سوى مرحلة عابرة ترجع إلى الطبيعة رتأثيراتها وتحولاتها . فطالما كان الجو صحوا منذ وصوله ، تمكن فنسان من اجتياز مصاعبه بل ونسيانها . لكن ، ما ان بدأت الأمطار تنهمر بلا توقف ، حتى وجد نفسه غارقا في تلك الوحدة الاجبارية ، وراح يردد مطلع قصيدة فرلين Verlaine : « ان البكاء ينهمر في قلبى مثلها ينهمر المطر على المدينة » .

فامسك ريشته بعينين مبللتين وقلب مفعم بالدموع ليكتب قائلا: و ان هذا الخطاب صرخة استغاثة: فلا بدلى أن أشعر بمزيد من راحة العيش ، لأننى مقبل على فترة سيئة اذا ما استمر الشتاء على غرار الايام التي انقضت . ان الريف في غاية الجمال ، خاصة بعد المطر ، لكن كيف يكن لى ان أعمل بلا مواد؟ و (٣٢٨) .

وكانت صرخة الاستغاثة هذه مدفوعة لا من البؤس الذى هو فيه فحسب ، اذ لم يكن يأكل بقدر جوعه . ولم يكن يعمل بكل طاقاته ، وانما كان فنسان يخشى أن يجد نفسه في موقف مماثل للموقف الذى كان فيه في منطقة بوريناج . ان يضطر ان ليهيم على وجهه و كالمتشرد ، بلا مأوى ولا راحة ولا كسرة خبز يأكلها . . كان اضطراره للسير اياماً وليالى محنى الظهر تحت عصف الربح يصيبه بالاحباط ويشل تحركاته . . يشل ذلك الانسان الجسور الذى كان يعرف الجرأة والشجاعة دوما ، وكان سباقا يقدم على اتخاذ الخطوات الأولى . . فاصبح يعيش خطراً داهما يخشاه ما دام يجيا بلا أمل في امكانية حصوله على عمل .

ترى هل سيمكنه الاعتباد على ذلك المبلغ المعتاد ؟ لم تكن اجابة تيو اكثر اطمئنانا بما انه راح يقص عليه المصاعب التي يواجهها مع رؤسائه في العمل وانه هو نفسه يفكر في الهجرة إلى امريكا !!

وفى مواجهة الصعاب ، فكر فنسان فى ان يسافر «كمتطوع فى الشرق» ( ٣٣٠) حتى لا يظل عالة على تيو . وهى فكرة سيعود اليها ثانية فى أواخر أيامه . الا ان الهرب لم يكن من طبيعته ، خاصة بعد ان عثر على طريقه . ومثلها انقذه تيو حينها كان على حافة الهاوية ، فاقدا الأمل فى كل شيء ، ها هو فنسان رغم كل ما يعانيه يمد يده لأخيه . لقد كان فنسان غارقا فى جو مطالعاته الاخيرة وخاصة كتاب كارلايل حول الابطال وعبادة الابطال . كان فنسان معجبا بتلك الجملة القائلة : ه من حقنا أن نكون شجعانا » ( ٣٣٢ ) وراح يطبقها فى الواقع . وطوال عدة خطابات حاذقة حزينة راح يشجع اخاه ويشرح له بكل هدوء بأنه على استعداد للعودة إلى بيت ابيه ليقلل من تبعاته الماليه ، على الأقل تبعة ايجار ما يأويه ، اذ ان والده يمتلك مسكنا ـ شريطة ان يغفلا كافة خلافات الماضي .

وفي نفس ذلك الوقت ، تذكر فنسان أيامها الماضية ، حينها كانا يقومان معا « سرا برسم بعض الطواحين اللامعقولة » ( ٣٣٢ ) . وراح بحث أخاه على ان يكون هو نفسه ، وان يترك مجال تجارة الفن ، الذي لا يزيد عن كونه استثهاراً فحسب ، وان ينضم إليه في عالم الابداع ، وفقا لرغبته القديمة ، وان يضحى او يتخلى عن تلك التطلعات البورجوازية . « فإذا ما اراد المرء ان ينمو عليه ان ينزل إلى الارض » ( ٣٣٦ ) . الا ان تيو قد رفض تغيير وضعه الاجتهاعى . وابتداء من هذه الفترة بالتحديد بدأ ذلك الصراع الطبقى الواضح الذي ساد بين الاخوين .

ان فكرة ان يصبح تيو مصوراً ليست بدعة أو هرطقة من جانب فنسان مثلها كتب معظم مؤرخيه ، وانما ترجع إلى تيو نفسه الذى يقول له فنسان فى الخطاب رقم (٣٤٣) : «كنت تحدثنى عن فكرتك فى ان تبدأ فن التصوير ، على الأقل أو ضحت لى ان الاحتمال ليس ببعيد وان الفكرة تروقك ».

ولم يكن لمثل هذه الفكرة \_ التى تعنى وجوداً انسانيا محبا للفن \_ لت بك فنسان دون ان يوليها اهتهامه . فهاهو ذا الكائن المنبوذ الذى كان بحاجة لمن يؤنس وحدته ، يجد ملمحا للرغبة عند اخيه ، وهو الذى كان ينقصه وهو يعمل تبادل الكلهات وشحذ الأراء مع شخص يفهم معنى اللوحة . ذلك السبب الذى كان من اهم العوامل فى استحالة التفاهم مع كريستين . وكم تمنى فنسان ان يصبح تيو و انسانا عاشقا للطبيعة وليس محبا للمدينة » ( ٣٣٣ ) .

واذ كان فنسان على غير وفاق مع المجتمع البورجوازى . فقد كان يرى الأمل فى لقاء انسان عاقل غير غارق فى ظلمات الحضارة ووصلها وانحلالها . ولا يعنى ذلك انه كان ضد الحضارة ، وانما احتراما وتقديرا لكل ما هو انسائى أصيل . ومن هنا ، فإن الانسان المتحضر \_ فى نظره \_ هو ذلك الفلاح المتواضع الذى يعمل ويفكر إبان

عمله . لذلك رفض دوما الحصول على وضع ما بين تلك الطبقات الاجتهاعية التى يعتبرها فاسدة آسنة . وذلك هو ما يحدد الفرق الجوهرى بينه وبين تيو . فتلك الاشكال وتلك و المفاهيم الخاطئة عن التحضر ، كانت شديدة الخطورة في نظر ذلك الذي كان يفضل ان يكسب مائه وخسين فرنكا في الشهر ، من جهده في اللوحات ، بدلا من الف وخسائه كتاجر للعاديات الفنية تقوم حياته على الاستثبار وتلزمه بالتمسك بالشكليات ، أو بقول آخر : تجبره على مغالطة ضميره .

ان الصراع الذي كان يعيشه فنسان لكي لا يغوص في عالم التقليديات و الشديد التحدلق والذي فقد كافة القيم الانسانية . كان بمنحه ما يطلق عليه كارلابل و شعورا سويا جد صادق . . . شعورا حاول التعبير عنه لتيو ، كنقيض لرغبته في الاختفاء من الوسط الذي هو فيه بحثا عن بلد آخر . ان فكرة الاختفاء أو الهرب لم ترق لفنسان حتى في أكثر اللحظات حزنا أواغترابا ، لقد ظل دوما يرى في الفن و اكثر الامور منطقية وعقلانية ، بل هو طريق شديد الاستقامة حتى فكر ـ من جانبه ـ ان يحيد عنه ) (٣٣٧) .

وحيث ان فنسان كان يرمى إلى حياة قائمة على أكثر المبادى، بساطة ، فقد كان يجاهد في تقويم شخصيته وشحذها بالعمل اليدوى ومعايشة الطبيعة : « اننى اعمل ما يبدو لى اكثر بساطة ، واستبعد كل ما هوليس بسيطا . لا أريد معرفة اى شيء عن المدينة ، واريد ان أحيا بعيدا عنها وعن المكاتب . أريد ان أصور » (٣٣٣) .

واذ جرأ الخروج على مألوف العالم ، رافضا ان يكون شريكا متواطئا في زيفه البورجوازي \_ راح فنسان يبحث عن السكينة في حياة اكثر هدوءاً ، حيث يمكنه التحاور والاندماج مع الطبيعة بشكل مباشر واكثر صدقا . وهنا يصل زهده وتصوفه إلى امتزاج جديد بين الفن والدين ، بين الابداع وعالم الغيب ، ليصبح حلمه ، على حد قوله ، و فسحة في رحاب الله عبر الطبيعة » ( ٣٣٧ ) . . ومن . ناحية اخرى ، فقد ازداد ادراكه بوضوح لتلك المقولة الشهيرة بأنه مهما أطاحت به العواصف الا ان الله يقود خطاه ، وان هناك قوى لا نهائية تفوق وتعلو افعال الخير والشر التي يحيكها البشر . . وبتلاحمه مع الطبيعة بهذا الفهم ، لم يكن فنسان يقوم و بفسحة » في رحاب الله \_ كها قال من قبل \_ واغا يبدو وكأنه بدأ يزداد معرفة \_ ان امكننا القول \_ بتوغله في أعهاق غموض عملية الخلق والإبداع ، في ، الكون ، وخاصة في الكون ، الكون ، وخاصة في الكون اللون . . ومع ذلك ، يظل فراغ في القلب . . فراغ لا يملؤه اى شيء . .

ان عطفه لم ينضب ابدا \_ على كريستين مع مرور الوقت ، ولم يكف فى السؤال عنها وفى ارسال بعض المساعدات لها . وذلك دليل آخر على انه لم يهرب ، مثلما أوضحنا فى الفصل السابق . . غير ان العطف والشفقة لا تعنيان الحب الجارف . .

اما الحوار الحقيقى الأصيل ، فلم يكن فنسان بحصل عليه الا مع الطبيعة وفى خطاب من اجمل الخطابات التى كتبها ( ٣٤٠) راح يصف احدى الرحلات التى قام بها إلى منطقة زويلو Zweeloo ، احدى القرى القديمة لمنطقة درانت ، فى عربة صغيرة عبر حقول الخلنج . وقد تلاحم اسلوب الاديب العاشق للطبيعة بلغة الباليتة المتألقة لفنان متمكن من التعبير : « لقد مر اليوم كالحلم . لقد استحوذت على تلك الموسيقى الحزينة من الصباح للمساء ، حتى نسبت المأكل والمشرب . قطعة من الخبز الريفى وقدح من القهوة هو كل ما تناولته فى حانة صغيرة حيث رسمت المضخة . وقد مر اليوم من الفجر حتى الغسق ، أوبتعبير ادق مر اليوم من الليل التالى وقد نسبت نفسى فى غيار تلك السمفونية » .

وحتى ذلك الوقت ، لم يكن فنسان يرى سوى توافقات بين الفن والادب ، أو بين الفن والدب ، أو بين الفن والدين . ولم يبدأ شعوره بنغم الألوان وساع الحان الارض الا فى منطقة درانت التى تتغنى الطبيعة فيها بموسيقية عميقة . لقد توصل إلى تلك الحافة الفامضة التي يصعب وصفها ، حيث تلتقى الفنون وتتحد لتكمل بعضها بعضا . . وهو اكتشاف حاول تعميق اصوله بدراسة الموسيقى فيها بعد فى بلدة نونن . تلك التجربة التي انتهت بالفشل ايضا وباضافة اتهام جديد بالجنون !

ومع ذلك ، فقد ظل الموقف المالى هو الموضوع الرئيسى لخطابات هذه الرحلة . وهى خطابات تكشف عن الخلاف الكبير المتصاعد بين رأى كل من فنسان وتيو ، ففى الوقت الذى كان فنسان يزداد فيه تمكنا من فنه ، كان تيو يزداد غوصا فى تجارته .

وفى نهاية عام ٨٨٣ ، قطع تيو الصمت حيال طلبات أخيه وقيامه بتحريف اقوال فنسان وإساءة فهمه ، فى وقت ظل فيه فنسان يوضح له بكل بساطة مفترق الطرق التى يهقف مهبها موضحا له قلقه عليه «كإنسان أمين مستقيم الخلق » الطرق التي يدن فنسان يريد لتيو أن يختار طريق التجارة تحت حجة المساعدات المالية التى يقوم بها لبعض أفراد الأسرة . وها هو فنسان يدلل على إيثاره لأخيه على

نفسه مما يدل على أنه كان بعيدا عن أية أنانية اذ كتب قائلا : و لا أود الازدهار اذا كان ذلك سيسبب لك الانحسار . ولا أود تنمية ملكاتى الفنية اذا اضطررت لخنق ملكاتك من أجلى ، (٣٤٣) . غير أن تيو أعتبر هذا الكلام تهديدا وانذاراً من فنسان !!

فنسان الذى غرق فى ديونه ، اذ كلها ازداد استغراقا فى العمل ازدادت نفقاته ، بحيث لم يعد قادرا على دفع العشرة فلورين التى يدين بها لصاحب الغرفة التى كان يقطن فيها فى لاهاى ، ولم يجد امامه الا ان يترك لديه \_ كأمانة \_ اكثر من سبعين لوحة فى احد اركان الحجرة الخاوية ( ٣٢٩) .

ورغم ذلك الجهال الذى لا يوصف لطبيعة درانت ، وسهائها المتلألئة بالصفاء والنور ، وارضها السوداء ، الشاسعة ، الغارقة في جو من الضباب الخافت ، ذلك الجهال الوحشي أو الحوشي لأراض تكسوها النباتات والاعشاب ، وتبزغ فيها شفافية الصبح الباكر لتزرع سكينة الغروب الصامتة ، في خضم من تنويعات الألحان الحزينة التي تبعث في روح فنسان خلجات من الاغتراب والشجن الذي يدفعه لأفاق من التأملات الطويلة ، حتى أصبح من المحال عليه أن يعايش تلك الوحدة الفاتلة بغير حوار يتجاوز . الطبيعة للانسان ، ومع ازدياد إوار المعاناة التي كانت نهايتها ترك لوحاته عند صاحب الحجرة التي يقطن بها في السطح ، ها هو يعود - مثلها فعل في لاهاى - إلى ذلك الأب الذي لم يعرف أبدا معنى روح الحضارة العصرية ، أو البساطة أو حتى معنى الصدق . . لقد عاد من تلقاء نفسه إلى ذلك الأب الذي كان البساطة أو حتى معنى الصدق . . لقد عاد من تلقاء نفسه إلى ذلك الأب الذي كان تتلخص فيها يلى : و القيام بتصوير أكبر قدر من اللوحات ، وأكبر قدر من الرسومات تتلخص فيها يلى : و القيام بتصوير أكبر قدر من اللوحات ، وأكبر قدر من الرسومات بكل الحب والحنين قائلا لنفسى : آه ! كم من لوحات كان بوسعى أن أصورها » !

ولم نعرف مصير تلك اللوحات المسكينة الباقية في درانت ، الا بعد ذلك بعدة سنوات : فقد استشهد ترالبو في كتابه عن فان جوخ غير المحجوب باحدى بنات السيد شولت Sholte ، صاحب الحانة التي كان يستأجر فنسان غرفة في سطحها (١٢٤) . وهو استشهاد لا يشرف أسرة فان جوخ وبخاصة تيو الخبير في مذا الموضوع . وها هي تلك الابنة تقول : « كانت غرفته ، التي كان يطلق عليها

مرسمه ، مليئة بالرسومات واللوحات وأوانى الألوان ، ومختلف هذه المعدات . وظلت دون أن نمسها عدة سنوات . وقد قمنا خلال احدى مناسبات أعياد الميلاد وأعياد أخرى بإهداء بعض الرسومات لأحد افراد أسرتنا . وفى الواقع لم يكن هناك أحد يقدر أو يتذوق هذه الأشياء الغريبة . وقد قامت اختى الكبرى ، جوفينا ــ كلازينا jovin a Clajina بحرق كافة هذه الأشياء فى المدفأة ، !!!

## نوئن (ديسمبر ١٨٨٣ ــ ٢١ نوفمبر ١٨٨٥):

فى ذات يوم بعد ظهر عاصف بدأ فنسان مشوار عودته تحت الامطار والثلوج ، ليسير مدة ست ساعات عبر البرارى . واذ لم يعد يقوى على احتيال الوحدة ، بدت تلك المياه المنهمرة وكأنها تغسل آلامه ، وتنعشه ، لتؤنس حواره الحزين المهين الصامت . . ولم تكف أفكاره عن ان تلوك مشاكله الفنية والأسرية بل ومشاكل مجتمعه قاطية .

لقد كان يسأل نفسه بلا هوادة إن لم يكن عبثا ثقيلا على تيو ، وان لم يكن يستغل صداقته بقبوله نقوده و مقابل عملية قد لا تكون رابحة » ( ٣٤٤ ) . اما عن المجتمع الذى سأم قيمه الزائفة ، فقد بدأ يلحظ التغيير الواقع في تجارة الفن . وكانت عملية اقتناء بعض اللوحات بأسعار باهظة ، تلك العملية المصرفية التي يقوم بها بعض كبار أثرياء البورجوازية ، المتخمين بالنقود ، يصيبه بالفزع والاحباط . اذ كانوا يقتنونها لا من أجل قيمتها الفنية وانما من أجل و التباهى الاجتهاعى و الذى تنم عنه . ولم يكن يتصور كيف يمكن لمثل هذه المهنة ان تروق لأخيه ، وكيف انه لا يرى ذلك الانحلال المتفاقم بلا رحمة .

وفى حلبة المصارعة المالية تلك ، دحيث تطورت مهنة تجارة الفن فى بضع سنوات اكثر مما تطور الفن نفسه ، فقد كان فنسان يفضل ان يكون حملاً بدلا من ان يكون ذئباً ، ان يكون مهزوما لا معتديا ، ان يكون هابيل لا قابيل \_ مثلها آثر من قبل ان يكون برومثيوس وليس جوبيتر . واذ كان شديد الاقتناع بأنه سيظل فقبرا دائها ، فقد كان يعتبر نفسه فى غاية السعادة اذا ما امكنه ان يعيش بلا ديون وال يواصل التصوير حتى النهاية .

وبلا هواده أيضا ، لم يكف عن التفكير فى ذلك اللقاء الغريب مع والديه ، وخاصة مع والده الذى سبق له وطرده من المنزل بلا رحمه . وبدا فنسان وكأن الهدوء أو السكينة التى يبحث عنها تتباعد عنه كلما اقترب من تلك الدار . ها هو فى اول خطاب كتبه من نونن (٣٤٤) ، في ليلة عاصفة ، وهو في قمة الصراع والمعاناة يقول لأخيه : ( اذا ما ابتلت عيناى اللتان تعرفان الوحدة ، هنا ، في مثل هذا المساء الداكن ، فها الذي يمنعها من ان تنهمر نتيجة لألم حاد ، نعم ، ألم حاد يبدد أية أوهام ، لكنه يوقظ في الآن نفسه ؟ » .

وما لبثت تلكها العينان ، المضاءتان بالدموع ، ان استيقظت متوجدة بألم مرير وهو يرى مهانة الواقع الجارح . . فعلى الرغم من الاستقبال الطريف الحافل ، كم كانت فجيعة فنسان أن يدرك ان والديه لم يتغيرا حياله البتة ، وأنهها مازالا بنفس عهاهما المتعنت . وبنفس سوء فهمهها الدافع لليأس ، وانهها لم يندما قط على انهها قلا طرداه من قبل ! والادهى من ذلك ، بالنسبة لفنسان ، كها كتب يقول : « ان أبى لا يعرف الندم ، مثل ومثلك ، ومثل اى انسان آخر » (٣٤٥) . ومع ذلك ، وبدلا من ان يشكوه راح فنسان يرثى لحاله قائلا : « اننى ارثى لحال الاشخاص الذين يشبهون أبى . أنه لا يمكننى ان اغضب منهم فى اعهاقى ، لأننى اعتقد انهم اكثر تعاسة منى . لماذا ؟ لأنهم يسيئون استخدام صفاتهم بحيث تنقلب هذه الصفات إلى عيوب ، ذلكأن النورفي اعهاقهم أسود ويثير العتمة والظلهات من حولهم » .

ومثلها شعر في البرارى وسط العاصفة ، ذات مساء وقد تلفع بالغسق الحزين ، فقد هجر فنسان النوم ليدرك \_ في يقظة \_ مرارة الواقع البشع للحياة التي لا يمكن ان يغيرها شيء . ونتيجة لتفكيره الايجابي الذي ما عادياتمن المظاهر الخارجية للأشياء والأحداث ، كان فنسان يؤمن بصرامة بأن الانسان ينظم تصرفاته وفقا لمشاعره ، وان التصرفات أو القرارات أو حتى الترددات هي التي تكشف عن حقيقة المرء وليست الكلهات المعسولة التي تتساقط من شفتيه . وكنتيجة حتمية لذلك الترحاب العابر ، الذي لم يدم سوى لحظات ، فقد اصابه تعنت ابويه بالاحباط اذ اكتشف ما يتمسكان به من طبيعة البورجوازي الصغير الضيق الافق : لقد قبلا في المساء ان يبغى عليهها ، اما في الصباح فقد اعلنا له انه ينبغي عليهها ان يفكرا بعض الوقت !!

وانتصب جدار لا يمكن اجتيازه , حائل صلب أصبح يجول منذ الآن بين فنسان ووالديه . وكانت القطيعه نهائية بالنسبة له . لقد قبل مهانة العودة احتراما وحبا لها ، ولكى يضع حدا لخلافه معهم ، ولكى يساعد أخاه بأن يقلل حمله عليه ، ولكى يتمكن من مواصلة تطوره الفنى حتى يتمكن من اعالة نفسه . ورغمها ها هما يترددان . واجتاحه الغضب المهين من ترددهم هذا ، في الوقت الذي كان لديها الوقت الكافي طوال عامين ليفكرا في قرارهما . . وشعر فنسان بأنه غريب عن تلك الاسرة ، عن سلالة التجار هذه سواء في الفن أو في الدين . . غريب لدرجه أنه رفض حمل اسم هذه الأسرة وراح يسأل أخاه : د هل انت د فان جوخ ، أيضا ؟ ! لقد اعتبرتك دائما كلخ ياتبو ، ! ( ١٣٤٥ ) . ومنذ ذلك الوقت لم يعد له في أسرة فان جوخ أخ أو صدين . وهو اتجاه يحدد حدثا رئيسيا في حياة فنسان بقدر ما يمثل جزءاً من صراعه الطبقي .

ومثلما سبق له ان قطع صلته بالمجتمع البورجوازى ، بأن ملأ نفسه بالانتهاء لطبقة العيال والفلاحين ، فاختار عن قصد كل ما رأيناه من تعاطف لهم وبهم ، فقد قطع فنسان صلته بأسرته معلناً رفضه لحمل اسمها . ومنذ ذلك الوقت أصبح توقيعه و فنسان ، فحسب . ومن الغريب أن نرى كيف تصر كل تلك السير التي تناولت حياة فنسان على اغفال مثل هذا القرار الاساسى في تاريخ حياته ؛ وكيف يتجنبون ذكر حقائق تلك الوقائع التي تضع النقاط فوق الحروف فيها يتعلق بموقف فنسان حيال أسرته ، أو بتعبر ادق ، موقف أسرته المشين حيال فنسان .

لم يكن الأمر لمجرد و سهولة نطق كلمة فنسان ، اذن ، ذلك أن فنسان بما تؤكده المراسلات قد نبذ لقب الأسرة وأيا كان الأمر ، فبخلاف ما جاء بمراسلاته ، فها من أحد يذكر تلك الواقعة بكل وضوح سوى كير ساكر Kerssmakers في مذكراته ، اما ترالبو فيشير اليها بشكل مضغم في مؤلفه الاخير .

ان الخطاب رقم ( ١٣٤٥ ) بحسم هذه القضية بشكل جد واضح حيث لم يعد فسان يرغب في الانتهاء إلى تلك الاسرة التي لم تكف عن نبذه بعيدا عنها . لذلك من الغريب ان نرى مونستربرجر Muensterberger، الذي كرس كل كتابه المعروف باسم : فنسان قان جوخ ، رسومات ، باستيل ودراسات ، لكى يجيب على حد قوله \_ على هذه المشكلة بالتحديد : ( توقيع فنسان ) ، قد أغفل هذا الخطاب الأساسي ( رقم ١٣٤٥ ) والذي يعلن فيه فنسان بكل صراحة عن السبب الذي من أجله أصبح يرفض ( منذ الآن ) لقب فان جوخ ، لكى لا يحتفظ الا باسمه . وهو خطاب يمثل المفتاح والاجابة على السؤال الذي أثاره مونستربرجر والذي نسى ان نجب عليه طوال صفحات كتابه !!

ان قراءة خطابات فترة اقامة فنسان في نونن لتثير الغضب في مواجهة المواقف المزرية التي قامت بها أسرته تجاهه ، وهي ليست بحال في صالح أسرة فان جوخ . . ان كلمة تثير الغضب لهي أقل ما يمكن ان يقال في حق هذه الاسرة ، فها اكثر مواقفها التي أوضحنا عديدا من جوانبها ، لكنهم هذه المرة يتجاوزون كل حد . . فهاهما والداه يترددان في قبول ابنها — كها سبق وذكرنا — «كها يتردد المره في قبول كلب ضخم أشعث » على حد قول فنسان في الخطاب التالى! وبحرارة تهز أعتى الرجال قبل فنسان ان يساووه « بحيوان قذر » ، لكن ذلك لم يمنعه من القول : « ان ذلك « الحيوان » له قصة انسانية . . . له روح انسانيه تلغق بالحساسية يمكنها استشعار ما يفكرونه عنه ، بينها الكلب العادى يعجز عن ذلك » ! وها هو يواصل بكل السخرية اللاذعة قائلا : « فالنفترض جدلا أنني كلب ، فإن ذلك لن يغير من قيمتها : فهذا المنزل شديد الطيبة بالنسبة لى ؛ ان أبي وأمى وكل الأسرة في غاية التميز ( وعلى العكس من ذلك فهم عديمو الإحساس ) وهم ليسوا سوى قسس !

و ان الكلب يدرك أنه إذا ما احتفظوا به فذلك يعنى أنهم يطيقونه ، يتحملونه في هذا البيت ؛ ومع ذلك فسوف يبحث لنفسه عن جحر في مكان آخر آه ! ان هذا الكلب هو ابن والدنا ، لكنهم طردوه بكثرة في الشوارع بحيث أصبح بحكم الواقع أكثر فظاظة وشراسة . آه ، ان إلى قد تناسى هذه التفاصيل منذ سنوات فلا داعى لذكرها . في الواقع انه لم يفكر أبدا في ذلك الرباط بين الأب والابن .

دشم \_ لربما كان ذلك الكلب يعض ، وقد يصبح مسعورا وأن يضطر الحارس
 إلى قتله بطلقة نار ( ) ( ( ٣٤٦ ) .

وللأسف الشديد ، فإن أسرة فان جوخ والمجتمع قد تضافرا \_ ربما بغير وعى منهم ، في القيام بدور هذا الحارس لقتل فنسان ، أو بتعبير أدق بأن دفعوه ليقتل نفسه بطلقة نار واحدة \_ بعد تلك الواقعة بخمسة أعوام ونصف ، وكان في السابعة والثلاثين من عمره !

ونتعرف على موقف فنسان حيال تلك المشاحنة الأسرية المهينة ، من تلك الجملة التي راح فنسان ينقلها في نفس ذلك الخطاب قائلا : « وترى انت ايضا انني اضايق أبي عمدا وانني جبان ؟ ! » . . ومن المؤسف والمهين حقا متابعة تطور ذلك الخلاف يوما بيوم وما وصلت إليه العلاقة بين الشقيقين ولا نفهم كيف وضعتها الاسطورة

## المنسوجة على نفس مستوى التفاهم إ

ولم ينس فنسان من جانبه ، أن تيو قد انقذ حياته ، لن ينساها أبدا ولن يكف عن ترديد ذلك حتى وان اضطر إلى قطع علاقاتها التى تتهددها المواقف الزائفة ، لذلك يكتب بنفس وضوح رؤيته المعتاد قائلا : داننى مصاب بخيبة أمل لعدم امكانية تصفية الموقف وعمل مصالحة عامة بهذه المناسبة . كم كنت سأسعد إن أمكن ذلك ، غير انكم لا تفهموننى ، وأخشى الا تفهمونى ابداً » (٣٤٦) .

وقرر فنسان ألا يتعامل مع والده بعد الآن ، وأن يقبع مؤقتا في الركن الذي خصصوه من أجله ، وان يلغى \_ في خضون شهر ملرس ، الاتفاق المالي المبرم بينه وبين تيو . وحينها طلب فترة سياح لثلاثه أشهر ، كان يأمل القيام ببعض المساعى للحصول على اى عمل ، لكن \_ للأسف \_ ما من احد في هذا المجتمع يقبل شخصا قد سبق فصله .

واذ تركزت رغبته في ان تتم مصالحة جذرية ، مصالحة صريحة والا فلا ، راح فنسان يتأمل ... بكل الحزن الذي يغمره ... تلك الصلة التي كانت تربطه بأخيه فيها مضي ، حينها بهما تيو يخطو أولى خطواته في مجال الفن وبدأ يطلع ويقرأ . . راح يتأمل تلك النزهات الطويلة قرب طاحونة ريويك Rijwijk عبر البراري المغطاه بالثلوج . . تلك اللحظات التي كان يشعر فيها ويعتقد بل ويؤمن بعمق ترابطهها ، بحيث راح يتساءل ان كانا الأن هما هما نفس ذلكها الاخوين ؟ ! ومما يؤسف له ، كان الفرق شديد الوضوح والحدة : فقد كان واحد منها يتمسك بالحصول على مرتبة اجتماعية معينة ، وان يظل تاجرا ؛ والآخر ، اختار ان يصبح مصورا ، حتى وان ظل فقيرا ، لكنه مبدع خلاق . . وراح فنسان يسأل أخاه ، وكأنه يرهص بنبوءة (لنستخدم لفظا يروق لكتاب السير ... وان كان ذلك هو ما حدث بالفعل فيها بعد ) : « ترى هل سنصل أبدا إلى موقف أفضل من ايام طاحونة ريويك ؟ ... أعنى بعد ) : « ترى هل سنصل أبدا إلى موقف أفضل من ايام طاحونة ريويك ؟ ... أعنى الطبيعة والفن ؟ ام ان المستقبل المستقر وحب البذخ سيتغلب ؟ ! آه . . ليتغلبا ، الطبيعة والفن ؟ ام ان المستقبل المستقر وحب البذخ سيتغلب ؟ ! آه . . ليتغلبا ، فلن يكون ذلك الا لفترة ستفيق بعدها لتجد خيبة الأمل في انتظارك » (٣٤٧) .

وبعد اسبوعين ثقيلين ، متباطئين ، مليئين بالخلافات والمناقشات . وافق الوالدان على ان يعطياه غرفة المخزن . لقد كانت غرفة فى أقصى الفناء ، موصلة بالمجارى وبها بئر لتكوين و السباخ ، ، وهما يستخدمانها بالإضافة إلى ذلك لتخزين الفحم والمخلفات . . لقد قررا ان يعطيا هذه الغرفة لفنسان ليسكن فيها ويستخدمها مرسيا !!

ولن يصاب القارىء بالدهشة من مثل هذا التصرف غير الانسانى والمشين ، من جانب والدى فنسان وبخاصة عند قراءة التحقيق الذى قام به بنو ستوكفيس Benno حول فنسان جوخ فى منطقة برابان ، اذ كتب يقول : « من الغريب انه قبل وصول فنسان إلى نونن لم يكن احد يعلم بوجود هذا الابن للقس فان جوخ . . ومن حقنا استنتاج ان والديه كانا يخجلان من فنسان ويعتبرانه فعلا كابن عاق » . وذلك ما يفسر طول فترة ترددهما فى قبوله ، بما انها قد أخفيا ان لهما ابنا كبيراً قد طرداه من المنزل!

وما ان وجد فنسان مستقرا ، حتى سافر إلى لاهاى لإحضار امتعته التى كان قد تركها لدى صاحب المسكن . ورغم كل ما يحمله من جراح ، ذهب للاطمئنان على كريستين . وهاله منظر ذلك البؤس الانسان الطاحن الذى تعيشه ، وانعكست انفعالاته اليائسه في عدة خطابات أشبه ما تكون بعويل يمزق الارجاء . . صرخات انسانية عمزقة لا تكشف عن هلمه امام غارقة في الفاقة وانسانه سقطت إلى القاع فحسب ، وانما تكشف انشقاقا جديدا بين الاخوين .

وبدأ فنسان باتهام نفسه بالتخلى عن كريستين ، ثم عاتب تيو على انه دفعه إلى ذلك بإثارة قصه حبه الحزينة مع كى ابنة خاله ، موضحا ان واجبه كفنان كان يحتم عليه ان يتخلى عنها لعدم استطاعته الانفاق عليها . وهنا يتضح مغزى مساعدة تيو لا عانه كانت مجرد طعم القى به ليبعده عنا ! وازدادت معاناة فنسان وهو يدرى ان تيو و يحاول ان يعيش في سلام مع الجميع » ، حتى وان ادى ذلك إلى « دهم » حياة انسانة . ولم تتصدع علاقة فنسان بأخيه بعنف فحسب ، وانما انشطرت بالفعل : « اننى اشعر بذلك جيدا ، فشيء ما قد انكسر . وأضيف بوضوح : ان ما انكسر قد انكسر . وبذلك يمكنني على الاقل ان أجد سكينتي ثانية ، تلك التي يمكن ان أفقدها إلى الأبد ان لم اكن صريحا معك . اننى اجرؤ على مواجهة المستقبل ولا أضع غير شرط واحد : الا اضطر إلى ان أحط من قدرى أو أهان تحت ضغوط أرى خستها »

یا لها من کلمات حزینة لنهایة ذلك العام الحزین ، عام ۱۸۸۳ ، الذی أدرك خلاله فنسان مدی خدیعته ومدی ما اصابه من احباط لعدم استطاعته مساعدة كريستين لتبعث من جديد . فراح يكتب لتيو قائلا : و فيها يتعلق بنقودك ، يجب عليك أن تدرك ، يا أخى ، امها لم تعد تسعدنى . ستدرك ما أعنيه ، أليس كذلك ؟ لقد سرتنى فيها مضى ، لأنمها لم تكن تنقذن فحسب ، وانما كانت تنقذ مخلوقات اخرى .

وفى بداية شهر يناير ١٨٨٤ ، راح تيو يحذر فتسان بأنه يجد نفسه ذات يوم منمزلا تماما اذا ما استمر \_ بالطبع \_ فى الوقوف خارجا أو بعيدا عن و اللجام ، الذى يفرضه المجتمع ! ورفض فنسان فكرة امكانية عزله فهو لا يستحق هذا المصير ، واعتبر نفسه سعيدا اذا ما استطاع و تحمل الحياة ، . . مجرد تحملها . . ثم راح يضيف بمرارة : وعلى أية حال ، أعتقد أننى لم أفعل ولن أفعل أى شيء \_ الأن أو فى المستقبل \_ يمكنه ان يسلبنى حق اعتبار نفسى رجلا بين الرجال ، (٣٥١) . ونظرا لأنه لم يتصرف أبدا عكس القانون الانسانى ، فقد كان يرى ان من حقه ان يستمى للانسانية \_ حتى وان لم يتفق ذلك مع عقلية أو حدود طبقة معينة .

غير أن اللحظة التى كانت ستتم فيها هذه القطيمة بين الأخوين ، المتناقضين ا اجتهاعيا وفكريا ، وقع حادث أدى إلى تأجيلها : ففى السابع عشر من شهر يناير عام ١٨٨٤ انكسرت ساق والدنهها وهي تنزل من القطار .

وبلا أى تردد ، مثلها فى كافة لحظات حياته ، ومدفوعا بتزعته الانسانية حبا فى المساعدة والتضحية بالذات من أجل الآخرين ، قام فنسان بإعطاء كافة ما معه من نقود لوالده حتى يمكنه مواجهة نفقات معالجة والدته . وفى نفس ذلك الوقت ، أحاط أخاه علها باقتضاب عن الحادث ، واعدا اياه بأن يخبره أولا بأول بتطور الموقف ، ثم راح يتوسل إليه ان يعاونه على كسب بعض المال ، لا لنفسه ، وانما حتى يتمكن من المساهمة فى مصاريف علاج والدتها .

وكان الطبيب قد حدد فترة ملازمتها الفراش بثلاثة أشهر . وطوال هذه الفترة أنقسم نهاز فنسان إلى شقين لا ثالث لهما : العناية بوالدته وتسليتها بعض الوقت ، وتعميق ملكاته فى الرسم والتصوير .

واذ رأى فنسان كم تباعد عنه أهله ونبذوه بعيدا حتى وان كان يحيا على مقربة منهم ، انهم يعاثلونه وكأنهم « يمسكونه بلجام قصير » لا يسمح له بالحركة ، ويفرضون الصمت من حوله ؛ ها هو تيو لم يفعل شيئا من أجله لكى يكسب بعض النقود ، سواء بمحاولة تعيينه فى أى عمل ثابت ، أو بعرض لوحاته ورسوماته - خاصة فى هذا الوقت الذى هو أحوج ما يكون إلى ذلك ، لقد راح يلوم تيو على إهماله عرض أعاله على الزبائن وكأنه يخشى ان يعرض نفسه للشبهات! وفى نفس الوقت راح يلومه على انسياقه أكثر ، طوال العام الماضى ، فى تلك الشكليات الاجتماعية الباردة ، العقيمة والتى تحد من أى نشاط .

وما اكثر تنويعات ذلك اللوم الذى عبر عنه فنسان في خطاباته ، والذى يثبت بلا ادني شك اتجاه تيو حيال اعيال فنسان . ونذكر منها على سبيل المثال : وحق الآن لم تبع لى أى شيء ، لا بسعر عال أو حتى منخفض ، بل واقول لك الحق انك لم تحاول ذلك ابدا ، (٣٥٨) . وفي الخطاب التالي يقول : ولو انك كنت تقوم بأى شيء من أجلى ، حتى وان كان ضئيلا ، لو بدرت منك أية اشارة بأتك تؤمن حقا بنجاحي وأنك تنبى قضيق بقلب ، لكن لا . . انك تكتفي بارسال مساعدتك المالية ، ولا أى شيء اكثر من ذلك غير تعبير واستمر في العمل ، أو وأصبر الملاية ، ولا أى شيء اكثر من ذلك غير تعبير واستمر في العمل ، أو وأصبر الرسومات وارجو منك ان تحاول تقديمي لأحدى للجلات المصورة حتى يمكنني الرسومات وارجو منك ان تحاول تقديمي لأحدى للجلات المصورة حتى يمكنني الصغير ، إ ترى هل لنا ان نوضح أو نضيف ان كافة هذه الملاحظات ليست في صالح تيو بل وتمثل عكس تلك الاسطورة ، أو بتعبير ادق تكشف عن حقيقتها المزعومة التي تقول بأن تبو كان دائها الانسان الوحيد الذي ساعد اخاه والوحيد الذي طهم اعهاله الفنية وقدرها ؟ !

واذ لم يعد فنسان قادرا على التفكير فى تيو دكأخ أو صديق ، بنفس سعادة الأيام الماضية ، ، قرر فنسان ان يضع حدا لذلك النفتت الاخوى ورفض مساعدة ذلك الاخ الذى بدأ يتحول إلى مجرد عائل أو متصدق . ومع تزايد برودة ذلك الجو اللا إنسانى ، راح فنسان يشرح لأخيه الأصغر ، بلا أية مواربة ، الموقف الذى هما فيه . ذلك الموقف الذى سيظل منذ الآن فصاعدا . أو على الاقل لفترة طويلة ، مجرد علاقة بين فنان وتاجر لوحات !

وعبر ذلك الخطاب الطويل ( ٣٥٨ ) . المكون من ثماني صفحات ، والذي يكشف بشدة عن ذلك الانشقاق والتباعد بين الشقيقين ، يمكننا أن نقرأ على سبيل المثال لا الحصر : ولا يمكن لأحد ان يلوم احد التجار لأنه لا يمتلك دوما نقودا سائلة لمساعدة الفنانين ، لكن من حقى ان أغضب عندما أرى أن ذلك التاجر لا يكف عن اشباعك بالوعود ، في الوقت الذي يخجل فيه منك في قرارة قلبه ، حتى انه يهمل عملك تماما ي .

 و صراحة ، اننى أغضب منك ان قلت بلا مواربة ، أنك ترى عملى تافها ، أو انه لا يمكنك الاهتهام به لسبب أو آخر ، لكن ان تخفيه في أحد الأركان عندك ولا تعرضه على أحد ، لهو أمر غير طيب من جانبك ، خاصة وانك تؤكد لي في نفس الوقت ، وان كنت لم اعد اثق في كلامك ـ بأن هذا العمل يروقك ! انني لا أصدقك ومن وجهة نظري فأنت لا تؤمن قط بما تقول . . انك تكتب لي حاليا وفي أكثر من مناسبة ، وبلهجة حاسمة ، بأنك لم تقم أبدا بأي مسعى ، ومن ناحية ثانية ، بأنك لن تقوم كما لن يمكنك القيام بأي مسعى في المستقبل القريب لا بصفتي تاجرا ( لا أصر على شيء ولست حانقا عليك ) ، ولا حتى بصفة شخصية ( وهنا يحق لى الغضب قليلا) . . . ومع ذلك ، فأقولها بلا مواربة ، لا حاجة لى بحمايتك ان لم تكن تسعى من جانبك لتوزيع عملى . . . فالأمر ليس مجرد انكار أو تقليل المساعدة التي تمنحها لي منذ البداية حتى الأن . ان صلب المشكلة هو انني اتطلع إلى الخلاص بفضل أحلك درجات البؤس وأسودها بدلا من حمايتك التي تنكص إلى كونها صدقة . . بل والأكثر من ذلك ، تزعم انك تترك لي الحرية المطلقة ، لكنني رأيت ــ بالتجربة ــ انك في الواقع تلوح بقطع هذه المعونة كلما أردت افهامي أنه من مصلحتي أن أكون من رأيك أو في صفك . . لو ان الامر لا يتعلق بغير النقود ، فلربما وافقت على أن أنحني لرغباتك ، مثل مثل غيرى ، لكننا لم نصل بعد وبكل تأكيد إلى هذا الحد . إن أمامي بضع سنوات لن يكون لعملي فيها أية قيمة تجارية \_ اني استخدم تعبيرك بالحرف ، فلنفرض ذلك ، وفي هذه الحالة ، أفضل أن أعيش في النقير وأعانى ضنكاً في العيش \_ وسبق لي أن عشت ذلك على أية حال ـ بدلا من أن اقع في نحالب السادة فان جوخ! . . . لا أريد الوقوع في عراك مع أب ثان مثلما حدث لي مع الأب الأول . لقد أصبحت الأب الثاني ــ وأب واحد يكفي !! . .

وفاض الكيل ، وفاضت الآلام ، لتمرض روح فنسان من العزلة وينتصب كجدّع شجرة جافة في سماء ربيع صافية . . وبحزن عميق الاصداء راح يؤمن ، ان الموت ربما لم يكن بنفس صعوبة الحياة ، (٣٥٨) . ومع ذلك ، فإن طاقة الابداع المتقدة في قلبه ، ورغبته العارمة في ان يتقدم في فن التصوير لم تكن لتسمح له باختصار أيام اقامته على هذه الارض ! ومن جهة اخرى ، راى كيف كانوا في المنزل ينظرون إلى مساعدة تيو على أنها و صدقة لسيد فقير، ويعربون عن رأيهم هذا أمام سكان القرية ، بحيث كم من غريب راح يسأل لم لا يبيع رسوماته أو يحصل على عمل يقتات منه ؟ فقرر فنسان أن يضع حداً لتلك الصداقة الخابية ليبرم ذلك الاتفاق مع اخيه ، في شهر مارس ١٨٨٤ ، وهو : على فنسان أن يرسل كافه أعماله إلى تيو ، الذي يصبح منذ الآن فصاعدا ، مالكا لها ، وعلى تيو أن يرسل له نفس المبلغ المعتاد ، مائه وخسين فرنكا ، شهريا ، ولتيو الحق المطلق في ألا يعرض هذه الأعمال على احد . وبالتالي لن يحق لفنسان أن يعترض على موقف اخيه كتاجر حتى وأن مزق هذه الأعمال ! ( ٣٣٥ ) .

وهكذا ، لم يعد هذا المبلغ بالنسبة لفنسان مجرد صدقة وانما عبارة عن نقود كسبها بجهد عمله . مما يكشف بوضوح ان الدور الذى لعبه تيو لم يكن دور القديس طيب القلب ! فإذا كان فيها مضى ، قد قام بتقديم هذا المبلغ مقابل ان يؤجل فنسان زواجه من كريستين ، ففى هذه المرة طالب التاجر الكامن فى تيو بان يكون المتحكم الوحيد ، وفرض كشرط أن يكون المالك المطلق لهذه الأعمال .

ومنذ ذلك الوقت ، تحولت خطابات فنسان إلى نوع من التقارير عن تطور لوحاته التى يرسلها إلى تاجره ، ومع هذا التغير فى الموقف ، ترك فنسان مرسمه الحزين القائم فى غرفة النفايات واعداد و السباخ ، وبالوعة المجارى وتخزين الفحم ، ليستأجر مرسها آخرا مكونا من غرفتين ، عند شافرات Shafrath ، خادم الكنيسة الكاثوليكية !

وباستقراره في مرفئه الجديد ، راح فنسان يتأمل لوحاته وأدرك أنه لم يصل بعد إلى درجه النور التي يتطلع اليها ولا إلى ما يود الوصول إليه في عالم الرؤيا من تجليات . فلقد كان يود الوصول إلى نور البصيرة هذا عبر شاعرية فن التصوير وموسيقية الوانه وتناغم درجاته . ويدلا من اللجوء إلى الوسائل المفتعلة للتجل لكى يفهم سر الطبيعة ويتم له الكشف عن عالم علوى ، أكثر نورا وأكثر شفافية ، والتواصل إلى معرفة مجال الهي أسمى ، راح فنسان يعمل بلا هوادة ، وإذا ما كان رامبو Rimbeau قد قال باهمية أن يكون الفنان حاد البصيرة ، مهتها بأن ويشحد بصيرته ، دوما ، وإن الشاعر – في نظره – يصل إلى التبصر عبر الاخلال العارم بموازين كافة المعانى ، فإن فنسان حاول استيعاب الكون في حضن أعماقه بفضل العمل العقلان المنطقى ، عبر سحر الألوان المتناغمة .

وبينها هو يواصل العمل والجهد ، قرر فنسان دراسة نظرية الالوان التشكيلية لعرفه سر التقنيات حتى يتخطاها . كان يفضل ان تقول اللوحة شيئا واحدا ، على ان تقوله بوضوح تام . وإلى جانب مطالعاته الادبية الني لم يغفلها أبدا ، راح يغوص في كتابات ديلاكروا Delcraix ، مقالات عن الجهال ، وشارل بلان Charles في كتابات ديلاكروا Fromontin ، فغائو عصرى ، وفرومونتان Fromontin المبدعون القدامى . اخذ يدرس بدأب كل ما قاله هؤلاء . المبدعون حول كيمياء اللون وطلاسمها ، وحول تقنيات الفن . ثم حاول تطبيق هذه الدراسات مع محاولة التعبير عن الور بالتناقض مع الألوان الداكنة ، أو بالتعبير عن جو الفصول الاربعة عبر الالوان المتناقضة أو المكملة المعضها . اذ ان واجب المصور – في نظره – يكمن في تلك الكلمة العميقة المعنى المراجزين ، (رابار ٤٣) . واذ أخفق في تحقيق هذه الآية بصفته راعيا ، فقد حاول تحقيقها في مجال الفنون .

وهنا تصل النزعة الانسانية عند فنسان إلى قمة تعبيرها وهو يحاول التوصل للامسة كيان الروح الانسانية العامة . ومنذ ذلك الوقت ، اصبح يرى ان من واجبه ان يرشد الآخرين وان يضيء طريقهم برؤياه التشكيلية . وهو ما طلبه فيها بعد من كل فنان ، حيث ان الفن فى نظره يقوم بدور الارشلد . واذا ما كان فيكتور هيجو يرى د أن الشعر هو النجمة التى تقود الملوك والرعاة إلى الله ، فإن فن التصوير هو الذى يقود إلى الله فى نظر فنسان ، مثلها سيرجعها جابرييل مارسيل Gabrel Marcel إلى الموسيقى بعد ذلك بعدة سنوات .

وفى شهر أغسطس تعرف فنسان إلى هرمانز Hermans ، الصائغ – التاجر الذى كان يريد زخرفة جدران مسكنه . وكان هرمانز قد بدأ فى تنفيذ بعض الزهور ، وبقيت سنه وبانوهات ، فكر فى تخصيصها لصور بعض القديسين . الا أن فنسان ، المؤيد للطبقة العاليه والريفية ، اقترح عليه مجموعة مناظر مستوحاة من الحياة اليومية للفلاحين ، على ان ترمز – فى نفس الوقت – إلى الفصول الاربعه مثال : باذر الحب ، الحارث ، راعى الغنم ، الحصاد ، جمع البطاطس أو عربة تجرها الابقار فى الثلوج ( ٣٧٤) وكتب فنسان إلى صديقه رابار قائلا : وسوف يرد لى نفقات الموديلات والألوان ، بينا ستظل اللوحات ملكى : أى أنه سيعيدها إلى بعد ان يقوم بنقلها . ان هذا الاتفاق سيسمح لى بعمل موضوعات لم يكن بوسعى القيام بها اذ كان على ان انفق تكاليفها » ( رابار ٤٧ ) .

وعبر ذلك النشاط الفنى الطويل ، يبدو وكأن شعاع حب أخير بدأ يضفى ضياءه في حياة فنسان . . شعاع حب ما لبث أن أثار الغضب الجامح لتلك العقليات البورجوازية الصغيرة الضيقة الافق والتي كافح ضدها دوما .

فبينها كان يقوم بالعناية بوالدته ، تعرف فنسان إلى جارتهم مارجو بخمان ، Margo Begeman ، التى تكبره بتسع سنوات . ومثلها مثل كافة الجيران ، كانت مارجو تجهل وجود ذلك الابن الأكبر لأل فان جوخ قبل وصوله إلى نونن \_ مثلها سبق ورأينا . ولم تلبث هذه الواقعة اللا انسانية ، والتفانى بلا حدود لفنسان نحو امه ، إذ لفت نظر تلك الجارة . وعبر نزهاتها الطويلة فى المساء بينها كان فنسان يقوم بتوصيلها إلى مسكنها ، تطور الاعجاب إلى حب ، وسرعان ما اعربت عن رغبتها فى ان ترتبط معه إلى الابد .

لكن ، ياله من سراب حزين . . فقد عارضت الأسرتان ، وتذرع آل فان جوخ بنفس الحجج المالية ، بينها تذرع آل بخان بفارق السن إلى جانب اشياء احرى . بينها يوضح ترالبو في صفحه ٤٤ من كتابه نسان فان جوخ ، ( وان كان يكرر نفس النص تقريبا في كتابه الاخر فان جوخ غير المحبوب صفحة ١٣٥ يكرر نفس النص تقريبا في كتابه الاخر فان جوخ غير المحبوب صفحة ١٣٥ تجارته . فكانت اخواتها ينظرن إلى اختفاء مارجو من تجارة الأسرة ولا يخفين غيرتهن . لكنهن لم يستعن \_ كبرهان \_ بهذه الحجة الأنانية . وانما لجأن إلى وسيلة اخرى ، رحن يلقين الشك بالاشارة إلى بعض ملامح فنسان . وفي نهاية المطاف ، فقد بذرن من القلاقل في نفس مارجو ما جعلها تغوص في النورستينيا رغم نشاطها المعروف ي . وعندما وصلت إلى قمة اليأس ابتلعت مادة الستريكتنين لتضع حدا لمياتها . واشتط غضب فنسان لتدوى صرخاته قائلا : و ما ذلك الذي تسمونه بالمستوى الاجتهاعي ، ما ذلك و الدين ، الذي يتمسك به أولئك المبجلون ؟ آه . . انها ليست سوى خوافات تحول المجتمع إلى نوع من مستشفى المجانين ، إلى عالم انقلب أحواله \_ آه من تلك المرطقة ! ي ( ٣٧٥) .

ومن السهل أن نتصور النتائج التى أدت اليها هذه القصة وكافة الاتهامات الحاطئة والتعليلات السيئة التى أثارتها ، بقدر ما يمكننا أن نرى كيف وكم هزت كيان فنسان الذى أحزنه كثيراً رؤية أقارب مارجو وكيف أنهم سارعوا بابعادها عن القرية وأن أحدا لم يقدم اليها يد العون أو يوجه لها كلمه ، بل ان أحدا لم يفهم حالتها

الحقيقية ! ولم يستطع فنسان نسيانها أو ، تجاهل حالتها ، فذهب لزيارتها في مدينة أو تريخت utrelt ، حيث أدخلوها المستشفى . لقد كانت بمفردها في الغرفة وسط مجموعة الكتب التي كان هو قد اعطاها لها . وأمضى اليوم بجوارها ، بهدوء ، في حديث شديد التأثر . وقد هاله ان يرى تلك الأنسة البالغة من العمر أربعين عاما ، منهكة ، مهزومة ، إثر محاولة انتحارها ، لكنها تمالكت لتعلن له بشيء من الانتصار : وأخيرا أحببت » !

لقد أحبت رغم العقبات الاجتهاعية والأسرية والديبية . . وحققت تلك الأمنية في الأعياق أن ترى قلبها يرفرف حبا !

وكان الأثر الذى تركته فى نفس فنسان و أشبه ما يكون بآلة كيان ثمينة ، ماركة كريمون ، وقد أفسدها بعض العيال غير المهرة » . وباغتراب مرير رأى و ذلك النوع النادر من القيم » يتباعد عنه . . وكانت آخر لحن حزين عزف بخلجاته ، ولن تكف اصداؤه عن التردد فى فراغ ايامه الباقية . .

لقد كان حزن فنسان أليها ومحرضا ، لكنه وجد نوعا من السكينة في ذلك الشعاع الذي أضاء حياته بتلك النبرة الخاطفة ، وذلك الحب الذي استطاع حمايته من أيه تأويلات . اذ كتب يقول : و ولما كنت ارعى المستقبل ، فلقد حافظت عليها دائها من وجهة نظر ما ، حتى لا يعتبرها المجتمع قد زلت أو أغويت بها . لقد كانت تحت يدى مرات عدة لوانني اردت ذلك . لكنني صنتها . وسيمكنها مواصلة الاحتفاظ بمكانها في المجتمع وستتاح لها فرصة جديدة ، ان أرادت فهم ذلك ، بأن تنتصر على اللائي نلن منها ، وسوف أساعدها عن طيب خاطر ؟ (٣٧٧) .

ورغها عنه ، راح فنسان يفكر فى كى ابنة خاله ، وفى تلك التجربتير المريرتين وما أدتا إليه من أحزان وإن كانت كل منها تختلف عن الأخرى . ومثلها كان قد وعد كى ان يتصرف بحيث لا يفهم اى مخلوق شيئا من تصرفه ، فقد دفن حبه لمارجو بنفس الصمت القاطع . وهى المأساة الجديدة التى يبدو أنها وضعت الاخوين بشكل مؤسف فى مواجهة بعضهها كالاعداء على جانبى المتاريس : « تيو من جهة كجندى تابع للحكومة » ، وفنسان على الجانب الآخر « كثائر أو كثورى » .

وعبر الخطاب المرير المثير للعواطف (رقم ٣٧٩) ، وطوال الخطابات الأربعة التالية له وفنسان يعبر عن تطور فكره الاجتهاعي ويشرح شكل ذلك الحلاف الذي

بلغ ذروته . وقد راح پشبه هذا الخلاف بالصراع الذي كان يقسم المجتمع ايام ثورة ، الله درات بينها كانت القوتان القائمتان تتواجهان في عنف : جيزو Guigot ، وزير الملك لوى فيليب من جهة ، وكل من ميشليه وكينيه bokuietمن المطلبة من جهة آخرى . وبحزن غريب اخذ فنسان يشرح الفرق الذي يفصل بينهها .

فلقد كان كل منها \_ في عام ١٨٨٤ ، يقف في معسكر غتلف حيث يتعين عليها أن يسيرا إلى الأمام . . ومن الحق أن أحدهما لم يكنّ يهتم بالسياسة بالمعنى الحرفي ، لكنها ، كأفراد \_ ينتميان إلى المجتمع ويمثلان جزءاً من الكيان العام ، الذي هو \_ الانسانية ، ومن البديهي أن يصطف الناس تلقائيا أو رغها عنهم تحت راية معينة . . وفي هذا الصراع الغريب ،كانت راية تيو تعنى :الوصول إلى مركز اجتهاعي معين وان يصبح جزءا من البورجوازية المتصاعدة الحاكمة ، وان يثرى من تجارة الفن ؛ بينها كانت راية فنسان تعنى : تصوير الشعب ، وتنويره بنوره ، ومحاولة التقاط انعكاس من اللانهائية ، مع انجاز الكثير من العمل أو الموت . .

وقد اختار فنسان جيل سنوات ١٨٤٨ عن جيل ١٨٨٤ ، سواء من الناحية الانسانية أم من الناحية التشكيلية ، ورثى لحقيقة استحالة تعاونها كرجلين يقفان فى نفس الجانب ، من نفس المعسكر . الا أن ذلك لم يمنع من ارتباط فنسان انسانيا بأخيه حتى فى قمة الخلاف ، فكتب له قائلا : (إن عداوتى عبارة عن طلقات لا أوجهها اليك ، ياأخى ، وانما على المعسكر الذى انضممت إليه . . . اما عن نفسى فلا أنوى تغير معسكرى . سأطلق اذن اعيرتى تجاهك \_ لكن مع مراعاة عدم اصابتك . وعليك ان تقوم بالمثل \_ لكن حاول ، انت ايضا ، الا تصيبنى ، !!

ولقد راح ينذر تيو حبا فيه ، ويحذره بكل قواه واكثر من ذى قبل ، ضد ما راح يطلق عليه «جيزوتية ، عصره ، موضحا له ان هناك مجتمعا قديما يغرق بسبب اخطائه وجموده القائم على مبادىء مناهضة للثورة ، وهناك مجتمع جديد ، ينمو ويتطور وفقا للمبادىء الثورية ، وان السياسة القائمة على التذبذب والموار بين القديم والجديد ، لموقف لا يحتمل . فهناك متاريس بين المتهاوى والجديد ، اذ لا يمكن الجمع بينها ، ولا يمكن للمرء أن يسبح بين التيارين : فإن عاجلا أو آجلا لا بد له من اتخاذ موقف محدد والافصاح عنه : « لا أود رؤيتك مع الحقراء ، لأننى احببتك بعنف ، نعم ، لأننى مازلت احبك ولا احتمل غرقك في الوحل ،

ولم يدرك تير وجهة نظر فنسان ، أو لعله رفض مواجهة الحقيقة ، فاكتفى بان يقول لأخيه الأكبر منه بأنه سيحقق و تقدما أفضل وهر يصور لوحات جيدة بدلا من الوعظ في المسائل السياسية والثورة! ، وسرعان ما يتناقض تيو وهو يضيف إلى هذه العبارة السؤال التالى طالبا من فنسان و ان يشير له بعناصر جديده تتعلق بمشكلة الاصلاحات التي يمكن تحقيقها في التجارة ، ا (٣٨٤) . .

وخلال ذلك التطور المتواصل ، اختار فنسان الجانب العملى : الفعل ، والابداع ، ومناهضة العقبات ، والتغلب أو الانهزام لها ، بما أن الحركة \_ بالنسبة له ، تتضمن مكافأتها في حد ذاتها ، وفي نفس ذلك الوقت ، وبلا أي يأس ، راح يقوم بمساع جديدة لدى كل من موفى وترستيج ، حتى يمكنه العمل في مرسم الأول ، ويبيع لوحاته بواسطة الثاني . إلا أن الاثنين قد رفضا ذلك تماما . اذ ما من أحد كان يريد فنسان ، الذي ينبذونه كالأجرب قائلين : اذا ما أصر على البقاء على هذه الأرض ، فليعش ، لكن بعيدا عنا !

وراح فنسان يعمل بلا هوادة من الصباح حتى المساء ، وقد عقد العزم على انجاز نحو خسين ا بورتريه الملاحين في فترة ثلاثه أشهر . ولقد تعرف خلال هذه الفترة إلى ثلاثه هواة ، أصبحوا تلاميذ له وهم : هرمانز الصائغ ، وقان دى فاكر Van de Wakker ، موظف البريد ، وخستل gestel ، طابع ماركات لفائف السيجار ، وفي شهر نوفمبر انضم اليهم كيرساكرز Kerssmakers الدباغ المتواضع ، الذى كتب ذكرياته عن فنسان قان جوخ بعد ذلك بسبعة وعشرين عاما . ونشرت في جريدة أمستردامر الأسبوعية في الفترة من ١٢ – ٢١ ابرايل

ومن أطرف التفاصيل التي يوردها تلميذ فنسان هذا ، انه يكشف عن عصرية ذلك الفنان الانسان الذي لم يفهمه المحيطون به . فلقد ادرك مثل بودلير Baudelaire التوافق بين الموسيقي وفن التصوير . واذ كان قد سبق له إدراك موسيقية الألوان في درانت ، فقد حاول فنسان \_ وفقا لعادته \_ تعميق هذا الشعور بالدراسة . ويكتب كيرسهاكرز في مذكراته عن فنسان قائلا : «كان دائها يشبه فن التصوير بالموسيقي . ولكي يزداد فها لقيمة وتنويعات الدرجات ، راح يدرس البيانو مع احد عازفي الأورج المسنين في بلدة أيندهوفن Eindhooven . إلا أن ذلك لم يدم طويلا لأن فنسان ، كان طوال الوقت إبان الدروس يقارن بين درجات ذلك لم يدم طويلا لأن فنسان ، كان طوال الوقت إبان الدروس يقارن بين درجات

البيانو بالأزرق البروسي والأخضر الزمردى والأصفر الأوكر أو الكادميوم . وتصور المدرس المسكين انه يتعامل مع احد المجانين وانتابه الذعر لدرجة أنه رفض الاستمرار في تعليمه »!

ولم يكن المدعو فاند سندن Vandee senden ، عازف الأورج الريفى المتواضع ، قادرا على فهم التوافقات التي تغنى بها بودلير من قبل فى قصائده ، واضاف \_ بدوره \_ اتهاما جديدا لتلك القائمة الطويلة المعنونة ب دجنون فنسان ، !! ولم يختلف فى هذا مع بقية مواطنيه الذين لم يروه أقل جنونا وفقا لمذكرات كيرسهاكيرز ، اذ كتب ما قاله فنسان ذات يوم : دحتى حمقى نونن يزعمون أحيانا اننى مجنون حينها يرونني أتجول فى البراري ، ثم اتوقف أو اغنى ، ثم أغمض عينى قليلا ، رافعا يدى وكأننى اصنع بها اطاراً لما انظر إليه ؛ غير الني لا اعبا ، وأواصل عملى رغم زعمهم » .

ومن الطريف ملاحظة أنه على الرغم من أن فنسان قد شعر أو استطاع تبين العلاقة بين الانغام والألوان ، أو بين الموسيقى وفن التصوير — وهى من اهم الاسهامات التي قام بها بودلير في أشعاره ، فمن الغريب انه كان شديد القسوة في الحكم على بودلير فيها يتعلق بمجال فن التصوير . فعندما قرأ قصيدة و الفنارات ، لبودلير ، خاصة الفقرة المتعلقة بالفنان رامبرانت ، كتب قائلا : و بودلير ؟ ليغلق منقاره في هذا المجال ، انها كلهات طنانة يتبعها الفراغ . لنتقبل بودلير على ما هو عليه ، شاعر عصرى مثله مثل الفريد دى موسيه ، لكن ، ليتركنا وشأننا عندما نتحدث عن الفن » (برنار ١٣)).

واذ لم تكن لفنسان أية تطلعات ماليه ، فقد كان بأخذ من تلاميذه بعض أنابيب الألوان ، ليواصل التصوير ، بدلا من النقود . وهنا يكتب ترالبو قائلا : « لقد كان فنسان خدوما دائيا ، اما كمدرس رسم ، فقد قدم بنفس الاخلاص والتفافي ، اذ قام تلاميذه بتقدم ملحوظ في فترة جد قصيرة ، إن هذا النشاط التعليمي يعد حقبة غير معروفة في حياة فنسان . لقد اثبت انه خلال جمسة اعوام من العمل المضنى المتواصل قد وصل إلى مستوى عال واستطاع ان يتعلم ويعلم غيره ، ( فنسان غير المحبوب ، صفحه ١٤٠) .

وعلى الرغم من هذا الجهد الشاق بحثا عن غرج يتمكن عبره من الاستقلال واعالة نفسه ، فمن المؤسف حقا ان نقرأ ما كتبه تيو قاتلا ومؤكدا لفنسان انه لا ينوى

الاهتهام به وبعمله الا باعتباره عائلا أو وصياً ، مما يعنى بالنسبة لفنسان ان ينحنى ويقبل ما يفرض عليه من لجام وبردعه ، ليصطف كلية فى جانب البورجوازية المتصاعدة الرابحة والتى تزداد ثراء ! الا ان فنسان اجابه قائلا : وشكرا ، شكرا جزيلا يا اخى ! حقا لقد أرسلت لى نقودك بانتظام ، لكن ببرود ، مصحوبة ببضع كلهات ، بلا أية بادرة مشاعر \_ بينها كنت أواصل العمل بثبات وصلابة ، .

فمن ناحية فنسان ، كان يعطى نفسه بكله لذلك المشروع الذي اتفق عليه مع تيو ، بينها لم يلتزم به تيو الا بحذر شديد ، عندما يدفع بصورة أو بأخرى ذلك المبلغ المتفق عليه . ففي حقيقة الأمر ، لم يكن فنسان يمثل - في نظره - الا مبلغا عليه ان يدفعه . مما دعا فنسان إلى وضع حد لعلاقتهها والبحث عن تاجر آخر وان كان و بائع حاجيات قديمة ، يضمن له الماوى وشظف العيش وبضعة أنابيب من الألوان . كان أهون عليه أن يبيع نفسه لأى مشتر ، ويعتبر ذلك في حد ذاته شيئا اكرم من قبول وصايه اخيه ومغالطة ضميره . ومن الانصاف أن نقول ان فنسان كان يعترف دوما بأنه مدين لمساعدات أخيه أيا كانت، مدى الحياة ، لكنه ابدا لم يتمكن من قبول بأنه مدين لمساعدات أخيه أيا كانت، مدى الحياة ، لكنه ابدا لم يتمكن من قبول بأنه مدين لمساعدات أخيه أيا كانت، مدى الحياة ، لكنه ابدا لم يتمكن من قبول وللانسانية مها عانى في سبيل ذلك ، بينها كان الآخر متمسكا ببقائه مع الاغلبية المتواضعة !

وظل تيو بدأب يتهرب من الرد على تساؤلات فسان أو مناقشه تلك الصداقة المتهاوية التي بانت محتاجه لوضع حد لها . وفاض صبر فنسان ، فكتب قائلا : « ان موقفك هذا غير مشرف لك ، وانني لأشفق عليك في مثل هذه الظروف \_ وان كان ما يظل مفخرة لك ، أنك تواظب على اعطائي النقود بانتظام » ( ١٣٨٦) . ان أكثر ما كان يؤلم فنسان ، من الناحية الانسانية ، انها لم يعودا يمثلان شيئا بالنسبة لبعضها بعضا .

ومن الجانبين ، راح كلاهما يبدأ الكتابة ثم يمزق بداية الخطاب ! وياله من شهر حزين ، شهر ديسمبر عام ١٨٨٤ الذي تلقى خلاله فنسان خطابا صارم اللهجة ، باسلوب متعال شديد الاحتقار ، جدير و بأحد وزراء الفنون الجميله المساكين » ! ذلك الخطاب الذي ادرك منه بوضوح مرير ، اتجاه اخيه حيال لوحاته . اذ كتب تيو قائلا : و ربما فيها بعد ، عندما تنجح في التعبير بشكل اوضح ، ربما اكتشفنا بعض المميزات فيها تقوم به من لوحات اليوم ، ولربما امكننا اتجاد اتجاه مغاير » ! ياله من وعد غريب لإنسان هو في أشد الحاجة للحصول \_ حاليا \_ على خرج حتى يمكنه

مواصلة الحياة ، لكنه وعد يكشف فى نفس الوقت عن اتجاه تيو ، تاجر اللوحات ، الذى لم يكن يهتم مطلقا بأعهال اخيه فنسان .

وكان للهاوية التى تفصل الأخوين انعكاساتها على الاسرة ، خاصة فى منزل الوالدين حيث ان رؤيتهما لطول اقامة فنسان و « تباطؤه » لديها لم يكن يروق لهما . فمن جهة ، وجد نفسه مضطرا للابتعاد عن ذويه ، ومن جهة اخرى ، لم يكن يقو على الرحيل بعد ان بدأ مشروع تصوير خسين بورتريه \_ فى محاولة « التعبير عن طيبة اولئك الفلاحين » \_ وحتى يمكنه السيطره على تقنيات هذا المجال والتوصل إلى وسيلة لكسب العيش ، فالبورتريه الفنى المرسوم باليد يكشف عن الاعماق اكثر بكثير من الآلة الفوتوغرافية .

وتتراكم الأحزان في نفس ذلك العام الذي لا ينتهى ، ويالها من بداية اكثر حزنا لذلك العام الذي بدأ لتوه . . فقد كتب فنسان في بداية يناير ١٨٨٥ قاثلا ، رغم كل ما مربه من مآس : ولم أبدأ في حياتي عاما اكثر سوادا من هذا العام ، ولا محيطا أسود من هذا المحيط الذي نحن فيه ، لذلك لا اتوقع مستقبلا مكللا بالنجاح ، وانحا مليء بالصراع » . ولم تكن الطبيعة أقل حزنا ، فالحقول جرداء والأرض شديدة السواد ، تعلوها بقايا ثلوج متناثره ، بين الوحل والضباب والاعشاب الجافة ، المدهوسة ، العفنة ، بجانب الإجمات السود والافرع للتخشبة وشمس كبيرة حمراء ، تدفع إلى الاختناق ، في سهاء كثيبة عابسة .

ياله من منظر حزين ، يتفق وروحه المعنوية ، وصراعه المضنى ، وياله من منظر يتجاوب مع تلك اللوحات الداكنة المجردة التي صورها لعهال النسيج ، أولئك العهال المطحونين تحت قلة الاجور الضحلة وامكانيات العمل الأكثر ضحالة . ومثلها قام بدراسة حياة عهال المناجم ، حاول أن يرى عن قرب تلك الطبقة المعدومة الأخرى ، تلك الطبقة العدومة الأخرى ، تلك الطبقة العدومة الأخرى ، مهنتهم . لقد كان فنسان يرى أن عامل النسيج الذي يعمل بجد وبلا توقف ، يمكنه نسج قطعة طولها ستون مترا في الأسبوع . وفي اثناء عمله ، تظل زوجة النساج تعمل بجوار زوجها لتفك له بكرات الخيط . ومقابل كل هذا الجهد المضنى الذي يقوم به شخصان ، كان النساج بنقاضى أربعة فرنكات ونصف الفرنك في نهاية الأسبوع عندما يسلم قطعة النسيج لصاحب المغزل .

د وعادة ما كان النساج يصدم بتعبير انه لن يمكنه الحصول على خيوط لغزل غيرها قبل اسبوع أو اسبوعين ، ( ٣٩٢ ) .

ولم يبدأ نوع من ذوبان الجليد بين الاشقيقين إلا عند وفاة والدهما ، القس تيودورس فان جوخ ، في السادس والعشرين من شهر مارس عام ١٨٨٥ . وهو ذوبان سرعان ما تجمد ثانية ، اذ ان توزيع الميراث قد أدى إلى انشقاق جديد بين فنسان وشقيقاته ، وخاصة شقيقته أنا Annaأصغر الأخوات . فلم يكن فنسان يود أخذ أكثر من ماثتى فلورين من نصيبه حتى يتمكن من تسديد ديون الألوان ، تاركا بقية ميراثه لشقيقاته . غير أنه حتى ذلك الجزء من المبلغ الذي يحق له قد ضنت به عليه الشقيقات المبجلات أو وجدن انه ضخم جدا بالنسبة و الإنسان فاشل ال ووصل الخلاف بين فنسان واخته أنا إلى درجة راحت تكيل له معها القذف واللوم والشتائم التي لا مبرر لها . عا دفع فنسان إلى الابتعاد اذ ان الحياة معهم اصبحت والشتائم التي لا مبرر لها . عا دفع فنسان إلى الابتعاد اذ ان الحياة معهم اصبحت مستحيلة لاختلاف وجهات النظر بين عقليات صغار البورجوازيين المتمسكين بالشكليات الاجتماعية ، ومصور الفلاحين الذي لا يفكر في هذه الصغائر ولا يهدف الا إلى عارسة فن التصوير بدأب وصرامة بقية حياته .

لقد ترك فنسان نصيبه تماما فى هذا الميراث ، لا من جراء ما لحق به من جراح فى هذا الشجار المهين وما كالته له فيه اخته أنا ، وانما من أجل ذلك الحلاف الشديد الذى كان قائل بينه وبين والده فى السنوات الأخيرة .

وبرضاء شديد ، تنازل فنسان عن كافة حقوقه حتى فيها كان يخصه من ممتلكات في هذا البيت ، وغادر منزل والده نهائيا ليسكن في مرسمه ، حيث راح ينغمس بكل وجدانه في الموضوع الذي اختاره ويشعر باطمئنان عميق وهو يتأمله : و فلم تكن مضيعة للوقت أن أظل جالسا لمدة ساعات طويلة في المساء ، قرب المدفأة ، أفكر وأتأمل عند عهال المناجم ، أو عهال السباخ ، أو هنا وسط النساجين وعند الفلاحين . إلا حينها لم يكن العمل لا يسمح لى بالتأمل ، (٤٠٠) . ففي نظر فنسان ، فإن الطبقة العاملة بكل تفرعاتها كانت أحوج ما تكون إلى المساعدة ، ولقد كرس لها كل جهوده ، وأيا كان المجال الذي يتعامل معه ، فقد عاش بؤس هذه الطبقة وفاقتها الطاحنة .

ومن المخزى والمدهش في آن واحد أن نرى كيف كان تيو ، المستقر باستتباب في التجارة ، يحاول بكافة الوسائل إثناء فنسان عن رسم هذه الموضوعات الريفية

العديمة القيمة في نظره ، متذرعا بمزاج الجمهور وبعدم اهتهامه حتى بأعهال الفنان ميليه ــ الذي كان قد تناول نفس المجال . وراح بحث أخاه على تناول الموضوعات السائدة والتي تهم البورجوازية الصغيرة ! مما يطبح بلاشك بتلك الأسطورة المزعومة من ان تيو يعد خبيرا حاد البصيرة وشغوفا بأعهال أخيه !! الا ان ذلك لم يحبط من عزائم فنسان ، الضارب بجلوره في المفاهيم الاجتهاعية والإنسانية .

وعلى الرغم من طلبات البورجوازية السائدة أوغضب تجار الفن ، فقد ظل فنسان متمسكا بمبادئه ، وقد غاصت قدماه في ارضها بصلابة ، وظل يرى ان ما يعطى اجمل النتائج الفنية انما د هو تصوير هؤلاء الفلاحين بنفس خشونتهم بدلا من أن نضفي عليهم نعومة وجمالاً تقليديا ، (٤٠٤). ثم راح يضيف قائلا : « ان من يؤثر رؤية فلاحين ذوى جمال وناعمي الملمس ليذهب بعيدًا عني ، أ ذلك لأن دراما الحياة الانسانية وظروفها هي التي كانت تجذب انتباه فنسان وكان يود جذب انتباه الاخرين اليها . . وهنا أيضاً احتفظ بنفس اتجاهه مثلها فعل مع عمال المناجم في بوريناج ، بتبني أسلوبهم لكي يتمكن من تفسير الإنجيل لهم . وهنا يوضح قائلا : و لابد من رسم الفلاحين وكأن المرء واحد منهم ، بل وكأنه يفكر مثلهم ، ، متخذاً من المسيح دوما نموذجا له ، ذلك المسيح و الذي من اجل انقاذ العبيد ، قد اتخذ شكل العبيد؛ فلقد افني نفسه حتى الموت ، بل حتى اكثر انواع الموت مهانة » ( بومان Boumann ، القديس بولس ، صفحة ٣٤٢ ) . فالقديس بولس ، ذلك القديس الذي كان يبجله فنسان ، الم يتبع المسبح هو الأخر؟ أليس هو القائل : ولقد صرت يهوديا مع اليهود ، حتى اكسب اليهود . وعاجزا مع العجزة حتى أكسب العجزة . . . وجعلت نفسى كل شيء للجميع لكى انقذ البعض بأى ثمن ، ( الكوزنتيون ، الفصل التاسع ، ٢٠ ــ ٢٢ ) .

وكان فنسان يرى ان الطبقات العاملة هذه أفضل بكثير من ذلك العالم المتحضر ، غير انه كان يأخذ عليهم عدم فهمهم للفن . وهو العبب الذى حاول الاسهام في اصبلاحه بأن يجذبهم إلى ذلك العالم الذى يجهلونه ، عالم الفن ، الذى ظل يحاول ادخاله في ظلهاتهم ، مثلها فعل من قبل مع عمال المناجم ومحاولته ادخال كلهات الإنجيل حتى غياهبهم ، آخذاً بيدهم من الظلهات إلى النور ، وتلك هي المساهمة الاجتماعية التي قام بها فنسان ، وانتهاؤه الحقيقي الذي جلب له الطرد والاستبعاد في كل مكان . .

لقد ظل فنسان يعمل فى موضوع الفلاحين بلا هوادة ، محاولا القيام بلوحات يمكنها أن تدفع \_ كل من يأخذون الفن والحياة محمل الجد \_ إلى التفكير والتأمل ، . فبدلا من أن يتعاون مع تلك الطبقة المتصاعدة الغارقة فى وحل « تبرجزها » ، وحتى لا يكون متواطئا معها ، حاول فنسان ، من موقفه الثابت ، أن يهز أركانها ومشاعرها بأن يضع تحت اعينها تلك المناظر الانسانية المثيرة ، معلنا عن وجود تلك الطبقة التى تعانى وتجتر متاعبها إلا أنهم يتجاهلونها فى نفس الوقت الذى يسحقونها فيه .

وكانت أول لوحة كبيرة الحجم من هذه المجموعة هى لوحة آكلى البطاطس . وبتصويره لهذا الموضوع ، كان فنسان يفكر فيها قيل ذات يوم عن الفلاحين الذين صورهم الفنان ميليه : و ان فلاحيه يبدون وكأنه صورهم بالارض التى يزرعونها » . وبنفس المفهوم ، أراد أن يوضح أن أولئك البؤساء الذين يأكلون البطاطس من طبق واحد بنفس الأيدى التى زرعت الأرض وغت عليها تلك الدرنات . فالموضوع بالنسبة له لم يكن مجرد لوحة تعبر عن العمل اليدوى لتوضح أن أولئك الفلاحين يستحقون بأمانه تلك الوجبة التى حصلوا عليها بفضل جهدهم ، كها انها تأكيد لذلك المعنى الذي استقاه من الانجيل والقائل بأن و العامل جدير بالحصول على طعامه » ( متا ١٠ ١ - ٥ ) . ولا شك في أنهم يستحقون تلك الوجبة النحيلة فلولا جهدهم لما حصلوا عليها . وهكذا تناغم تصوير الفلاحين مع حشد من المعاني التى أراد فنسان أن يعبر عنها .

وما أن انتهى من هذه اللوحة حتى أرسلها إلى تيو محاولا تحديد الانفعال والحيوية التى حاول فنسان التعبير عنها فى وجوه هذه الاشخاص . ولا يتحمس تيو لهذا التكوين الذى ولا تتناسب فيه الأجسام مع الرءوس ، فقد تعالى التاجر فى مواجهة بؤس الفلاحين الأسود .

غير أن فنسان لم يعبأ بملاحظه أخيه المتحذلقة ، وقام بتصوير اللوحة المكملة لأكلى البطاطس بان صور : مقابر الفلاحين ، موجزا بذلك طرفى وجود جد بائس وفقير ، محصور بين العمل والوفاة . وبتخليه عن التفاصيل بشكل عام فقد أراد فنسان أن يقيم ملمحا من تلك الأنقاض الأدمية ، من أولئك الفلاحين الذين يرقدون فى نفس الحقول التى زرعوها طوال حياتهم ، وكيف أن الموت فى شكله الاجتهاعى ـ الذى هو الدفن ، يعد بالنسبة لهؤلاء البسطاء حدثا فى نفس بساطة سقوط أوراق الخريف . .

وبعد أن أعياء الملل والتقزز من ذلك التحضر المتحذلق الذي تغوص فيه الاسرة ، التي يجيا بجوارها وان كان بعيدا عنها ، لم يعد فنسان يجد مكانا له في هذه الارض الا في فن التصوير ، وخاصة تصوير حياة الفلاحين الذي أصبح يريح ذهنه المتعب \_ حتى حينها يفيض بؤسه عن الحد . غير أن حالة الفقر وقلة موارده التي كانت تهدده طيله الوقت وتحاصره من كل جانب ، جعلته يفكر ــ بحثا عن غرج لأزمته ــ في الحصول على مورد رزق بأن يعمل كأحد عيال التراحيل أو العاملين في استصلاح الأراضي المنزوعة من البحر . . وهنا يوضح وجهة نظره قائلا : د من الأفضل تنفيذ هذه الفكرة ، إن امكنني ، بحدافيرها ، لا شك في انني سأكون أكثر سعادة . على الأقل سأشعر انني أعيش حقا ، (٤١٣ ) . ان ما كان ينقصه فعلا هو ان يشعر حقا أنه على قيد الحياة ، أي إنه يعيش بلا لجام قصير ملفوف حول رقبته ودون أن يكون تابعا لتحكيات شخص آخر . أن يحيا بهدوء في منأى عن الضوضاء ، وان يشعر بالسكينه طوال الفصول الأربعة ، سواء في الجليد أم وسط أوراق الشجر الصفراء، ووسط حقول القمح أوبين الأعشاب . . أن ينعم في الصيف بشمس صحوة تملاً سهاه ، ويحظى في الشتله بمدفأة ؛ أن ينام على أكوام القش ويأكل خبز الشعير وهو يردد في صمت : ولقد كان الحال دوما هكذا ، وسوف يظل دوما على ما هو عليه ۽ !

وازداد انزعاج تيو من اتجاه فنسان الذي لا يتزحزح عن مواقفه ، والتي بدت في نظر تيو وكأنه يزداد و غوصا في الوحل » من اندماجه مع الفلاحين ، وحاول مرة أخرى استبعاده عن ذلك المجال متخذا من الفنان أود uhde ـ ابن بلدته ـ ولوحاته الدينية مثلا جديدا عليه ان يحتذيه . لكن تيو يخفق مرة اخرى في اقناعه متذرعا و بجزاج البورجوازيين » . فلجاً هذه المرة إلى الدين ، متأكدا في قرارة نفسه إلى اى مدى لما يزل فنسان متعلقا به . الا ان فنسان قد أجابه بأنه لا يمكنه هضم الصور المفتعلة للقديسين . ثم راح يضيف قائلا : و وأراهن ان ذلك هو رأى أود نفسه ، وانه قد قام بتصوير تلك اللوحات الإرضاء بعض بورجوازيي بلدته التي يعيش فيها وإلا لمات جوعا » ( ٤١٦ ) . الا ان فنسان لم يكن مستعدا لعمل ذلك : اذ ان تكريس فنه الإرضاء هؤلاء البورجوازيين أمر لم يخطر بباله أبداً .

ومن الواضح أن الصراع الطبقى الدائر آنذاك بين البورجوازية والطبقة العاملة قد انتقل بوضوح ، على المستوى الفردى ، بين تيو التاجر البورجوازى ، وفنسان الفنان المرتبط بالمقهورين من البسطاء والفقراء . وهنا تكمن حقيقة المشكلة التى تفصل بينها . وهى المشكلة التى عادة ما يغفلها كتاب سيرته ، أو لعلهم كانوا مضطرين إلى اغفالها لكى لا يتعرضوا لمواقف حرجة ، من الناحية الاجتماعية والسياسية أو الدينية ، ولكى لا يسيؤا إلى بعض افراد عائلة فان جوخ الذين كانوا لما يزالوا على قيد الحياة .

ويا لحدة الخطاب رقم ٤١٨ ، الذي يكشف بوضوح عن موقف فنسان ومدى بلورة فكره الفنى والاجتماعي القائم أساسا على النزعة الانسانية . لقد راح يجيب على محاولات تيو غير المجدية قائلا : « لا أعرف شيئا عن المستقبل يا تيو ، لكنني أعرف ذلك القانون الخالد القائل بأن كل شيء يتغير بلا هوادة . فكر فيها كان قائها منذ عشر سنوات ؛ كل شيء كان مختلفا ، الظروف ، وذوق الناس ، وكل شيء إجمالا . ومن المؤكد أنه بعد عشر سنوات فإن كثيراً من الأشياء القائمة حاليا ستغير » .

وبازدياد توغله في الواقع وفي احزان بؤسه المرير ، لم يكن فنسان يتخيل أنه يمكنه تصوير اى شيء آخر سوى الواقع الانسانى ، المعاش بأوسع معانى الكلمة لا ذلك الواقع الذي يتأملونه من الخارج . فراح ينضم إلى كل أولئك الفنانين الذين يمثلون كوكبة المصورين ذوى النزعة الإنسانية ، لينتقد بسخرية لاذعة ذلك الاكتاج السريع للوحات الحريم والملائكة والموضوعات التاريخية أو الغربية الدخيلة ، تلك الموضوعات الجافة المملة ، التي يرسمونها في مراسمهم . واكثر ما كان يدينه في هذه اللوحات التي كانوا يتغنون بتقنياتها ، هو افتقارها إلى الإرادة والروح والاحساس والحب ، افتقارها إلى ذبذبات النفس الانسانية المنبعثة من الانسان والمؤدية إلى الانسانية .

واذا ما أدان كلمة و تقنية ، التي يضفون عليها بعض المعاني التقليدية ، فلم يكن ذلك بغية المزايدة بمصطلح و الموضوع ، وانما من أجل التأكيد على معنى الواقع الإنساني ، والذي لم يكن يقصد به الواقع الأكاديمي ، الذي تصطف فيه الشخوص بشكل قد لا يعيبه اي شيء ، وانما يقصد به الواقع الحي ، الذي يسمح باكتشاف شيء جديد ، فريد من نوعه في الانسان الذي يشبهه بقصر التيه والذي لم تستكشف أغواره بعد ، بغية تحسين ظروفه .

وانطلاقا من هذا المفهوم ، فقد كان فنسان يغرق في اليأس اذا ما كانت الأشخاص التي يصورها مضبوطة أكاديميا . فلقد كانت رغبته الحقيقية ان يتعلم كيف يمكنه التعبير عن كل ما يراه من عدم دقة ، وتشوهات والتواءات ناجمة عن اعتصار الواقع لهم . ان ذلك ما كان يدفعه إلى التعبير عن العمل واثره المتبادل ، أسبابه وانعكاساته بالنسبة للانسان ، وذلك ما دفعه إلى ان يكتب لأخيه قائلا : و ان الذين يصورون الحياة الريفية أو الحياة الشعبية ، هم الذين ربما صمدوا في السنوات القادمة افضل من صانعي الحريم والحفلات ، حتى وان كانوا من غير البارزين في المجتمع » . ثم راح يضيف بعد قليل ، ما يكشف عن رؤية عصرية واضحة : د ان تصوير الفلاح وهو يعمل ، اكررها لك ، يعد أساسا شيئا عصريا بل وبمثل قلب الفن الحديث . وذلك ما لم يفعله اليونانيون أو رسامو عصر النهضة ولا المدرسة الفولندية القديمة . ان ذلك بالنسبه لى هو ما افكر فيه كل يوم » .

وبالفعل ، باستثناء بعض النهاذج مثل الأخوين لينان Le Nain أو ميليه بعدهما ، فمنذ القرن السابع عشر لم تظهر شخصية الفلاح فى فن التصوير الا بشكل ساخر أو جامد . كما أن الحركة ، فى شكلها الاجتماعى الذى يعنى لدى فنسان قيمة العمل ، التى لا نراها فى فن التصوير ، الا فى بعض الاستثناءات منذ ايام بروجل Breughel . وها هو فنسان يقول فى نفس الخطاب : « فى اللوحات القديمة فإن الاشخاص لا يعملون ، بينها فنسان يهدف إلى التعبير عن العمل كحركة فى مضمونها الانساني ويرمى إلى تمجيدها .

وفي شهر أغسطس قام تيو بزيارة أسرته في بلدة نونن . ويبدو أن المباحثات التي دارت بين الأخوين كانت من المرارة بحيث ان الزيارة \_ في الجالها \_ قد تركت فنسان في حالة قلق غريب . فالموقف بالنسبة له يعني البؤس بعينه . وفي نفس الوقت ، قام فورينه Furnée ، تاجر الألوان الذي كان فنسان يتزود من عنده ، قام بابلاغه انه سيوقع عليه الحجز اذا لم يسدد ديونه ( منوها بذلك إلى ميراثه ) ! وبكل هدوء راح فنسان يشرح له الموقف ، موضحا أنه لا ينوى التهرب مما عليه ، مؤكدا له انه هو الخاسر اذا ما لجأ إلى القضاء . وعلى العكس من ذلك . فيها انه لا يمتلك سوى لوحاته \_ التي صورها بنفس الألوان التي اخذها من عنده ، فاقترح عليه ان يبيع له هذه اللوحات في محله ويأخذ نصيبه منها . ولم يتردد التاجر في الاخذ بهذا الاقتراح وقام بتنفيذه فورا ، غير أن ذلك يكشف \_ في نفس الوقت \_ عن عدد اللوحات التي لا يعرف مصيرها ! . .

وما أن انتهى فنسان من هذه المنفصات ، حتى وجد نفسه فى مواجهة غيرها : فقد استدعاه راعى الكنيسة الذى خلف والده \_ ولم يكن هو الأخر على وفاق مع فنسان ، ثم راح يرجوه أن يكف عن التصرف ببساطته المعهودة مع أولئك الفلاحين الذين هم أدنى منه فى المستوى الاجتهاعى ، ومن ناحية أخرى ، راح نفس ذلك القس يهدد الفلاحين ويتوعدهم اذا ما استمروا فى الوقوف أمام فنسان لكى يصورهم ! واذ لم يصل إلى شىء من وعيده ، راح هذا القس يعد الفلاحين بأنه سيعطيهم نقودا إذا ما رفضوا الوقوف أمام فنسان . ويقول فنسان لأخيه : و إلا أن أولئك الفلاحين قد أجابوه قائلين بأنهم يفضلون ما يتكسبونه معى بدلا من أن يأخذوا منه أية نقود و (٤٢٣) .

اما السبب وراء تلك المناورات المزدوجة من جانب القس ، والتي لم تكن من مصلحته ، فيرجع إلى أن إحدى الفلاحات اللاثي كن قدجلسن أمام فنسان ليصور لوحة آكلي البطاطس كانت حاملا . . وبدلا من أن يستفسر عن الفاعل ويدينه مباشرة ، أو ليتدارك الموقف ، فقد رأى ذلك القس المبجل انه من الاسهل اتهام فنسان ، ذلك د المجنون ، الذى يحتمل كل شيء في صمت !!

ويالقلة عدد الذين يذكرون تلك الواقعة ، حتى ترالبو لا يذكر سوى الجانب غير المشين للكرامة الكنسية الرسمية ، اذ كتب قائلا : و لقد تم الكشف عن الأب الحقيقى لذلك الطفل فيها بعد ، لكن ذلك لم يمنع القس من ان يحذر التابعين لكنيسته من الجلوس أمام فنسان لكى يصورهم ، ( قان جوخ غير المحبوب صفحة لكنيسته من الجلوس أمام فنسان لكى يصورهم ، ( قان جوخ غير المحبوب صفحة فنسان ولو من تهمة واحدة من الفاعل فيها بعد ، لماذا لا يعلن عنه صراحة حتى تتم تبرئة فنسان ولو من تهمة واحدة من التهم الكاذبة العديدة التي لحقت به طوال حياته ؟ أما هو فراح يكتب ببساطه : وحيث انني قد عرفت من نفس المرأة حقيقة الموضوع ، وأعرف الدور الذي لعبه أحد الباع ذلك القس ، وهو دور شديد القبح بصفة وأعرف الدور الذي لعبه أحد النيل مني ، على الأقل ليس في هذه المناسبة » . . إلا أن خاصة ، فلن يستطيع أحد النيل مني ، على الأقل ليس في هذه المناسبة » . . إلا أن فنسان قد وجد نفسه مضطرا لإخلاء مسكنه عند خادم الكنيسة ، وان لم يوضح أبداً إذا ما كان ذلك الشخص هو الفاعل الحقيقي أم لا .

وعلى مشارف الشتاء ، وقد أصبح فنسان منعزلا عن الجميع ، تناول موضوعا جديدا في رسوماته هو : العش . . أوكار مختلف أنواع الطيور . . ومع ذلك ففي تنوع هذه الأعشاش بفراريجها ، فقد كان أكثر ما يعنيه هو العش الذي يسكنه الانسان ، كالاكواخ بسكانها في البرارى . . وان كان أكثر ما يؤلمه في هذه المجموعة الها هو عشه الذى لم يتمكن ابدا من تكوينه . . أما من الناحية اللوئية فقد كان يحاول إضفاء الحيوية على اللون ويجعله ويقول شيئاً ما ، واستحوزت عليه قوانين الألوان ، وكثافتها ، وذبذبتها ، وصلابتها أو توافقها ، فراح يلجأ إلى الكتب والطبيعة . وفي أرجائها الواسعة راح يكتسب الاحساس يتدرج اللون الواحد عبر تنويعات لا نهائية للون الواحد . أما عن قراءاته عن الفن وتقنياته فقد انتابته رغبه عارمة في مشاهدة لوحات الفنانين القدامي .

كان متعطشا لرؤية تلك اللوحات عن قرب حتى تعاونه فيها يبحث عنه من الناحية التقنية . فقرر السفر إلى أمستردام وتحضيه ثلاثه أيام في متاحفها . وعند عودته كان يشعر بمزيد من الحاجة إلى العمل وإلى البحث عن النور . .

ومع تزايد برد الشتاء وعدم استطاعته الحصول على موديلات لكى يواصل الرسم . . ومع صقيع أعضاء أسرته وبرودهم من حوله ، وانعزاله التام عن اخواته بعد ان وصل بهن الأمر إلى ملاحقته ليغادر المنزل \_ مثلها سنعلم ذلك فيها بعد من الخطاب رقم ٤٤٠ ، بينها كان في بلدة أنفرس Anfers ، اضطر فنسان بالفعل إلى ترك مرسمه والرحيل ليهيم عبر المجهول . .

ورغم تنوع كل هذه الأحداث وتضافرها بل وأهميتها ، فمن الغريب ان نرى كيف أن كل هذه الفترة من حياته يتم بترها أو اختصارها في جملتين أو ثلاث ، من قبيل ما يذكره د . هلسكر Dr. Hulsker في كتابه من كان فنسان عندما يقول : في شهر نوفمبر ، عقب بعض المصاعب مع راعي الكنيسة الذي كان قد حرم على الفلاحين الجلوس أمامه ليصورهم ، غادر فنسان مرسمه بكل مابه من لوحات » (صقحه ٥٥) ، متجنبا بذلك كل ما يمس شقيقاته أو كل ما يمس حقيقة الأحداث .

لقد اتجه فنسان إلى مدينة أنفرس على أمل من أن يتمكن من انهاء اى لوحة يتناولها فى جلسة واحده ، مستعينا بتلقائية اللمسة التى تنقل الاحساس العام للمتفرج بنظره واحدة . مما يشير إلى مولد وتطور أسلوبه الذاتي الذي تميز به والذي كان نتيجة لبحث عقلاني طويل ، يمكن متابعة تطوره بوضوح عبر المراسلات(١) .

ومن المحزن حقا أن نعرف أن كل لوحات فترة نونن قد عرفت نفس المصير الذي آلت إليه لوحات الفترة السابقة في منطقة درانت! وها هو الناقدج . ب . دى لافاى J. B. De la Faille يكتب عن هذه الفترة قائلا : و بعد وفاة والدته فى شهر مايو عام ١٨٨٦ قام عال الشحن بوضع لوحات فنمان فى صناديق وتركوها أمانة عند احد باعة لحم الخنازير فى منطقة بريدا Breda . ونسبها الجميع هناك ، حتى فنسان نفسه . . وقد تم بيعها فيها بعد إلى أحد بائعى الروبابكيا الذى قام بحرق جزء كبير من هذه اللوحات التى رأى أنها غير ذات قيمة !! اما اللوحات التى احتفظ بها فقد حملها على عربة وراح ببيعها عبر الطرقات بواقع عشرة سنتات للوحة . وقد قام السيد موفنى Mouwen ، الذى كان ترزيا بيريدا بشراء جزء كبير منها وبفضل تلك الواقعة ثم انفاذ كل ما تبقى من فترة نونن ۽ . ان هنرى بروشو ، الذى اورد هذا النص فى كتابه حياة فان جوخ (صفحة ١٨٨) يوضح الأمر قائلا : و ان هذه العمليات قد تمت بعد سبعة عشر عاما من نقل الاثاث الذى كان يخص والدة فنسان عام ١٩٠٣ ، !! وهو التاريخ الذى سنعود إليه فيها بعد لأنه يحدد بداية رفع اسعار بيع لوحات فنسان ، ومن هنا فهو يكشف عن بداية نسج الأسطورة . .

ولا يستطيع المرء أن يدارى بسمة صغيرة ساخرة ــ للأسف ــ وهو يقرأ الناقد بازان Bazin ، من بين كثيرين من صانعى أو من ضحايا الأسطورة حينها يقول عن ثيو فى كتابه فان جوخ ومصورو أنفرس : ولقد أخلص لأخيه طوال حياته . وتحمل كل انفعالاته وكل تطرفات جنونه لأنه كان قد ادرك ان فى هذا الرأس المحموم تتقد شعلة العبقرية ، ! (صفحة ٢٨ من المقدمة) .

## أنفرس (۲۷ نوفمبر ۱۸۸۵ ـ ۲۸ فبرایر ۱۸۸۱):

ما أن وصل فنسان إلى مدينة انفرس حتى راح يروى ظمأه فى متاحفها وخاصة متحف الفن الحديث . وازداد انفعاله وتأثره بذلك الحشد من الألوان والتكوينات ، فغاص فى تحليلها وعمل مقارنات جد هامة . ثم حاول استكشاف المدينة وفهم طبيعة تراثها العريق . وتكشف اللوحات والخطابات والرسومات عن ان التناقض كان غريبا فى نظر ذلك القادم من بلد الرمال والبرارى ، من سكينه الريف وايقاعها الهادىء . وتداخلت كل الأشياء فى نظره حتى خالها صهاء يستحيل فك طلاسمها . اذ أن تناقض حياة الحضر بمقارنة بساطة حياة الريف قد شدت انتباهه ولفتت نظره كمصور . . فراح يتأمل الحصان الابيض الواقف فى الوحل الاسود ، ويرقب البضائع المتراكمة المتراصة على جدار قديم يعلوه سواد الدخان ، وها هو يتأمل

الباخرة الانجليزية المتأنقة بينها الحمالين البؤساء يفرغون ما عليها من خنازير وأبقار ، ثم ينظر إلى البحارة الفلمنكين بصحتهم الوافرة وهم يأكلون بنهم بجوار فتاة غريبة الشكل ، صامته ، أشبه ما تكون بفأر صغير ؛ ثم يجول بنظرته عبر الطرقات الضيقة والمنازل الشاهقة الارتفاع ، والمخازن والهناجر ، لقد كان يتأمل ذلك التداخل الغريب من الزحام والصراخ والضحكات والصيحات التي ترتفع إلى عنان سهاء فضية ناصعة ، ويعود بنظراته إلى تلك الحقول الواسعة الممتدة ، المنبسطة شبه الغارقة تحت مياه حزينة ، في مثل برودة الصحراء وصمتها . .

وكاد فنسان يشعر بالدوار بينها علامة استفهام كبرى ترتفع فى أعماقه : يالروعة العمل وسط هؤلاء القوم ، لكن كيف واين ؟ ! مما دفعه إلى انهاء هذا الخطاب الأول من مدينة أنفرس وهو يقول رغم تفاؤله : « ربما كان المصير مثلها حدث لى دائها وفى كل مكان ، أعنى اننى سأصاب بخيبة أمل ، غير ان ذلك لا يمنع ان للبلد طابعها الذاتى ، ( ٤٣٦ ) .

وبهدوء شديد ، بدأ فنسان يرص معداته ، ويعلق على الجدران تلك الصور اليابانية المطبوعة التى اقتناها حديثا . كها راح يفكر في كيفية الحصول على موديلات مجانا بأن يهديهم صورهم . وحتى هنا في مجال البورتريه ، فإن فنسان يحسم تلك المشكلة المفتعلة والمتعلقة بآلة الفوتوغرافيا . اذ كان يريد ، ان يوضح للناس ان الانسان به شيء آخر غير ما يمكن للآلة ان تلتقطه ، ( ٢٣٩ ) .

وفى مواصلة لمحاولاته السابقة من أجل الحصول على مورد ثابت ، راح يعرض لوحاته التى يصورها عند أربعه من صغار تجار اللوحات ــ الذين لم يكفوا عن الشكوى من سوء الأحوال . ولم تحبط شكواهم من عزيمته وراح يواصل العمل بحياس محموم ، يقول معه بنبرة مشبوبة بالأسى بكل أسف : « من الصعب ، من الصعب جدا مواصلة العمل حينها لا يبيع المرء ويصبح عليه دفع تكاليف الألوان ، بنفس النقود التى لا يكتفى بها شخص آخر ليعيش ويسكن ويأكل ويشرب ، بل ولا لأولئك الذين يعيشون في ضنك ، (٤٣٨) .

من الصعب مواصلة العمل \_ بلا شك \_ خاصة فى وقت أصبحت فيه تجارة اللوحات نوعا من خنق الانفاس بلا رحمة . ورغم هذا الاختناق ، فقد كان فنسان يشعر بأن فى مقدوره تحقيق شيء له قيمة ، خاصة بعد ان لاحظ ان لوحاته يمكنها ان تصمد للمقارنه مع لوحات الآخرين ، وفى مدينة أنفرس مثلها فى اى مكان آخر ،

ظل هدفه واحدا لا يتغير: تصوير طبقة المقهورين ؛ وظلت رغبته واحدة لا تتغير: التصوير باكبر قدر محكن من البساطة . وهو ما كان يشعر به عندما يتأمل حياة اولئك البسطاء التي كان يرى فيها قوة عليه أن يعبر عنها ، بطابعها المميز ، بتلك الضربات الحادة بفرشاته وباسلوب شديد البساطة .

وحثته هذه الرؤية إلى البحث عن ألوان قليلة التكاليف حتى يتمكن الناس من اقتناء لوحاته بمبالغ فى متناول ايديهم . اذ ان رفع الاسعار ــ فى نظره ــ يعنى تدمير تجارة الفن واقامة حاجز بين الجمهور والعمل الفنى .

وما ان انفق آخر قطعة من الفرنكات الخمسة حتى تقلص تفكيره اذ لم يعد قادرا على فهم كيف سيمكنه تمضية النصف الثانى من شهر ديسمبر. وما هى الالحظات حتى حمل احدى اللوحات وراح يجوب بها على التجار 1 لكن ما من احد قبلها منه . واشتط غيظه وهو يرى إلى اى مدى اصبح نشاطه الفنى وتقدمه يعتمد إلى قدر كبير على كيس نقوده . .

وبدأت فترة بؤس جديدة استهلكت جسد فنسان بكل ما تعنيه الكلمة . فطوال الله فهرين امضاهما في انفرس لم يتناول فنسان سوى ثلاث وجبات دافئة . اما بقية الوقت فلم يكن يأكل سوى الخبز الجاف \_ مواصلا بذلك نفس النمط الغذائي الذي عاشه في آخر سته أشهر في نونن ، حيث لم يكن بمقدوره تكبد ثمن وجبة بسبب تكلفة الألوان . وفي التاسع عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٨٥ أطلق تلك الصرخة المدوية لتيو ، صرخة الاستغاثه تلك التي سبق وأطلقها من قبل : وقل انفسك انني جائم ، بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة يه !!

وفى أحلك فترات العوز هذه ، لم يجد فنسان بجواره الا الأشياء الصامتة الساكنة ، التي بمكنها أن تظل أمامه ليصورها دون ان تطالبه بأى أجر ! وكان يصور هذه الأشياء أثناء الصباح ، اما في المساء ، فراح يقول : «إنني أفضل ان أصور عينين آدميتين بدلا من تصوير الكاتدرائية .مها كانت عظيمة مهيبة .اذ ان روح الانسان – حتى في عينين بائستين لشحاذ متشرد أو لفتاة من فتيات الليل لهي اكثر أهمية بالنسبة لي » ( ٤٤١ ) .

وما أن وصلته النقود المعتادة ، وفقا للاتفاق المبرم فى نونن بين الأخوين ، والتى تبدو وكأنها تخرج من طرف د قطارة » . أى ما يكاد يكفيه بشق الأنفاس ليظل على قيد الحياة . حتى قام فنسان بتأجير فتاة مقهى كموديل ، وحاول أن يضفى عليها تعبيرا واقعيا ، مجردا وان كان شهوانياً حزينا ، ان الأمر بالنسبة له انما يكمن فى ضرورة إدراك تلك اللحظة العابرة التى تمثل أساس الفن السامى ، معتبرا الشكل كوسيلة للتعبير عن شعور ما . لكن للأسف فإن بردعة ولجام النقود المقتره كانت تحد من انطلاقته .

وتقبل فنسان كل ما يعانيه من نقص وحرمان بايمان ورضا جدير بالنساك . ولم يشعر بالانهيار الا حينها وجد نفسه غير قادر على مواجهة تكاليف الموديلات ، فالفن \_ في نظره \_ كان يمثل الحياة الحقة . وفي نفس الوقت الذي كان يخوض فيه معركته مع فن التصوير وبؤسه المادي ، كان يواصل توغله في أعهاق الفهم واستكشاف التوافقات . وعبر تأملات طويلة راح يتكشف طبيعة ملامح المرأة في أنفرس \_ تلك التي ذكرته بلوحات كل من رامبرانت وفرانز هالس Fraug Fials . وان كانت طموحاته في تصوير المرأة انما ترجع إلى قراءاته التي لم تتوقف قط ، وإلى عمليات التحليل لتلك البورتريهات التي صورها كبار الكتاب في رواياتهم ، والتي لم يكف عن الاعجاب بها .

وهنا ايضا نرى ترابط فكر فنسان وسعة افقه والترامه اذ انه آمن دوما بأنه يجب ان تكون للمرأة مكانتها في المجتمع . ولأنه كان يرفض الانضواء في حركة بعينها للقيام بأية أدوار سياسية اجتماعية ، بعد كل ما عاناه من مغبتها ، فقد حاول المشاركة في دور لتحرير المرأة من خلال مجال فن التصوير .

وباستحالة حصوله على موديلات ، اضطر فنسان ان يتقدم لأكاديمية الفنون - رخم عدائه الشديد لها حتى يمكنه مواصلة العمل وان يتعرف على بعض الناس أو العاملين في هذا المجال ، مع الاحتفاظ باسلوبه وحمايته من أية تأثيرات خارجية ، وذلك بعدم تغييره لمبدئه الا وهو : تصوير الاشخاص كها يراهم وكهاهم في الواقع ، وهنا يوضح قائلا : وحتى وان كان مذهب التأثيرية قد قال كلمته في هذا الموضوع ، فانا أتخيل دائها ان الطريقة التي أصور بها الاشخاص - بالتحديد - ستؤدى إلى كثير من التجديد ، انني اتحنى اكثر فأكثر في مثل الازمنه الصعبة التي نحياها حاليا ان يتجهوا إلى مزيد من التوغل العميق في الفن بأوسع معاني الكلمة . اذ انه يوجد في الفن عال شديد الانخفاض ، والانسان أهم من اي الفن عال شديد الارتفاع نسبيا وعال شديد الانخفاض ، والانسان أهم من اي شيء آخر ، وان كان - من جهة اخرى - أصعب في التصوير من غيره ، ( ٤٤٤ ) .

وعلى عكس التأثيريين الذين جعلوا من الفهوء شخصيتهم الرئيسية أو موضوعهم الرئيسي ، فإن فنسان ظل يؤمن بأن الانسان هو أثمن وأهم ما هو على هذه الارض \_ متمسكا بكل ما تأثر به من تعاليم الاشتراكية والإنجيل .

ولم يكن لظمئه أن يرتوى ، أذ لم يكتف بقيد أسمه في الأكاديمية وأنما سجله أيضا \_ وفي نفس الوقت \_ في ناديين لتعلم الرسم ، وبذلك أصبح يعمل منذ الصباح حتى الحادية عشرة والنصف مساء ، وأحيانا حتى الواحدة صباحا ، ليعاود العمل من جديد عند الفجر \_ دون أن يهمل قراءاته أبدأ .

ولم يلبث هذا الايقاع المتواصل من الجهد المضنى الذى يسانده نظام غذائى ضئيل وغير منتظم ، أن استهلك جسد فنسان بالمعنى الحرق . فإلى جانب السعال الذى لم يعد يفارقه ، بدأ اضطراب معدته المصحوب بالقىء ، بالاضافة إلى وقوع عشرة من أسنانه دفعة واحدة وتآكل ما بقى منها . وهنا يقول وكأنه يعتذر عن المبلغ الذى سيتكلفه علاجه : « لقد أسأت لحالتي بافراطي في التدخين ، الا انني كنت أدخن الأغش معدتى » ( 259 ) وراح فنسان يتأمل ذلك الكيان المتآكل ووجد انه يبدو كمن « أمضى عشرة أعوام في حبس انفرادى » !

ولم تتبدل طبيعة الحال ، من تباعد وخلاف ، بين الشقيقين ، رغم أنها التقيا عندما توفى والدهما ، ورغم بداية ذوبان الثليج آنذاك الا انه سرعان ماتجمد لتتجدد خلافاتها . وعند بداية شهر يناير ، اذ رأى تيو عدم جدوى ما يفعله فنسان فنيا ، من الناحية التجارية ، إلى جانب تعنته فى عدم تغيير نظرته الانسانية ، حاول انقاص المبلغ الذى كانا قد اتفقا عليه وطلب منه بالفعل أن يقلل من نفقاته بأن يسكن فى الريف أو ان يعود إلى الاسرة . فأجابه فنسان قائلا : د من كافة الوجوه فأنا \_ من ناحية \_ أخرى : وداعا لهولندا ؛ الاحرة \_ أكثر من غريب فى الاسرة ، من ناحية أخرى : وداعا لهولندا ؛ ا

ولم يكن بوسع فنسان ان يعود إلى بيت الأسرة أو ان يهان أكثر من ذلك بعد أن تم طرده ثلاث مرات من ذلك المنزل: مرتان بمعرفة والده ، والمرة الثالثة بواسطة شقيقته الصغرى . فقرر مقاطعة أسرته مثلها سبق له وقاطع لقبها ، بل وحسم الموقف حتى مع بلده ، مع ارض ذلك الموطن الذي لن يراه ثانية \_ رغم جرحه العميق وحنينه إليه . .

وكان فنسان ، من جهته ، قد طلب الرحمة ، وحاول ان يشرح الموقف ويبرد ، لكن تيو الذي ظل « يسبح بين تيارين » ، والذي لم يدر بخلده أبدا معنى حياة بمثل تلك القسوة التي عاشها فنسان طوال اثنى عشر عاما متصلة ، لم يكن ليدرك معنى هذا الاستجداء : « لتكن لك الأمانة الكافية لتتركني أواصل عملى ، لأنني أكررها لك : اننى لا أحث عن القطيعة ،ولا أريدها ،لكنني لن اسمح لأى شبىء أن يعرقل مهنتى ، ترى ما الذي يمكنني ان افعله في الريف ، الا اذا ذهبت ومعى النقود الكافية والموديلات والألوان ؟ » ( ٤٤٤) .

ان تغيير اقامته في اللحظة التي بدأ يستقر فيها وبدأت تتاح له بارقة الأمل ليصل إلى ما يصبو إليه كانت فكرة مستحيلة في نظر فنسان الذي راح يتوسل إلى اخيه ان يكف عن القاء و احكام بمثل هذه السطحية وبمثل هذا الخطأ ، (٤٤٧). فلم يكن فنسان يتطلع في تلك الأيام الا إلى شيء واحد : ان تكون له الشجاعة الكافية لمواصلة مشواره حتى النهاية . . و الاتسقط ذراعاي ، حتى وان كنت نصف هالك وعلى وشك توديع السعادة المادية للحياة ، (٤٤٨) . وإذا ما اضطر إلى الانتقال ، فإن فنسان كان يفضل اقتراح أخيه القديم \_ الذي سرعان ما تراجع عنه في نونن \_ من ان يستقر في باريس . ففكر فنسان ان يذهب إلى هناك وان يواصل التمرين ويرسم الاشخاص في مرسم الفنان الفرنسي كورمون Cormon .

وتعكس خطابات آخر شهرين في أنفرس موجلت عارمة من الحزن بين المد والجذر فيها يتعلق باقامة فنسان بباريس مع أخيه . . شهران بأسرهما وتيو يحاور ويتهرب ( ٣٣٥) ، بينها فنسان بحاول اقناعه بشتى الوسائل الممكنة ، من التوسل بأن يصل تيو إلى القرار الحاسم ، مرورا باتهام استمده من الوقائع تجاه ذلك الأخ الذي لم يكن ـ من وجهة نظر فنسان ـ يرغب في وجوده معه في باريس .

ولقد أحصى ترالبو، في كتابه الأخير (صفحة ١٩٥). أن فنسان قد أثار موضوع ذهابه إلى باريس اكثر من أربعين مرة ايام كان في أنفرس، ثم يستطرد قائلا انه على الرغم من اصرار فنسان، و فإن تيو لم يوافق على ذلك. ولن نتعرض للأسباب التي دفعته إلى ذلك ا: ذلك ما يقوله واحد من اكبر مؤرخى فنسان، يخفى الوقائع خشية أن تدمغ موقفه المتعنت من ألا يذكر أي شيء أو أي حدث يمكنه المساس بأسطورة تيو. الأمر الذي يمثل \_ للأسف\_ نقطه ضعف كبرى \_ وان كانت للحق ضمن دراسة ضخمة أخيره له بعنوان فان جوخ غير المحبوب، وهي دراسة لا يمكن اغفال أهميتها.

لقد أدت هذه المناقشات الفردية إلى ان يعمق فنسان افكاره حول موقف الفنان والمجتمع ، وهو الذي لم يكف عن ملاحظة كل ما حوله والمجاهدة من اجل فهمه . وهنا يدون قائلا : و انني اكتشف كل يوم ادلة لصالح تلك القضية ، ان السبب الرئيسي لكثير من المشاكل والبؤس في عالم الفنائين يرجع إلى أنهم لا يتعاونون ، وليسوا طيبين ، وانما هم سيئون مع بعضهم بعضا ، (٤٥٣) ٨ ودفعته هذه الملاحظات إلى القيام بمحاولة اخرى في هذا المجال الذي يمثل اهتهاماته الأساسية .

لقد كان فنسان يدرك بوضوح تام انه يعيش دفى الربع الأخير من قرن لابد له وأن ينتهى بثورة ضخمة ، لذلك لم يخدع \_ على حد قوله \_ باللؤم الذى يسود فى عصره . فقد كان يشعر بالعفن وبالرائحة العطنة التى تسبق العاصفة . وبكل الأمال الكبيرة التى كان يتطلع اليها راح يفكر فى الأجيال القادمة التى سيمكنها أن تتنفس بشكل اكثر حرية .

وخلال جولاته الطويلة في أحياء أنفرس الفقيرة . والتي كانت تذكره بجولاته المريرة في حي ايست اند بلندن ، ذلك الحي الذي لا مثيل لفقره آنذاك ، كان فنسان يفكر في صمت مبهم . . فأحوال السكان تبدو له كثيبة ، ومختلف أنواع الاضرابات التي تندلع في شتى أحياء المدينة لم تكن لتعلن عن شيء طيب في نظره و وراح يفكر في شتى الاضطرابات التي تحيط به في انفرس ليقول بوضوح رؤية دون ان يشارك فيها هذه المرة : ولا شك ان هذه الاضرابات ليست عديمة الفائدة بالنسبة للأجيال القادمة ، فعندئذ سيكونون قد كسبوا قضيتهم . اما الآن ، فالرؤية داكنة في نظر كل الذين عليهم ان يكسبوا قوت يومهم بعرقهم ، (٤٥٣) .

وبمعايشته المتناقضات الاجتهاعية التي كانت تتفاقم عاما بعد عام ، كان يرى ان صراع العيال ضد البورجوازيين له ما يبرره . ولم يكن يتكلم هنا . كمجرد متفرج هامشي وانما بناء على تجربته مع أخيه اذ ان كلا منها كان ينتمى إلى احدى الطبقتين المتناقضتين . ذلك أن تيو كان دائم العيش في أو ساط ميسورة الحال ، ويتعامل مع بورجوازيين متفاوتي الثراء ، فلم يكن يدرك ما يدور في الطبقات الدنيا التي يقف فنسان في مركز الدائرة من زخمها ، مما كان يستحيل معه \_ وهو الفنان الانسان بحق \_ أن يغض الطرف عن بؤسها أو فاقتها . لقد كان ينظر \_ ايضا \_ يعيني شخصي اشتراكي انساني النزعة ، لا يمكنه فصل الأحداث عن بعضها البعض ، وها هو يقول : « انني أرى بنفس وضوح الفنبره ، أكثر الطيور تفاؤلا ، وهي تصعد في

سهاوات الربيع ، لكننى ارى ايضا الفتاة التى تبلغ من العمر عشرين عاما وكان بمقدورها ان تنعم بصحة طيبة ، لكنها تحضن الدرن فى صدرها وقد تلقى بنفسها فى البحر قبل أن يطيح بها المرض » ! ثم راح يضيف بعد قليل : « فإن لم يستطع المرء تقديم العلاج أو إنقاذ الموقف ، فذلك لا يمنع من المشاركة الوجدانية والتعاطف » .

وتماما مثلما حدث أيام تجربته الدينية ، عندما أدرك أنْ الأمر لا يتعين على ان يقوم الله أو هو شخصيا بأى تغيير وانما يتعين على الناس انفسهم ، فى جملتهم ، ان يقوموا بالتغيير ، فإنه هنا أيضا يتخذ نفس الانجاه الذى أدى به إلى نفس النتيجة ، وان لم يمر \_ هذه المرة \_ بالتجربة المعاشة ، مقتصراً نشاطه على فن التصوير الذى اختاره عوضا عن أى شيء .

لقد تحول فنسان \_ والحال هذه \_ من مناضل إلى واحد من أنصار القضية ، وإن لم يكتف بمراقبة الأحداث . فمن الناحية السياسية الاجتماعية كان واثقاً أنه لن يكنه عمل أى شيء ، أما في مجاله الفنى فكان ما يزال يرى بصيصا لشعاع يفيض بامكانات للمستقبل .

وفى كل الأحوال ، لم يعد فنسان يحتمل ذلك التردد المهين الذى يتأرجح فيه تيو . . فيا أن وصلته النقود التي أرسلها تيو إليه حتى ترك فنسان معداته ولوحاته واتجه إلى باريس . لقد غادر أنفرس بفكرة محددة فى ذهنه وهى دراسة رسم الأشخاص فى رسم كورمون ؛ قائلا : « لا يوجد فى الدنيا ما هو اكثر أهميه من الانسان ، ولن يكف أحد عن دراسته أبداً » (٤٥٧) .

## ـ باریس (۲۸ فبرایر ۱۸۸۹ ـ ۲۱ فبرایر ۱۸۸۸):

ما أن وصل فنسان إلى باريس حتى أرسل لأخيه كلمات قصاراً مكتوبة بالقلم الرصاص يخبره فيها بوصوله ، وقد حدد له موعدا ليلتقيا فى البهو المربع بمتحف اللوڤر . ولا أحد يعلم شيئا عن تفاصيل ذلك اللقاء . إلا أن الاختلاف بينهما ظل قائما بما انه بعد استقرار فنسان عند تيو ، راح هذا الأخير يكتب لأخته جيوميت قائما بما انه بعد أحد يريد زيارتى لأن فنسان لا يكف عن الاحتداد والتشاجر . ومن ناحية أخرى فهو مهمل وغير مرتب حتى أصبح مسكننا لا يحتمل ! أتمنى أن يذهب ليسكن بمفرده فى أى مكان . لقد

فاتحنى فى هذا الموضوع ، لكن اذا ما قلت له انه يجب عليه أن يرحل ستكون ذريعه ليبقى . لا أتمنى له أى سوء ، لكننى لا أطلب غير شىء واحد ، ألا يسىء إلى . ان بقاءه يؤذينى بل ويضايقنى أن أراه يتباطأ ، ( المراسلات ، المجلد الثالث . صفحة ٣ ) .

وياله من اتجاه أشبه ما يكون بموقف القسس فى بوريناج ، وهم يحاولون التخلص من فنسان بأسرع مايمكن ، اذ أن وجوده ونشاطه لم يكفا عن اتاحة الفرصة لمقارنات لم تكن فى صالحهم . ومن ناحية اخرى ، يكتب فنسان \_ فى نفس الفترة \_ إلى صديقه المصور الانجليزى لوينز Leuens قائلا : « اننى لا أشعر فى اى مكان جذا القدر من الغربة والاغتراب مثلها أكون مع أسرق وفى بلدى » ( 809 ) .

من الواضح أن تيو كان يبحث عن النظام ومكانته الاجتماعية في البناء الاجتماعية بي البناء الاجتماعي القائم . لقد كان خاضعا متوائها مع نسق القيم في مجتمع بورجوازي عات وأوتوقراطي مستبد بينها كان فنسان بحاجة إلى حوار انساني . . ومن ثم فقد كان مستحيلا أن يتحدثا نفس اللغة !

ومما يؤسف له ان عدد خطابات فترة اقامة فنسان في باريس والتي امتدت لمدة عامين ، جد قليله . إذ أن تواجد الاخوين معا لم يكن ليسمح لفنسان بالكتابه الا عندما يكون تيو في اجازه بعيدا عنه . والمراسلات لا تتضمن سوى ستة خطابات . فبخلاف تلك الكلمات القصار التي أخبر تيو فيها بوصوله ، فقد كتب فنسان ثلاثة خطابات إلى أخيه ، وخطابا إلى أخته فلهلمين ، وخطابا للمصور الانجليزى لوينز ، وخطابا إلى إميل برنار . ولا يمكن أن نجزم اذا ما كان هذا العدد المتواضع في هذه الحقبة يتكافأ مع الوثائق الموجودة في الواقع والتي حيل بينها وبين النشر!!

ومنذ وصول فنسان إلى باريس ، توالت عليه سلسلة من خيبة الأمل . فأول ما صدمه هو ارتفاع أسعار تكاليف المعيشة ولم يغير وجوده بالقرب من تيو من شعوره بقلة حيلته . كما ان تجربته في مرسم كورفون الذي واظب على المران فيه لمدة ثلاثة أشهر قد انتهت بالفشل التقليدي الذي عانى منه في كل الاكاديميات التي التحق بها . ذلك لأنه رفض « الميكنة » ، على حد قوله ، رفض أن يتحول إلى آلة تنفذ النظام المفروض . فغادر المرسم ليعمل وحيدا . ومنذ تلك اللحظة استعاد ثقته بنفسه وشعر بأنه اكثر حربة .

وكانت قلة النقود التي تحد من استعانته بالموديلات تسبب له العراقيل ، على حد قوله إلى لوينز ، والا لظل يصور و الأشخاص فحسب ولا أى شيء آخر مثلها كانت رغبته عند وصوله إلى باريس . ومرة اخرى ، مثلها في أنفرس ، وجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى الأشياء التي لا تتطلب نقودا مقابل تصويرها : تلك الأشياء الصهاء التي تحيطه والتي حاول أن يضفي عليها نفحة من حياة . . وكانت هناك أيضا سلسلة لوحات حذاته التي صورها في موغارتر ، والتي تكشف عن مدى حالة بؤسه وتجرده . وتبعت هذه السلسة مجموعة مكونة من حوالي خمين لوحة للزهور ، قام بالتعبير عنها سواء عبر درجات الألوان المتناقضة أو الممزوجة بغيرها ، أو المحايدة ، مع محاولة لربط وحشية المتناقضات وجعل اللون أكثر كثافة . ملينا بالحياة وليس مجرد توافقات باردة .

كها دفعه عدم وجود موديلات ، وفقا لما يقوله صراحة في الخطاب رقم ٥٣٧ ، في نفس الوقت الذي ظلت فيه رغبته الغامرة في تعميق امكانية تعبيره عن الوجه الانساني بنفس حدتها . ولقد قام فنسان بالاستعانه بالمرآة وصور نفسه حوالي عشرين بورتريها، تتألق فيها مختلف درجات معاناته المأساوية وروحه المتقدة ومحاولته الدائبة الطموح للبحث عن النور . ومع ذلك ، فإن الاهميه الفريدة المميزة لهذه المجموعة من البورتريهات . تكمن – من الناحية النفسية – في انها مرسومه عبر ثلاث سنوات تقريبا ، على عكس بورتريهات رامبرانت التي كثيرا ما يفارن النقاد أو المؤرخون بينها . فلك أن بورتريهات رامبرانت يمتد رسمه لها طوال حياته الفنية .

لقد اكتشف فنسان ، منذ وصوله إلى باريس ، جماعة التأثيريين وراح يعايشهم عن قرب في مراسمهم ويتابع اجتماعاتهم في المقهى أو عند تيو في المنزل . ومن اكتشافه لذلك العالم الفني وحياتهم اليومية انبهر فنسان بلوحاتهم ، لكنه ظل واجما مذعورا من ذلك الجو المخيب للآمال الذي يجمعهم ، وتبرز فيه \_ ايضا \_ خلافاتهم الشديدة . ولو أننا أضفنا ذلك الإحباط الجديد إلى زمرة ما أصابه من خيبة واحباط منذ وصوله إلى باريس لأدركنا لم قرر فنسان الابتعاد . .

لقد كان متواجدا فى خضم ذلك الانصهار المتداخل من النشاط والأفكار ، حتى انه لم يستطع عدم المشاركه فى هذا التدفق الحيوى ، وحاول تحقيق مشروعاته المتعلقة بالفن والفنانين والمجتمع . تلك المشاريع المتعلقة بالانسان فى أبعاده العالمية . وهنا يكتب إميل برنار فى مقدمة طبعة خطابات فنسان إليه قائلا : « لم يكن عدم تقدير

الآخرين لفنه هو أكثر ما كان يجبط من عزمه وإنما كانت رؤيته لبيسارو Pissaro وجيومان Guillouemin ، وجوجان Gouguin ، اذبعيشون في فقر يعوق انتاجهم ويشل جهودهم . لذلك قام بحملة على أخيه ثيو حتى يجعله يعمل على قبول لوحات مؤلاء الفنانين في المعارض العامة التي كانت تغص بالحياقات المعروفة ، (صفحة 17) .

ان هذا الاخلاص والتفانى من أجل الغير ليفسر المناقشات المحمومة والجو المتوتر الذى كان تيو يشكو منه لأخته فى ذلك الخطاب السالف الذكر ، تلك الأخت التى راحت تنصح تيو بأن و يتخلى ، عن فنسان !! الا أن تيو لم يتمكن من التخلى عنه تماما لا لأنه كان بلا عمل ، وانما خشيه عار ان يتهم بأنه تخلى عن ذلك الاخ الذى كان فى أشد الحاجة إلى مساعدته ، والذى ربما كان للوحاته ذات يوم و بعض القيمة ، كها قال : و ونظرا لعدم استطاعة تيو مواكبة حماس فنسان فى تطوير نظرياته عن الفن والفنانيز، وتجارة الفن ، فقد أنهكته هذه التأملات والمناقشات التى تختلف اختلافا جذريا عن آرائه التقليدية الراسخة . فكان يتطلع إلى رحيل فنسان بفارغ إنسانية ، تلك الأحلام التى سرعان ما تحولت إلى اتهامات جديدة للجنون » . . ويتحدث عنها أميل برنار بشىء من الحنين والأسف قائلا : وأحلام ، آه .. يالها من أحلام ! معارض ضخمة ، جمعيات تعاونية للفنانين ، مستعمرات فنية فى الجنوب وفى أماكن اخرى . اقتحام تدريجي للأوساط العامة بفضل اعادة تثقيف الجماهير الشعبية التي عرفت الفن فى الماضى » (الابلوم سبتمبر ١٨٩١ صفحة ٣) .

وفى صمت شديد ، ادرك فنسان ان الشيء الوحيد الذي يمكنه انجازه فى باريس لم يكن غير قيامه بجزيد من التقدم سواء فى التصوير أم فى الفكر \_ وذلك ما كان يتم بشكل متواصل ، أما أن يساهم فى نشاط جماعى ، ويقوم بتحقيق مشاريع للجهاهير الشعبية . فقد أصبح يرى \_ للأسف \_ عدم جدوى ذلك فى باريس ، رغم ان اكثر ما كان يجزنه هو ذلك الخلاف الأزلى بين الفنانين \_ كها سبق وأشرنا \_ وها هو يقول فى اول خطاب له إلى اميل برنار : « اعتقد أن أول شرط للنجاح هو التخلى عن الغيرة والتنافس ، فالاتحاد وحده هو الذى يخلق القوة . والمصلحة العامة تستحق أن نضحى بالأنانية من أجلها وان نضحى بتعبير : كل لنفسه ، (برنار \_ ) .

انها نفس المشاكل التي ستشغل تفكيره حتى آخر لحظات في حياته اذ ان الخطاب الأخير الذي كان يحمله في جيبه يوم وفاته كان يشير إلى نفس هذا المشروع.

ومن ناحية أخرى ، بدأ فنسان يدرك انه لا يمكنه عمل أى شيء بمفرده . وان بقاءه فترة أطول ستفقده نفسه ، وأصبحت فكرة مغادرة باريس تمثل التزاما لمن كان يرفض الضياع في مناقشات عقيمة . أي أن رحيله لم يكن من قبيل عدم الاستقرار ودليلا على ذلك هو ما كتبه بنفسه قائلا : « سأنسحب إلى مكان ما في الجنوب لكي لا أرى عن قرب كل أولئك الفنانين الذين يصيبونني بالاشمئزاز كرجال » . كما أن موقفه مع تيو قد أصبح يصيبه بالاختناق . فقد كان يود الا يثقل عليه في نفس الوقت الذي كان مجاول فيه تحقيق مزيد من التقدم في عمله : « بحيث تستطيع أن تعرض أعمالي بكل ثقة ودون أن تشعر بالتورط » . مما يثبت أقوال تيودور دوريه Thiodire Dwet عن تيو واتجاهه : « لقد كان تيو يقيم في شارع مونمارتر ، لكن زبائنه كانوا من أولئك القوم الذين لم يقبلوا ، بأى ثمن ، أن يوافقوا على اقتناء « البشاعات » التي كان يصورها فنسان . بل وكانوا يرفضونها كهدايا . حتى ان أصحاب العمل . آل جوبيل ، قد حذروا تيو من أن يضع في أحد محالهم احدى هذه الأعمال التي كانوا يعتبرونها بشعه منحلة . وكان تيو اذا ما عرض بعض لوحات اخيه ، فإن ذلك كان يتم سرأ ولبعض اصدقائه المقربين . لذلك كان تيو كلما تسلم رسالة اللوحات التي يرسلها له فنسان ، يكومها في مسكنه . كما كان يضع تلك اللوحات التي يرى فيها شيئًا من الأمل للبيع عند تانجي Tangyg» ( فرانك إلجار ، فان جوخ ، صفحة . (9A . 9Y

وبالفعل ، لقد أدرك فنسان عن يقين ، أثناء اقامته في باريس أن تيو يخجل منه ومن لوحاته .

وفى نفس هذه الفترة ايضا ، وقع حادث مهم بين الشقيقين على المستوى العاطفى . وهى حادثة مازالت ـ للأسف ـ فى طى الكتمان هى الاخرى ، لكنها تكشف إلى أى مدى يمكن لانسانية فنسان التلقائية ان تقود خطاه . اذ يبدو أنها تيو وفنسان ـ قد كانت لهما بعض العلاقات تباعا ، مع اجوسنبنا سيجاتورى Segatari وفنسان ـ قد كانت لهما بعض العلاقات تباعا ، مع اجوسنبنا سيجاتورى Agostina ، صاحبة احدى كباريهات حى مونمارتر المسمى : لى تمبوران له Tombourin ولما كان تيو قد تعرف إلى اندريه بونجيه Audre Bonger وشقيقته جوانا Joanna التى كان يريد الزواج منها فسرعان ما نطع علاقته مع أجوسنبنا كانت

قد حملت منه . وهو الامر الذي يمكن ان نعرفه من ندرة من خطابات فنسان الذي راح يطلع اخاه بأنها قد أجهضت نفسها ! ويالقلة الوثائق بشأن هذه الحادثة ، الا أن الخطابات الثلاثه ( ٤٦٠ – ٤٦١ ) المرسلة من فنسان إلى تيو ، اثناء اجازته في هولندا ، تكشف عن ذلك يوضوح ، وتمكننا من ان نقطع به رغم الصمت الذي يلف هذه العلاقة وما يتصل بها من نهاية جمهرة المراجع بين أيدينا .

فى الخطاب الأول ، الذى تلا تلك القطيعة الحادة الفجائية وغير الانسانية لنير مع أجوستينا ، والتى قمثل نقيض موقف فنسان مع كريستين ، كتب فنسان قائلا : د يجب ان تدرك تماما انه لا يمكنك الحلاص منها بالصورة التى تنويها ، لأنك بمباغتها جذا العنف قد تدفع بها حتها إلى الانتحار أو الجنون . وسيكون رد فعل ذلك عليك في غاية الأسف وربما حطمك إلى الأبد .

و اذن ، أرجو الاثثير أية مأساة ! لقد أطلعت بونچيه على ما كتبته لك : ان عليك محاولة ان تشبكها مع شخص آخر . ولقد شرحت له شعورى عن ذلك الموضوع طولا وعرضا : وكيف أنه لابد من حل سلمى ، وأنه يمكنك أن تتنازل لى عنها . والأمر يعنى ، اذا ما وافقتها ، انت وهى ، اننى مستعد لا ستعادتها ، على الا انزوجها ، الا ان كان الزواج العقلانى قد يجل الأمور بشكل أفضل . . .

« اذا امكنك اجتذابها لهذا الحل ، فإننى ارى ، كنتيجة أولى ، أنك ستشعر مرة أخرى بأنك انسان حر ، وان مسألة خطوبتك يكتها ان تسير على ما يرام ، .

ويا لسذاجة أو طيبة فنسان الذي راح يعرض على أخيه انه مستعد لتولى مسئولياً تلك التي سبق أن انتزعها منه ، حتى يتمكن تيو من الزواج من جوانا بونچيه وهنا يقول رولندت و يا لك طيب يا فنسان ! وساذج لدرجة يتصور معها أن أي رجل يمكنه التخلى عن عشيقته وإعطاؤها لرجل آخر تماما مثلها يقوم الفلاح باعارة بقرته إلى جاره » ( فنسان فان جوخ وأخيه تيو ، صفحة ٣٤٣ ) . ويعد رولندت من الكتاب النادرين الذين جرأوا على التعرض لمثل هذا الموضوع أو مسه بحذر !

وها هو فنسان ينهى هذا الخطاب وقد أعطى القلم إلى أندريه بونچيه ليكتب لتيو. ومن الغريب أن خطاب أندريه بونچيه هذا غير وارد فى المراسلات الكامله ، وان اكتفى جورج شارنصول بكتابه ما يلى على نفس خطاب فنسان : « فى الخطاب الذى كتبه اندريه بونچيه قال رأيه فى أفضل طريقة لإنهاء العلاقة بين تيو وسيجاتورى » ( المجلد التالث ، صفحة ١٠) .

لقد انتهى هذا و الكباريه ع الذي كان فنسان قد قام بعمل ديكوراته وعلق العديد من لوحاته على جدرانه \_ بالافلاس . ويقول هنرى بروشو : و لقد تم بيع هذه اللوحات بالمزاد العلني على الرصيف . وكان قد تم ربط كل عشر لوحات في و رزمة » واحدة وبيعت كل و رابطه » بخمسين سنتيا ! ( فان جوخ الباحث عن المطلق ، مقال في مجله آر ، اغسطس ١٩٥٩ صفحة ١٠) .

وكان في وسع تيو الموجود بالقرب من اللوحات هذه المرة ، ان يتصرف بشكل آخر ، أو كان يبغى ذلك لو انه اهتم بها فعلا . فعلى حد قول رولندت في صفحة ٢١ من كتابه : « اذا كان تيو مقتنما فعلا بأن عمل امجه سوف يبهر العالم ذات يوم ، أو اذا ما كان قد تنبأ بأن هذه اللوحات سوف تزيد قيمتها ذات يوم عن أضعاف وزنها بالذهب ( لقد كان تاجر لوحات ، وكم من مرة لامه فنسان على انه ليس سوى تاجر ! ) (\*) لما ترك لوحات فنسان المسكين لذلك المصير الحزين الذي آلت إليه » . ثم يضيف رولندت بكل سخرية قائلا : « ثم يقال اننا ملزمون بتصديق الاسطورة الرسميه والا أصابتنا اللعنة الكبرى ! » ( صفحة ٢٦٣ ) .

وقرب نهاية اقامته في باريس ، بدأ فتسان يراسل أخته فلهلمين . ومنذ الخطاب الأول ونحن نلحظ اختلافا في اللهجة والتعبير . فلا نجد ذلك الاسلوب الجاف الذي اصبح يميز خطاباته إلى تبو في الأونه الأخيرة ، وانما نرى اسلوبا فلسفيا يكشف عن اعهاق جديدة ، وملمحا من ملامح فنسان غير للعروفة : فنسان المتبني لقضية المرأة والمناصر لحركة تحررها في هولندا . وكانت شقيقته و قيل ، Will كها يطلقون عليها اختصارا ، قد طلبت منه النصح حول نوعية الدراسات التي يجب ان تقوم بها حتى تتمكن من اسلوبها اللغوى . وبعد تلك السنوات الطويله المريرة كان فنسان قد فقد ملكة الضحك تماما ، لكنه ما ان قرأ كلمة و دراسات ، حتى انفجر ضاحكا . . لكنها ضحكات خيبة الأمل والتمزق . . و فها الذي يجنيه المرء من الدراسات ، الكنه إلى أيام دراساته الدينية !

إلا أنه حاول تفادى التشاؤم والاغتراب الحزين ، « ذلك المرض العصرى الحالد للمتحضرين » على حد قوله ، وراح يحث أخته على حب الفن والحياة . وذلك أن الحب فى نظره بمثل تلك القوى الخلاقة الإبداعية الكامنة فى كل إنسان . وها هو يقول لها : « يمكنك القيام بأية حماقات بدلا من دراسة اللغة الهولندية . أن يغوص المرء حتى الحماقة فى دراسات عقيمة ، ان ذلك لا يؤدى إلى شيء » ( قيل

١ ) . لقد كان يؤمن بأن الانسان يتعلم ويتطور من خلال الحياة والمعايشة ، ذلك على الأقل هو نتاج حياته وخبرته . ولقد واصل كتابته قائلا : ﴿ أَقُولُ لَنْفُسَى أَحْيَانَا أنه فيها مضى ، خلال تلك السنوات التي كان من الطبيعي أن أنعم فيها بالحب ، انسقت إلى مواضيع الدين والاشتراكية والفن.

في ظني أن هذه العبارة تستحق أن نقف عندها ، اذ هي أول مرة يقول فيها فنسان انه كان يهتم بالاشتراكية أو بدراستها . واذا ما كان قد أدأن مرحلة دراسته الدينية بالعقم ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعمق قراء، وفهم الإنجيل اكثر بكثير من اولئك الذين يقفون عند سطح الكلمة فحسب. لقد كان الانجيل بالنسبة له متخلصاً من كافة مظاهر الدوجماتية ، ولم يعد يرى فيه سوى تلك الافكار والنزعة الانسانية التي كان يحاول تطبيقها. وهو نفس ما قام به بالنسبة لدراساته الاشتراكية . فقد ترك المذاهب جانبا ليحتفظ بالكيان الانسأن ومضمونه .

## جنون أم حب للفير ؟

آرل Arles ، سان ريمى Saint-Rémy ، وأوڤير Arles ، مثل طريق فنسان الشديد الالتزام بفكرة فقدان الذات . . ذلك الانسان الذى عشق الانسانية وجاهد من أجلها ، وتوصل إلى تلك المناطق الغامضة للخلق والابداع ليلتقط ملامحها المختلفة بتخطيه للواقع الموضوعى الذى نافح لتعذيل مساره لكنه كان عتياً راسخ البنيان بمجتمعه وناسه . فلم يكن امامه فى المواجهة غير المتكافئة سوى مزيد من الابداع بالنهج الذى اختاره . انه طريق صعود روحه إلى الشمس ، واتحادها مع النور ، وتقربها من الله ، ومن هنا فحسب ، كان السبيل لاحتواء الانسانية بأسرها رغم القلب المنهك والجسد الذابل . .

## - آزل (۲ فبرایر ۱۸۸۸ - ۳ مایو ۱۸۸۹):

غادر فنسان باريس بفكرة ثايتة لمشروع طليعى يزمع تحقيقه مع تيو وهو: مساعدة الفنانين التأثيريين ونشر أعمالهم . وهذا المشروع الضخم ، الجرىء بالنسبة لعصره وبدافعه الانسان ، كان عبارة عن انشاء فروع لقاعة العرض الأم ، التي يعمل بها تيو ، في مختلف البلدان التي زارها ويوحد بها قاعات عرض اخرى ، أى في لندن ـ ولاهاى ، وأمستردام ، وبروكسل ، وأنفرس ، ومارسيليا ، ونظرا لأن دافعه انساني أساسا ، فقد كان فنسان يعلق أهمية كبرى على الأحياء من الفنانين وليس على أعمال الراحلين . وراح يحث أخاه لإنقاذ هؤلاء الفناين الذين يعانون في حياتهم من

صعوبة المعيشة وضنكها ، ورغم ايمانه العميق بالنصر النهائى ، فقد كانت هناك تساؤلات تعكر صفو افكاره ومنها : « هل سيستفيد الفنانون من هذا المشروع وهل سيرون أياما أهداً ؟ » (٤٦٧) .

كانت فكرة هذا المشروع شبيهة بالفكرة الاساسية التي سيطرت على مرحلة آول. وهو المشروع الذي حاول مساندته أو استكها بانشاء جمعية تعاونية يعمل الفنانون من خلالها معا ، ويقدمون انتاجهم للجمعية ثم يتقاسمون سعر المبيعات . الا أن تلك الفكرة التي استقاها من الاشتراكي فورييه Fourier ، والتي ترجع الى دراساته الاشتراكية ، وإن كان لها تطبيقات في مجالات أخرى ، كانت شديدة المثالية في زمن تسيطر فيه البورجوازيه الرأسالية بكل قواها . ومع ذلك فلم يكف فنسان عن البحث ، وعن دراسة أسباب ونتائح الاحداث اليومية على هذا المشروع .

وفى العاشر من شهر مارس ، وقد بلغه نبأ وفاة الامبراطور غليوم الأول ، تساءل عما سيكون عليه تأثير السياسة على نجارة الفن ، وراح يسأل تيو قائلا : « ترى هل سيؤدى ذلك إلى الاسراع بالاحداث فى فرنسا أم أن باريس ستظل هادئة ؟ إننى أشك فى ذلك ، ترى ما انعكاس ذلك كله على تجارة اللوحات ؟ لقد قرأت عن احتمال الغاء ضرائب دخول اللوحات فى أمريكا ، هل هذا صحيح ؟ « ( ٤٦٨ ) .

ورغم قلقه الناجم عن العديد من العقبات والنفقات التي يحملها لأخيه ، وخاصة لوحاته التي مازالت و عديمة القيمة » من الناحية التجارية ... على حد تعبير تيو - فإن فنسان لم ييأس ، لقد كان رغم ذلك الجسد البالي قبل الأوان ، وفقدانه الشهية وارتفاع درجة حرارته ، يلمح الجديد في كل ما يحبط به ، وراح يدرس بشغف ويتعلم ، مؤمنا ... كما قال من قبل « أن يتمكن من تأسيس مكان له على هذه الأرض ، يمكنه من إيواء « جياد » باريس المالكة ، أولئك التأثريين البؤساء، الذين هم اصدقاؤنا رغم كل شيء ( ٤٦٩ ) ، وهو في ذلك لا يجاهد من أجل نفسه ، فقد ظل يؤمن « بضرورة مطلقة بفن قائم على اللون والرسم ، وبحياة فنية سليمة » (٤٦٩ ) .

ومع خوضه للصراع الضارى من أجل مساندة الطبقة الجديدة التي رآها عن قرب، من طبقة الفنانين المعدمين ـ أدرك فنسان أنه سيتعرض لحاجزين أساسيين هما : انانية الفنانين أنفسهم ، ومعارضة تجار الفن ـ الذين راح يحذر احاه من تحايلهم قائلا : « إن بائعى اللوحات الباهظة يسيئون الى أنفسهم باعتراضهم من

جل اغراض سیاسیة ـ علی ظهور مدرسة جدیدة ـ أظهرت منذ سنوات نشاطا رمثابرة جدیرة بالفنان میلیه ودوبینی أوغیرهما ، (۲۷۰).

وفى شتاء عام ١٨٨٨ ، جازف تيو بعرض لوحتين من أعمال فنسان فى صالون الأحرار ... سواء أكان مدفوعا بهمة عمله التجارى التى لا تقل ٢ أم أن حاسة التاجر لديه بدأت تتشمم ارتفاع أسهم التأثيريين . وفى كل الأحوال فمن الواضح أنه اتخذ هذا القرار متأخرا اذ أن اسم فنسان لم يظهر فى الكتالوج المطبوع وانما أضيف بخط اليد ! وهنا يعلق فنسان قائلا : ١ . . وإن كان ذلك لا يعنى شيئا هذه المرة ، الا أنه فى المرات القادمة لابد من ادراج اسمى فى الكتالوج ، وبالطريقة التى أوقع بها على اللوحات ، أى فنسان ... وليس فان جوخ ٤ ( ٤٧١ ) . وهو ما يعنى ايضا تمسكه بالقرار القديم الذى اتخذه فى نونن وهو : عدم الانتهاء الى آل فان جوخ ٤ بالقرار القديم الذى اتخذه فى نونن وهو : عدم الانتهاء الى آل فان جوخ ٤

وبعد استقراره في مدينة آرل بحوالي شهرين ، علم فنسان بنباً وفاة ابن عمه الفنان المصور انطون موف هدا الفنان المصور انطون موف هذا الفنان ورفضه المتعنت لمساعدة فنسان \_ بسبب تجربته الانسانية مع كريستين \_ فلم يستطع فنسان نسيان فضل من عاونه في بداية الطريق . . وفي وهج انفعاله حاول التعبير عن عرفانه بالجميل لأول من ارشد خطاه في عالم الفن : فاختار أفضل لوحة صورها منذ وصوله الى آرل وكتب عليها : « في ذكرى موف » ، ثم وقع عليها و فنسان وتيو » ، ثم وقع عليها وفسان وتيو » .

ومن المهم هنا توضيح خطأ شائع فيها يتعلق بهذا التوقيع المزدوج على اللوحة المعروفة باسم « في ذكرى موف » ، اذ ان كافة النقاد يعتقدون ان فنسان انما كان يمازح هنا بالكلمات ــ بل ان هنرى بروشو تجاوز ذلك الى القول بكذب فنسان ـ اذ أورد في كتابه عن حياة قان جوخ المنشور عام ١٩٥٥ ، ( وبالمثل في طبعته الجديدة المنقحة والمنشورة عام ١٩٦٦ ) ، اتهامه لفنسان بالكذب واصراره على ذلك ! إذ يقول : « حتى هو وليدرك القارىء كيف انني اذكره كنموذج عن عمد ) كان ينساق في أكاذيب مميزة . ففي عام ١٨٨٨ ، في مدينة آرل ، ماان علم بوفاة معلمه الاسبق ، الفنان الهولندى انطون موف ، حتى كتب إلى تيو انه قد صور لوحة لحديقة مزهرة وانه يتوى ارسالها الى زوجة موف ، حتى كتب إلى تيو انه قد صور لوحة لحديقة مزهرة وانه يتوى ارسالها الى زوجة موف : ثم اضاف في هذا الخطاب : و لا أعرف ما الذى انتابني واختنق في حلقى من الانفعال فكتبت على اللوحة : فنسان وتيو » . الا أن هذا التوقيع المشترك لم يظهر أبدا على اللوحة المذكورة التي كانت دائما تحمل توقيعا

واحدا باسم فنسان ، . ذلك ما يؤكده المؤلف في الصفحة الخامسة عشرة من مقدمة كتابه المستفيضة ، ذلك الكتاب الذي لم يستطع هنرى برشو ان يورد به أى دليل و آخر ، على كذب فنسان ! وبما يؤسف له أن البعض قد انساق وراء الملاحظة فقام بتأييدها ومن هؤلاء ترالبو في كتابة الأخير صفخة ٢٢٦ !

وهنا يجدر بن أن نتوقف قليبلا للتعقيب على هذه المغالطة التي لم تحظ بالتقويم والمناقشة ، من قبل ، والتي تتناقض مع شخصية فنسان حتى من قبل النظر في الأسانيد التي تدحضها ، ذلك أن قراءة المراسلات العامة تكشف عن فنسان كشخص متكامل ، شديد الأمانة بأوسع معالى هذه الكلمة ، كريم الخلق إلى أبعد علا ، ومثلها رأينا طوال الصفحات السابقة ، فهو انسان لا يتردد لحظة في قول الحقيقة والتصدى للحق حتى وإن أودى ذلك بحياته . مما يشى بان الكذب من أجل توقيع لا يتفق وخلقه . ولو أن أياً من ناقديه قد قرأ هذه الخطابات قراءة مدققة لا تضح له أن فنسان ، بعد أن صور هذه اللوحة التي قرر أن يهديها إلى السيدة چيت موفى عمل نسخة أخرى منها لكى لا ه يجرح ، مجموعة الحداثق التي كان يصورها ، والتي كان يعتبرها « كبضاعة ، كصصة للبيع . وهو ما يوضحه في عبارات جليه إلى تيو اذ يقول : « أود عمل تكرار من اللوحة التي خصصتها الى جيت موفى . ذلك اننى إذ كل ما معى فلا يجب أن عيد عن نظرنا انه لابد من تعويض تلك النقود التي تتسلل بسرعة ، ( ٤٧٦ ) .

ولقد قام بالفعل بعمل نسخة ثانية من نفس اللوحة ، حتى انه راح يقيمها في الخطاب رقم ٤٨٦ قائلا : د إن لوحة چيت موفى أكثر بساطة من التكرار الذي عملته لها ، .

وفى نفس ذلك الوقت ، راح يصف اللوحة لأخته ، التي أنبأته بوفاة موف قائلا : «إنها ساحة أرض محروثة ، فى حديقة ، محاطة بسور من البوص وتتوسطها شجرتا مشمش مزدهرتان ، وسهاء زرقاء مبهرة ، بسحبها البيضاء فى حدة الشمس . ومن المحتمل أن تربها لأننى قررت أن أرسلها إلى جين موف . وكتبت عليها : « فى ذكرى موف ، فنسان وتيو » ( فيل ٣ ) .

وها هو بعد أن قام بارسال مجموعة اللوحات كعادته ، راح يوضح لتيو قائلا : ا إذا وجدت ان اللوحة المسهاة (في ذكرى موف) مقبولة بجب عندئذ ان تضمها للمحموعة القادمة المرسلة إلى لاهاى بعد وضعها في اطار ابيض بسيط ( ٢٩٢ ) . وبعد ذلك بقليل ، اذ لم يتلق اى رد من تيو ، راح يسأله قائلا : « ترى ما الذى حدث للوحة فى ذكرى موفى ؟ ؟ أنك لم تذكر أى شيء عنها ، وخيل الى أن ترستج ربما قال لك شيئا ما غير سار عنها كاحتمال رفضها أو أى شيء من هذا القبيل ؟ (٥٢٤) . بينها نرى أنه فى شهر نوفمير ، وقد تأكد من وصول اللوحة الأصلية الى صاحبتها ، راح يخبر اخته بذلك قائلا : « هناك شيء يسرنى وهو اننى تلقيت ردا من السيدة موفى باستلامها اللوحة ؛ (فيل ؟) وفى نفس ذلك الوقت كتب لأخيه قائلا : « اننى سعيد بأن چيت موفى كتب لى ، (٥٢٢) .

ومن هنا يحق لنا أن نؤكد ان هناك نسختين من نفس اللوحة: الدراسة الأصلية ، الخارجة عن النطاق التجارى والمساة « في ذكرى موف » وعليها توقيع مشترك . وهي مجهولة المصير ، وإن كان من المهم أن يتم البحث عنها لدى أسرة جيت موف أوعند ورثتها . وهناك نسخة اخرى ، تحمل نفس العنوان ، بما أنه هو اسم اللوحة ، وعليها توقيع واحد باسم فنسان بصفته مصدرها . وقد خصصها للبيع . الأمر الذي ينصف فنسان من واحدة من التهم العديدة الخاطئة والمتعسفة التي لم يكفوا عن اتهامه بها سواء لقلة الوثائق أو من باب الأهمال أو جريا وراء التقليد وملح الأسطورة . لكن ما يهمنا هنا \_ بجانب ما ذكرناه .. هو ان اللوحة الموجودة عليا في متحف فان جوخ ليست اللوحة الأصلية واتما و نسخة أصلية » منها بما أن فساد هو الذي صورها .

ولو أننا تركنا جانبا أمر هذه اللوحة ، فإننا نجد أن وفاة مرقى جعلت فنسان يتأمل في العالم الآخر . . وهو الذي لم يكن يعتقد كثيرا في دقة المفاهيم السائدة بالنسبة للحياة الأخرى واعتبار الوفاة كنهاية لكل شيء . . وها هو يؤكد لأخته : « أنه لا يمكننا أن نحكم بلا أفكار مسبقة وبلا عدم تبصر على شكل تحولاتنا الذاتية » فيل ٢ ) ، ثم ذكر لها مثال الشرنفة والفراشة . واذ وجد أنه لا يمكنه رؤية دورة الحياة أو « الحيانات » الخاصة بروح واحدة . الا أنه كان متأكدا من شيء واحد الا وهو : أنه يزداد معرفة كلها تقدم في فنه وفي الحياة : وأن دائرة التطور تتواصل الى ما لانهاية . وإذ رفض الانسياق وراء مجردات غير يقينية بالنسبة له ، فقد اكتفى بأبسط تفكير قائلا : « إن الفنان عليه الاهتمام باللوحات » . وهو النشاط الأثير لديه والذي كرس له أيامه بلا أي تحفظ . .

لقد استحود عليه فن التصوير كلية في مدينة آرل ، وذلك أنه وجد في الفن تلك الوظيقة الثلاثية التي يتحدث عنها مونشنان Monchanin في كتابه : من القيم ٢٣٣

الجهالية إلى التصوف (صفحة ٥١)، الا وهى د نطوير المعطيات، التعبير عن الدات، والتواصل مع الآخرين». وكلها مجالات لم يستطع فنسان تحقيقها في حيانه في غير الفن.

وفى هذه المرحلة ، تخلى فنسان عن درجات «بالتته » الرمادية ، ليبدأ خطاه المتصلة على طريق النور بألوان شديدة الحيوية ، ناصعة ، يناغسها بفرح شديد رغم فقره ومعاناته القاسية المريرة . لقد بزغت تناغبات لونية سرعان ما انعكست على كتاباته . وبفضل مختلف التألقات المضيئة التي توصل اليها ، استطاع فنسان ان بخلق السكينة والتوافق اللذين كان بحاجة اليهها ولم يكن بوسعه العثور عليهها الا مع لوحاته . . ذلك التوافق الذي راح يقارنه بألحان قاجنر « الحميمة جدا حتى وإن قام أوركسترا كبر العدد بأدائها » ( قيل ٣ ) .

أما من الناحية الجسمية ، فقد ظل يتألم من معدته ، ويعاني من الضعف العام خاصة بعد ذلك الشتاء الذي أمضاه في باريس وكثيرا ما كان يلجأ خلاله الى المنشطات ، أما في آرل ، فإن الطبيعة بتنوعات مناظرها التي تحيط به كانت تكشف له عن آفاق جديدة ، وعدد لا نهائي من اللوحات ، يكتب عنها قائلا : « حتى وأن ظللت أرسم طوال حياتي فلن أتمكن من انجاز نصف هذه المناظر المميزة في هذه المدينة وحدها » ( برنار ٣ ) .

لقد راح يعمل بلا هوادة ، وكأنه ينهل من الطبيعة بجرعات نهمة ، مستعينا بخياله . ذلك الشيء الوحيد الذي يمكنه معاونته على ابداع لوحات مثيرة تواسيه وتؤنس وحدته . وكان كلما توغل في هذه الطبيعة ، وفيها وراء ذلك الواقع الملموس ، أدرك أن « الناس هم أساس كل شيء وجذوره » ( ٤٧٦ ) . ، من هنا ندرك ذلك ، الشعور الكامن في غياهب الاعماق والذي لم يكف عن ترديد الأصداء . . ذلك الفراغ الذي لن يملأه أي شيء . .

ومن هنا ازداد قلن فنسان المكتئب لعدم تواجده فى الحياة والتعبير عنها بالطريقة المثلى التى يجبها ، فكنم كان يفضل أن يعمل مثل المسيح ، وأن يُعد اشخاصا حقيقيين بدلا من اللوحات ، وأن يتناول الخامة الانساتية بدلا من الألوان والجص أو الريشة . . ومع ذلك ، فلم يهتز ايمانه ابدا ، وظل مرتبطا متعلقا بالحياة وبالناس عبر ذلك الرباط السرَّى الذي يقيمه العمل الفنى . وذلك ايمانا منه بأن الطريق الذي بدأه جهابذة الفن والحياة ، من امثال فلاسكويز Velasquez ، وجويا Gaya ،

ورامبرانت وخاصة ديلاكروا ، لابد أن يستمر وأن يتواصل بنفس العمق وعلى الصعيد العالمي . . وهكذا تفاق فسان بحثا عن كثافة أكبر للون ، وعن درجة عالية أكثر ذبذبة وأكثر نورا للحياة . . وهنا أدرك امكانات فنان المستقبل « ذلك الملون البارع الذي لم يخلق بعد » . فعلى حد قول آلان كارديك Alain Kardec : « أن النور يصل دائيا لمن يود ملاقاته » (كتاب الأرواح ، صفحة ٩٩) .

ورغم المعاناة ومحاولات التخطى التى تتحدى الصعاب والعقبات ، فقد ظلت هناك عقبة ابدية بالنسبة له ناجمة عن التكاليف والتى لم تكف ابدا عن أن تعوق طريقه . وها هو اذ تنتهى انابيب الوانه يلجأ الى مجموعة من الرسومات بالحبرب بجانب محاولته لتغيير مسكنه بحثا عن مصروفات أقل توفر النفقات للألوان ، ورغم هذه المعاناة فإن فنسان لم ينظر إلى المستقبل باعتباره قاتم السواد وهو ما كانه تبعا للمعطيات التى كان يمكن أن ترد على خاطر من على شدرات مما عاناه فنسان . الا أن فنسان قد اعتبره رغم كل شيء مليثا بالعقبات والمصاعب فحسب ، وأن كان كثيرا ما راح يتساءل ان لم تكن هذه الصعاب والعقبات ستتغلب عليه ذات يوم وتحول بينه وبين وسيلة التعبير الوحيدة المتاحة له . . تلك الوسبلة التى يعد كل ما يبوحه من خلالها عبارة عن اعترافات وشهادات معاشة .

لقد كان فنسان يتردد بعض الشيء في تكوين مرسمه في الجنوب ، ذلك المرسم الذي حلم به طويلا . . كان مبعث تردده ذلك الفشل المتكرر السابق المعزوج بخطو مرير من الأسى والضربات الا أن ايمانه الموضوعي وحبه للناس والألوان وطموحه الذي لا يكل قد تغلب على هذا التردد . .

وها هو فنسان فى شهر مايو عام ١٨٨٨ ، يستأجر الجناح الأيمن من منزل تحيط به الشمس من كل جهة ، وأن كان غير عملى « لأن دورة المياه تقع عند الجيران ه . فى مبنى يمتلكه نفس صاحب البيت ! وبلا أى شكوى تقبل فنسان الوضع « لأن هذه الحدمات نادرة وقذرة ويعتبرها المرء تلقائيا كعش للمكبروبات ، (٤٨٠) . وفى مقابل هذا ، كانت هناك ميزة وجود المياه الجارية التى اعتبرها أهم بالنسبة لعمله !!

واذا ما كانت نوعية « الفنان المصور « غير معروفة في مدينة آرل قبل وصول فنسان واستقراره بها ، فإنه كان يرى جوها الاجتهاعي وعاداتها أكثر طرافة وأكثر انسانية وطبيعية مما في باريس . اذ كتب يقول : « إن سكان آرل يجهلون فن التصوير جهلا مطبقا » . لكنهم كانوا في نظره أكثر احساسا بالفن مما في شهال فرنسا ، لأنه كان محاطا بأشكال أشبه ما تكون بأولئك الذين نراهم في لوحات جويا أو فيلا سكويز.

وبعد أن انهكته الوحدة والهموم والعقبات والحاجة الى صديق والى الحب والعطف ، استغرقته احزانه الانفعالية وخيبة آماله التى كان يواجهها بمزيد من الاصرار والتحدى ، بدأ فنسان يشعر بنوع من الصحوة فى العمل الذى كان ينجزه فيها يشبه التفانى الصوفى . وهنا يقول إميل برنار : « لقد عاد ثانية الى الانجيل وراح يستلهم رموزه . وخاصة تلك الرموز التى تتعلق بالنفس » (مقدمة خطابات فتسان فان جوخ إلى اميل برنار ، صفحة ١٩) .

وفى ذلك الصمت المخيم الذى راح يعزل فيه نفسه ، توصل فنسان ببطء الى نوع من التنوير الذى يدمج الفكر الدينى والفنى والفلسفى . وهنا نراه يقترب من الفيلسوف أوريجين Orégène الذى كان يعتبر « أن الانجيل والطبيعة يرمزان فيها بينها وعبر الروح ومعها ، الى السر الوحيد للمسيح « ( مونشنان ، من القيم الجمالية إلى التصوف ، صفحة ١٠٧) . ذلك أن الكون عبارة عن رموز وأدلة . . رموز تعنى الأدلة . .

وفى بحث الدءوب للتعبير عن ذلك الجو المشحون بالانفعالات الروحية كان اللون الأصفر يثير اهتهامه من ناحيتين ، حيث انه يرمز إلى النور الإلهى ، بقدر ما يرمز الى قمة نور الحب فى وحدة درجاته القصيوية . . وهكذا انغمس فى دراسة تلك النغمة الجد حادة فى الألوان ، وسرعان ما راح يطلى مسكنه من الخارج باللون الأصفر قائلا : « لأننى أريده أن يكون مسكنا من نور للجميع » .

وفى خضم هذه الانبثاقة المتجلية المليئة بالابداع والتطلع ، اصبح فنسان ببصيرته الثاقبة يرى المستقبل « أكثر شباباً وأكثر جمالا » . . حتى وان دفع شبابه ثمنا لذلك . الم يذهب ذلك الشباب « هباء كالدخان » ( ٤٨٩ ) ! لقد بدأ يكتسب سكينة وصفاء ، إذ أن العمل في نظره يمثل شباباً آخر عليه أن يعيشه بكل الصدق . .

ورغم فجيعته من تجربته على هذه الأرض ، الا أن ايمانه بالله ، بتلك القوى ومنبع النور الذى كان يود التوحد معه ويرى فيه الفنان الأعظم . . كان يقوده لرؤى أخرى على الجانب الأخر من نهر المعاناة ، لقد رأى فى ذات الله مبدعا متفردا لا يجب الاقلال من شأنه بناء على هذه التجربة الفاشلة . وها هو يقول : « إننى اعتقد أكثر

وأكثر أنه لا ينبغى الحكم على امكانات الله بناء على هذا العالم ، الذى لا يزيد عن كونه دراسة فاشلة . أننا عندما نحب الفنان فلا ينبغى لنا أن ننتقده اذا ما قام بدراسة غير موفقة ــ وانما علينا أن نصمت وإن كان يحق لنا أن نطالب بما هو أفضل » ( ٤٩٠ ) .

ومن الناحية الاجتماعية ، كانت هذه « الدراسة الفاشلة » بحاجة إلى الكثير . ومع ذلك ، فلم يكن لفنسان ان يمس أو يقلل من اعجابه بخالقها . فلقد كان يجب الفنان ، ذلك الفنان الأعظم الذى لم يحبه خوفا منه وانما لأنه يمثل مجموع الانسانية . لقد كان فنسان يتطلع الى رؤية عمله فى قمة ابداعاته اذ « ان كبار المبدعين هم الذين يمكنهم الخطأ بهذا الشكل . وتلك أفضل مواساة بينها نتطلع الى ما هو أفضل من نفس الخالق . لذلك ، فإن هذه الحياة بكل ما بها من انتقادات ونواقص ، لا ينبغى علينا أن نأخذها على محمل آخر ، ويبقى لنا الأمل فى رؤية ما هو أفضل منها فى حياة أخرى » ( ٤٩٠ ) .

ان هذه التأملات الكونية التى تقربه من چول قيرن Jules Verne وجيرار دى نرقال Géard de Nerval ، لم تمنعه من تحقيق عمله على هذه الأرض ولا من تنفيذ مشروع المجمع التعاوني الفني . فبدأ بدعوة جوجان Gauguin ، الذي تعرف اليه في باريس وكان يتضور جوعا هو الآخر . وكان الاتفاقي قد تم مع تيو على أن يرسل لها مبلغ مائتين وخمسين فرنكا شهريا . لهم الاثنان ، مقابل لوحة واحدة في الشهر من إنتاج جوجان ، الذي يحق له التصرف في باقي لوحاته ، بينها كان على فنسان أن يرسل له كل انتاجه - كها رأينا في مرحلة نونن - مقابل مبلغ مائة وخمسين فرنكا ، لم يكن يتقاضاها بانتظام !! ولا داعي لدينا للتعليق على عدم عدالة اتجاه تيو وقسوته بالنسبة للفنانين ! وفي كل الأحوال فقد تضمن الاتفاقي على أن يتم عرض انتاج بالنسبة للفنانين ! وفي كل الأحوال فقد تضمن الاتفاقي على أن يتم عرض انتاج الاثنين في مدينة مرسيليا ، فاتحين بذلك الباب لعدد آخر من الفنانين التأثيريين .

كان فنسان يفكر في عمل مؤسسة أشبه ما تكون بتلك التي كونها الاثنا عشر فنانا النجليزيا المعروفين باسم « بريرافائيل » Préraphaëletes ، وتصور أن الفنانين بوسعهم أن يعيشوا فيها بينهم بعيداً عن التجار ، بأن يعطى كل واحد منهم عدة لوحات للمؤسسة ويتقاسمون المكاسب والحسائر . ومن ناحيته ، فقد كان دائها ما بأخذ المبادأة . وهو الذي كان ينتج قرابة خمسين لوحة خلال هذا العاء

لقد أراد فنشان كعادته ، ولكن موقف الأخرين دوما كان صادما . وها هو -حتى - جوجان يصدمه برده الشديد الأنائية والذى اندهش له فنسان وهو يقرأه : د أن المؤسسة تمنح حمايتها مقابل عشر لوحات من كل فنان ، وإذا ما قام عشر فنانين بعمل ذلك فإن المؤسسة اليهودية ستقبض مبدئيا ماثة لوحة . إن حماية تلك المؤسسة التي لم تتكون بعد لباهظة ! ، (٤٩٨) .

وقجع فنسان من ذلك التفكير المادي وحسابات رجل البنوك أو المرابي ، كها أسف لعدم وجود روح التعاون بين الفنائين الذين ينتقدون ويطهدون بعضهم بعضا ، وإن لم يصلوا إلى إبادة أنفسهم » على حد قول فنسان الذي راح يقول : ، ان اللوحات التي يجب عملها حتى يصل فن التصوير الحالي لمستوى يبلغ ارتفاعات القمم التي بلغها المثالون اليونائيون ، والموسيقيون الألمان ، والأدباء الفرنسيون ، انما تتعدى امكانية فرد منعزل ؛ لذا فمن الأفضل أن تقوم بها جماعة من الفنائين المثقفين حول تنفيذ فكرة مشتركة » ( برنار ٢ ) . وياله من تطلع بعيد المدى ، لكنه يتطلب اناسا منزهين عن الغرض تاركين أنانيتهم الشخصية ، وراء ظهورهم تماما ، وذلك كله حبا للفن ولدوره الاجتماعي .

وهو أذ يتقدم بفكرة هذا المجمع الفنى ، لم يفكر أبدا فى أن يعمل كل الفنانين فى لوحة واحدة ، بل على العكس ، كان يبغى أن يحتفظ كل فرد بأسلوبه الذات وتطويره ، وإن مجمل الانتاج هذا هو الذى سيكون تلك القمة الجديدة التى يصبو اليها . . أى العمل معا بغية تحقيق هدف واحد .

لقد كانت الفكرة المحركة لهذه الدفقة المحبة للغير تمثل مخرجا للإيحار بعيدا عن ذلك العالم التجارى المتداخل التعقيدات والذي يسيطر عليه جشع التجار الذين يحتجزون كافة المكاسب لأنفسهم عن طريق الاستثار والمضاربة على اللوحات بعد وفاة اصحابها ، في الوقت الذي يعلى فيه الفنانون الاحياء ويتم استبعادهم بدأب واصرار .

ورغم ادراكه لأبعاد خبايا الكواليس التجارية الاستثيارية ، الا أن فنسان لم يلجأ الى الأدانة ، وانما حاول ـ كعادته ـ الفهم والتبرير ، اذ كان يدرك ـ عبر أفق يتجاوز الذاتى لفهم موضوعى ـ أن هذه الاتجاهات هناك ما ، يبررها . الم يكن الرفض دوما رد الفعل الطبيعى في مواجهة أي اختراع أو أية فكرة سباقة ؟ ! وهنا يوضح لأخته قائلا : ولقد سمعنا عن الفنانين التأثيريين . . وعندما يرى المرء أعيالهم للمرة الأولى يصاب بخيبة أمل شديدة . . تماما مثل أولئك الهولنديين القدامي حينها كانوا يذهبون الى الكنيسة وفى اللحظة التالية يذهبون لسماع احدى خطب دوميلا نيونيهويسDomela Nieuwenhuis أو أي اشتراكي آخر . ومع ذلك تعرفين أنه خلال عشرة أو خسة عشر عاما قد انهار . كل الكيان الديني القومي بينها الاشتراكيون مازالوا وسيظلون هنا ، وأن كنا \_ أنا وأنت \_ لم ننتم تماما الى أي من الاتجاهين » (قبل ٤) . ثم يواصل فسان في نفس الخطاب : « أن مثل الفن اليوم ، الفن الرسمي وادارته ، وتنظيمه ، مثل أبله ينخره الدين الذي نراه يتهاوي . أن فن اليوم لن يستمر طويلا » .

ها هي المرة الثانية التي يعلن فيها فنسان بوضوح اتجاهه الاجتماعي والديني ، قائلا انه كان منضاً إلى الاشتراكية ، وان كانت أمانته ودقة عبارته قد الزمنه بأن يقول « لم ننتم تماماً » ، ولا يمكن أن نغفل في العبارة من سهاته التي تتسم بالتواضع أيضا . . لقد كان بأفكاره سابقاً لعصره ، متحديا له ، وإن لم يقم بدور أكثر الجابية ، موضحا الانهيار ومعريا تلك الصيغة التجارية التي يراها في المجال الفني وفي المجال الديني في عصره . ولسنا في حاجة لتبرير ذلك لما لاقاه حتى من أولئك الذين يدافع عنهم ، وهو في كل الأحوال كان يقف خارج الاطار الاجتماعي التقليدي ، وافضا النواطؤ \_ ذلك الرفض الذي تسبب في ادانته واستبعاده تحت لافتة والجنون » . .

ولو أننا عدنا إلى ذلك الجو الرائق الصافى المميز لمدينة آرل . سنرى فنسان وقد توصل إلى تخطى الذات فى الفن ، وإن أدرك معها أنه لن يمكنه الحصول على كل ما يكون الحياة فى شكلها المتكامل . لكنه فى مواجهة التحدى اختار الفن مضحيا . بحياته المادية وصولا إلى فناء الذات \_ وكأنه يعيش فكر كيركجارد Kirkegaard . فائلا : « إن كل جيل يتضمن رجلين أو ثلاثة ثم التضحية بهم من أجل الأخرين \_ وكان عليهم أن يكتشفوا عبر معاناة بشعة كل ما ينعم به الأخرون » .

وفى تلاحم الافكار الانسانية والفنية والصوفية ، لم يكف فنسان عن الرجوع إلى الإنجيل والغوص فى تأملاته ومقارناته ، فالإنجيل بالنسبة له يمثل مرجعاً من الوصايا التعاليم الأخلاقية والانسانية ، وليس قانون حكومة أو دستوراً سياسياً ، لقد وجد به عزاءه الأكبر فى شخصية المسيح ، الذى يمثل نواة الانجيل والذى يعتبره كأكبر الفلاسفة لأنه أكد تلك البراهين الأساسية عن خلود الحياة ، ولا نهائية الزمن ،

وعدمية الموت ، وأهمية ضرورة الصفاء والاخلاص . والى جانب صفة أكبر الفلاسفة هذه ... كان فنسان يرى فيه أكبر الفنانين قاطبة و لأنه تغافل الرخام والطين والألوان وراح يعمل مع النفس الإنسانية مباشرة . أى أن هذا الفنان الذى لا مثيل له لم يكن يصنع التهائيل واللوحات والكتب وانما استعان بأداة عقولنا العصرية العصبية المنهكة ليصنع رجالا أحياء ، على حد قوله جهارة ، (برنار ۸).

وعلى عكس أوجين ديلاكروا ، الذى لم ير فى الانجيل سوى «منجم خصب للموضوعات ، التى يستعين بها فى لوحاته ( اليوميات ، المجلد الأول ، صفحة ٩٢) ، فإن فنسان كان يستشف الاعهاق الانسانية للكتاب المقدس موضحا دوره الاجتهاعى بالنسبة للانسان ، ذلك أن مهمة تكوين البشر هذه كانت أهم ما يعنيه بقدر ما كانت أكثر الأمور التى يفتقدها .

وعبر ذلك الخطاب الذي يكشف بعمق عن تلك الاستنارة التي توصل اليها أدرك فنسان أي كيان حي في كلمات الانجيل. في تلك الحكم والأمثال التي يعتبرها و كأعلى القمم التي وصل اليها الفن والتي تصبح قوى ابداعية خلاقة صافية ، وبإدراكه العميق المعنوى لذلك النبت ، رأى أن المسبح هو أكبر باذر للحب . وهو الموضوع الذي كان يتأمله منذ أيام بوريناج وكان يود تصويره بالألوان ، بكل الحيوية الدينامية التي يحتوى عليها الانجيل ، وليس بالرماديات ، مثل باذر الحب الذي صوره الفئان ميليه .

وهكذا يتضح أن فنسان لم يدر ظهره للدين أبدا \_ كها يتناقل البعض هذا المعنى عن غير حق ـ بل على العكس ، فإنه لم يكف حتى نهاية ايامه عن الرجوع الى المنابع الأساسية لهذا الكتاب الذى ظل بمثابة « الدفة » فى مركب حياته والذى كان يود الابحار دوما لتوصيل مضمونه إلى كافة الناس .

وعلى الرغم من الصعوبات المادية ، أو ربما بفضل ثقل حملها المهلك فقد تخلى فنسان تدريجيا عن العتمة الأرضية وراح يحلق في مناطق التجليات الغامضة . . عند تلك الأجرام والشموس التي لا يمكن الوصول اليها الا بتغيير الحال . . وراح يحلم بلوحات أسمى . . وها هو يصل بتفكيره الى تخطى برزخ الموت بتلك الروح الانسانية التي تتعرف آنذاك على عالم أفضل حيث يمكنها مواصلة ابداعاتها الحلاقة ، في ظروف أكثر رقيا وأكثر سحرا : « فالعلم ، أو النفكير العلمى ، يبدو لى كأداة ستصل إلى بعد فيها بعد . لأنهم قد افترضوا أن الأرض مسطحة . وكانت تلك

حقيقة ، فهي مازالت مسطحة من باريس الى أنير Asnière ، مثلا . لكن ، ذلك لم يمنع أن يثبت العلم أن الأرض كروية ، وهو ما لا يعارضه أى فرد حاليا . وفي عبارة أخرى ، انهم حاليا ورغم ذلك التقدم ، مازالوا يعتقدون أن الحياة مسطحة(١) وأنها تمتد من الحياة إلى الموت . وتلك حقيقة أيضاً الا أنها كروية وأكثر سموا واتساعا وقدرة من ذلك الجانب الذي نعرفه حاليا ١٠٢٠).

لقد أدى هذا التناغم الفريد بين العالمين الى وقوف فنسان ــ مثلما وقف جيرار دى نرقال من قبل في مواجهة لعالمي الواقع والمجهول, ورغم بلوغ فنسان لتلك المجالات الميتافيزيقية ، الا أنه لم يكن أقل تَفْكيرا في المشاكل الأرضية ، وخاصة في تلك الظاهرة الغريبة التي تخضع معظم الفنانين لمواقف مادية تعسة تعوق تقدمهم الفني . وهو ما أثار في نفسه ذلك السؤال الأزلى المتعلق بالعالم الأخر : و ترى هل الحياة بأسرها واضحة بالنسبة لنا أم أننا لا نعرف سوى جانب واحد منها؟ ، (٥٠٦) . ورغم هذا التردد ، فقد كان متأكدا من شيء واحد هو أن الفنانين بعد موتهم يتحدثون الى الاجيال التالية عبر أعمالهم . وأن الحياة تستمر بفضل هذا الحوار وبفضل هذا التجاوب الفعال الذي يساعد على التطور المستمر. وقد كان هو ما يدفعه دوما ليلجأ الى كبار الفنانين الذين يعجب بهم ، خاصة رامبرانت وديلاكروا . وذلك هو الذي جعله يشعر أنه يكمل تراثهم بدءاً من مونتيشللي Manticelli . وصدًا المعنى بلغت لوحاته الذرى ، اذ تغلغلت في أعمق معاني اللغة الانسانية العالمية.

وبملامسته للأعماق اللانهائية لهذه الموضوعات ، أدرك فنسان مهدوء وأن الموت لا يمثل أصعب ما في حياة الفنان ( ، وأن الصعوبة الكبرى هي أن يتمكن من حل المشاكل التشكيلية والاجتماعية لفنه.

وبزهد شديد ، اتخذ من القديس لوقا ، راعي المصورين الذي يرمز له ببقرة وليس بألهة وحي ، نموذجا له ! مكررا لنفسه : « على أن أكون صبورا اذا ما أردت أن أحرث حقل فن التصوير ، . الا أن الشكل الرئيسي لذلك الحقل في نظره ظل هو الانسان الذي يكنّ له كل تبجيل . وكان عليه \_ مادامت هذه قناعته \_ أن يمضى أياما بأسرها تحت الشمس ليعمل بسرعة كمن يحصد تحت الوهج اللافح.

وادى هذا النشاط المفرط المهلك مع حرارة الشمس الحارقة لمن كان من سكان الشمال والمناطق الباردة ، الى بداية شكواه من الشمس ـ تلك الشكوى التي تمثل السبب الرئيسي لأزماته المقبلة والتي يتعين اعادة دراستها من هذه الزاوية ، بما أن كل أزمة ستسبقها جلسة عمل طويلة تحت لهيب الشمس .

إن فنسان لا ينسى مطالعاته ابدا ، فإلى جانب هذا الانتاج الفنى استغرقته أعمال كل من لوق Loti ، وموباسان ، ودوديه وزولا وبلزاك أو هيجو . فقد كانت تؤنس وحدته اذ ظل يقرأ بانتظام لمدة ساعتين على الأقل كل ليلة . وكان لهذه المطالعات فائدتها المزدوجة وهي : متابعة الحياة المعاصرة عبر بلورة انعكاساتها الأدبية ، والبحث عن تعميق معرفته بالمؤلف ، بذلك الانسان الذي ابدعها .

لقد عاش فنسان يأمل أن يتمكن من تحقيق أحلامه ، الا أنه توصل بحكم الواقع المرير \_ إلى أمل شاحب شحيح يتحدث عنه فيكتور هيجو في رواية العام الرهيب ، أنه الأمل الضائع هباءً حيث لم يعد فنسان المحبط المتهالك يطمع في أكثر من أن يقلل حمل أخيه \_ بألا يكون عبئا عليه . ومع نزايد تحكمه في تقنياته الفنية ، رأى فنسان أنه يحق له مخاطبة ذلك الأخ المتراخي قائلا : د . . إن اللوحة التي أكسوها بالألوان تساوى أكثر من اللوحة البيضاء . . مما أؤكد لك معه أن تصويرى سيصبح أفضل مما هو عليه اذ لم يعد لى سواه ا (٥١٣) .

إننا عندما نقوم بالربط الكامل بين كافة دراسات فنسان الفنية والاجتهاعية وأحلامه الانسانية ، سنجد أن بينها دعامة اساسية مشتركة هي : الانسان . . ذلك الموضوع الذي تمني تمجيده بتصوير ملحمة الانسان من خلال البورتريه البسيط . الا أن تلك الملحمة الانسانية لم يكن لها مثلها عند هيجو شكلا دوارا عبر التاريخ ، وأغا تصور ابداعها من خلال الانسان المعاصر بكل عظمته ويؤسه . وإذا ما اقترب من قامة فيكتور هيجو باتساع بصيرته حيث كان يرى أن مهمة الشاعر هي و ارشاد الشعب » وو التنبؤ بالمستقبل » ، فإن فنسان يلقى بنفس المهمة على الفنان التشكيل الذي يجب عليه تنوير الشعب برسالة من الحب الصادق وبالحقيقة التي لا تعرف الوجل وقد يدها للمحتاجين .

إنها المهمة التي تقترب به من مثله الأعلى حيث رسالة السيد المسيح الذي ظل يعمل من أجل الانسان . وفي خضم هذا التدفق الانفعالي يبدو فنسان وكأنه توصل الى اللانهائية التي يراها في الامكانات غير المحدودة لفن التصوير ، وفي العالم الآخر ، في حياة أخرى .

وفى نفس الوقت بدأ يتباعد عما تعلمه فى باريس ليعود إلى أفكاره التى واتته فى الريف قبل صلاته بالتأثيرين . وهى الافكار النى تولدت لديه انطلاقا من ديلاكروا . فبدلا من محاولة التعبير عن تأثير ما يراه بشىء من التقريب ، استعان فنسان باللون ، المتوهج الحاد لكى يعبر عما يشعر به متخطيا بذلك الشكل الظاهرى للواقع ليتوغل فى أعماقه . لكنه سرعان ما راح يكتب بكل أسف و إن متطلبات فن التصوير كمتطلبات العشيقة التى تدفع إلى الإفلاس . فلا يمكن عمل أى شىء بلا نقود وما معى لا يكفى ابدا ، (٥٢٠) . ثم راح يضيف بعد قليل : و ربما كان على فن التصوير أن يتم على عاتق المجتمع » !

ويصف فنسان نهمه في عمل البورتريه وملحمة الانسانية بأنه لا يريد أن يصور غير الأشخاص ، والأشخاص ، ومزيدا من الاشخاص ، برنار ١٥) . الا أن المعوقات المتواصلة التي تعترض طريقه ورفض الموديلات الجلوس أمامه بلا أجر أرغمت فنسان أن يرسم الطبيعة وكل ما يراه أو يحيط به . لذلك يمكن تسمية لوحاته مثل تأملات هيجو إنها : مذكرات روح . . روح تمكى عن نفسها وفي كل عمل لها . . الا أن هذه المذكرات ليست الا أنشودة للحياة ، أنشودة تقودنا الى حافة اللانهائية . .

ومن الملفت للنظر ان تلك الرغبة العارمة في العمل من أجل الأخرين لم تكن تتصل مطلقا بهدف ذاتي للنجاح والشهرة: فقد كان فنسان يبغض النجاح ويخشى صبيحة الاعياد! لم يكن يتمسك الا بالاستمرار في عمل التأثيريين الحياسي ، وذلك المرسم الجهاعي حتى يكون العمل في مأمن عن أية معوقات لذلك تزايدت رغبته في أن يرسم ببساطة أكثر بحيث يمكن لكل انسان أن يرى بوضوح ما يود قوله . ومنذ ذلك الوقت أصبحت لوحاته تمثل في نظره \_ اعداد امكانات أكثر خصوبة للفنانين الذين سيواصلون مسيرة هذا الجيل ، حيث « يتعين على الفن أن يصبح أكثر شفافيه ونغا وأقل صلابة \_ أي أن يصل اللون الى مداه ي . . ( ٢٨٥ ) .

إن جهرة النقاد لم يعتبروا الموسيقار أريك ساق Erik Satie ( المحتبر الموسيقار أريك ساق المقرب من الفنانين المحتونا بحال حينها قال فيها بعد انه تعلم الموسيقى بالقرب من الفنانين التشكيليين وليس من الموسيقين ، وهو يساهم عبرهم في البحث عن امكانات تقنية جديدة وسمو روحى . ورغمها . . فإنهم انسياقا لروح الأسطورة يصمون فنسان \_ بلا خجل \_ بالجنون ، وهو ما سنعود اليه .

إن فنسان منذ ذلك الوقت لم يعد يكرس كل وقته للفن فحسب ، وانما لإعداد الطريق للأجيال القادمة ، حاملا على عائقه تحقيق رسالته كمبدع خلاق . فعلى حد قول تربمونتان Trémantant في كتابه عن تعاليم ياسوع الناصرى (صفحة ١٨٥) ، يرى أن فهمه لله لا يقوم و على أنه الحى الذي يمنح الحياة للأحياء . . ذلك أن ما يعنيه في النصوص الانجيلية هو أن يبدع شخوصا على شاكلته ومثله \_ أي خلاقين ، وهي نفس تعاليم السيد المسيح فيها يتصل بالمواهب . وهي التعاليم التي تدفع إلى تنمية الخلق العالمية .

ولما كان الشكل الاجتهاعي للحلق انما يكمن في العمل، فقد كان فنسان بمجده في حياته وفي دأبه الذي لا يهدأ مستغرقا في عمله . وعل ذلك ما دفعه الى كتابة ما يعبر عن هذه الفكرة بأعمق معانيها : ﴿ في الحياة وفي الفن كان يمكنني الاستغناء عن فكرة الرب ، الا أنني لا أستطيع بكل ما أعنيه أن اتخلى عن شيء أكبر مني ، ذلك الذي فيه حياتي ، أنه قوة الخلق » ( ٥٣١ ) . ومن خلال امكانية الخلق هذه ، شعر فنسان بارتباطه بالانسانية . لذلك تعلق بفن البورتريه تعلقا لا حد له ، وحاول التعبير من خلاله عن شيء يمكن أن يواسي المرء ويؤنسه ، أنه اشبه ما يكون بالموسيقي ، شيء خالد كالاشعاع النوراني . . ﴿ آه ، البورتريه ، البورتريه المزود بفكر الموديل وروحه ، لابد وأنه سيتحقق ذات يوم . . أود تصوير النساء والرجال بذلك التعبير الخالد الذي كانوا يرمزون له فيها مضي بالهالة ، والذي نبحث عنه من خلال الاشعاع نفسه وبذبذبة ألواننا . إنه التعبير عن حب حبيين بتداخل لونين مكملين لبعضهها ومزجهها ، أو بالألوان المتعارضة ، والذبذبات الغامضة للدرجات مكملين لبعضهها ومزجهها ، أو بالألوان المتعارضة ، والذبذبات الغامضة للدرجات خلفية داكنة ، التعبير عن الأمل ببضعة نجوم . . وعن حماس انسان وتدفقه باشعاع خلفية داكنة ، التعبير عن الأمل ببضعة نجوم . . وعن حماس انسان وتدفقه باشعاع شمس غاربة » .

ومثل الصائغ الذى تبلى أيامه قبل أن يبرك ان كان يجيد ترتيب أحجاره الكريمة ، فقد استهلك فنسان نفسه جسدياً ووصل الى حد يرثى له لكنه تمكن من تصوير الملامح المثيرة لروعة الطبيعة وكأنها جواهر تتغنى فى تلألؤ ألوانها المتألقة . حتى الليل الداكن أصبح مضيئا فى نظره ويفيض بثراء الألوان كوضح النهار .

إلا أنه بقدر معايشته لذبذبات الكون بألوانها بقدر ما كان يستلهم من أحشاء الطبيعة الانسانية أروع ما فيها . وقد صور في تلك الفترة المقهى الليلي الذي كان يعتبرها اللوحة المكملة للوحة آكلى البطاطس والذى حاول فيها أن يبحث «تحت المظهر الخارجي بمرحه الياباني النزعة وتواكلية ترتران ، Tartarin أن يعبر عن المشاعر الانسانية الرهيبة ـ عن تلك الأفران الجهنمية الشبيهة بعنف ظلمات «خارة» ، بواسطة الصراع الأزلى بين تناقضات الأحمر والأخضر .

وفى نفس هذه الفترة التي تتسم بالنزعة الفنية التصوفية الدالة على مدى تجلياته ، استطاع فنسان اختراق الحجب الغامضة للحياة ، ليصل إلى تلك المناطق الكاشفة على حافة العالم الأثيرى : وأن الأفكار المتعلقة بالعمل تأتيني بوفرة ، وذلك يشغلني لدرجة أنه لا وقت لدى للتفكير والألم رغم عزلتى . إنني أسير كقاطرة للتصوير » ( ٥٣٥ ) . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح فنسان \_ على حد قول أ . ستينرك للتصوير » ( ٥٣٥ ) . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح فنسان \_ على حد قول أ . ستينرك لوحة من لوحاته تبدو ، من الآن ، وكأنها ضرورة ؛ إنها تمثل بعدا جديدا انتزعه من لا نهائية المجهول . إن قان جوخ يعد خلاقا بأعلى درجة بتوسيعه حدود ما لم يكشف عنه بعد وبتقديم دفعة جديدة للعالم الانساني » ( تأملات حول أحد معارض قان جوخ ، في عبلة الحياة الثقافية صفحة ١٦٦ ) . لكن فنسان كان كلما تطور في ذبذباته اللونة ، كلما وجد « أنه لا يوجد ما هو ديني حقيقي أكثر من حب الناس » وكان بوسعه أن يكتب أيضا « لا يوجد ما هو ديني حقيقي أكثر من حب الناس » فالفكرة والعني واحدة بالنسبة لمن أحب وأحب الحب بكل الصدق . .

ومع بداية الخريف ، بدأ فنسان يدخل ذلك التنوع اللونى الذى تكتسى به الطبيعة في لوحاته التي مازال يبحث فيها عن صلات الألوان بموسيقى فاجنر . وهى الملاحظة التي لفتت نظره من قبل في نونن وحثته على دراسة الموسيقى حتى يرى عن قرب ذلك المجال الآخر من التوافقات الحية . . وفي هذا الاطار اكتسب وضوح رؤية وبصيرة اثارته الى أبعد حد وكشفت له \_ في نفسه \_ عن قوى مركزة لم تكن تبحث إلا عن الخلاص عبر العمل . وبدأت اللوحات تأتيه كها في الحلم . . (٥٤٥) . إن ذلك هو عين ما حاول تفسيره أكثر من مرة لأخيه تيو ، وهو ما يسمح لنا بالقول \_ دونما احتمال لخطأ . . لقد وصل فنسان \_ وبلا وعى منه \_ في هذه اللحظة من حياته . الى أعلى مراحل التجربة السريالية ، في ذلك الجانب السامى منها ، حيث اكتشاف عالم المجهول أو ما وراء الواقع ، ذلك العالم الذي انطلقوا فيه بعد ذلك بعقود من الزمان تحت تأثير مفاهيم التحليل النفسي من تداع طليق بعد ذلك بعقود من الزمان تحت تأثير مفاهيم التحليل النفسي من تداع طليق .

لقد وصل فنسان الملون البارع ، الحالم بالشمس والحب والسعادة ، مثل مونتيتشللي الذي كان يؤمن بأنه يكمل رسالته وكأنه ابنه أو أخوه » . لقد وصل إلى إدراك المستقبل . والتنبؤ بأن الجميع سيتهمونه بالجنون ، بجا في ذلك المصورون ، وخاصة أولئك الذين لا يجيدون التلوين و زاعمين بأن الفنان الذي يرى بعيون أخرى غير عيونهم لمجنون بكل تأكيد و ( فيل ٨ ) . الا أن ذلك لم يعق مسيرته ليصل بألوانه إلى ذروة التعبير . .

ووسط هذه الدفعة الانفعالية المنتجة ، حيث كان يعمل منذ الصباح الباكر حتى الليل ، فإن ميزانية فنسان كانت تؤول الى الألوان والمعدات ليمضى أياما بلا أي طعام . وفي بداية شهر أكتوبر أمضى المدة من يوم الخميس الى يوم الاثنين بلا أية نقود ، تناول خلالها ثلاثة وعشرين قدحا من القهوة والخبز الجاف دينا إلى أن تصله النقود . ونظرا لانهاكه الشديد في العمل لم يكن بوسعه أن يقلل أو أن يهدىء من ايقاعه المحموم . . ذلك الايقاع الذي يعبر من خلاله عن ذاته ويمهد الطريق للأجيال القادمة .

لقد أحس تيو أخيرا بالقلق ، عندما قرأ أخبار أخيه في الخطاب المؤرخ في ٢٣ أكتوبر ، فأرسل له مبلغ مائة فرنك قائلا : و يا لك من مدبر ! أن ما يجزيني هو أنك رغم كل هذه المبالغ تظل دائها في الفاقة والبؤس لأنه لا يمكنك عدم مساعدة الاخرين . كم أود أن أراك أكثر انانية الى أن تصبح أكثر استقرارا ه (المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٦٢ ) . وبعد ذلك بأربعة أيام ، أدرك تيو قلق فنسان من دوام قلة النقود ومن ذلك الدّين الذي يتراكم فحاول تهدأته وإن كان وراء ذلك دافع تجارى يبين بوضوح من طيات الأسطر اذ يقول : 1 كل ذلك الجانب المادى غير موجود ، أو قل إنه موجود كمرض دائم . . أنك تفكر فيه كثيرا في الأونة الاخيرة رغم عدم وجود أية دلالات مغلقة فإنك تعاني . . أن أردت أن تفعل شيئا من أجلى فهو أن تواصل كها في الماضي وأن تخلق لنا مجالا من الفنانين والأصدقاء ، فذلك مالا يمكنني عمله مطلقا بمفردي ، وذلك هو ما بدأته بالفعل منذ وصولك فرنساً (المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٦٤ ) .

وفى أواخر شهر أكتوبر ، وصل جوجان إلى مدينة آرل ، بعد فترة تردد طويلة وبعد أن راح يحسب كل صغيرة وكبيرة وبعد تبادل خطابات وليست كلها ـ بكل أسف ـ في صالح ذلك الفنان الكبير ، على حد قول شارنصول عن جوجان ( في المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٥٧ ) . ها هو جوجان قد وصل أخيرا إلى ذلك المرسم \_ النور \_ ليكون أول من ينضم الى ذلك المجمع الفنى الذى كان فنسان يأمل فى عمله ، وبدأ الأمل يلوح فى الأفق \_ لكنه أمل منقطع فى تلك الحياة المنعزلة .

وفرح فنسان لبداية تحقيق مشروعه . فكم ردد إن د فن التصوير بحاجة إلى الشخاص لها أياد ومعدة مثل العيال الأصحاء . وأن يكون لهم ذوق أكثر طبيعية وطباع أكثر حبا وعطفا مما لدى متسكعى باريس المنحلين الهالكين ، ( برنار ١٩ ) . وفي نفس هذا الخطاب أعلن فنسان لبرنار عن مقدم جوجان قائلا : د بلا أدنى شك أننا حيال شخصية عزراء ذات مشاعر متوحشة . أن الدم والجنس عند جوجان يتغلبان على الطموح ، .

ومنذ وصول جوجان بدأت مناقشاتها حول فن التصوير والمؤسسة والمجمع الفنى . كها بدأت جولاتها للمدينة ولبيوت الدعارة وهو الموضوع الذى كان يزمع فنسان تصويره منذ فترة ، معتبرا تلك الفتيات البائسات كأخوات له فى البؤس . وهى الجولات التي كان جوجان يطلق عليها « الجولات الصحية » .

كان العمل يستغرق النهار كله ، وفي المساء كانا يذهبان الى المقهى منهكين ، ثم يخلدان للنوم مبكرا ليستطيعا معاودة نسقها في اليوم التالى . ورغم هذا النهج في قضاء يومها ها هو شارنصول في ملاحظاته حول هذه الفترة يقول : «في الواقع ، بين الفنان المتكبر ، جوجان ، المولع بالغرائب والبدائيات ، و« الرومانسي فنسان ، سباق التعبيريين ، لم يكن هناك أي شيء مشترك بينها . وكان عدم وفاقها حتميا » سباق التعبيريين ، لم يكن هناك أي شيء مشترك بينها . وكان عدم وفاقها حتميا » ( المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٥٨ ) . أما فنسان فكتب يقول : «أن المناقشات مشحونة بالكهرباء الحادة ، اننا نخرج منها أحيانا برءوس متعبة كبطارية كهربائية فرغت شحنتها » ( ٥٦٤ ) .

لقد كان فنسان رغم هذا التواجد الحى \_ ورغم ايقاع العمل المتدفق والمناقشات التى لا تنتهى، لم يفقد شعوره بالفراغ الرهيب الذى يحتوى قلبه . . ذلك الفراغ الذى جعله يردد مقطعاً من قصيدة «ليلة ديسمير»:

ما إن لا مست الأرض حتى جلس فى طريقى بائس مرتديا السواد يشبهنى كاخى . . وكانت اصداء القصيدة تتردد في قاع سحيق ، حيث تجيبه الوحدة في صمتها الرهيب :

صديقي ،

أينها ذهبت سأكون دائها حتى آخر أيام حياتك حيث سأجلس فوق لحدك . .

وأكثر من أي وقت مضي ، يبدو فنسان وكأنه تلاحم مع الوحدة الى الأبد . .

وها هو تيو يتسلم خطابا في قرابة عشر صفحات ، وذلك في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٨٨ ، وكان فنسان يطلعه فيه عن تغيير الجو واحتمال فشل تلك المحاولة الأولى للمجمع الفني . لقد كان جوجان يزعم أن مدينة آرل محبطة \_ وأن البيت الأصفر غير محتمل ، وبخاصة مع وجود فنسان الشديد التمسك بأفكاره الاشتراكية والانسانية . لقد كتب جوجان إلى تيو دون علم فنسان قائلا : « بعد كافة الحسابات الممكنة فإنني مضطر للعودة الى باريس . اذ انى لا يمكن أن أعيش جنبا الى جنب مع فنسان دون قلاقل ناجمة عن اختلاف أمزجتنا . وهو مثلى بحاجة الى الهدوء من أجل العمل » ( المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٨٠ ) .

أما التفاصيل المأساوية للحادث الذي وقع عشية الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ٨٨٨، ونعني به قطع فنسان لجزء من أذنه اليسرى، فهي غير معروفة الا من نص جوجان المسمى: قبل وبعد والذي نشر عام ١٩٠٣ \_ أي بعد الحادث بخمسة عشر عاما. وهو الأمر الذي يوضحه جوجان قائلا: « لكي أضمر من خطأ ظل يتردد في عدة دوائر »! ويكمن هذا « الخطأ » في تلك المسئولية التي ألقاها عليه معاصروه إبأن الأزمة التي قطع خلالها فنسان جزءاً من اذنه اليسرى. لكن ، على حد تحديد شارنصول في ملاحظاته: « أغلب التفاصيل التي أوردها جوجان تجعلنا نؤكد أنه ، سواء كان متعمدا ، أم عن غير عمد ، فقد رتب الأحداث على هواه » (المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٢٨٠) .

إن جوجان يقول النص الصغير الذي كتبه: «ما أن أتى المساء وكنت قد ابتلعت طعامى وشعرت بالحاجة لكى أتجول وحيدا وأشم عبير أشجار اللاوند المزهرة. وكنت قد اجتزت ميدان هيجو تماما عندما سمعت خلفى خطوات سريعة متقطعة اعرفها تماما. فالتفت في نفس اللحظة التي كان فنسان فيها يندفع نحوى

ممسكا بموسى الحلاقة فى يده . وكانت نظراتى ساعتها من القوة بحيث توقف وأحنى رأسه ثم أخذ يعدو الى البيت . . واتجهت دفعة واحدة الى أحد فنادق آرل . . فى غاية الانفعال . لم أنم حتى الساعة الثالثة صباحا ، ثم استيقظت متأخرا حوالى السابعة والنصف » (قبل وبعد ، صفحة ٨٥).

ووفقا لهذا النص الموغل فى الكذب والذى لا يصمد للتحليل ، فإن فنسان ، اذ أحس بالخجل من نفسه ، فمن المفترض أنه قد عاد الى المنزل ليقطع أذنه عقابا لنفسه !! وهنا لابد من وقفة نحاول خلالها تقديم نبذة عن ذلك الحادث الذى أدى الى كم مهول من الكتابات التى لم تنضب لسبب جد بسيط ، الا وهو أنه حتى يومنا هذا مازال هناك عديد من الحقائق المخفية أو المواربة أو غير الأمينة فى التعريف والدراسة .

وأول ما تجدر الاشارة اليه ، انما هو رواية جوجان ، تلك الرواية التى تدحضها الوقائع . فمنذ عام ١٩١٤ كانت جوانا بونجيه ، زوجة تيو قد شكت فى د ذلك المزيج من الحقائق والاختراع د . وفيها بعد كتب ترالبو قائلا : د أن وجهة نظر جوجان قد دحضها أيضا أحد علماء النفس الهولندين ، وأحد المحامين ، وأحد الدعاة الأمريكيين ، لكى لا نذكر الا أهم ، واحدث الدراسات و (فنسان قان جوخ صفحة ١٠٠) . ومن جانبنا نضيف الى هذه البراهين التى تدحض رواية جوجان ، كيف أنه أعطى فنسان و علما خصبا فى الفن و . فإن ماردا Marois يرد على هذا الزعم قائلا : د يشاء الحظ التعس أن كافة اللوحات التى ذكرها جوجان ، عباد الشمس وبورتريه بوش ، الخ . . كان فنسان قد صورها فى شهرى اغسطس وسبتمبر أى قبل مجىء جوجان ، (سر قان جوخ صفحة ٢٦) .

وأكثر من ذلك ، ها هو ، إميل برنار يؤكد قائلا : « وفيها بعد ، وبفضل معايشته مع فنسان ، وجدت جوجان أكثر انسانية ، متدينا ويميل للرمزية . الا أن هذه التحولات لم تمح من ذهني أبدا ذلك الشخص الذي قابلته في بون آفون Pont عام ۱۸۸٦ في رحلة أولى ، وكان جوجان على حقيقته الأصلية » ( قان جوخ بقلم معاصريه ، صفحة ۱۸۲ ) . ثم ان جوجان نفسه قد كتب قائلا بأنه سافر الى آرل ، اقتناعا منه بالدفعات المخلصة لصداقة فنسان » ، وأن رأى شارنصول وفقا لخطابات جوجان الى شافنيكر Schuffnecker وتيو وفنسان ، أنه ، لم تكن هناك أية إشارة لدفعات الصداقة المخاصة هذه » ( المراسلات المجلد الثالث صفحة ۲۸۰ ) .

وكما رأينا في الصفحات السابقة فإن جوجان لم يسافر الا بعد حسابات طويلة . لكن الاحداث تختلط دوما لديه مما يدحض الكثير من أقواله ، ولدينا مثال جد بسيط على ذلك ، اذ يقول جوجان ان فنسان لم يكن يعرف الكتابة بالهولندية ، وه أنه لم يكتب ابدا الا بالفرنسية « ببراعة » مليئة باللازمات » ! وهنا تجيب طبعة المراسلات لتقدم ردا قاطعا لهذه الصغائر والافتراءات ، اذ أن ثلثيها تقريبا مكتوب باللغة الهولندية ، وأسلوب فنسان سواء أكان بالهولندية أم الفرنسية فهو يضعه بلا منازع في مصاف كبار الأدباء ويكشف عن واحد من أفضل من وصفوا الطبيعة في كتاباتهم .

وما يهمنا رغم كل شيء انما هو هذا الحادث الذي أعطى مجالا \_ بكل أسف \_ لأكثر الادلة الشكلية التي اتهم فنسان بعدها ليحمل لافتة و الجنون و الى الابد . . وهي اللافتة التي يتضح منذ الصفحات الأولى لهذه الدراسة ، أنه قد تم فرضها عليه في كل مرة كان له فيها اتجاه اجتماعي محدد أو خرج عن الاطار المألوف . .

ودون محاولة منا في القيام بدور الطبيب أو المحلل النفسى ، فإننا سنكتفى – في نطاق الضرورة للكشف عن انسانية هذا الانسان ، السليم العقل ، والذي أدانه المجتمع بوحشية – بتقديم المعطيات موضوعيا مع محاولة تقديم تفسير منطقى شخصى ، وأن لم يكن غير دعوة ، مثلها أوضحنا من قبل ، الى أن يتولى أحد الاخصائيين الأمناء الصبورين تخليص حالة فنسان من كل ما علق بها من كتابات يثير بعضها الغثيان ، لما فيها من كذب ومغالطات ، وأن يقدمه على حقيقته اعتهاداً على المراسلات والوثائق التي مازال الكثير منها مخفيا في حوزة الأسرة أو غيرها .

أن الببليوغرافيا الخاصة بتشخيص حالة و جنون و فنسان تتضمن أكثر من مائة عنوان . ونذكر من هذه الأوصاف على سبيل المثال التشخيصات التالية صرع ذهاني، صرع أساسي ، أو نفسي ، أو وقتي ؛ التهاب منتشر بالرأس ، ذو شكل مقنع ، أو خاص ؛ فصام ، هوس حاد يصاحبه هذيان عام ؛ استثارة حادة ؛ ذهان الهوس الاكتثابي ؛ هيستريا ، شلل تدريجي ، أوعام ؛ كوابيس عرضية ، خبل اساسي عرضي ونهائي ؛ ضربة شمس ؛ حالة قلق عصابي حاد ؛ مفهوم ورائي ، صراع الأنا والهو ، الخ . . الخ . . ومع ذلك ، ورغم تناقض هذه المسميات . فإن كافة الاخصائيين يجمعون على حقيقة جوهرية هي : ان فنسان لم يعان ابداً من حالات يمكنها اثبات جنونه بالمعنى الاكلينيكي !! لم يعان إذن بمثل هذا التعنت لوضع خلسان داخل هذه التنويعات المختلفة للجنون أو زمرة أمراض تتناقض أعراضها وتتباين مكوناتها ؟ !

ونظرا لعدم اختصاصنا في هذا المجال ، فلا يمكننا ألا أن نقول بالمنطق المألوف أن الشرخ عبارة عن شرخ وليس بحاجة الى سلسلة من المفردات المفسرة أو المتناقضة لإثباته أو لتشخيصه ،لقد قدم كل اخصائي لتشخيصه على حدة مع سعى منه لإثبات عدم جدوى التشخيص السابق وهذا في ذاته لدليل مقنع يسمح بالقول ان صفة و الجنون و لا يمكن قبولها بالنسبة لحالة فنسان . أوعلى حد قول ترالبو : و رغم هذا الكم من المسميات النفسية والنفس علاجية والنفس تحليلية فإنها لا تتمكن من توضيح المرض الذي كان يعاني منه فنسان ، ( قان جوخ غير المحبوب صفحة توضيح المرض الذي كان يعاني منه فنسان ، ( قان جوخ غير المحبوب صفحة

ولا معنى لذكر أسياء كل الذين ساهموا في هذا ( الاشكال ) منذ وفاة فنسان حتى يومنا هذا ، الا أنه يمكننا القول اجمالا أن الأطباء وعلماء النفس وكتاب السير والنقاد قد انقسموا إلى فريقين متناقضين : احدهما يؤيد حالة الجنون ، وإن كان يتخبط مع أو ضد الأدلة والبراهين ؛ والفريق الآخر يرفض هذه التسمية ، اعتهادا على أكثر الأدلة والبراهين اقناعا الا وهما : اعهال وفكر فنسان ، فهى أعهال متواصلة ، متصلة وتتطور في خط متصاعد لا وقفة فيه .

وهو دليل نؤيده بلا أى تحفظ اذ ما هو الأكثر ارتباطا بالعقل من الخلق الفنى ؟ إذن ، إن أى عقل مصاب بأى خلل كان لابد أن يعكس بعضا من أوجه نقصه أو عيبه فى العمل الذى يخلقه ، فى حين أن الوحدة والترابط فى أعمال فنسان المصورة أو المكتوبة حقيقة لا يمكن إغفالها .

أما فيها يتعلق بنوبات الاغهاء التي كانت تصيبه عقب ذلك الحادث فإننا نتفق ورأى الدكتور روش رى Roch Rey اذ يقول: « من المؤكد ان فنسان كان يعانى من حالة ضربات الشمس المزمنة التي كانت تتأكد في نوبات تشنجية ، يغوص خلالها بعيدا عن حدود وعيه » ( قان جوخ بقلم معاصريه ، مقال طابع الإنسان والعمل صفحة ٢٥٨ ) . وهو التشخيص الذي يؤيده ج . مرلو J. Marloo قائلا: « من المهم بصفة خاصة ملاحظة أن نوبات الخلط الذهني تتفق وجلساته الطويلة تحت الشمس الحارقة التي صورها عديد بحب وشغف » ( ابو تمبو مماهم ، ١٩٦٦ ) .

ولقد رأينا في الصفحات القليلة السابقة كيف بدأت شكوى فنسان من تلك الشمس التي تدفع الى العته ، اذ أنه مع بداية فصل الصيف لم يكن يكف عن المكث

طوال النهار ليرسم ذلك الوهج المتقد. ولو أننا أضفنا الى ذلك ما كان يعانيه من شظف العيش وقلة التغذية واضطراره أحيانا إلى الاكتفاء بالخبز الجاف والقهوة السوداء لعدة أيام لأدركنا إلى أى مدى يكون أمر النوبات طبيعيا..

يبقى السبب نفسه الذى أدى لتلك التهمة المهينة بالجنون الا وهى : الاذن المقطوعة . إن التبريرات الخاصة بذلك الحادث من التنوع والتناقض حتى انها تدفع للسخرية وتثير الاسى من أولئك الذين يصطنعون من خيالهم أحبولة للمبدعين ، ومن قبيل هذه الخزعبلات ، أولئك الذين قربوا بين قطع الأذن والختان أوالأعضاء المبتورة ، والقيء ، كها أثيرت أسباب أخرى من قبيل الانصباع للأوامر الصارمة من العالم الأخر ، والقربان الذي يقوم به مصارع الثيران عندما يقدم أذن الثور المنهزم ! الخ . . الخ . . ورغم كل شيء فبخلاف رواية جوجان المختلفة والتي تم تفنيدها ودحضها بجانب أنها لا تمثل سببا منطقيا لوقوع ذلك الحادث ، فهناك رواية أخرى تبدو منطقية وجد محتملة ، وتدفعنا لنتساءل ؛ لماذا يتم استبعادها بدأب ؟ الأنها أقل استعراضية ومسرحة ولا تتسق وخزعبلات الشغف البورجوازي لمجتمع بجب استعراضية ومسرحة ولا تتسق وخزعبلات الشغف البورجوازي لمجتمع بجب الإدانه ؟ أم لأنها تكشف بعداً محتملاً للحقيقة ؟!

وفقا لماير جرافى Mayer-Graefe ، المعروف كواحد من أفضل كتاب سيرة فنسان ، فإن الدكتور بير Beer يحكى : « أن فنسان وجوجان ذهبا ذات مساء من شهر ديسمبر إلى بيت للدعارة . وهناك جلست احدى « الفتيات على فخذى فنسان طالبة منه بجزاح أن يقدم لها إحدى اذنيه كهدية عيد المبلاد » . وتبعا لهذه الرواية التي تتفق وذهاب فنسان وجوجان إلى ذلك البيت والتي أطلق عليها جوجان « نزهات صحية » ، يمكن تصور انه بعد عودتها قد تحدثا عن مزاح تلك « الفتاة » التي آثرت جوجان جسديا على زميله ! وأن جوجان بطابعه البارد الدافع للإثارة قد استثار فنسان بشكل مهين . مما أدى بفنسان الى اندفاع جرىء يثبت له أنه في مستوى سبيل المثال مواجهة الاتهام المهين لخاله حينها وصف حبه العارم لابنته كي بأنه « مقزز » . وهي الاهانة التي دفعته إلى وضع يده على المصباح المشتعل ليثبت لخاله مدى صدق حبه لها . ان ذلك ما جعل انطونان أرتو Antonin Artaud يقول : « أما عن اليد التي حرقها ، فتلك بطولة حقة بكل بساطة ، أما عن الأذن المقطوعة ، فأما عن البد التي حرقها ، فتلك بطولة حقة بكل بساطة ، أما عن الأذن المقطوعة ، فذلك منطق مباشر » ( منتحر المجتمع ، صفحة ٤٢) ) .

وإذا ما اضفنا الى هذا التفسير المحتمل ، مفهوم فنسان المتعلق بإماتة الجسد وكيف أنه اعتاد ذلك لا فى بوريناج فحسب ، أو طوال تجربته الدينية ، وانما طوال حياته ، فإن حادثه بتر جزء من اذنه كبرهان للعطاء يبدو أمرا بسيطا فى وضوح حقيقته اتساقا مع البناء الدينامى الكلى لشخصية فنسان بكل مراحل تطورها ومعاناتها وعطائها .

ولو أننا ناقشنا هرب جوجان الذي ترك فنسان في ذلك الموقف الدرامي ، فإن ذلك ليس في صفه على الاطلاق ، خاصة قوله لرجل البوليس : ﴿ إِذَا مَا سَأَلَ عَنى ، اخبره انني سافرت الى باريس ، اذ قد يكون وجودي مميتاً بالنسبة له ، ! لم هو مميت ان لم يكن متأكدا من أنه السبب المباشر لما حدث ؟! وايا كان الأمر فإن الدكتور دواتو Doiteau يؤكد \_ الى جانب العديد من الإخصائيين \_ أن جوجان تقع عليه المسئولية في مأساة الأذن المقطوعة ، (إيسكولاب يوليو ١٩٣٦ صفحة ١٧١) .

لقد قام فنسان بعد أن أوقف النزيف من أذنه ، بتغليف تلك القطعة التي بترها وراح الى بيت الدعارة ليقدمها إلى جابى Gaby ، التي كانت قد طلبت منه أن يهديها أذنه . وسرعان ما تحسنت حالة فنسان مع دخوله المستشفى . وفي الحادى عشر من شهر يناير ۱۸۸۹ ، عاد إلى مرسمه ووجه خطابا الى أخيه وكتب في ظهره عدة كلمات لجوجان ، حيث راح يلومه بكل أدب على أنه قد أقلق أخاه بلا داع ، ورجاه أن يتريث قليلا قبل أن يسيء الى البيت الأصغر (٥٦٦) ، ذلك البيت الذي أعده فنسان بصبر وبكل الحب كمثل لحلمه الكبير بالمجمع الفني الذي تحطم أمله فيه مع مولد تحقيقه .

فى السابع من يناير طلب فنسان من أخيه أن يقلل المبلغ الذى يرسله الى مائة وخسين فرنكا مثلها كان يرسله له من قبل وصول جوجان ، ثم راح يطمئنه عن حالته قائلا : « أرجو أنها لم تكن سوى نزوة عابرة لفنان ، لقد اعقبها ارتفاع فى درجة الحرارة عقب نزف كمية كبيرة ، اذ أن شريانا قد انقطع . الا أن شهية الطعام قد عادت فورا وعملية الهضم أصبحت على ما يرام ويتم تعويض فاقد الدم يوما بعد يوم ، وبالتالى فإن الصفاء يعود الى نفسى يوما بعد يوم » ( ٥٦٩ ) . وهنا لابد من التنويه اتفاقا مع شارنصول الذى يقول : « إن فنسان نفسه هو الذى كان فى معظم خطاباته يعطى أدق تحليل لأزماته » ( المراسلات المجلد الثالث صفحة ٣٣٨) .

الا أنه عند خروجه من المستشفى ، فوجىء بمبالغ كبيرة عليه أن يسددها منها خادمة المنزل ، ونفقات المستشفى والممرضين الذين ضمدوه ، وغسل ثيابه الملطخة باللاماء . وفي الثامن من الشهر لم يبق معه شيء ، وكان عليه الانتظار حتى العاشر من يناير ليصله المبلغ المعتاد ، أو وفقا للاتفاق الجديد . لكن للأسف لم تصله النقود سوى في السابع عشر ! فكتب قائلا : «كان الصوم ألياً ومن أعنف ما مر بى ، خاصة أن استردادى صحتى لم يكن ليتم في مثل هذه الظروف » ( ٥٧١ ) . وكان ذلك ردا على تيو الذي كان قد طالبه بكشف حساب عن نفقاته !!

ورغم آلامه ومعاناته وضعفه وقلقه فقد حاول فنسان ارضاء الحاح اخيه وبخاصة بعد موقف جوجان الذي اساء تفسير مشروع المرسم ، فأصابه بجرح دفعه للقول : « الا يجدر به على الأقل أن يرى بدءاً بأننا لم نكن مستغليه ، وانما على العكس كنا مصرين على مساعدته وانقاذه ومنحه امكانية العمل . . و . . وانقاذ شرفه ؟ ! ) ( ٥٧١ ) .

بل وقد كان جوجان عديم الشرف والامانة أكثر حينها حاول منع اميل برنار من تنظيم معرض شامل للوحات فنسان بعد وفاته قائلا: « يا لسوء تصرفك! أنت تعرف كم أحب فن فنسان . لكن نظرا لحهاقة الجمهور فليس من العقل في شيء أن تذكره بفنسان وجنونه في الوقت الذي يعاني اخوه من نفس الحالة!! فكثير من الناس يتهمون فنسان بالجنون . وذلك يعنى الإساءة لنا جميعا دون أية فائدة لفنسان ، الخ . . أفعل ما شئت لكن ذلك حماقة )!!

ومن ناحية أخرى نرى أن فنسان فى خطابه الى تيو قد انطلق ثائرا متسائلا عها يكشف عن اتجاه جوجان فى حادثة الرابع والعشرين من ديسمبر اذ يقول : «كيف يمكن لجوجان أن يدعى خشية اقلاقى بوجوده ، فى الوقت الذى لا يمكنه انكار أننى ظللت طيلة الوقت أطلب رؤيته وقد ابلغوه ذلك عدة مرات اننى ألح فى رؤيته . ولم يكن ذلك الا لكى ارجوه الاحتفاظ بها حدث فيها بيننا والا يقلقك . لكنه لم يسمعنى ، ( ٥٧١ ) . أى أن جوجان قد آثر الهرب بدلا من مواجهة فنسان خوفا من أن يقول الحقيقة أمام الشهود الحاضرين . ومن ناحية أخرى فإن ذلك يوضح كيف أن جوجان كان فى المنزل وليس فى الفندق وأن فنسان كان يقظا وليس نائها !

واذ آثر فنسان الوقوف صامتا أمام ذلك التساؤل، فقد راح يحث تيو ــ الذى كان يصر على حقيقة ما حدث ــ الى أن يقرأ رواية ترتران فى جبال الألب، وخاصة تلك الفقرة الخاصة ( بالعقدة في الحبل ) الذي تم العثور عليه في قمة الجبل بعد حادثة السقوط قائلا : ( ان ذلك سيعلمك الكثير عن طبع جوجان ، . الذي ضحى بصديقه بكل برود . .

وفى كل الأحوال فإن فنسان ما إن خرج من المستشفى حتى عاود العمل وكتب الى المصور كوننج Koning قائلا: وأن اتزانى كمصور لم يمس بأى درجة من الدرجات و (٥٧١). ، ثم قام بعمل بورتريه الطبيب الذى كان يعالجه ، الدكتور ري Rey ، مكملا بذلك مشروع البورتريات الذى كان قد بدأه ، محاولا توصيل معنى الفن الى الجهاهير الشعبية بواسطة البورتريه . الا أن الطبيب بدا غير راض عن عمل ذاك و المجنون و ، أما أسرته فقد صدمت فى اللوحة ووضعت هذه و الحثالة و فى السندرة ووظل هذا البورتريه فى السندرة حتى اليوم الذى أخذوه فيه لسد فجوة فى طغيرة الدواجن فى المنزل و (بروشو ، حياة قان جوخ صفحة ٢٩٤) .

ولا تعد قصة هذا البورتريه الذى تم تنظيفه من روث الدواجن الذى يلطخه وذلك لبيعه الى امبرواز فولار Amboise Volard بجلغ مائة وخمسين فرنكا ، شيئا مشرفا لتلك البرورجوازية المسكينة «السليمة العقل»!

وفى نفس ذلك الوقت كان فنسان قد قام برسم لوحة شخصية له ، وتعد من أكثر البورتريهات كشفا لنفسيته بما أنه مرسوم بنفس الوان لوحة المقهى الليلى التى حاول التعبير فيها عن الانفعالات الانسانية العنيفة من خلال تناقض اللون الأحمر والأخضر .

وبصمت شديد واصل فنسان طريقه ، تاركا و لأساتذة الانجيل الطبي و مهمة تشخيص حالته \_ على حد قوله \_ ومعوفة اذا ما كان مجنونا أو على وشك الجنون! فلم يكن يرغب في أكثر من التغنى بالألوان ، واستعادة المبالغ التي تكلفها تعليمه الفنى . انه في خضم ذلك الجو الدرامي المأساوي يجابه بحادث جديد يخيم بظلاله الداكنة ليكون له وقعه الأكيد على تلك الايام الاخيرة من حياة فنسان ، ألا وهو : زواج تيو الذي تمت مراسيم خطوبته في الرابع والعشرين من شهر ديسمبر السابق ، أى في نفس يوم وقوع حادثه الأذن المقطوعة!!

لقد كان الربط بين الواقعتين ، محاولة للتفسير قدمها الفيلسوف والمحلل النفسى شارل مورون Charles Mouron والذى يرى أن الوقائع التاريخية تسهم فى القاء الضوء على تفسير الكثير من معطيات حالة هذا المبدع الخلاق ، والانسان الرهيف

الحس ، وكلها وقائع تبدو في صالح فنسان ـ على حد قول شارل مورون ، والذي أيد عديد من كتاب سيرة فنسان وجهة نظره في أهمبة الربط بين تواريخ الأزمات النفسية ووصول خطابات تيو التي تخبره بالخطوبة ثم بالزواج ، ثم بجولد الطفل . وهي أحداث اذا ما أضيفت الى الاسباب الرئيسية الأخرى من قبيل ضربات الشمس ، وسوء التغذية التي يصعب أن يتخيلها بشر ، وما تشابك بها من حياة ممتدة من الفقر والفاقة وعدم الفهم وغلطة حس من حوله ، وندرة العواطف ، أن ذلك كله ليبرر لا نوبات الاغهاء والاعياء فحسب وانما يمثل مجمل مختلف العوامل الدينامية التي دفعته الى الانتحار الذي رتبه بوعى ووضوح رؤية وتعقل .

لقد كان يشعر بحاجة ماسة إلى العمل ، وكم أمل أن يوافق تيو على زيادة دخله إلى مائتين و خسين فرنكا لمدة شهرين أو ثلاثة ، الا أن تلك الرغبة واكبت الفترة التى كان فيها تيو يرتب دخله بالنسبة للزواج محاولا تقليل كافة نفقاته ، بجانب دوافع تير الأخرى التي وضحت في مواقف عديدة سابقة . ولم يكن أمام فنسان في مواجهته الصامئة المتحدية للحياة الا أن يجازف بنفسه متحديا قدره محلقا بروحه للمطلق الذى ضحى بأمنه من أجل مبادئه ، ولم يعد باقيا له الا ان يغامر بحياته ليسلمها اليه . فراح يكتب قراره الأخير الى تيو ، في الثامن والعشرين من شهر يناير عام ١٨٨٩ : لقد عانيت الضيق طيلة الوقت لكى تعاونني . أما عن نفسي فسوف ارد لك النقود أو أرد روحي الى بارئها » . ان الوقائع كلها تشير الى أن فنسان قد قرر الانتحار بوعى كامل هذه المرة ، وان كان تفكيره في انهاء جياته انما يرجع إلى أول صدمة عاطفية عاشها في لندن . مثلها رأينا في الفصل الأول .

راح فنسان يتأمل ما حوله وكأنه يقوم بجرد للأشياء ، فأدرك أن كل شيء ينتهى . . يتباعد . . ولا تبقى سوى نبضات القلب التي تمثل الصلة بين الماضي وأجيال المستقبل . . وفاضت خلجاته بالحب والأمال للبشر . . فلم يكن لديه ما يعطيه سوى نبضات قلبه ، تلك النبضات التي كان يضمنها لوحاته في صمت . .

وفى مقابل ذلك العطاء غير المحدود والذى لم يكن بضن به ، فإن سكان مدينة آرل \_ الذين يبثهم تلك المشاعر \_ اصابهم الذعر من رؤية رجل ، يثقون فى أنه بجنون ، يسير حراً طليقا . . انهم لم يخشوه وحده \_ فى الواقع \_ وانحا كانوا يتشاءمون من رسوماته ويخافونها . فقاموا بتوقيع التهاس تقدموا به الى المحافظ ، يناشدونه احتجاز فنسان قائلين :

« الى السيد المحافظ تارديو Tardieu ،

نحن الموقعين أدناه ، سكان مدينة آرل ، شديدو الاقتناع بأن المدعو فنسان ڤان جوخ القاطن في ٢ ميدان لامرتين ، مجنون خطر ومن المجازفة تركه حرا . اننا نطالب محافظنا أن يتخذ اللازم نحو اعتقاله » .

وللأسف، فقد وقع جميع جيرانه على هذا الالتهاس..

ويعلق ستون Stone على ذلك طائلا: «كانت الانتخابات على الأبواب فى مدينة آرل، ولم يرغب المحافظ تارديو فى اثارة غضب ذلك العدد من الناخبين، فاعطى الأوامر الى ضابط البوليس باعتقال فنسان، (الحياة المثيرة لفنسان ڤان جوخ، صفحة ٣٣٧).

وقام البوليس بإغلاق البيت الأصفر ، رمز النور ، وكأنه كان ينتظر تلك الاشارة ليتدخل! وتم التحفظ على كل شيء . . أما فنسان فقد أودعوه في حبس انفرادي مهين دون أن تثبت ادانته اذ كان يستحيل اثبات أية تهمة له وهو الصامت المنسحق في الرسم وحب الآخرين مهما وجهوا اليه من لطهات . وفي الثاني من شهر مارس ، قام القس سال Salles الذي كان يرعى فنسان ، بالكتابة الى تيو قائلا ؛ أن التصرفات التي يلومون اخاك عليها \_ أن كانت موضع لوم افتراضا \_ لا تسمح باتهامه بالجنون والمطالبة بحبسه . وما يؤسف له أن حادثه الجنون التي تطلبت ادخاله المستشفى أول مرة بكل تصرفاته الفريدة الى حد ما ، والتي يقوم بها احيانا ، الى أن يتم تفييرها في غير مصلحته . أن نفس هذه التصرفات لو أنها كانت من قبل أي شخص آخر لكان من الجائز الا يلمحها أحد . أما عنده فهي تأخذ للتو محملا آخر » (المراسلات المجلد الثالث ، صفحة ٢٠٠٥) .

وفى الثامن عشر من شهر مارس ، أى بعد حوالى اسبوعين ، عاد القس سال ليقول : « ان أخاك قد تحدث الى بهدوء ووضوح رؤية عن موقفه وعن العريضة التي تقدم بها ألجيران . . من الواضح أنه طالما ظل على الحال التي رأيته عليها فلا يمكن بأى حال ادخاله مستشفى مجانين . ما من مخلوق \_ فى حدود معرفتى \_ يمكن أن تواتيه هذه الجرأة المحزنة ع . ( المرجع السابق ) .

وكم شعر فنسان بالاهانة . . اهانة عارمة جعلته يصمت لمدة شهر ويكف عن الكتابة حتى انه لم يمسك بالقلم ليجيب على استفسارات تيو الا في التاسع عشر من

شهر مارس ليقول بشفافية وعطف نبيل ؛ « خيل الى أن خطا بلا الطيب ملىء بالقلق الاخوى . لذلك قررت قطع الصمت من جانبي والكتابة اليك » ( ٥٧٩ ) .

وللحق ، فإن موقف تيو العاطفى تجاه أخيه قد بدأ يتغير بعد هذه الأحداث الحزينة المؤسفة ، لكن الوقت في ظننا كان قد ولى . . وأصبح فنسان في آتون المهانة التي ما عاد يجدى معها عطف . وها هو عبر ذلك الخطاب المؤثر والشديد الوضوح ، الرهيف البصيرة ، مثل كل خطاباته والذي يثبت من جديد أي عاقل وانسان كان فنسان ، واح يطمئن أخاه قائلا : « أكتب اليك وأنا في كامل قواي العقلية ، ليس كإنسان مجنون ، وانما كأخ تعرفه . وتلك هي الحقيقة » .

ويقص فنسان وجهة نظره ليختم الخطاب قائلا: « لو لم أكن اتمالك غضبى لحكم على فورا بأنني مجنون خطير . لذلك استعين بالصبر . وأكثر ما يهمنى ، وأكرره لك مرارا ، هو أن تظل هادئا أنت أيضا وألا ينعكس أى شيء على أعمالك . وبعد زواجك سنهتم بتوضيح كل شيء . وإلى أن يحين ذلك الوقت ، اتركنى هنا في هدوء . . كم كنت أفضل الموت على التعرض والتسبب في مثل هذه المشاكل . لكن ، ما الذي يمكن قوله ؟ أن المعاناة شكاية لهى الدرس الوحيد الذي علينا أن نعلمه في هذه الحياة » .

لقد كان المهم في نظر فنسان هو أن يتم زواج تيو وأن يؤسس بيته الخاص ، الذي لم يتمكن هو نفسه من تكوينه . ومع كل امانه لأخيه ، كانت معاناة فنسان يتزايد لهيبها ، فها هو يحرم من كل شيء ، حتى الطباق ، وها هو يعامل كمجنون بل وكمجرم خطير ، دون أن يستطيع رد أي من الضربات التي كالوها اليه . ولقد اوثقوه في سرير حديدي لم يمنعه من أن يفكر طيلة الوقت في كل من يعرفهم ، بقدر ما كانم يفكر في العمل . العمل بماهو قيمة في ذانه اذ يستحيل عليه الحياة بلا عمل . والعمل الذي يساعده على تسديد دينه لأخيه . وهكذا أخذ في خطاب تال ليكتب الى ادارة المستشفى ليحق له الخروج في المدينة يستنشق الهواء الطلق : « فبقدر ما يمكنني استطيع أن أحكم على الموقف ، بأنني لست مجنونا . لسوف ترى أن اللوحات التي صورتها في تلك الفترات بين الأزمات لهي لوحات هادئة ولا تقل عن بقية لوحات . انني اتطلع الى العمل فهو لا يتعبني « ( ٥٨٠ ) .

وفى الثالث والعشرين من شهر مارس قام الفنان سينياك Signiac بزيارته . وهنا يكتب فنسان قائلا : « لا شك أنك وراء هذه الزيارة لكى يأتى ويشد أزري

هونا ويرفع من معنوياتى . لك كل الشكر » (٥٨١) . ولقد انتهز فنسان فرصة امكانية خروجه مع سينياك ليشترى رواية العاملون فى الأرض لكامى ليمونيه . Camille Lemonnier . ومثلها اعتاد أن يكتب كلها اعجب بكتاب ، أخذ يعلق قائلا عن هذه الرواية : «إنها شديدة الحزن ، عميقة ! سأرسلها لك ما أن انتهى منها » . وكان قد أخذ معه الى جانب هذه الرواية ، بضعة كتب أخرى منها بيت العم توم لبيتشر ستو Beecher Stow ، وقصص عيد الميلاد لديكنز ، والتي كان يرى فيها تقاربا مع كتابات كارلايل . أما سينياك ، فكتب الى تيو قائلا : « لقد وجدت أخاك فى حالة صحية طيبة جدا جسديا ومعنويا » .

ومع تلك الأحزان الكئيبة التي راحت تثقل كاهله ، الا أن بطش الزمن وقدرية الظروف التي ألمت به وآلمته معا بدأت تكشف عن بصيرته . . ورغم كل شيء فقد كان الحزن الراسخ الذي يحتويه ويغلفه باعثا لعظمة الانسان فيه ليهتم بالاخرين ، متحملا عبثهم وسوء طويتهم ، وها هو يطلب من تيو ذا ما رأى جوجان أنه يبلغه من طرفه أن سوف يتبني الاتجاه المكتوب في مرثية مكتوبة على قبر قديم في ضواحي مدينة آرل ، في كاربنتاس Carpentas ، تلك المرتبة التي تقول ؛ هطيبة ، ابنة تلوى Thellus ، كاهنة أوزوريس لم تشك أبدا من أي شخص » ا آثرا بذلك أن يكون مدانا وليس مدينا . وكأنه يؤكد لجوجان الذي كان يواصل التهرب انه سيحافظ بكل صرامة على صمته كأبي الهول !! . .

وفى شهر أبريل أمضى فنسان أكثر من أسبوعين بلا أية أخبار تأتيه من تيو الذى سافر الى هولندا ليتزوج . وكانت هذه هى المرة النانية التى يهمله فيها تيولنفس السبب . وهى ملاحظة مزدوجة الحرارة ، اذ وجد نفسه فى مواجهة انسانه تأخذ مكانه ومن الطبيعى أن تستحوز على كل انتباه تيو ، فهو حقها الشرعى . ومن ناجية أخرى . أدرك أنه أصبح عبئا ثقيلا على تلك الاسرة الحديثة التكوين . ولم يخل الأمر من استبصار تيو بتأخره عن الكتابة لأخيه ، لكنه استبصار بأنه يتأخر فحسب ، ولم عدرك السبب وراء ذلك . . وهكذا كثرت اعتذارات تيو لأخيه من حين لأخر ، من يدرك السبب وراء ذلك . . وهكذا كثرت اعتذارات تيو لأخيه من حين لأخر ، من قبيل : د أننى الوم نفسى لأننى نادرا ما أكتب لك ، الا أن كتابة الخطابات أصبحت في غاية الصعوبة فى الأونة الأخيرة ولا أعرف ما السبب فى ذلك « ( ٢٩ يوليو ) . ولقد تأخرت فى الرد على خطابك ، لأننى كنت آمل مقابلة الأب بيسارو » Pissaro ولما سبتمبر ) . « لقد تأخرت جدا فى الكتابة لكى أبلغك ان طرد لوحاتك الأخير

قد وصل سالما » ( ٤ أكتوبر ) فى : خطابات تيو الى أخيه فنسان ( صفحات ٢٧١ ، و٢٧١ و٢٧٦ ) .

وفي صمت رهيب بدأ موار الكسوف الكلي . .

بدأ فنسان الذي لم تكن حياته الاحبا وتفانيا ، في اعداد الدفعة الأخيرة لتلك الحياة غير المستقرة والتي واكبنا بدايتها في لاهاى . واستعادت الموضوعات ايقاعها القديم على لسان الحرف الذي لم يكف عن كتابته ، لكن الكلمات أصبحت \_ منذ الآن \_ مغموسة بالمرارة والأسى ، لا تعكس الا شذرات الاصداء . . حتى أن تفاؤله القديم ، الجدير بفولتير ، أخذ يذبل وينزوى . . وبدأ نبات اللبلاب يفقد ملمحه الفريد ليشبهه بالسرطان : « ان البلاب \_ يفضل أشجار الصفصاف العجوزة المنزوعة الاغصان ، الشبيهة بالسرطان » . . ورغم الغاشية التي تناثرت في أفقه فقد كان في كل يوم يلجأ الى ذلك العلاج الذي أوصى به ديكنز ضد الانتحار : « وذلك عبارة عن كوب من النبيذ ، وقطعة خبز بالجبن ، وغليون طباق » . .

كها عاد الى قراءة (كتب رينان Renan الرائعة (المكتوبة بلغة) فرنسية تمتل، كلهاتها بأصداء السهاء الزرقاء وخفيف اشجار الزيتون الحلو وآلاف الأشياء الحقيقية المفسرة والتي تجعل من كتاباته للتاريخ صحوة: (لقد كان يبحث عن شعاع وسط الظهيرة، ذلك الشعاع الذي لم يأته أبدا...

ومع ذلك التحول الانطوائي ، بدأ فنسان يفكر في حل ولو مؤقتا ؛ « أفكر في أن أقبل مهنة بجنون تماما مثلها قبل ديجا Degas مهنة موثق العقود » !! لقد كانت الاحداث كلها تمضى إلى طرق مسدودة مليئة بلهيب الغلظة اللا إنسانية ، وها هو صاحب البيت الاصفر ينتهز فرصة غياب فنسان وحجزه في القسم ليؤجر مرسمه الى أحد التجار . وهكذا فقد فنسان مرسمه ومأواه . . وأثناء غيابه أيضا ، ويا لسخرية القدر ورمزية الحدث ، فقد وقع فيضان أدى إلى نشع المياه من جدران المرسم الذي ظل فترة احتجازه بلا أية تدفئة . وما أن رأى منظر الجدران المشبعة بالمياه والعفن حتى انعكس في أعهاقه منظر لمغرق الباخرة ، . فحتى البقية الباقية من إبداع ها هى قد تلفت . .

وأدرك فتسان في صمت أن الغرق نهائي . .

لقد كان هائها مع حلم يرسل فيه آبات التواصل ، ومن أجل الأخرين قد شيد

هذا المرسم لا لنفسه . . وانما من أجل كافة الفنانين البؤساء الذين يعيشون تحت قبضة الياس والألام القاتلة ! . . لقد أراد أن يسبح ضد التيار . . لكن الموج العاتى بحجم الكون كان هو الأقوى . . ورغمها فقد ظل يحاول . .

ورغبة منه فى تقليل النفقات التى يسببها لأخيه ، قرر فنسان أن يدخل بنفسه فى ملجأ سان ريمى Saint-Rémy ، حيث الاقامة ، لم تكن لتتعدى الستين فرنكا شهريا . وكان ذلك يعنى تخفيض المبلغ الذى يرسله أخوه الى النصف ويجيب تيو على هذا القرار قائلا : على الرغم من أن لا شيء فى خطابك يكشف عن أى تعب ذهنى ، بل بالعكس ، ها أنت ترى ضرورة دخولك الى الملجأ ، وهوشىء حزين . لكن نأمل أن يكون ذلك بصفة مؤقتة . اننى اعرفك جيدا ، وأعرف كم أنت قادر على أية تضحيات لا يمكن تصورها ، حتى اننى فكرت فى احتيال أنك لجأت إلى هذا الحل للتقليل من احراج من يعرفونك ، (خطابات تيو الى أخيه فنسان ، صفحة الحل للتقليل من احراج من يعرفونك ، (خطابات تيو الى أخيه فنسان ، صفحة يتضمن نوعا من التواطوء لا تخفيه بحال تلك الكلمات الجاملة التى يبثها تيو من حين لاخر . وماذا يمنع مثل هذه الكلمات الماكلمات الجاملة التى يبثها تيو من حين لاخر . وماذا يمنع مثل هذه الكلمات ما دامت النتيجة فى نهاية المطاف ازاحة عبء الأخ عن أخيه ، وبأى ثمن !!

ها هي آمال فنسان تتحطم ، وها هو يرتطم من جديد بالواقع الجاثم بظلمه وظلامه . وزاد الأمر سوءاً باست الله استثجار مرسم آخر . . وكان على فنسان أن يبدأ كل شيء من جديد . . وراح يكتب في أول ساب أرسله إلى تيو بعد زواجه قائلا : « أرغب في أن أظل محتجزا من أجل راحتي وراحة الأخرين » . ويعد هذا الخطاب \_ رقم ٥٨٥ \_ من أهم خطابات هذه المرحلة أذ يوضح الاختيار المقلاني الصارم لفنسان بأن يبتعد عن الوجود .

وياله من يوم كئيب لا تنتهى فيه تخوم الليل الممتد نهاراً . . ذلك اليوم الذراح يقيم فيه كل أحداث حياته ليمدح موقف اخيه قائلا بكل الحب الذى يتجاور المكانات البشر : « لقد بدت لى كل مساعداتك اليوم ، أكثر من أى وقت مضى ، كبيرة كبيرة . . ولا يمكننى الا أن أؤكد لك أن هذه الطبية كانت سندا قويا ، فإذا لم تر نتائجها المباشرة يا أخى العزيز ، فلا تحزن ، اذ أن طبيتك باقية لك ، . . ثم راح يرجوه برقة متناهية أن يقبل ما يزمع فعله من تقليل الكتابة اليه وأن يحيط زوجته بكل العطف والاهتمام . ولأول مرة ينهى فنسان خطابه قائلا : « وداعا . . اكتب حينها تتاح لك الفرصة » . .

وبينها كان فنسان ينتظر رد المصحة الجديدة ، كان يواصل تصوير مجموعة الزهور أو الحدائق التى و تتحدث فيها أشجار الفار الوردية عن الحب » ، أو ترتفع فيها تلك الزهور الى و سهاء مليئة بالنجوم والأحزان » . . ورغم معايشته الحميمة للطبيعة فلم يستطع فنسان الانعزال عن المجتمع الذى يحيط به ، وراح يتأمل حياة البسطاء ويقارن بينهم وبين سكان منطقة برابان ، ليقول لأخته : «إن إلناس هنا يعملون أقل من الفلاحين عندنا . المواشى مخيفة هونا والريف يبدو مهجورا أكثر من الريف عندنا . إن ذلك أمر مؤسف خاصة وأن الطبيعة هنا ليست قاسية والجو صحى وشديد النقاء . أود رؤية أناس أكثر حيوية . . لاشك أن المزارع هنا يمكنها اعطاء ثلاثة أضعاف ما تنتجه حاليا إذا ما تم الاهتهام بها وثم تسميد الأرض . إن زيادة الانتاج إلى ثلاثة اضعاف ستؤدى إلى تغذية الناس بشكل أفضل » ( قيل ١٢ ) .

وكم أسف فنسان من تكاسل سكان البلدة في العناية ببلدهم وبأرضهم ، الأ أنه ظل على احساسه الرهيف في انتائه الى الناس الذين يعيش بينهم ولم يتأثر بطباعهم ، وآثر \_ اختيارا هذه المرة \_ أن يذهب الى مصحة سان ريمى بناء على رغبته لتجربة لمدة ثلاثة أشهر . وأغلق الستار على هذه الفترة الحزينة من حياته ، قائلا لأخيه في ذلك الخطاب الأخير من مدينة آرل : « الآن وقد تم زواجك لم يعد يحق لنا أن نعيش من أجل الأفكار الكبيرة ، صافقتي ، بل من أجل الافكار المتواضعة فحسب » ( • ٩٥ ) . وبشيء من الحنين المغلف بالمرارة ، حاول فنسان أن يودع الأفكار الكبيرة التي عاش من أجلها فيها مشي . بما فيها مشاريع المستقبل سواء مع تيو أو زمرة الفنانين الذين جاهد بفكره وروحه من أجلهم . . وبهدوء . . أو بتجرد شديد الألم ، قرر فنسان أن يعيش في عزلة . . « أن يعيش تلك الحياة التي بتجرد الانسان تماما ، لكى لا أقول شيئاً آخر » .

## سان ریمی (۲ مایو ۱۸۸۹ - ۲ مایو ۱۹۹۰):

بمعايشة المجانين عن قرب ، تغلب فنسان على ذلك الرعب الذي كان يعتريه وهو يتخذ هذا القرار . ومع ذلك ، فإن ايقاع الحياة في « معرض الوحوش » هذا \_ كما سيطلق عليه فيها بعد ، كان في غاية السوء . فقد كان الطعام « تفوح منه رائحة العطن ، مثلها في المطاعم المليئة بالصراصير أو في إحدى المدارس الداخلية » ( ٥٩٢ ) . ولم يكن يحرج هذا الطعام عن نطاق الحمص الجاف أو الفاصوليا الجافة أو العدس ، وكلها بقوليات يتم توزيعها بكميات محددة في أوقات بعينها . ولم يبح

فنسان لأخيه الا بعد قرابة عام بأنه طوال إقامته في هذا « المعتقل » لم يقرب طعام الصراصير هذا ، وأنه كان يكتفي بالخبز الجاف أو بقليل من الحساء طوال السنة !

أما العلاج الذي كان عليه أن يتبعه فلم يكن أفضل بكثير: فلقد كان عبارة عن حمّام لمدة ساعتين ، ولمرتين في الأسبوع! والمؤسف أنه بجانب ذلك الانعزال المهين ، فإن الضائقة المالية لم تتغير اذ يقول عنها في نفس ذلك الخطاب: « مهيا فعلنا ، فستظل هناك مسألة النقود كالعدو أمام فرقة من الجيش . . انه لا يمكن انكارها أو تناسيها » . وفي خضم ذلك العزل الرهيب المهين وغير الانساني ، لم ينس فنسان وعده لأخيه : أن يعيد النقود أو يسلم الروح . .

وفى دوامة ذلك الغرق الذى يبتلع كل شيء ، فإن ارادة العمل وحدها هي الني بقيت وظلت تزداد صلابة . وفى نفس الوقت لم يكن فنسان ليفهم حالة الكسل المطلقة التي يعيش فيها زملاؤه الفنانون . وهو « العيب الوحيد فى منطقة الجنوب وسبب انهياره » . فقد كان يعتبر الكسل جريمة مزدوجة فى حق المجتمع وفى حق السجناء فى تلك المنطقة .

أما من الناحية التشكيلية ، فقد حاول فنسان ابتداع أسلوب يحزج بين الشيء الذي يصوره والأسلوب الذي يتناوله به . وذلك على خرار فن قدماء المصريين الذي يستشهد به قائلا : « نظرا لإيجانهم فقد كانوا يعملون باحساس وتلقائية ، ويعبرون عن كل تلك الأشياء التي يصعب ادراكها : كالطيبة ، والصبر اللانهائي ، والحكمة ، والسكينة ، وذلك بعدة خطوط حاذقة وينسب رائعة » ( ٤٩٥ ) . ان الرغبة في تطوير ادواته وأسلوبه لم تغير من وجهة نظره الذي ظل يفضل الانسان على أي شيء آخر . ورغم عطشه الشفوف الذي لا يرتوى لكي يخلق ويعمل ، كتب لتيو بشيء من التخلي والزهد : « اذا ما حدث وصادفتك المتاعب في شهر أو آخر لترسل لى الألوان والكتان الخ . . فلا ترسلها ، وأعلم جيدا أنه أكثر فائدة أن تعيش بدلاً من الانتاج الفني بهذا الشكل المبهم . فقبل أي شيء لابد ألا يكون منزلك كثيبا حزيناً . ليكن هذا أولا ثم فن التصوير » .

وفى السادس من شهر يونيو عام ١٨٨٩ ، وقد دهش تيو لوضوح رؤية اخيه وتطوره المتصل فى لوحاته ، كتب قائلا : « أن لوحاتك الأخيرة جملتنى أفكر كثيرا فى حالتك الذهنية عندما قمت بتصويرها . إن الألوان بها قوة لم تبلغها من قبل ، وذلك بمثل قيمة نادرة . . وأرجو الا تجازف بنفسك ، قبل شفاتك الكامل ، فى تلك

المناطق الغامضة التي يبدو أنه بمقدور المرء أن يصل اليها وان كان لها عواقب سيئة أحيانا . ولا تجهد نفسك أكثر بما ينبغي ، فحتى أن لم تقم الا بالتعبير عما تراه ببساطة ، فإن ذلك له قيمته الكافية التي تضمن البقاء للوحاتك ، (المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٣٥١) .

ورغم بداية هذا التقدير الفنى والفهم ، فيا كاد شهر بمر على هذه النصيحة حتى وجد تيو نفسه وقد « ازدحم مسكنه » بكل ما يرسله فسان ، فكتب له قائلا : « بما أنه لا يمكن تخزين كل اللوحات التي ترسلها عندنا ، فلقد استأجرت غرفة صغيرة عند الأب تانجى Tanguy حيث أودعت عددا منها هناك » ( المراسلات ، المجلد الثالث ، صفحة ٣٦٥) . ومما يرثى له أن هذه الغرفة لم تكن غير سندرة قبيحة أو على حد قول فنسان « جحر للبق » كما سنرى ذلك فيها بعد !

وابتلع فنسان الاهانة ليواصل في صمت رهيب . . لقد كان يعمل من الصباح حتى المساء ، وظل يواظب على ابحاثه في بجال البورتريه ، بورتريه الانسان وهو يتحول الى كائن من نور ومواساة . كان يعمل بحاس في تلك الغرفة التي كان لها الاتصال الوحيد المسموح له به مع العالم الخارجي ، يتم عبر القضبان ! . . قضبان تطل على حقل مربع الشكل من القمح ، يحيط به سور مغلق . حتى الطبيعة اصبحت تبدو سجينة . . وياله من منقلب حزين في الرؤية : ففي ذلك الحقل ، لم يعد فنسان يرى باذر الحب ، مثلها كان يراه فيها مضى ، وانما كان يرى الحصاد . . وهي وشكل غريب يصارع كالعفريت في أوج الحر ليفرغ من مهمته » ( ١٠٤ ) . وهي رؤية لم يعد يرى فيها نبت المستقبل ، وانما شكل الموت - « بمعني أن الانسانية هي رؤية لم يعد يرى شيئا حزينا ، غيفا أوعميتا : إنها ليست سوى وسيلة انتقال للعالم الأخر . فنسان يرى شيئا حزينا ، غيفا أوعميتا : إنها ليست سوى وسيلة انتقال للعالم الأخر . وذلك التعبير شبه الباسم والعابر للحظة الانتقال من حياة الى أخرى ، هو الذى حاول فنسان التقاطه وتصويره . .

ومع إدراكه بأن قواه قد استهلكت نسبيا منذ وقت مبكر جدا ، فلم يغب عنه أبدا احتهال أن فنانين آخرين سيتمكنون من ابداع أشياء أكثر جمالا . مما كان يجزنه لاضطراره التنازل عن البيت الأصفر ، عن ذلك المجمع التعاوني الذي كان سيسهم في تكوين فريق عمل في الجنوب ، في تلك المنطقة البكر فنيا ، بقدر ما يساعد أولئك

الفنانين الذين يعانون من شظف العيش . . إنه المشروع الذي رأى النور ووصل لشطآن التحقق بعد أربعين عاما تم تكوين اتحاد للغنانين المبدعين في موسكو عام ١٩٢٩ . وكان نشاط هذا المجمع التعاوني متعدد الجوانب: اذ كان يقدم المواد الفنية اللازمة ، والسكن والطعام وتبادل المنتجات وتنظيم دراسات عليا الهدف منها رفع المستوى الثقافي العام للمنتسبين (چان لورسا Jean Lurçat ، الموسوعة الفرنسية ، المجلد السابع: فنون وآداب ١٧ و ٧٦ – ٧٨) .

وفى حوالى شهر سبتمبر ، بدأ فنسان يشعر بالاختناق بين تلك القضبان التى أصبح يود الابتعاد عنها .. فقد مل من ادارة الراهبات اللاقى لا يعملن طيلة الوقت الافى و تنمية الخزعبلات الدينية للمرضى بدلا من علاجهم » . وكم عانى من الآلام الطاحنة لعدم استطاعته محاربة ما يقمن به من تزييف . . ذلك التزييف الذى رآه عن قرب وخاص غار المعارك ضده فى بوريناج ، بل وقبل ذلك . ولما لم يكن فى استطاعته ـ هذه المرة ـ تغيير أى شىء ، فقد أصر على أن ينقل الى مصحة مدنية الادارة ولا تخضع للراهبات .

ولعل السبب الحقيقي لهذا الضيق الذي بلغ أقصى مدى له يرجع الى أن الراهبات كن قد منعنه من التصوير في الهواء الطلق. وبينها كان في انتظار انتقاله لمصح بلا راهبات حتى يتخلص مما وصفه «بالهرطنة المتعصبة» أخذ يقوم بنقل الصور اليابانية التي ارسلها له تيو بناء على طلبه. ولم يكن فنسان يقوم بعملية نقل دقيقة ، وانحا كان يستعين بها كمعطيات ليعمل منها تنويعات مختلفة مثلها يفعل الموسيقي في التنويعات اللحنية . لقد أخذ يرتجل الألوان وفقا لهواه مستعينا بما في مخزون ذاكرته من أصداء . . وها هو يتحدث من هذه اللحظات قائلا : «إن أصابعي تنساب مع الفرشاة مثلها ينساب القوس على الكهان » ( ٢٠٧٧ ) . ومع ذلك أصابعي تنساب مع الفرشاة مثلها ينساب القوس على الكهان » ( ٢٠٧٧ ) . ومع ذلك يظل تفضيله الفني هو « البورتريه الذي يشعر به وبعبر عنه بكل الحب والتبجيل الشخصي الذي يصوره .

وخلال نترة ذلك الحجر الارادى الرهيب ، ازداد فكر فنسان عمقا ويقينا انسانيا هادئا ، فراح يؤكد فى صمت أنه إن لم ينجح على هذه الأرض ، فلا شك فى أن آخرين سوف يكملون مسيرته ، سائرين على نفس الدرب . . لقد بدأ يدرك واقع الأشياء فى علاقاتها الكونية ، متسائلا عن معنى الأهمية الفردية بما أن التطور يتم فى صميمه عبر الجهود المشتركة التى تتسائد فيها الأيدى مجتمعة ؟ أما فيها يتعلق بالسعادة

أو التعاسة الناجمة عن النجاح أو الفشل « فإن كليهها ضروريان ومهمان ، أما الموت أو الاختفاء . . فكم هو أمر نسبي ــ مثله مثل الحياة ! » ( ٢٠٧ ) .

وفى ثلك الوحدة التى راحت تستحوذ عليه بشكل متزايد مصحوبة باكتئاب ساحق ، لم يتمكن فنسان من التخلى عن رغبته واهداء لوحاته . . وهى رغبة أخذت تتزايد مع الوقت وكأنها ضرورة لا مناص منها ، اذ يقول ؛ ١ كونى أعطى جزءاً من عمل للآخرين فان ذلك يمثل ضرورة مطلقة بالنسبة لى . وإذا ما استعطعت أن أعطى هذا العمل وأن يقبلوه منى فسيكون على آنذاك أن اتقدم بالشكر ١ ( فيل

وهنا لا يختلف فنسان مع نفسه ، فهو في كل مكان ، وحيثها كان ، في لندن أو دوردريخت أو أي منطقة أخرى كان دائها يعطى رسها أو لوحة من عمله للذكرى أو تعبيرا عن امتنانه . لذلك ود لو يرسل بضعة لوحات في هذه الآونة الأخيرة الى الأشخاص الذين كان يفكر فيهم كثيرا مثل قريبته جيت موف ، ومارجو نجمان ، ذلك الشعاع الأخير من الحب الذي حجبته الافكار المسبقة الاجتماعية بوحشية .

واتساقا مع هذه الرؤية ، فقد ظل موقفه \_ رغم كل شيء \_ فيها يتعلق بالدور الاجتهاعي لفن التصوير بلا تغير . اذ بدلا من الاهتهام بعمل معارض طنانه ، كان فنسان يفضل أن يهتم الفنانون « بالتوجه الى الشعب وأن يعملوا بحيث يمكن أن يكون لكل انسان لوحات أو مستنسخات من لوحات في بينه وأن تكون بمثابة دروس لهم » ( ٦١٥ ) . ذلك أن فن التصوير في نظره يمثل نورا ومساهمة في التعلور الانساني ورقيه .

وخلال تطوره هو الفنى ، فقد أثار فنسان وحسم تلك القضية الحيوية التى تمس صميم العملية الفنية ووظيفة الفن حتى فى يومنا هذا . اذ أنها تمثل واحدا من الأسباب الرئيسية للانحرافات التشكيلية فى القرن العشرين ، الا وهى : قضية التجديد والحداثة فى الفن .

لقد كان ينتقد بسخرية لاذعة كافة اللوحات الدينية التي يصورها اميل برنار ، تلك اللوحات الخالية من الواقع الانساني بمعطيات ، نحت زعم التجديد أوتخطى الواقع ، إذ أن فنسان كان يتمسك بفكرة إحساس وراقع الانسان في الطبيعة ، أما الجديد في نظره فهو الانسان المعاصر ، والواقع المعاصر الذي يحيط به بما يتضمنه من جوانب انسانية تتجلى في كل ما هو موجود . لأنه لا يمكن الابتعاد عن الواقع والهروب من مواجهة آثاره دون الوقوف عند جدار التجريد في نظره . ومن ثم فإن مكتبة روايات \_ في المساء \_ بما تغص به أرففها من كتب باللون الأصفر أو الوردى . والناس العابرون باللون الأسود » (٦١٥) . بمثل موضوعا عصريا بالنسبة لفنسان . لأن ذلك يمثل أيضا في معناه المجازى ، دار النور ، فالكتب كالحب المبلور ، أنوار في الظلمات . . من هنا يحدد رأيه في أن الشخص الذي مجتار فن التصوير مهنة له يجب أن يعتبر نفسه إنسانا ملتزما وعليه واجب بعينه لابد له من أن يؤديه وهو أن يكون أمينا تجاه الواقع الانساني ، إذ أن مهمته انما هي تنوير الحياة العصرية رغم احزانها العارمة التي لا يمكن تفاديها . .

ويمر الوقت . . ولا تأتى لوحاته بأى عائد يخفف من عبء تلك النفقات التى يتحملها الحوه . فيقرر فنسان ، في شهر يناير ، الانتقال الى ملجاً في موندڤيرج Mantdeverguen حيث لا يدفع أكثر مما يوازى اثنين وعشرين فلساً في اليوم . وهي مؤسسة تتكفل حتى بكسوة المرضى . ومن ناحية أخرى ، فإن المرضى في هذا الملجاً يعملون في الأرض التابعة له أو في ورشة الحدادة أو النجارة . الأمر الذي يمثل أهمية مزدوجة في نظر فنسان ، الذي لم يكف عن الشكوى من عدم عمل رفاقه المسجونين في سان ريمى ، وهي بطالة تمثل جرما في نظره . ومن ناحية أخرى ، فإن نفس أولئك المرضى الذين يعملون في الملجاً الجديد سيكونون بمثابة موديلات للوحاته . .

وفى الواحد والعشرين من شهر يناير ١٨٩٠ أخبره تبو بمولد ابنه وبأنه اختار فنسان اسها له ثم اضاف : « أتمنى أن يكون فى مثل مثابرتك وفى نفس شجاعتك » ( المراسلات المجلد الثالث . صفحة ٤٣٣ ) . وأدى هذا الميلاد الى مزيد من التفكير فى الموقف وفى الأسرة وخاصة فى كل ما يتطلبه التصوير من نقود .

وفي دوامة هذا التشاوم الجارف ، بدا أول بصيص من أمل مشجع : فقد ظهر مقال ألبير أوربيه Albert Aurier المنشور في عدد يناير في مجلة مركور دى فرانس البير أوربيه Mercure de France ، عن لوحات فنسان المعروضة في معرض « العشرين » . . لا من أن يفخر بهذا المقال فقد غاص فيها يتكشف من آفاق ممتدة يرى من خلالها الاسلوب الذي يجب أن يسلكه في لوحاته القادمة . إذا ما جرؤ على ترك نفسه على سجيتها وتخطى الشكل السطحى للواقع وغاص في تلك المناطق الغامضة للكون

ليصنع من الألوان الحانا موسيقية . . لكنه عاد إلى أرض الواقع وآثر العمل بعيدا عن التفلسف . .

وبكل تواضع شكر أورييه على مقاله الذى يمثل عملا فنيا فى حد ذاته \_ يلفت انتباهه فى أدب شديد الى أن الاجدر به هو أن يكرسه لفنانين آخرين يتفوقون عليه من امثال مونتيتشللى أو جوجان واتساقا مع عادته ، ر وفقا لحاجته للعطاء ، اهدى اليه فنسان احدى لوحاته للذكرى وعرفانا بما كتب .

وبعد ذلك بعدة أيام ، لاحت بارقة أمل جديد ، من ذلك الشعاع الذى لا يستغرق الا ومضات . . في الرابع عشر من شهر فبراير أخبره تيو عن بيم لوحته المسهاه الكرم الأحمر بمبلغ أربعهائة فرنك . فكتب فنسان قائلا : « بمقارنة هذا المبلغ بالأسعار الهولندية ، فهو قليل ، ومن أجل ذلك أحاول أن أنتج أكثر حتى أستطيع مواصلة الانتاج بأسعار في متناول الجميع ، ( ٦٢٧ ) .

ومع شعوره بالعطش الإنساني الذي يزداد احتياجاً . . فكم ود أن يرى أخاه وزوجته ، وبخاصة ابنها الوليد الذي يحمل اسمه ، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد رأى أيا منهم بعد . . وفكر فنسان في انتهاز فرصة ذلك المبلغ الذي حصل عليه من بيع اللوحة لتمضية يومين أو ثلاثة في باريس حيث يتمنى القيام بتصوير بضعة بورتريهات . وفي التاسع عشر من شهر مارس كتب له تيو ولم يكن متحمسا لفكرة انتقاله الى مونديفرج ، وهي أكثر بعداً عن سان ربحى ، وراح يحدثه عن الدكتور جاشيه Gachet ، في بلدة أوثير سورواز Auvers Surwaz ، وأنه هو نفسه مصور وصديق للمصورين ، ثم أضاف : «قال لى حينا حدثته عن كيفية حدوث النوبات وصديق للمصورين ، ثم أضاف : «قال لى حينا حدثته عن كيفية حدوث النوبات مائل فهم فهو كفيل بعلاجك » (المراسلات المجلد الثالث صفحة ٤٤٣) .

وبعد عام من العزلة الارادية والتضحية بالذات ، في جو زاد بلاشك من انهاكه في ومن تنمية الشعور باليأس الكامن في الأعباق ، تمنى فنسان الابتعاد عن مصحة سان ريمى . وبما أن الشكوى لم تكن من طابعه ، بل كان يتقبل كل شيء بشجاعة صارمة وصبر صوفي ، فقد أكتفى بالقول : « من الصعب تحمل ما يعانيه المرء هنا » ( ٦٢٩ ) . ثم كتب في الخطاب التالى : «إن الجو هنا يثقل على أكثر مما يمكننى التعبير عنه ، لقد صبرت أكثر من عام ، وأصبحت بحاجة الى الهواء ، لقد بلبت من الملل والأحزان . . أؤكد أنها كبيرة أن يرضخ المرء ليعيش تحت الرقابة ،

حتى إن كانت طريفة ، والأدهى من ذلك أن يضحى الإنسان بحريته ويقف بعيداً عن المجتمع وألا يكون له سوى عمل يؤديه بلا أى تسرية » (٦٣١) .

ورغم مصير الغرق والحزن الجارف الذي عاشه فنسان لم يستطع أن يذم ذلك اللجأ مغلفا أساه بما تكشف له في منطقة الجنوب عبر تلك الألوان بتجلياتها الوضاءة . وعند مغادرته سان ريمي وجدرانه الداكنة احتفظ فنسان في نفسه بذلك الوهج المشتعل للمناظر الطبيعية المحيطة به والتي حاول استخلاص معانيها بالاهتهام بالذين يعيشون فيها .

وقد بقى من هذه المرحلة أكثر من مائة وخمسين لوحة تميزت كلها بجرأة تلقائية يصل فيها التعبير الخلاق الى أبعاد تكشف عن تلك الحركة الحيوية الجارفة للكون، وذلك الدوار الكونى الذي يمزج بين الواقع والخيال فى تخط من الذبذبات الموسيقية . وهى لوحات تمثل بكل تأكيد الدليل القاطع على سلامة عقله المتهم زورا وبتعنت مع سسق اللاص ار!

وقد كتب الطبيبان دواتو Doiteau وليروا Leroy قائلين «كل الأعمال التى تركها عند رحيله للدكتور بيرون Peyron استخدمها ابنه وكان فى العشرين من عمره ليتدرب فى التصويب عليها ابان الرماية بالرصاص يا!!

## ـ أوڤير سور واز (٢٠ مايو ـ ٢٩ يوليو):

وصل فنسان باريس تفيض منه السعادة والآمال. لقد كان سعيدا لخلاصه من « بيت الوحوش » هذا ، وسعيدا لإمكانه السير بحرية وبلا أية رقابة أو صراخ ، وسعيدا أكثر لأنه سيتعرف أخيرا الى زوجة أخيه وابنها الصغير الذي يحمل اسمه . ومحتفيا يمعايشته للحياة من جديد \_ وإن كان يأمل فى نفس الوقت أن يجد مكانا يعمل فيه بهدوء . الا أن تلك الزيارة الخاطفة كانت تخبىء له العديد من المفاجآت المحيطة بنفس القدر الذي كان يشعر به من سعادة . ففيها بين السابع عشر والعشرين من شهر مايو ١٨٩٠ واجه فنسان أكثر من خيبة أمل ...

لقد كان قلقا متعطشا لرؤية لوحاته \_ ذلك الانتاج الذي أفني صحته وعانى ما عاناه من أجله . . وها هي جوانا تكتب عن هذه اللحظات قائلة : « كانت لوحاته تسبب يأس خادمتنا من وجودها في كل مكان ، تحت السرير وتحت الكنبة وأسفل كل صوان وفي غرفة الاصدقاء . كانت هناك اكوام مهولة من اللوحات التي لم ينم بعد تركبها على شاسيهات ، وتم بعثرتها على الأرض وراح [ فنسان ] يتأما

ذلك كله بامعان ١.٧ (مقدمة خطايات فنسان) . . ويالها من مواجهة مريرة أدرك فسان خلالها بحانب عدم التقدير \_ غياب العديد من اللوحات . .

this is dealer to be able to be

أما تيو فلم يجد مكانا لكل هذه اللوحات في بيته ، ونظرا لعدم حماسته أو جرأته في عرضها على زبائنه ، فقد استأجر غرفة « سندرة » عند الأب تانجى كها رأينا سالفا ، ليضع فيها لوحات أخيه التي اكتظ بها مسكنه ، ويحدثنا هنرى بروشو عن زيارة فنسان لهذه « السندرة » قائلا : « إن الزيارة التي قام بها فنسان ملأته مرارة . فلمكان وطب يغص بالبق . ولقد استشاط فنسان غيظا لا من تلف لوحاته وانما من رؤية لوحات برنار وجيومان وراسل Russell التي كان قد استبدلها معهم ببعض من لوحاته ، وقد بدأت تتلف » (حياة قان جوخ ، صفحة ٣٤٩).

واجتاحت فنسان موجة من الغضب العاصف اذ أحس بالمهانة لكنه آثر الابتعاد صمتا . الم يقبل مسبقا المصبيح لذى سيحدده تيو للوحات حينها ابرم معه ذلك الاتفاق بتسليمه كل انتاجه مقابل ما يتقاضله ؟ !

وفى بلدة أوڤير سورواز لم يكن أثر دكتور جاشيه عليه مريحا بل لقد وصفه بعدم الدراية اذ وجهه الى فتدق بستة فرنكات فى اليوم ، فراح فتسان يبحث بنفسه فى تلك البلدة حتى عثر اخيرا على بنسيون راڤو Ravoux ، بثلاثة فرنكات ونصف المفرنت . ورغم رخصه النسبى فقد ظل باهظا بالنسبة لميزانيته ، مما آثار دعوه من تلك البالغ التى يتسبب فى ضياعها وتطحنه بثقلها .

ولقد تناسى فنسان دلك كله اذ أثرته الطبيعة بثرائها وردعتها . ووجدها ذات حال بميز ، حيوية الألوان ، متألقة المتناقضات اللونية بظلالها البنفسجية . فبدأ يعمل بلا تردد . ثم أخد يكتب في أول خطاب له ، في آخر مرحلة من سيرة حياته على هذه الأرض ، قائلا : المناظر خلابة رغم كل سوء الطالع الذي ينتظر هذه اللوحات ، (٦٣٦) . وخلال هذه الفترة القصيرة التي بلغت سبعين يوما ، صور فنسان حوالي سبعين لوحة واثنين وثلاثين رسها ، ولوحة واحدة بالحفر . ويقول ليارى Leymarie عن هذه المرحلة : «ذلك هو الحصاد الشاق لاخر شهرين تميزا بخصوبة لا مثيل لها في حياة أي فنان ، (قان جوخ صفحة ٥٩) .

ورغم أن مصير العلاقات الانسانية التي كان يقيمها فنسان تتسم دوما بالفشل ، الا أنه كان يأمل في خلق وسيلة حوار متبادل ، ولقاء صادق حقيقي مع الانسانية عبر اللوحات . ومنذ اقامته في أوثمير ، راح يبحث عن مرسم أو غرفة تمكنه من تخزين

اللوحات التي تتراكم عند تيو ، أو تلك اللوحات التي تتلف عند تانجي في و جحر البق المقزز ، الذي يذكره بأهوال غرفته في بلدة رامسجيت في انجلترا ، وفراشه الملي، بهذه الحشرات . الا أن ايقاع عمله المتزايد السرعة كان يمتص يومه الذي يبدأ من الخامسة صباحا ويمتد حتى التاسعة .

وفى يوم الأحد أو الأثنين من كل أسبوع كان الدكتور جاشيه يدعوه الى مائدته ، وكان فنسان يعتبر هذه الدعوة محنة تصيبه بالضيق اذ كتب قائلا : وإن هذا الانسان الطيب يتعب فى اعداد وجبة تتكون من أربعة أو خسة اصناف . وذلك أمر مهلك لى وله \_ فلا أظن أن معدته سليمة إلى هذا الحد ، ( ٦٣٨ ) . ومع ذلك فان فنسان لم يهد لمضيفه أية ملاحظة اذ أدرك ان هذه الدعوات تذكر الطبيب بأيامه الماضية وولائم الأمرة \_ وكلها ذكريات تملأ وحدة ذلك الانسان الذي أصبح وحيدا هو الأخر . ولقد كان فنسان من ناحية أخرى ينتهز فرصة تواجده فى الحديقة ليصور لوحة أو لوحتين .

أما شغفه الذي لا ينتهى ، فقد ظل معلقا بالبورتريه أو ما أطلق عليه : « البورتريه العصرى » . فقد كان يود عمل بورتريهات تبدو لمن يرونها بعد قرن من الزمان وكأنها تجليات ، اذ يقول : « لا أبحث عن عمل ذلك من خلال الشبه الفوتوغرافي وانما بتعبيراتنا الانفعالية مستعينا بعلومنا وذوقنا العصرى للون كأداة للتعبير ونمجيد الشخصية » ( قيل ٢٢ ) . ففي بورتريه الدكتور جاشيه الذي يعير عن اغتراب وحزن شديد حاول فنسان أن يعمل عكس المألوف في البورتريهات المادئة السالفة ، ليوضح كم من المعاناة والأشجان والتطلعات تدور في الرءوس العصرية ، وخاصة رغبتها المحمومة في الصراخ ضد كل ما يدور حوفا . .

وفى يوم الأحد الموافق ٨ يونيو ، أمضى تيو بصحبة زوجته ووليدهما اليوم كله مع فنسان عند زيارته للدكتور جاشيه ، وكم سعد فنسان جذا اللقاء لرؤية ذلك الوليد يتعرف لأول مرة على مملكة الدواجن فى فناء مضيفهم .

ورغم تلك السعادة الظاهرية فقد كان كل شيء يبدو في نظر فنسان وكأنه ينعكس عبر مرآة . . مرآة راح يتأمل من خلالها شدرات الحياة ، وأسباب الفراق ، والرحيل ، ودوام القلق في الاعراق وهو ما دفعه إلى وحدة ثقيلة لا تتزحزح . . إنه عالم غريب من المعاناة والاصداء لم يكن فيه شيء ثابت أو حقيقي غير فن التصوير الذي يعد بمثابة الخيط الرفيع الذي يوبط بين الماضي والحاضر والذي حاول التعبير من خلاله ، عن ذلك المرور الخاطف للأشياء في الحياة العصرية « ( قرا ٢٣٣ ) .

وبنفس الثبات الرصين واصل فنسان مسيرته المتصاعدة فى ابحاثه الفنية الطليعية ، وإن أدرك فى الآن نفسه : « أن الوقت الذى سيفهم فيه الناس الصلات الغريبة بين اللوحات والطبيعة مازال بعيدا ، وكان كلاهما يفسر الآخر ويوضح قيمته » ( ٦٤١ ) . ومثلها حدث فى نهاية تجربته الدينية . أدرك فنسان أنه لا يستطيع عمل أى شىء بمفرده : فالتعليم الفنى للجهاهير الذى كان يود القيام به ، لبس فى مقدرة فرد وحيد وانما هى مهمة تقع على عاتق مؤسسة بأكملها \_ كها سبق وأشرنا \_ وكانت كل أبوابها موصدة فى وجهه \_ وحيث ظلت كل مساعيه من أجل الآخرين غير مفهومة . ومع ذلك ، فعدم الفهم هذا لم يمنعه من مواصلة العمل بتهاسك أصيل واستمرارية مثابرة من أجل نفس ذلك المجتمع الذى لم يفهمه ورفض قبوله بدأب شديد . .

وفى الثلاثين من شهر يونيو أرسل تيو خطابا لأخيه بالغ الأهمية ، يشرح له فيه كيف أن الطقل يعانى من مرض شديد نتيجة لسوء التغذية ، ذلك و أن أفضل أنواع اللبن الذي يمكن شراؤه فى باريس لهوعبارة عن سموم ، ، ثم واصل تيو الشكوى من كثرة هموم التقود والمشاكل التي يعانى منها مع أصحاب مؤسسة بوسو وقالادون ، اللذين يعاملانه وكأند غين حديثا لديهم ، وبالمثل علم زيادة مرتبه ، وأجابه فنسان باقتراح أن يعيشوا معه فى الريف ، فى بلدة أوثير ، حيث الهواء النقى ، كها أن البيئة واللبن أفضل بكثير بما فى باريس ، الأمر الذى سيعين الطفل على استرداد صحته .

وعند هذا الحد دعاه تيو لتمضية بضعة أيام عندهم في باريس . وسافر فنسان لباريس في يوم الأحد السادس من شهر يوليو ، تلبية لهذه الدعوة . الا أن شارنصول يكتب عن هذه الزيارة مع تعديل الاحداث قائلا : « لم يكن يوم الأحد هذا سعيدا كما تمناه تيو . . ولابد أن الجو في المسكن الكائن في حي بيجال كان شديد التوتر بما أن فنسان رفض مد اقامته وعاد في نفس اليوم الى أوثير . وتكشف خطاباته بعد ذلك عن قلقه الشديد فيها يتعلق بمساعدة تيو المادية التي تعد الدخل الوحيد الذي يسمح له بمواصلة الحياة » ( المراسلات المجلد الثالث صفحة ٤٨٤ ) .

وفى الواقع ، أن الخطاب الذى كتبه فنسان بعد عودته ، والذى لم يتعد الستة أسطر ــ لدليل على اختلاف حاد فى أكثر من مشكلة ، ومنها بالطبع الوضع المالى ، وهنا يقول : د لا داعى للإصرار على الحصول على توضيحات محددة للموقف الذى نحن فيه حاليا . لقد فاجأتمونى بمحاولة افتعال الموقف . هل فى يدى أى شيء ؟ هل

يمكنني أن أعمل أى شيء أوغيره مما ترغبون فيه ، ( ٦٤٧ ) . وفي صمت ازداد اقتناع فنسان بضرورة اختفائه من الوجود لأنه انسان عالة لا ضرورة له . .

ولم يجب تيو على هذا الخطاب المرير ، مما جعل فنسان يعتقد أن خلافهما قد أصبح نهائيا . ونظرا لرغبته في أن ينعم ابن أخيه الرضيع بحياة أكثر استقرارا من نفسه ، فقد عرض فنسان رغبته في أن يمضى تيو وأسرته شهر اجازته في الريف ، في الهواء الطلق ، وليس في هولندا ، أو في جو سكنى ملوث آخر . ولعل الرد الذي تقاه فنسان من أخيه كان جارحا ومهينا بحيث اضطر فنسان للرحيل في نفس ذلك اليوم دون أن يتفق على أي من الشروط المالية التي ستستمر بينه وبين أخيه ، ترى هل سيكون ذلك مثل الفاق الماضى ، بواقع مائة وخسين فرنكا في الشهر ، تسلم على ثلاث دفعات ، أم أن تيو يفكر في تقليل المبلغ أكثر من ذلك بحيث لن يمكنه التصوير كها يتمنى ؟ .

وفى الخطاب التالى راح فنسان يتساءل : ( ان تيو لم يحدد شيئا وقد انصرفت فى ثورة انفعالى ، ترى هل هناك امكانية أن نتقابل ثانية بشكل اهدأ ؟ » ( ٦٤٨ ) . .

وفى أصداء الصمت الصهاء ، راح فنسان يتدبر الأمر بكل وضوح الرؤية . . الم يؤمن دوما أن تنشئة الأطفال لاكثر أهمية من ضياع كل الطاقة العصبية الخلاقة فى عمل لوحات ؟ . . وبدأ الحل والاختيار وكأنه يتم تلقائيا : تنشئة ذلك الكائن الوليد أم التسبب فى حرمانه من اساسيات الحياة بمواصلة التصوير ؟ ! وهنا لا تصل النزعة الانسانية عند فنسان الى ذروة تعبيرها الانساني فحسب ، وانما يصل الى أقصى درجات التفاني والعطاء والتضحية بالذات ، بأن يتلاشى من الوجود لكى يسمح لنفس أخرى أن تنمو بشكل أفضل وتعيش حياتها . .

ويشعر فنسان بأنه منهك مستهلك بمعنى الكلمة من جراء تلك السلسلة المتواصلة من البؤس والأحزان .. ولم يبق فى أعماقه سوى ذلك الألم المعنوى لتلك التجربة الحياتية التي يعتبرها فاشلة مثلها مثل تجربة الأرض! لقد ساقه الحمل الكثيب لموقفه تحت وطأة رياح ذهنه العاصفة الى هاوية لا قاع لها .. و فليس بالأمر الهين ان المين حينها نشعر جيمعا معا أن لقمة العيش اليومية فى خطر ، وليس بالأمر الهين ان نشعر لأسباب أخرى بغير ذلك حيث إن وجودنا هش ، ( ٦٤٩ ) .

وبعد ذلك اللقاء الحزين في باريس ، وجد فنسان أن حياته قد اجتثت من جلورها ، فتخلى عن كل طموحاته ، ليتقبل بحزن شديد مصير ذلك و الانسان الفاشل ، الذي يبدو أنه لن يتغير ابدا . . وفي محاولة اخيرة لاستخراج ذلك الحزن الرهيب من الاعماق تناول تصوير ثلاث لوحات كبار في آن واحد ؛ و انها مساحات شاسعة من القمح تحت سماوات مضطربة ، ولم أتحرج من البحث عن تعبير أقصى درجات الحزن والوحدة » .

وفى الثالث والعشرين من شهر يوليو ، حاول فسان الكتابة لأخيه حول عدة نقاط ، لكنه شعر بعدم جدوى ذلك ، وفقد الرغبة فى الكتابة . . ومع ذلك ، تظل الفكرة المحورية الاساسية هى : « اتحاد الفنانين ووحدتهم ، وكيف يمكنه جعلهم يدركون أهمية هذا الترابط ؟ ، لكنه سرعان ما يجيب على تساؤله قائلا : « إن مبادرت الفردية تظل غير ذات فعالية ، ترى هل ستعاد التجربة يوما ؟ » .

وتمسك فنسان بذلك الوعد الذى اتخذه عهدا بأن يظل حبه لابنة خاله كى بحيث لا يبدو من تصرفاته ما يعبر عنه ، أن يخنق مشاعره المتأججة تحت قناع تقليدى لا ينم عن شيء . . كان عليه أن يتلقى الضربات من كافة الجبهات . ويتقبلها في صمت . لكن ها هو الخطاب السابق يتسلل اليه تعبيره عدم جدوى ، الذى لم يسبق له استخدامه من قبل وإن كان يتضمن بمفرده عالما بأكمله من اليأس . .

ومثل طيبة ابنة تلوى ، كاهنة أوزوريس ، ظل فنسان صامتا ، وإن كان مستغرقا فى تأمل مختلف أحداث وجوده . . ذلك الوجود الذى جعله من أكثر المعذبين فى الأرض . . حتى إن نصيحة ديكنز التى تحول دون الانتحار بدت له عديمة الجدوى ، فالخبز والنبيذ ، تلك و المناولة ، الخالدة التى ابتلعها بصبر مرير طوال السنوات الماضية بدت هى الأخرى عديمة الجدوى . ولأن فنسان قد حاول دوما أن يعيش اختياره ، فقد اختار بحرية ووعى كامل ، حبا فى الحياة ، وبلا أية مفاجآت أو عفوية \_ وفقا لتعبير نيتشه \_ نهاية منطقية ، ارادية لكل تلك الأحزان التى لن تتوقف ابدا . . أو ، مثلها عبر عنها ذات يوم ، لقد اختار و وسيلة مواصلاته ، التى سيذهب بها الى النجوم \_ بدلا من أن يذهب سيرا على قدميه . .

وفى السابع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٠ ، وسط الطبيعة ، فى أحد حقول القمح المحيطة بتلك الوحدة الملونة التي لا تتزحزح ، استخدم فنسان مسدساً . . ذلك المسدس الذي وضع حداً جد بطيء لحياته . . فحتى احتضاره قد امتد لمدة يومين بلا أية اسعافات . .

لقد تمعن فنسان طويلا في ذلك الانتحار الذي قام به من أجل الصغير ، « من أجل مصلحة الجميع » ، مثلها راح يردد وهو يسلم الروح . . من أجل الغير ، ما في ذلك شك \_ بما أنه يجمع « كافة الملامح المميزة للانتحار ، فإنه يقترب من أكثر المظاهر لفتا للنظر لعديد من اشكال السلوك التي اعتدنا أن نبجلها بتقديرنا لها بل وحتى باعجابنا ، فكثيراً ما تم رفض اعتباره قتلا للذات « (إميل دوركهايم ، الانتحار ، صفحة ٢٦١) .

أن الخطاب الذي كان مجمله في سترته عند وفاته ، مثله مثل الخطاب السابق ، كان يبدأ بتلك العبارة : «كم كنت أود الكتابة اليك حول عدة موضوعات لكنني أشعر بعدم جدواها » (٢٥٢) . فعندما رأى منزل تيو عن قرب ، يبدو أن أمله قد تغير في الأعماق ، بما أنه كتب في ذلك الخطاب الذي لم يتم : «لم يكن هناك من سبب لتطمئنني حول هدوء بيتك وسلامه ، اعتقد أنني رأيت الجانب الطيب بنفس القدر الذي رأيت فيه الجانب الأخر . . » فلقد كانت تلك آخر خيبة أمل عاشها من اعتقد أن تيو لم يعد وحيدا وأنه يعيش في جو من الوفاق المتبادل أو الوئام . . لقد فرض الفشل نفسه من كافة الوجوه ، بلا منازع ، والى الأبد . .

وفى تلك الرسالة الأخيرة ، حاول فنسان أن يناقش ، لكن . . ما الجدوى ؟ ! . . و اعتقد أن احتمال مناقشة الأعمال برأس أكثر هدوءاً لأمر بعيد المنال . . .

فالموت بالنسبة لذلك الانسان الواضح البصيرة والذى وصل بتصوفه الى أعلى درجات التجلى ، لم يكن سوى وسيلة انتقال سهاوية ، لقد كان يود تخطى حدود المادة والواقع الملموس ليتمكن من الاتصال بمجال الكون اللا محدود ، لذلك كان متأكدا و بأننا في وضعنا الجسدى الحالى ، لا يمكننا الانتقال أو الذهاب الى نجمة ما ، مثلها لا نستطيع أن نستقل قطارا ونحن أموات ، . لقد كانت النجوم هى انيسه الوحيد في تلك اللحظات الداكنة فلم تكن تلتقط آلامه في وميضها . وانما كانت تدفعه الى

الحلم ، وتمثل الأمل فى حياة أفضل . . وذلك ما يسمح لنا بالقول تضامنا مع اميل دوركهايم : ( إنه حتى فى حزله كان انسانيا ، ذلك لأنه قائم على فكرة أن ما وراء هذه الحياة توجد آفاق أكثر جمالا ، ( الانتحار ، صفحة ٢٤٣ ) .

وخلال ذلك الخطاب الذي يتسم بعمق الفلسفة (٥٠٦) والذي كان قد كتبه من مدينة آرل ، لا يكشف فنسان عن الامتداد الفسيح لفكره \_ أن امكننا القول \_ لكنه يسلمنا الى تلك النقط المضيئة في السهاء وانجذابه الخامض اليها \_ وهو سر يتضمن تفكيره المسبق لتصرفه العقلانى ؛ اذ يقول في ذلك الخطاب : ١ إذا كنا نأخذ الموت القطار للذهاب الى تراسكون Tarascon أو روان Rouen فإننا نأخذ الموت للذهاب الى النجوم . . إن الموت بهدوء عندما يكبر السن انما يعنى الذهاب سيرا على الأقدام » !

وبتأمله تلك الأفكار الميتافيزيقية الجريئة \_ على الأقل بالنسبة لعصره \_ لم ينس فنسان تلك الأرض البكر التي امتدت فيها جذوره وساخت في أعراقها ، لم ينس فن التصوير الذي يمثل بالفعل كل حياته وكل ما عاش من أجله . فها هو للمرة الثانية ، في ذلك الخطاب الذي لم يتم ، والذي كان يجمله في سترته ، في التاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٩٠ ، يوم وفاته ، كان يجاول المارة كافة المسائل المتعلقة بالفن والفنانين ، وكل تلك المشاكل التي عاشها طويلا وحاول عمليا ان يجد لها حلا . .

واولها كيف يمكن توصيل الفن إلى الشعب ، الى تلك الجهاهير المقهورة ؛ من ثم دور الفنان ورسالته ؛ واجبه التعليمي والتنويري كمرشد ونور كاشف لمعالم الطريق ؛ وهناك أيضا اتحاد الفناين وترابطهم وعملهم الجهاعي من أجل تطور انساني أكثر جمالا ونبلا . ولا يمكن أن نغفل هنا تجارة الفن والاتجاه الاستثباري لتجار اللوحات ومعركته في هذا السبيل ، وما أكثر ما يمكن أن نقوله حول امانيه من أجل الاخرين وما أتى به من جديد في المجال التشكيلي لفن التصوير . . وكم من أسئلة وكم من مشاكل كانت تنتظر الحل وناضل من أجلها . . لكن الهاوية ظلت فاغرة الفاه تغوص به في بئر بلا قرار . . ولم يمكن بوسعه شيء بعد كل ما بذله من روحه وجسمه ، ورغم كل شيء فإنه لم يغفل ابدا حقيقة ظلت ماثلة أمام عينيه الا وهي : عرفانه بالجميل تجاه تيو . .

الم يكتب ذات يوم وفي الوقت الذي تتوتر فيه الأمور الى أقصى حد بين تجار لوحات الفنانين الأموات والفنانين الأحياء ، فإن فهم الأمور يعني غفران كل شيء ) . . وهنا يبدو فنسان وكأنه يغفر عدم فهم أخيه له ، وراح يؤكد لذلك الأخ – التاجر ، الذي كان ابعد ما يكون عن ادراك مدى وعمق فكره وعمله قائلا ؛ و سأظل دوما اعتبرك شيئا آخر غير مجرد تاجر للوحات كورو Corot ، وإنه بواسطتي يحق لك نصيب في انتاج بعض لوحاتي ، التي تحتفظ بهدوئها حتى في لحظات التدهور ) . .

وإذ كان قد قرر المجازفة بحياته ، فلقد ذهب فنسان إلى أعمق أغوار هذا التعبير ، دون أن يفقد أبدا كلمات السيد المسيح التي كان يطبقها بلا أى افتعال أو مهرب : ( من يفقد حياته سيجدها ) ، ويتوقف فنسان عن الجملة التالية ، ويظل الخطاب ناقصا لم يتم ؛ ( على قدر علمي فأنت لست على شاكلة هؤلاء التجار ويكنك الاستفادة من ذلك ، بأن تتصرف بانسانية حقيقية ) . .

ويبدو أن هذه الكلمات قد هزت الأعماق الكامنة لذلك التاجر البورجوازى المتغلغل فى تيو وأيقظت فيه تلك الشرارة الإنسانية التى أغفلها طويلا . لكن ، على حد قول فنسان فى نونن : ما أن استغرقه الوقت ليفهم ، حتى كان الوقت قد فات . . .

ورغم اتهامنا المتعدد الأوجه لتيو والذى استقيناه من الوقائع ، الا أن الانصاف يدفعنا للقول بأنه \_ على الرغم من كل شيء \_ فقد كان صاحب المساعدة الوحيدة التي حصل عليها فنسان ، حتى وإن كانت تلك المساعدة عبارة عن لجام جد قصير وأبعد ما تكون عن تلك الاسطورة الذهبية . وها هو سلوك تيو بعد وفاة فنسان يكشف عن درجة بعينها من الشعور القهرى بالذنب ، اذ يذكر بروشو أنه بعد الانتحار الحزين بعدة أسابيع : وقامت مناقشة حادة بين تيو ورؤسائه وقدم استقالته على اثرها وغادر المكان وهو يغلق الباب خلفه بحدة ، فقد كان يريد استئجار مقهى لى تمبوران وتكوين جمعية للفنانين . وإذ فقد قواه العقلية تماما ، حاول قتل زوجته وابنه . مما اضطرهم الى ادخاله مصحة باسى Passy ، في عيادة الدكتور بلانش وابنه . مما اضطرهم الى احوخ ، صفحة ٢٦٩ ) .

ولا ضرورة \_ فى ظنى \_ للتعقيب على نص شديد الوضوح فى معناه فلقد حاول تيو تكريم أخبه الذى لم يفهمه أحد ، وذلك بتحقيق أحلامه ومشاريعه ، كها حاول استبعاد الذين كانوا \_ بحكم الواقع \_ أحد أسباب انتحار فنسان ، ونظرا لقلة الوثائق حول هذا الموضوع ، فلا يمكننا القطع اذا ما كان تيو قد أصيب فعلا بالجنون وادخل فى احدى مستشفيات مدينة اوتريخت Utrecht بعد ذلك أم لا . وإن كان ترالبو ، فى كتابه القيم الضخم فنسان غير المحبوب يُعدُ فى صفحة ٢١٩ بأن يتناول فى الفصل قبل الأخير موضوع مرض تيو الا أنه انهى كتابه دون أن يفى بوعده !! . .

ان تطور الأحداث بعد ذلك لا يؤدى الا الى مزيد من الاتهام لتلك الاسطورة المزعومة المفتعلة والتى أدت الى تزوير حياة وفكر فنسان الى أبعد حد . كما كبحت ملامح انسانيته التى كانت المحرك الأساسى للدور الاجتهاعى الذى حاول أن يقوم به بارادة لا تلين لخدمة الانسان والانسانية عن طريق الدين ، ثم عن طريق الفن . .

ما أقصى أن يأتى التكريم بعد الرفات ومعانقة التراب . . لكن ذلك \_ فى ذاته \_ سخرية القدر الأخيرة فى مسيرة فنسان . . وها هو هنرى بروشو يقول : « فى عام ١٩١٤ ، قامت جو(١) \_ وكانت قد تزوجت وترملت للمرة الثانية \_ بنقل رفات تيو الى مدافن اوڤير سورواز . وتم نقل رفات فنسان من قبره الأصلى ، ليوضع فى مكان آخر من نفس المدافن ، حيث تم دفن الاخوين اللذين أصبحا منذ ذلك الوقت يرقدان جنبا الى جنب ، تحت شاهد توءم ، وكأن الموت قد وحد بينها مثلها كانا متحدين فى الحياة » . . (صفحة ٣٦٩) .

ورغم الابتسامة الساخرة التي ترتسم تلقائيا ، اذ نلاحظ انه حتى قبل ذلك التاريخ الذي يذكره بروشو بأربعة عشر عاما ، أي ابتداء من عام ١٩٠٠ ، بدأ هواة الفن يبحثون عن لوحات فنسان لاقتنائها !!

## . . ترى هل تحققت نبوءته الساطعة ؟

« لا يمكننا الا أن نجعل لوحاتنا تتحدث » . . ذلك ما كان قد كتبه هذا الفنان الواسع البصيرة ، في آخر خطاب له ، ومازال حوار لوحاته الذي لا ينضب يحدث الأجيال وراء الأجيال . . ان طاقة السعادة والفرح والنور والحمية التي حاول التعبير عنها ـ ذلك الحزن الذي خيم على حياته أو ربما بفضله ، تمثل رباطا أساسيا وحلقة يستحيل إغفالها في تطور الفن بين الماضي والحاضر .

ومثلها حاول فنسان أن يعبر دوما من خلال حقول القمح ، اذ ناغم بين الانسان وتلك الحبوب التي لابد أن تُنبت وتُطحن لتكون خبزا وقربانا ، فإنه بعد عملية انبات مريرة في أحشاء الحياة وغياهب أغوارها ، طحنه البؤس ليتحول بفضل عمله الى ذلك الخبز اليومى ، أو بتعبير أدق ، الى ذلك الغذاء المعنوى قربانا للبشرية حماء . .

## الخاتمة

أن مراسلات فنسان قان جوخ تضعه بدون أي شك في مصاف كبار المبدعين في التراث الأدبى وتكشف عن أديب شديد التفتح لكل ما هو انساني . وما أكثر القيم الانسانية التي تفيض بها ثنايا الأسطر في رسائله لتتجاوز المعاناة والأسى لسهاوات التعبير الرهيف والحس الخلاق ، وذلك الى جانب الشخصية البطولية السوية التي تتكشف لنا وتجعلنا نعايش خلجات حياتها بكل الصدق ، إن فكر فنسان يتجلى بلا افتعال ، فهو أسلوب مميز ، ذاتى ، نابض ، يؤكد الاهتمام الدءوب لنفس متعطشة بنهم الى المعرفة ، محبة للغير بدرجة لا مثيل لها . .

إن هذا العمل الأدبى الذاتى ، المعاش بأعمق ما فى الخلجات الانسانية ، يعرض الدراما الحزينة لروح متدفقة بالحب ، تتمثل رحيق قواها الابداعية الخلاقة من ذاتها ، ففى صفحات جليلة الانسانية ، ملحمية خالية من اية زخارف ، ذات جمال حوشى بتلقائيته الخشنة ، يحكى فنسان مأساة انسان أدانه المجتمع وظل يطارده حتى النهاية . . إنها مأساة ترتفع الى أعلى درجات التراجيديا الانسانية وأكثرها حدة وثراء ومأساوية ، وهى \_ فى ذاتها \_ عمل أدبى يبث لدى قارئها طاقة لا تحد ، عبة لغير ، وعبادة للعمل المتواصل ، وتقبل للمصير المفروض بكل رضاء ، وتضحية للذات بشكل مجرد من الأنانية ، يمثل قمة فى العطاء الانساني الذى تظل حياة فنسان واحدة من أكثر النهاذج المؤثرة والمعبرة عنه .

إن تناول النزعة الانسانية عند فنسان يعنى تناول الرجل وعمله فى تلاحمها الاجتماعي والصوفى فى آن واحد . ذلك أنه لم يسبق لحياة انسان وعمله أن تداخلا وامتزجا بهذا الترابط الحميم . وليس من المبالغة أن نقول : إنه صور حياته وعاش عمله . فلقد صور على عاتق ايامه وكيانه \_ كل ما استطاعت عيناه ، كشاهد

مباشر للعالم الملموس ، أن تراه بوضوح ، فيها وراء الظاهر . . فعاش مخضعا ايامه لبالتته ممتلئا بكافة ملامح دراما الحياة ، عبر ذوبانه في تلك النبرة الحادة للون الأصفر ، كأسمى تعبير لنور الحب متجاوزا ذلك كله للنور الالهي الذي عشقه وذاب فه . .

وها نحن بفضل هذه المراسلات نرى صورة فنسان \_ التى شُوهت طويلا \_ كها رأينا \_ تبدو فى حقيقتها الجلية الساطعة : صورة انسان جرؤ على أن يكون نفسه ؟ واجتراً على تبجيل الانسانية وكرس نفسه لها ؟ ولم يقف مصفد الحطى أمام دور محدد فى المجتمع ، بل تعددت ادواره ومحاولاته ونضاله المستميت فى الدفاع عن الآخرين والفن الذى تجلى فى رؤاه . واذا ما سلمنا بأن محاولة القيام بدور ما \_ بأوسع معانى الكلمة \_ يتضمن ادراكا شديد الوعى والفهم ، كها يعنى من ناحية أخرى المساهمة بكل امانة والتفتح للخير والشر والانتقال من الظل الى النور بنفس صلابة الرأى والرؤيا ، واقتراح حقائق خالدة تكشف وتدين عمليات الزيف السائدة ، أى ما يتضمن \_ بقول آخر \_ مهاجمة التقاليد الراسخة للمجتمع . فإن فنسان قد حمل ما يتضمن \_ بقول آخر \_ مهاجمة التقاليد الراسخة للمجتمع . فإن فنسان قد حمل إصراره ويقينه فى رشته وروحه وجسمه الذابل . . ومضى فى طريق الشوك عادياً إلا من الحب الذى يدفعه لمزيد من تحمل ، وعمق الفهم الذى أبحر به الى شطآن لم يألفها الآخرون أو المجتمع . .

وكرد فعل لهذا الصنيع ، فإن المجتمع ، الذى لا يتقبل بسهولة كل سا يتخطاه ، وكل ما يخرج عن نطاق قيوده المحكمة المفروضة أو كل ما يقلق ثبات اركانه ، فإنه يدين ويتهم . ولا نظن اننا نقدم \_ بهذا المعنى \_ شبئا مستغرباً ، حتى على انسان اليوم . . ففى نهاية القرن العشرين ، فإن الناس جميعا \_ فى ظنى \_ يعرفون ، كأمر واقع ، عمق تلك الكلمات التى قالها فنسان لأخته فيلهلمين ( فيل ٨ ) . أن كل الذين يجرؤون على تعرية التواطؤات الاجتماعية أيا كان مجال هذا التواطؤ ، سرعان ما تدينهم قوى السلطة الحاكمة . .

وهكذا ، ما أيسر أن ندرك كم كانت حياة فنسان وفكره وعمله وحتى ادانته تمثل بكلها (حالة ) من تلك الحالات لواحد من أولئك الذين نبذهم المجتمع ، اذ نادوا بتغييره ، وقاموا بكشف أوضاعه المتردية ، وعندها ، علينا أن ننظر لا انطلاقا من هذه الحقيقة فحسب ، وانما بعد تصور آثارها ونتائجها في سياق مفاهيم القرن الماضى .

لقد تفتحت حياة فنسان ، من الناحية الاجتهاعية ، على مفترق طرق ، مسارين تقليديين توارثها أفراد الاسرة : تجارة الفن وخدمة الدين . وقد اختار فنسان الفن تلقائيا . الا أن دمهنة الفن كانت تبدو للعائلات الفقيرة كمهنة غير مستقرة وغير جادة » (ج . ليتيف J.Lethève : الحباة اليومية لفنان القرن التاسع عشر ، صفحة ١٠) . لذلك قامت الاسرة بتوجيهه إلى ما يبدو ، في التقليد البورجوازي ، مجالا ثابتا ، الا وهو : تجارة الفن!

وقد اهتم فنسان فى بادىء الأمر بهذا المجال الذى اختارته له الاسرة ليرى عن قرب ويعايش ذلك الوسط الذى طالما لفت أنظاره مؤملًا أن يدرس كل تلك الأعهال التى تجذبه . الا أنه ما أن اكتشف عن قرب خبايا تلك التجارة وكواليسها وكل ما يدور من غش وخلط للأعهال الأصلية والزائفة ، وتلك اللوحات التى تقل قيمتها الفنية بكثير عها يدفع فيها من مبالغ مالية أو استثهارية ، وكيف أن الشخص الوحيد المخدوع فى هذه اللعبة هو الفنان والجمهور ، فقد رفض فنسان التواطؤ وتبنى قضية المهزومين ، أولئك الاشخاص الذين يتم خداعهم ، وتولى تنويرهم وارشادهم فى اختياراتهم . .

وكانت النتيجة : خشية مديرى المتجر من أن ينكشف أمرهم ، فأدانوه واتهموه بالجنون ، فارضين عليه استقالته .

وبما أن هذا الطريق قد سد في وجهه ، فقد كان منطقيا أن يتجه فنسان الى الطريق الآخر للوظائف المتوارثة في أسرته . وكانت متمثلة هذه المرة في خدمة الدين . واذ تعلم فنسان من الدرس الأول ، فقد استعد لوظيفته الجديدة التي كان يراها في تلاحم حميم مع المجتمع . فدرس اللاهوت والاشتراكية التي حاول تطبيقها حتى آخر ايامه .

وفي منطقة بوريناج . انتقل فنسان من مرح الشباب الى جدية العمل متخذا من المسيح مثله الأعلى ، مكرسا نفسه بتفان لا مثيل له لذلك القانون الذي يمثل كيان الرسالة المسيحية الا وهو : نكران الذات والتخلى عن أى شذرة من أنانية . ومثل المسيح اعطى كل ما يمتلكه وتبنى ظروف عهال المناجم حتى يمكنه التعامل معهم ، وفتح فصلا لتعليم الاطفال ، واعتنى بالمرضى ، وراح يبذر الكلهات المقدسة ببساطة تنبت بالفهم لكل سامعيه . وأكثر من ذلك كله ، ها هو بدلا من أن يتغذى بشكل معقول ، وهو الذي يعيش على الفتات ، كان يشترى نسخ الانجيل لكى يوزعها على الفقاء!!

لقد كان يؤمن من الناحية الفلسفية \_ كها سبق ورأينا \_ بضرورة وحدة كافة المذاهب المسيحية ، بما أن الدعامة الأساسية لكافة الكنائس يجب أن تكون واحدة . وان كان هذا الاتجاه \_ للحق \_ قد بدأ قبل فنسان ومازال مستمراً حتى يومنا هذا ، منذ القرن السابع عشر وحتى مجمع الفاتيكان الثانى ، بل إن الحركات الاحيائية لهذا الاتجاه لا تنتهى .

لقد اتخذ فنسان \_ من الناحية الاجتماعية \_ جانب تلك الجماهير الانسانية التي لم يكن يرى أنها مخدوعة فحسب ، وانما هي مقهورة بشكل رهيب البؤس . فانطلق في الدفاع عن عمال المناجم مطالبا بتحسينات اجتماعية ومادية وصحية . ونظرا لرفضه الحلول الوسط ، فقد حدد الطبقة التي يجب الانتماء اليها وتبني قضية عمال المناجم وانضم معهم في اضراباتهم وأصبح واحدا من زعمائهم ، حتى أصبح المبشر الوحيد الذي كان العمال ينصتون اليه .

وكانت النتيجة المحتومة هي خوف القسس المبجلين من استمرار المقارنة في غير صالحهم . باستبعاده منذرعين بركاكه أسلوبه في المواعظ ! بينها قام رجال الأعمال ، مديرو شركة المناجم باستبعاد فنسان ، لكي يضعوا حداً للنفقات والاضرابات ، واخذوا يهددونه بحبسه في مستشفى المجانين . . أي أنه كان فشلا مفروضا عليه من الناحيتين .

وما أن تبين فنسان حقيقة الأمور حتى خضع لذلك التمزق المزدوج من الناحية الاجتماعية . فمن ناحية كان الدين في تطبيقاته تلك ليس الا حججا لسوء الاستغلال وسفسطة لا معنى لها ، وروتين حياة تقف عند الطقس ورنين كلمات ليتجرع المعذبون حياتهم ، وهكذا بعدت الكنيسة عن دورها الحق ونطاقها الدينى ، من وجهة نظره ـ لتغوص في مظاهر زائفة . واسيء تفسير الانجيل من قبل اشخاص انانيين ومحدودي الفهم ، يميلون الى الانحرافات التي يحرمها السيد المسيح ومن ناحية أخرى ، كان تقدم الرأسهالية والتجارة على حساب المجتمع وعلى حساب أسلوب حياة انساني حقيقي يرتفع بالانسان ويسهم في اسعاده .

وفى مجال الحب عانى فنسان من تبعات وعيه وادراكه للمواقف وطبيعة اختياراته التى لم يُبال بالحسابات الطبقية ولم يخضع لمعاييرها . واذ كان لما يزل موظفا رومانسيا شابا فى مؤسسة جوبيل ، مليثا بالأمال والأحلام ، فقد أحب أورسول لوابيه ، إلا أن الهاوية الاجتماعية بين نزيل متواضع وابنة صاحبة البنسيون كانت شديدة

الاتساع . ومن ثم كان الرفض حتميا . وعندما كان يعمل مبشرا أحب كى ابنة خاله القس ! استريكو . ذلك الحب الجارف الفياض الذى صمد لتجربة النار . الا أن الأسرة اذ كانت تعتبره كإنسان فاشل بلا وظيفة أو دخل ثابت ، مجرد شخص خارج على القانون ـ من وجهة نظرهم ـ ويرفض حدود التقليد أو المألوف والمعترف به ، فقد تمت مطاردته اذ كان القس يرغب في استقرار مالي واجتماعي لابنته . ففرض رفضه لفنسان بوحشية ضارية لا تقبل التراجع بحال .

واثناء معاناته للطرد المتواصل . التقى فنسان بما يمكن تسميته ضد الحب . لقد التقى بكريستين التى كانت فى ظروف اجتماعية لاتقارن بحاله مهما كان الأمر . الا أن الأسرتين قد عارضتا هذه الزيجة بعنف : وكان لكل منهما أسبابه . فقد كان آل قان جوخ لا يقرون فكرة أن يرتبط ابن القسيس بمن هوت للقاع ، وإن كان هذا الرفض من جانبهم يمثل ذنبا فى حد ذاته بما أنهم منعوها بذلك من فرصة الاستقامة . وفى نفس الوقت كانت والدة كريستين وشقيقها يعيشون من دخلها من الانحراف ، واجبراها على تفضيل الدعارة بدلا من امكانية الخلاص التى منحت لها ! أما فنسان واجبراها على تفضيل الدعارة بدلا من امكانية الخلاص التى منحت لها ! أما فنسان وها هو يلتقى بجارته ما رجو بخهان فأحبها . وكان آخر شعاع حب خاب تردد قبل ملامسته . ويا لفضيحة آل بجهان وثورتهم لمنع هذا الزواج . ذلك أن نقود مارجو كانت الدعامة الاساسية التى تقوم عليها تجارة الاسرة وزواجها يعنى الاقلال من دخل والدها وأخواتها !

وإذ تراكمت الادانات ، ابتعد فنسان بعد أن رفضته المرأة ، وطردته الأسرة ، وادانه المجتمع . .

ولم يعد فى وسع فنسان المطرود أن ينتمى إلى المجتمع من أى من أبوابه الرسمية التابعة للسلطة . . أى سلطة . . سلطة الأسرة ، أو سلطة الكنيسة ، أو سلطة المجتمع . . ماذا يبقى له اذن؟! . .

لم يعد بوسع فنسان إلا أن يجتر ذاته وأن يعتمد على نفسه . وأن يكون منبع المبادرة لعمله . وأعطى فنسان كيانه كله لفن التصوير ، ذلك الملجأ الوحيد والأخير المتاح له باستثناء مجال الكتابة .

ولما كان فنسان رجل فكر وعمل ايجابي ، يحب الدراسة والتحليل والمشاركة ، ولا يقنع بدور المتفرج أو الواعظ الأجوف ، فقد آثر أن يكون فنانا منتميا . أن يكون مطرودا أومنبوذا من المجتمع فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن يحنى رأسه أو يخضع لأفكار بالية . لقد اختار أن يكون مصور الكادحين ، مصور العمال والفلاحين . وصوب عينيه على أكثر الطبقات بؤسا ، على أولئك المعذبين الهائمين بآلامهم وكوابيسهم ، وراح يعبر باللون والكلمة عن مأساة وجودهم الإنساني الغارق في مستنقع البؤس ، وكم كان يأمل أن يأخذ بيدهم من الظلمات الى النور .

ونظرا لارتباطه الشديد بالحياة ، وايمانه الراسخ بأن الانسان هو أهم وأثمن ما في الوجود ، فقد أضفى فنسان على الفن مهمة اجتماعية هى : ضرورة أن يكون في خدمة الشعب ، وفي متناول الجهاهير ، وأصبح يقع على الفن \_ في نظره \_ مهمة تنوير العالم بنور خاص به ، كها تقع على الفنان مهمة ابراز الواقع المعاصر للناس المحيطين به بهدف يرمى الى التحسين والتطور والرقى . وبمحاولة تطبيق افكاره هذه ، حاول فنسان انشاء مجمع فني يعمل فيه الفنانون معا ، متقاسمين التبعات والمكاسب ، كها حاول نشر أعهال الفنانين التأثيريين الذين كانوا \_ في نظره \_ مبعدين بغير حق ، ويعيشون تحت وطأة ضغط تجار الملوحات واستثهاراتهم .

وكانت النتيجة كالعادة: اتهاما جديدا بالجنون حتى من قبل أولئك الذين كانوا سيستتفيدون من هذه المشاريع. وادى به الانعزال الذاق الذى فرضه على نفسه الى التخلى الكامل عن ذاته والزهد فى كل شيء، ذلك التخلى الزاهد الذى وصل به الى النهاية المحتومة. لمن افنته الحياة فأراد أن يفنيها فى ذاته ، أملا فى خلاص جديد حيث الفناء فى الله!

لقد كان فنسان ، الشديد الانسانية ، ضحية من ضحايا الصراع الطبقى ، ومع ذلك لم يتهم أحدا أو يدينه : لقد تقبل كل المآمى التى فرضها عليه المجتمع بكل رحابة صدر . ونظرا لحبه المتأصل للغير فقد اعطى نفسه للآخرين بلا تحفظ وحاول دائها أن يكون مفيدا فيها هو جوهرى عميق ، مسيطرا على نفسه وانفعالاته حتى يخدم الآخرين بوسيلة أفضل . وقبع فنسان في ذلك الخير الوحيدالمسموحله به ، الا وهو الفن ، تلك المنطقة التى تمس الفنان والخلق \_ بما أن الجانب الاجتماعى قد أوصد في وجهه الى غير رجعه . . وهكذا توصل فنسان إلى تحقيق ذاته بالصمت الرهيب الذي كان يدفعه الى مزيد من التأمل والرضا . .

لقد كان فنسان بالفعل سيد رؤياه . فكان يرقب تطوره انطلاقا من ادراكه المعنوى ، محاولا تطبيق جوهر كينونة الموضوعات الدبنية أو التصوفية وبفضل رؤياه وتجلياته ، تخطى عصره بفكره الدينى الانسان وفهمه الشفيف المضىء للواقع الاجتهاعى ، بجانب جلاء بصيرته التشكيلية الوضاءة الوهج بألوانها المتألقة . فتوغل في الأعهاق الحقيقية لمعنى الكون ، وادخل حركة ورجفة ذبذبة الحياة في لوحاته . .

مما جعله \_ بحق \_ يعد فنانا تعبيريا ذا رؤى تلامس ما وراء الواقع قبل سواه . .

لقد كان يحاول البحث بدأب ، وتوصل الى العثور على توافقات متناغمة بين اللونية
والروحية . ووصل الى حافة تلك المناطق الاثيرية التى تحدد اتحاد الروح الانسانية
بالله ، ليلامس غموض الخلق والابداع .

وكان الله ، بصفته الحب المطلق ومنبع النور ، يمثل القوى العليا التي حاول التوحد بها . . وبتوحده باللهيب الأزلى ، امتزج فنسان باحتراقه ليضيء الانسانية جماء . .

أدرو علينا في أن والتناف بي بالاسر

# ثبت زمانی

۱۸۱۹ ــ ۱۰ سبتمبر : مولد أنّا ــ كورنليا كار بنتوس ، ابنة أحد مجلدى البلاط فى لاهاى ، والتى ستصبح والدة فنسان فيها بعد .

۱۸۲۲ ــ ۸ فبرایر : مولد تیودور قان جوخ ، من سلالة ممتدة من القسس والصیاغ ، والذی سیصبح والد فنسان فیها بعد .

١٨٢٤ \_ انتصار الرومانسية في صالون الفن

\_ مولد مونتيتشللي ؛ وجوزيف اسرائيل

١٨٢٥ \_ مولد جوليان تانجي ؛ وفاة الفنان دافيد

١٨٢٧ \_ مولد جول بريتون .

١٨٢٨ \_ مولد الطبيب بول \_ فرديناند جاشيه

١٨٣٨ ــ مولد أنطون موڤ

٠ ٨٤٨ ـ مولد بولد جوجان

١٨٤٩ ــتم تعيين تيودور قان جوخ راعيا للكنيسة في جروت زوندرت

\_ أول معرض للرفائليين

١٨٥٠ \_ وفاة بلزاك \_ مولد لوق

۱۸۵۱ ـ مايو: زواج القس تيودور قان جوخ من أناً كورنليا كاربنتوس ـ وفاة المصور الانجليزي تريز

١٨٥٢ ــ ٣٠ مارس : مولد أول طفل لأل ڤان جوخ ووفاته بعد ستة أسابيع

۱۸۵۳ \_ ۳۰ مارس : مولد فنسان قان جوخ

١٨٥٤ ـ مولد الشاعر رامبو

١٨٥٦ \_ التأملات لفيكتور هيجو ؛ مدام بوڤارى لجو ستاف فلوبير

۱۸۵۷ ــ ۱۱ مايو: ولد تيودور ڤان جوخ(تيو). وسترزق الاسرة باربعة أطفال آخرين: ولد آخر يدعى كور، وثلاث بنات: أنّا واليزابيث هويرتا وفيلهلمين.

وفاة الشاعر الفريد دى موسيه

۱۸۵۸ ــ مولد ڤان رابار : وجون راسل

١٨٥٩ ــ ملحمة القرون لفيكتور هيجو

۱۸٦٢ - أواثل الرسومات التي تم العثور عليها لفنسان البؤساء لفيكتور هيجو

١٨٦٣ ـ صالون المنبوذين . وفاة أوجين ديلاكروا . مولد بول سينياك .

١٨٦٤ ـ أكتوبر : تعيين فنسان في ملجأ جان بروڤيلي في زڤنبرخن

ــ مولد الفنان تولوز لوتربك

١٨٦٥ \_ مولد الطبيب فليكس رى

۱۸۲۹ - ۳۰ یولیو ؛ تعیین فنسان ، بواسطة عمه ، فی أحد أفرع قاعات عرض جوبیل فی لاهای .

۱۸۷۱ ــ ۲۹ يناير ؛ أسرة فان جوخ تغادر زوندرت لتستقر في هلڤوار حيث تم تعيين الأب في وظيفة راع للكنيسة هناك .

١٨٧٢ ـ أغسطس : فنسان يمضي الأجازة في اويسترفايك قرب هلڤوار .

\_ بداية المراسلات مع تيو الذي كان يدرس في اويسترفايك

۱۸۷۳ ـ يناير : تعيين تيو كموظف في دار جوبيل بفرع بروكسل

ـ مايو؛ نقل فنسان الى فرع لندن

\_ سبتمبر: حب فنسان لأورسول لواييه ، ابنة صاحبة البنسيون الذي يقطن فيه .

١٨٧٤ يوليو: أورسول ترفض الارتباط بفنسان

ابريل ــ مايو ؛ اطلاق اسم ( التأثيريين ) سخرية على الفنانين الذين
 اقاموا أول معرض جماعى لهم عند المصور الفوتوغرافي نادار .

\_ وفاة ميشليه

۱۸۷۵ ـ مايو : اعتبار فنسان كموظف سيء بسبب موقفه الأمين مع العملاء ونقله
 الى باريس .

ـ بداية تصوفه .

١٨٧٦ ــ مارس: مدير ومؤسسة جوبيل يفرضون الاستقالة على فنسان.

\_ أبريل: فنسان يقبل منصب مدرس في احدى المدارس الداخلية ببلدة رامسجیت التی پدیرها أسقف انجلیزی قاس هو السید ستروکس \_ يونيو : السيد ستروكس ينقل مدرسته الى آيلورث في ضاحية لندن التي يذهب إليها فنسان سيرا على الاقدام . اكتشافه لبؤس الناس في إيست إند وفقرهم المدقع .

 يوليو : السيد ستروكس يطرد فنسان الذى لم يستطع جمع اية نقود من أولئك المعدمين.

\_ دخوله في خدمة احد القسس البروتستانت كمساعد مبشر للسيد جونس .

\_ ديسمبر: السيد جونس يفصل فنسان الذي صدمه بعمل مقارنات في خطبه بين نص الانجيل واحدى اللوحات!

ــ ثاني معرض للتأثيريين

١٨٧٧ ــ تعيين فنسان كبائع في مكتبة بلوسيه وڤان برام في دوردرخت . لكن سرعان ماتم فصله بسبب قراءاته الاشتراكية ومناداته بوحدة المذاهب المسحية .

 مايو : وصول فنسان إلى امستردام بغية الاستعداد لامتحان قبول كلية اللاهوت في الجامعة . اقامته عند عمه جان مدير احد الترسانات البحرية . اكتشاف فنسان لفقر طبقة العمال وبؤسهم .

\_ اقامة ثالث معرض للتأثيريين .

١٨٧٨ ــ يوليو : فنسان يوقف دراسته اللاهوتية لاحباطه من الجو العام لرجال الدين ومغادرته أمستردام.

\_ أغسطس: قبول فنسان لمدة ثلاثة أشهر في مدرسة تبشير عملية في

 ديسمبر: نظرا لعدم تعيينه في هذه المدرسة. فقد سافر على نفقته الى منطقة بوريناج واقام في ضاحية باتوراج متخذا من المسيح مثله الأعلى مطبقا كلماته بحذافيرها: ومن الظلمات الى النور.

١٨٧٩ : يناير : لجنة القسس تعينه لمدة سنة أشهر في بلدة قام لابعاده . قيامه بالتدريس للأطفال ورعاية المرضى وتعليم العمال مبادىء الاشتراكية اشتراكه في اضرابات عمال المناجم حتى أصبح زعيها لهم . لجنة القسس

تستبعده بحجة سوء اسلوبه فى المواعظ واهمال مظهره الخارجى ! بينها قام مديرو شركة المناجم باتهامه بالجنون وتهديده بالحجر عليه فى مستشفى المجانين إن لم يكف عن هذه التصرفات . .

المجانين

- أغسطس: ذهاب فنسان الى كويم ليستكمل مهمة التبشير بصفة شخصية تم كرس نفسه للرسم.

 ۱۸۸۰ - سفر فنسان سيرًا الى كوريير طلبا لمعاونة الفنان جول بريتون - لكن منظر المرسم غير المشجع منعه من الدخول

ــ أكتوبر : مغادرة فنسان لبلدة كويم ورحيله الى بروكسل

ـ وفاة جوستاف فلوبير

ابريل : وصول فنسان الى إيتن ثم سفره إلى لاهاى عند ابن عمه انطون
 موق الذى قدم له بعض النصائح فى فن التصوير . حبه العارم لابنة خاله
 كى . تجربة النار والرفض المفروض . .

ـ ديسمبر: القس تيودور ڤان جوخ يطرد ابنه فنسان من المنزل.

۱۸۸۲ ـ يناير : فنسان يلتقى بكريستين (بغى حامل) وحاول معاونتها على الخلاص من وضعها .

- فنسان يقطع صلته بتقليديات العالم البورجوازي ليعلن انتهاءه الى الطبقة العاملة .

\_ أغسطس : القس ڤان جوخ واسرته يغادرون اِيتن ويستقرون في نونن حيث تم تعيينه

- أول اتفاق بين تيو وفنسان ينص على مساعدة تيو المالية مقابل كافة اعمال فنسان .

۱۸۸۳ ـ سبتمبر : تيو ينجح في التفرقة بين فنسان وكريستين . رحيل فنسان الى دارنت .

ديسمبر: عودة فنسان الى حظيرة الأسرة للاقلال من نفقات تيو، تردد
 اهله فى قبوله ومعاملته ككلب ضال ..

١٨٨٤ ـ اغسطس : آخر شعاع حب في حياة فنسان : مارجو بخمان .

ـ فنسان يعطى دروسا في الرسم وفن التصوير

ــ ثانى اتفاق بين تيو وفنسان يحدد مبلغ مائة وخمسين فرنكا من تيو مقابل

كافة اعيال فنسان، يتلقاها على ثلاث دفعات شهريا.

١٨٨٥ ـ ٢٦ مارس: وفاة القس تيودور ڤان جوخ

\_ فنسان يدرس عالم عمال النسيج ويصوره

\_ اختلاف القس الجديد مع فنسان لأفكاره التقدمية ومنعه الفلاحين من الجلوس أمامه ليصورهم .

\_ فئسان يغادر نونن ، وقد طردته أخواته عقب مشاجرة تتعلق بتوزيع تركه والدهم

\_ نوفمبر: رحيل فنسان الى انڤرس واكتشافه للنور والألوان الفاتحة .

\_ وفاة فيكتور هيجو .

\_ رواية جرمينال لإميل زولا .

1۸۸٦ ـ يناير: قيد فنسان في الأكاديمية وعمله تحت قيادة ڤرلا الذي سرعان ماطرده

\_ مارس: وصول فنسان الى باريس واقامته مع تيو.

\_ متابعته لللروس في مرسم كورمون وتوقفه بعد ثلاثة أشهر

\_ اكتشافه التأثيريين ومحاولته لنشر أعهالهم. مشروع المجمع الفنى

\_ وفاة مونتيتشللي .

۱۸۸۷ ــ اختلاط فنسان بمحل الأب تانجى ورفضه اعتبار التأثيرين كنهاية لتطور فن التصوير .

\_ مغامرة فنسان وتيو المشتركة مع سيجارتوري صاحبة كباريه لي تمبوران

١٨٨٨ - فبراير: رحيل فنسان الى آرل. مشروع مؤسسة الفنائين

\_ مايو : فنسان يستأجر البيت الأصفر الذي اراد أن يكون بيتا من نور

ـ أكتوبر: وصول جوجان

ـ ٢٣ ديسمبر: مأساة الأذن المقطوعة وهرب جوجان.

\_ تيو يعرض ثلاث لوحات من أعهال فنسان مع الفنانين المستقلين .

\_ وفاة انطون موف .

۱۸۸۹ – ۱۹ مارس : الحجر على فنسان واحتجازه بناء على الطلب الذى تقدم به سكان آرل .

\_ زيارة سيبياك تثبت لتيو أن حالة فنسان الصحية طبيعية .

ابریل: زواج تیو من جوانا بونیجیه

- ٨ مايو ؛ بداية العزل الثانى لفنسان في سان ريمى . تجلياته في فن
   التصوير
  - \_ عرض لوحتين من أعمال فنسان في معرض المستقلين.
    - ١٨٩٠ ـ يناير : أول مقال حول اعهال فنسان بقلم البير أورييه
      - \_ أول فبراير ؛ مولد ابن تيو وتسميته فنسان
- \_ ١٧ مايو : وصول فنسان الى باريس واكتشافه أن لوحاته مخزونه عند الاب تانيج دفى جحر بق ، .
- \_ ٢١ مايو : بداية اقامة فنسان في اوڤير سور واز حيث كان يصور بواقع لُوحة في اليوم
- 7 يوليو: يوم الأحد الحزين الذي أمضاه فنسان في باريس واكتشافه لواقع منزل تبو. نقاشهما حول المبلغ الذي يدفعه تيو وحول تنشئة الطفل.
- \_ ٢٧ يوليو : اذ لم يجد اى امكانية لتسديد ديونه لتيو فقد وعد فنسان أن ينفع هذا الدين أو يسلم الروح . . وانهى حياته بطلقة مسدس .
- \_ ٢٩ يوليو: وفاة فنسان في الساعة الواحدة والنصف صباحا، دون الحصول على أى اسعاف طبى طوال هذين اليومين الذي أمتد احتجازه خلالها!!
- \_ جوجان ينصح اميل برنار بالعدول عن تنظيم معرض لأعمال قان جوخ لأنه من العته عرض أعمال أحد المجانين !
- ١٨٩١ ــ ٢٥ يناير : وفاة تيو في هولندا بعد محلولة تحقيق مشاريع فنسان .
- عمل معرض شامل اللوحات فنسان في قاعة الفنانين المستقلين .
- ١٩٠ ــبداية ارتفاع اسعار لوحات فنسان وتزايد بحث المشترين لإقتنائها .
  - ١٩١٤ ـ بداية نسج اسطورة وتيو فنسان،
- السيدة جوانا بونچيه بعد ترملها للمرة الثانية تقوم بنشر خطابات فنسان الى أخيه تيو في امستردام ، مع القيام بعديد من الحذف والاستبعاد .
- ـ نقل السيدة جوانا لرفات زوجها السابق تيو من هولندا الى اوڤير سور واز بفرنسا كها تم نقل رفات فنسان من تربته الاصلية الى مكان أفضل ليرقد الشقيقان متجاورين كها تقول الاسطورة . . .

### كثف المراجع

#### ببليوغرافيات خاصة بفنسان

MATTOON BROOKS, Charles: incent van Gogh, Bibliography comprising a catalogue of the literature published from 1890 to 1940. (777 nos), New York, 1942.

PREEUCHOT, Genri: La vie de Vincent van Gogh, Paris, Hachette, 1955 (comprend une bibliographie selectionnée jusqu'en 1954) (seconde édition: 1966).

#### طبعات المراسلات

- Correspondance Complète de Vincent van Gogh, enrichie de tous les dessins originaux; traduction de M. BEERBLOCK et L. ROELANDT, introduction et notes de G. CHARENSOL; 3 volumes, France, Gallimard/Grassed, 1960.
- La Correspondance Complète, en 4 vol. Verzamel de Brieven van Vicent Van Gogh a paru a Amsterdam, Wereld-Bibliotheek, 1952-1955.
- Les lettres à son frère Théo (652) ont été publiée par zijn broeder, Amsterdam, 1914 (seconde edition: 1924).
- Lettres de Vincent van Gogh à son frère Théo, choix de lettres françaises originales et de lettres traduites du hollandais par Georges Philippart, notice biographique par Charles Terrace, Paris, 1937.
- Lettres de Vincent van Gogh à son frère Théo, traduction de Louis Rolandt, préface de Marcel Arland, -Paris, 1953.

- Extraits dans le Mercure de France, Paris, août, septembre, octobre, novembre, 1893, janvier, mars, juillet, septembre, 1894, février 1895, aout 1897.
- Lettres de van Gogh à Emike Bernad (21), publiées par Vollard, Paris, 1911; et Bruxelles, 1942.
- Lettes de van GoghGauguin... à Émile Bernard, Tonnerre, 1926; Bruxelles, 1942. Extraits dans lo Mercure de France, Paris, avril, mai, juin et juillet, 183.
- Lettres de van Gogh à Van Reppart (58), Amsterdam, 1937; (une traduction anglasie avaint d'abord par à New York en 1936).
- Lettres de van Gogh à van Rappart, traduites (avec quelques coupures) par L. Roulandt, Paris, 1950.
- Lettres de van Gogh à sa mere (8), suivies de lettres à Gauguin et de lettres aux époux Ginoux traduction: L. Roulandt, préface: Henry Poulaille, Paris 1952.
- Quatre lettres à ses parents ont été publiées par L. Roulandt dans Documents inédits sur Vincent van Gogh, au Mercure de France, Paris, les juin 1952 (elles sont suivies d'une lettre de Théo à Vincent et des souvenirs de Minus Oostrijk, recueillis par Godfried Bomans).
- Vincent van Gogh, lettres du Borinage, Amsterdam, Wereld Bibliotheek, 1958.
- Théo vn Gogh, lettres à son frère Vincent, Amesterdam, 1932, (elles sont suivies des lettres de Vincent à sa socur Will. plus divres témoignages).

#### كتالوجات

- LA FALLE, J.B. de: L'Oeure de Vincent van Gogh, Catalogue raisonné, 4 vol. Paris-Bruxelles, Van Dest, 1928. Nouvelle édition pour la pointure seule avec introduction par Charles Terrasse, Paris, Hyperion, 1939.
- SCHERJON, W.: Catalogue des tableaux par Vincent van Gogh décrits dans ses lettres (St.-Rémt et Anvers) Utrecht, 1932.
- SCHERON, W. and GRUYTER, W. de: Vincent van Gogh's Great Period, Amsterdam, de Spioghel, 1937.
- VANBESELAERE, W.: Catalogue de la Période Hollandeise Anvers, de Sikkel, 1938.

Parmi les catalogues d'expositions les plus importants ou plus récents:

- An exhibition of painting and drawing: V.V.G. 1853-1890. Forward: Philip James, texte: Roger Fry, introduction: Hammacher, Great Britain, The Art Coucil, 1947.
- Catalogue de l'exposition van Gogh par René Huygue, dans L'Amour de L'Art (numéro spécial), avril, 1937.
- Cent dessns du Musée Krëller-Muller; text R.W.D. Oxenaar, introduction: Sadi de Goter, Paris, Institut Néerlandais, 1972.
- Les sources d'inspirations de Vincent van Gogh, gravures, estampes, livres, lettres, av. propos: Sadi de Gorter, introduction Dr. V.W. van Gogh, Paris, expostion du 31 janvier- 5 mars 1972.
- Vincent van Gogh dessinateur, introduction: SAdo de Gorter, text: Dr. V.W. van Gogh& A.M. Hamma cher, Paris, Institut Néerlandais, 28 janvier- 20 mars 1966.
- Vincent van Gogh, intruction: Helène Adhémar, texte: Dr.
   V.W. van Gogh, Paris, Orangerie des Tuileries 21 décembre 1971-10 acril 1972.

#### دراسات عن فنسان

- ARTAUD, Antonin: Van Gogh, le suicidé de la sociéte, Parsi, Kéditeur, 1947.
- BEER, Jochim: Du démon de van Gogh, Nice, A.D.I.A., éd., 1945.
- BEER, Joachim: Essai sur les rapports de l'art et de la maladie de Vincent van Gogh, Strasbourg, 1935 (those de doctorat).
- BURKW, Dan: Van Gogh, London, Constable &— Co., 1938 (pièce en six scenes).
- CATESSON, Jean: Considérations sur la folie de van Gogh, Paris, 1943 (these de Médecine).
- COLIN, Paul Emile: Vincent van Gogh, Paris, Maîtres de l'Art Moderne, 1925.
- COQUIOT, Gustave: La soilitude de van Gogh, Paris, Ollendorf, 1921.
- COQUIOT, Gustavew: Vincent van Gogh, paris, 1923.
- COURTHION, Pierre: Van Gogh, ses cont emprains, sa postérité, Lausanne, Pierre Cailler, 1947.
- DOITEAU & LERDY: La folie de Vincent van Gogh, Paris, 1928.
- DUYRET, Théodore: Van Gogh, Paris, 1924.
- DUTHUIT, Georges: Van Gogh, Lausanne, 1948.
- ELGAR, Frank: Van Gogh, Paris, F. Hazan, 1958.
- ESTIENNE, Charles: Van Gogh, Genève, Skira, 1953.
- FELS, Florent: Vincent van Gogh, Paris, 1928.
- FLERENS, Paul: van Gogh, Paris, éd, Braun, 1947.
- FLORISOONE, Michel: van Gogh, Paris, éd. Plon, 1937.

- GACHET, Paul: Deux amis des impressionnistes, le Dr. Gachet et Murer, Paris, éd. des Musées Nationaux, 1956.
- GACHET, Paul: Van Gogh et les peintres d'Anvers-sur-Oise, Paris, 1954.
- -GENAILLE, Robert: Van Gogh, autoportraits, Paris, F. Hazan, 1963.
- GOLDWATER, robert: Vincent van Gogh, London, Harry Abrams, 1954.
- GRAPPE, Georges: van Gogh, Paris, Skira, 1941.
- GRUYER, W. Jos de &— ANDRIESSE, Emmy: Ce monde de van Gogh, Paris, Tisné, 1953.
- HAMMACHAR, Arno: Van Gogh, Paris, 1967.
- HAVELAAR, Just: Vincent van Gogh, Zurich, Rascher, 1920 (seconde édition: Amsterdam, 1929).
- HULSKER, Dr. J.: Qui était Vincent van Gogh, La Haye, Bert BAkker, 1963.
- HUYGHE, René, Van Gogh, Paris, Flammarion, 1967.
- JEDDING, Herman: van Gogh, Italie, 1969.
- KERSSEMAKERS: Herinneringen aan van Gogh, dans: De Amsterdammer, Amsterdam, 14 et 21 avri 1912.
- LA FAILLE, J.B. de: L'époque française de van Gogh, Paris, Bernheim Jeune, 1927.
- LEPROHON, Pierre: Tel fut van Gogh, Paris, 1964.
- LEYMARIE, Jean: Qui était van Gogh, Genève, 1968.
- LEYMARIE, Jean: van Gogh, Paris, P. Tisné, 1951.
- MALINGUE, M. & JARDOT, A.: van Gogh, Paris 1943.
- MAROIS, Pierre: Le secret de van Gogh, Paris, 1957.
- MAROIS, Pieere: Van Gogh ou l'indentité perdue, Paris, Albin Michel, 1947.
- MARTINI, Alberto: van Gogh, Paris, 1966.
- MASINI, Lara: van Gogh, Paris, Flammarion, 1968.
- MAURON, Charles: Vincent et Théo van Gogh, une symbiose, Amsterfdam, 1953.
- MEIER- GRAEFE, Julius: Vincent van Gogh (2 vol.), Munchen, R. Piper & Co., 1922. La traduction en anglais a été faite par L. Holroyde-Reece: A life of Vincent van Gogh, London, 1936.

- MEIER- GRAEFE: Vincent van Gogh, ou le roman de celui qui cherchait Dieu, Paris, Albin Michel, 1964.
- MIRBEAU, Octave: Vincent van Gogh, Paris, Flammarion, 1924.
- MUENSTENBERGER, W.: Vincent van Gogh, dessins, pastels, études, Paris-Bussum, Hollande, 1948.
- PACH, Walter: Vincent van Gogh, A study of the artist and his work, in relation to his time, New York, Art Book Museum, 1936.
- PERRUCHOT, Henri: La vie van Gogh, Paris, Hachette, 1955 (seconde édition: 1966).
- PIERARD La Vie tragique de Vincent van Gogh, Paris, Cres, 1924 (seconde édition: Paris, Corréa, 1946).
- ROELANDT, Louis: Vincent van Gogh et son frère Théo, Paris, Flammarion, 1957.
- ROSSET, Anne-Marie: van Gogh, Paris, Tisné, 1941 (seconde édition: 1946).
- SCHERJON, W.: Les autoportraits de Vincent van Gogh, Paris, 1929.
- SCHMIDT, G. Van Gogh, Berne, 1948.
- SHAPIRO, Meyer: Vincent van Gogh, New York, 1950.
- STOKVIS, Venno: Nasporigon amtrent Vincent van Gogh in Brabant, Leiden-Amsterdan, 1926.
- STONE, Irving: La vie passionnée de van Gogh, Paris, Flammarion, 1938.
- TE/SSE, Charles: van Gogh, Paris, Floury, 1938.
- THURLER, Jean: A propos de Vincent van Gogh, Genève, 'Imprimerie Cntrale, 1927 (these de doctorat en Médecine).
- TRALBAUT, Marce-Eddo: Vincent van Gogh, Paris, 1960. \*
- TRALBAUT, Marc-Eddo: van Gogh, le mal-aimé, Lausanne, Edita, 1969.
- UHDE, Wilhelm: Vincent van Gogh, Great Britain, Phaidon Press, 1941.
- VALSECCHI, M.; van Gogh, Milano, 1957.
- WELSBACH: Vincent van Gogh, Bâle, 1949.
- WERTH, Léon: Vincent van Gogh, dans Quelques Peintres, Paris, Cres, 1923.

### مقالات جرائد أو مجلات

- ADAMOV, Arthur: Van Gogh et le drame de la conscience modrene dans Comoedis, Paris, 25 avril 1937.
- AURIER, Albert: Les isolés: Vincent van Gogh, dans Mercure de France, Paris, janvier 1890.
- BATAILLE, Georges: La mutilation sacrificielle de l'oreille coupée dans Documents, Paris, aout 1930.
- BATAILLE, Georges: Van Gogh Prométhée, dans Verve, Paris, décembre 1937.
- BEER, François-Joachim: Notes sur la maladie de van Gogh dans Psyché, Paris, Mars 1947.
- BERNARD, E,ile: Souvenirs sur van Gogh, dans l'Amour de l'Art, Paris, décembre 1924.
- BERNARD, Emile: Vincent van Gogh, dans La Plume, Paris, Ler septembre 1891.
- BERK de TURIQUE, Marcelle: van Gogh, une fois de plus dans Arts, Paris, 25 juillet 1947.
- BIDOU, Henry: La vie tragique de Vincent van Gogh, dans Les Annales Politiques et Litteraires, Paris, 12 octobre 1924.
- BOCQUET, Léon: Existences tragiques, dans Revue Poilitique et Littéraire, Paris, septembre 1938.
- BOUDAILLE, Georges: ... van Gogh dans Lettres Françaises, Paris, 29 déc. 1971-4 janv. 1972.
- CABANNE, Pierre: A-t-on tué van Gogh? dans Jardin des Arts, Paris, Janvier 1971.
- CHASTEL, André: van Gogh, les magazines et la littérayure, dans Le Mond, Paris, 8 mars 1972.

- CHEVALIER, Denys: Soutine et van Gogh, dans Arts, Paris, 2 mars 1945.
- DESCARGUES, Pierre: Bonjour, monsieur van Gogh, dans les Lettres Françaises, Paris, 29 dec. 71-4 janv. 1972.
- DESCARGUS Pierre: Une nouvelle maladie des peintres: La van gotheite dans Arts, Paris, 11 mars 1949.
- DOITEAU, Victor: Deux copains inconnus, les frères Secrétan dans Aesculape, Paris, mars 1957.
- DOITEAU, Victor: La folie de van Gogh, dans Aesculape, juillet 1928.
- DOITEAU, Victor: Vincent van Gogh et le drame de l'oreille coupée dans Aesculape, Paris, juillet 1936.
- DUTHUIT, Georges: Le drame des Alyscamps dans l'Amour de l'art, Paris, Aout 1927.
- FLORISOONE, Michel: van Gogh et les peintres d'Auvers chez le Dr. Cacht dans l'Amour de l'Art, Paris, septembre 1952.
- GACHET, Paul: Les médecins de Théodore et Vincent van Gogh dans Aesculape, Paris, mars 1957.
- GERIN, Louis: Vincent van Gogh au Borinage, dans Beaux-Arts, Paris, 26 mai 1939.
- GYBAL, André: Non, Van Gogh n'était pas fou quand il peignait, dans Psyché, mars 1947.
- HERTZ, Henri: Témoignages et arguments de van Gogh, dans l'Amour de l'Art, Paris, juillet 1922.
- HUYGHE, René: Vincent van Gogh dans l'Illustration, Paris, No. de Nobel, 1937.
- LACOSTE, Michel Conil: La collection de la Fondation van Gogh une derniere fois de Hollande. dans le Monde, Paris, 29 decembre 1971.
- LEROY, Edgar: Le séjour de van Gogh à l'Asile Saint-Rémy, dans Aesculape, Paris, Juin, Juillet et Aout 1926.
- LUX, Joseph Auguste: Van Gogh, dans la Revue Politique et Littéraire, Paris, 23 septembre 1911.
- MAURON, Charles: Notes sur la structure de l'inconscient chez Vincent van Gogh, dans Psyche, Paris, 1953.

- MEERLOO, Dr. Joost: van Gogh Quest for Identity dans Abbottempo, Book 3, 1966.
- MINLOWSKA, Françoise: Van Gogh, sa vie, sa maladie, son oeuvre dans l'Evolution Psychiatrique, Paris, janvier 1932.
- MONACCJIA, J.N.: Vincent van Gpgh ou la fureur de vivre dans Le Massalia, Marxeille, 18 avril 1957.
- NOEL, Frederic: van Gogh était-il fou? dans les Lettres Françaises, Paris, 22 novembre 1946.
- NOUVELLES LITTERAIRES (Special van Gogh), Paris, 24 décembre 1971-2 janvie 1972; y ont participé:

CHARENSOL, G.: La découverte de la lumière.

DELAVEZE, J.: L'itineraire de dixan.

fouchet, M.-P.: Vincent, le feu.

GORTER, S. de: Un evangeliste devenu peintre.

VAN GOGH, V.: Vincent van Gogh, par son neveu.

- PERRUCHOT, Henri: van Gogh, pélerin de l'absolu, dans Arts, Paris, 1959 (No. 736).
- PITROU, Bobtert: Rilke et van Gogh dans Revue de littérature Comparée, Paris, jabvier-mars 1947.
- POULAIIIE, Henry: La fin d'une légend: van Gogh et les sions, dans l'Information artistique, Paris, juil. 55.
- REWALD, John: Précision sur van Gogh, dans l'Amour de de l'Art, Paris, juillet 1936.
- REWALI, John: van Gogh en Provence, dans l'Amour de l'Art, Paris, octobre 1936.
- ROGER, MARX, Claude: Le dessin de van (ogh), dans Le Figaro, Paris, 20 décembre 1971.
- ROGER, MARX, Claude: Les dessins de van Gogh, dans les Annales Polatiques et Littéraires, Paris, 15 juillet 1928.
- SERULLIZ, Maurice: van Gogh et Millet dans Etudes d'Arts, lger, Musée National des Beaux-Arts, mai 1950.
- STHINERC, Alain: Réflections sur une exposition van Gogh Jans
   La Vie Intellectuelle, Paris, ed. du Cerf, mai 1947.
- THANNHAUSER, H.: Vincent van Gogh et John Russell, dans l'Amour de l'Art, Paris, septembre 1938.
- TRALBAUT, Marc-Eddo: Nouveaux apports concernant sa

santé, sa maladie et sa mort, dans Aescula-e, Paris, décembre 1957 (No. special, un seul article).

- VINCHON, Jean: Hommes et paysages, témoins de Vincent van Gogh, dans Aesculape, Paris, mars 1957.
- WARNOD, André: Vincent van Gogh, dans Annales Politiques et Littéraires, Paris 10 février 1935,
- WARNOD, Janine: La collection du frère de van Gogh prend le chemin de l'Orangerie, dans le Figaro littéraire, Paris, 17 decembre 1971.

## كتب نقد ومراجع عامة

- ADLER, Alfred: Comaissance de l'homme, Paris, Psyot, 1949.
- BACHELARD, Gaston: Psychanalyse du feu, Paris, Gallimard, 1949.
- BARUK, Henri: Psychoses et névroses, Paris, P.U.F., 1965.
- BAUMANN, E,ile: Saint Paul, Paris, grasset, 1925.
- BOISSET, Jean: F istoire du Protestantisme, Paris, P.U.F., 1970.
- BOISSET, Jean: Les Chrétiens séparés de Rome, de Luther à nos jour., Paris, P.U.F., 1970.
- BRION, Marcel: L'œil, l'esprit et la main du peintre, Paris, Plon, 1966.
- BURIAND, Albert: De la psychanalyse à la philosophie,
- CARREL, Alexis: L'Homme cet inconnu, Paris, Plon, 1938.
- CASTELLAN, Yvonne: Le Spiritisme, Paris, P.U.F., 1965.
- CHEDEL, A.: Vers un humanisme cosmique, Genève, Perret-Gentil, 1965.
- DELANNE, Gabriel: Le Spiritisme devant la scoience, Paris, Jean Mayer, 1927.
- DENIS, Léon: Après la mort, Paris, Jean-Meywe.
- DENIS, Maurice: Théories (1890-1910), Paris, 1912.
- DURKHEIM, Emile: Le Suicide, Paris, P.U.F., 1969.
- FAIRBANKS, Margaret: Flower painting by teh Great Masters, New York, Harry Abrams, 1954.
- FLAMMARION, Camille: Les forces naturelles inconnues, Paris, Flammarion, 1921.

- GARAUDY, Roger: Humanisme marxiste, Paris, èd, sociales, 1957.
- GAUGUIN, Paul: Lettres à Emile Bernard, Paris, Cailler, 1954.
- GODEL, R.: De l'humanisme à l'humain, Paris, Les Belles Lettres, 1963.
- HEIDEGGER, M.: Lettres sur l'humanisme, Paris, Aubier, 1964.
- HERAIN, F. de: Peintres et sculpteurs écrivains d'art, de Léonard à van Gogh, Paris, Nouvelles Editions Latines.
- JASPERS, Karl: Nietzsche, Introduction à sa pphilosophie, Paris, Gallimard, 1950.
- KARDE, Alain: La livre des esprits, Paris, Griffon d'or, 1947.
- LACOSTR, E.: Essais et réflexions d'humaisme, Paris, Girard.
- LE GUILLOU, M.J.: Un nouvel âge oecuménique, Paris. éd. du Oenturion, 1966.
- LETHEVE, Jacques: La vie quotidienne des artistes fraçais au XIXÈ sidecle, Paris, Hachette, 1968.
- LHERMITTE, Dr. Jean: Mystiques et faux mystiques, Paris, Bloud & Gay, 1952.
- MARCEL, Gabriel: La dignité humaine, Paris, Aubier, 1964.
- MARCEL, Gabriel: Les hommes entre l'humain, Paris, éd. du Vieux Colombier, 1951.
- MARITAIN, Jacques: Humanisme intégral, Paris, Aubier, 1936.
- MONCHANIN, J.: De l'esthétique à la mystique, Paris, Casterman, 1955.
- NATHAN, Fernand: Les grands maîtres hollandais, Paris, 1950.
- NIETZSCHE, Frédéric: Humain, trop humain (2 vol.), Paris,
   Mercure de France, MCMX.
- RICHET, Charles: Traoité de métapsychique, Paris, Alcan, 1923.
- ROGER-MARX, Claude: Maitres di XIXE et du XXE siècle, Genève, Pierre Cailler, 1954.
- SCHNIDER, Daniel: The Psychoanalyst and the artist, New York, Mentor Book, 1962.
- 3PENLE, Jean-Edouard: Les grads maitres de l'humanisme c. rélien; préface: Caston Bachelard, Paris, Corréa, 1952.

- TISON-BRAUN, M.: La Crise de l'humanisme, Paris, Mizet.
- TREMONTANT, Claude: Enseignement de Ieschous de Nazareth, Paris, éd. du Seuil, 1970.
- ULMANN, André: L'Humanisme du XXE siècle, Paris, l'Enfant Poete, 1946.
- VINCHON, Jean: L'Art et la folie, Paris, Stock, 1924.
- VLAMINCK, Maurice: Le Ventre ouvert, Paris, Corréa, 1937.

time of the resident's considerable by the second contemporal of the property

Service areas, depth and interest process in a service of

## الفهرس

تمهيد: حول الطبعة الكاملة للمراسلات ٥
مقدمة : المراسلات عمل أدبي . قصة المراسلات ١٠
ما تكشف عنه . النزعة الانسانية عند فنسان .
فنسان أديبا وواصنا الطبيعة اسلوب فنسان كأديب .
فنسان ناقدا
الفصل الأول: اكتشاف المدينة ٤٤
من مرح الشباب الى النضج . الحياة عبر الفن والطبيعة والشع
تدين محتذيا إثر المسيح . فشل مفروض في تمجارة الفن . تفتح وعب
الاجتهاعي . الفكرة الاساسية : خدمة الفقراء اهتهام مزدوج
الفن والدين تكوين مفهوم فني
الفصل الثاني : رسالة لم تتم ۸۳
مظاهر وخبايا العالم . من الغربة الى الانتهاء التخلي عن خدمة الديو
بالاكراه . اتهامهبالجنون ومحاولة سجنه . الفن كملجأ أخير . تحاو
الفنون وتجاوبها
الفصل الثالث: المنبوذ دوما ٢٥
الحب العارم . الرفض . محنة النار . نظريته في الصراع : جرأ
ان يكون الانسان نفسه . كريستين ، ضد الحب ، تأكيا
فلسفته : المعاناة صمتا اختيار طبقة العمال ، وهدف لا يحيد
توصيل الفن الفقراء

لفصل الرابع: العصامي الحاثما
بحثا عن الحوار والتجاوب الانساني . عدم فهم تام من اهله
وخلافه من تيو . اتفاق مع تيو : النقود مقابل اللوحات . آخر
شعاع من الحب . الفنان المنتمى . بين اسطورة الانسان والنور .
التأثيريين . خيبة أمل . فكرة المجتمع الفني
لفصل الخامس : جنون أم حبا للغير ؟
البيت الأصفر بين من نور . مشروع طليعي . نشر اعمال
التأثيريين . وصول وهرب جوجان . فشل المجمع الفني .
مأساة الأذن المقطوعة . خلف القضيان . على حافة المناطق
الغامضة الخلق. تجليات الألوان. في لقاء مع الانسانية
YV9: ###
بت زمنی :
شف المراجع: ٢٩٢